شُعاعُ الفكر (1)

مقالات علميّة شرعيّة

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن التّميجي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين





شُعاعُ الفكر

(١)

مقالاتٌ علميّة شرعيّة

إبراهيم الدميجي





بسم الله الرحمن الرحيم





الفهرس









تمهيد

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، أظهر الحق بالحق وأخزى الأحزاب، وأتمَّ نوره، وجعل كيد الكافرين في تباب. أرسل الرياح بشرًى بين يدي رحمته وأجرى بفضله السحاب. وأشهد أن لا إله إلا الله العزيز الوهاب، الملك فوق كل الملوك ورب الأرباب، الحكم العدل يوم يُكشف عن ساق وتوضع الأنساب، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب. خلق الناس من آدم وخلق آدم من تراب، خلق الموت والحياة ليبلونا وإليه المآب، وأشهد أن نبينا محمدًا عبده ورسوله المستغفِر التواب، خُلُقه الكتاب، ورأيه الصواب، وقوله فصل الخطاب. قدوة الأمم، وقمة الهِمَم، ودرة المقربين والأحباب. أضاء الدنيا بسنته، وأنقذ الأمة بشفاعته، وملأ للمؤمنين براحته من حوضه الأكواب. اللهم صلِّ وسلِّم وبارك عليه وعلى الآل والأصحاب، ما هبّت الرياح بالبشرى وجرى بالخير السحاب، وكلما نبت من الأرض زرع، أو أينع ثمر وطاب.. ويا رَبِّ هَل إلاَّ عَلَيكَ المُعَوَّلُ.

أما بعد، فهذا كتاب جامع لجلّ مقالاتي المنشورة قسمته لقسمين:

الأول: مقالات علميّة شرعية.



الثاني: مقالات فكرية وأدبيّة.

وإن يسّر الله تبعتها كتب من قبيلها والله المستعان. وهذا هو الكتاب الأوّل، سائلًا ربي الكريم أن ينفع به، وأن يتقبّله، إنّ ربي قريب مجيب.

إبراهيم الدميجي

aldumaiji@gmail.com



تحريرُ مصطلحات عقدية شائعة

ما زالت - بحمد الله - للغة القرآن جادة يطرقها من رام الكلام في المعتقد، ذلك أن اللغة هي الوعاء للمعاني، والحبل الموصل للمعين الأصيل من الوحي الإلهي بشقيه؛ الكتّاب والسنة، فإن اختلت اللغة أو ضعفت أو حتى اشتبهت، لحق المحتوى بقدر ذلك في ذهن المُتلقِّي.

وكم دخل المبتدعة حصون السنة عن طريق اللغة، سواء بتقحّم الأدلة بعُجمة ككثير من أهل الكلام، أو بطبع أصول الديانة بطابعهم - عند أتباعهم - كما فعل المعتزلة، وهم قلة نسبة لعلماء السنة في العربية، ولم يصب من زعم خلافه.

وسأقف في هذا المقال إزاء نموذجين لقوالب لغوية مشهورة بين تدوينات وكلمات أهل العلم المعاصرين في مسائل المعتقد؛ الأول من جهة الاشتباه، والثاني من جهة الخطأ في المعنى والتصريف.. وهي قابلة للنقاش على كل حال لأنها من قبيل المصطلحات التي لا مشاحة فيها عند سلامتها معنى ومبنى.

الوقفة الأولى: تسمية توحيد العبادة بأسماء أخرى (ألوهية، إلاهية، عبودية) تسميةً صحيحة بلا تردّد، لا من حيث الاشتقاق ولا من حيث المعنى، لكن هناك ربكة ذهنية في فهوم طلبة العلم حيال ذلك، وقد لاحظتها فيهم ابتداءً من المراحل الابتدائية حتى ما بعد الجامعية!

فإذا سألت أحدهم عن الفروق بين توحيد الربوبية والألوهية، حار في الجواب! للاشتباه في الاشتقاق.

سبب ذلك أنه بطبيعته العربيّة سيعيد اللفظ تلقائياً إلى اشتقاقه ومصدره، وسيؤديه هذا إلى أن الربوبية مشتقة من كلمة "الرب"، والألوهية مشتقة من كلمة "إله"، والكلمتان تشيران إلى ذات واحدة؛ لأن اجتياز ذلك المدى المعرفي اللغوي إلى الوصول لمعرفة أصل كلمة "رب" ورجوع اشتقاقها ومصادرها وفروعها لمعنى الخلق والملك والتدبير، أو أن كلمة "الإله" راجعة إلى معاني التألّه والعبادة، من مألوه بمعنى معبود؛ ليس لطلبة زماننا، فالعجمة فيهم فاشية ظاهرة!

فطال تشقيق الكلام على معنى كنا في غنى عن تشتيت مبتدئة الطلبة فيه.. لذا فلو اكتفى العلماء في تحريرهم وبيانهم أقسام التوحيد الثلاثة على القول

بأنها: الربوبية، والعبادة، والأسماء والصفات والأفعال؛ لكان خيراً، لأمرين:

الأول: راحة للطالب من الحيرة، ورحمة به من التشتّت.

الثاني: أن لفظ العبادة شرعي وليس بمحدث، وإن كانت كلها شرعية، أعني: الألوهية والإلهية، لكن هذا اللفظ أقرب من جهة أنه متعلّق بالعبد ونيته وأقواله وأعماله.. والله أعلم.

الوقفة الأخرى: من تلك المصطلحات المحتاجة إلى إعادة نظر: مصطلح: التخلية والتحلية، وقد انتشرت هذه الجملة بين المتأخرين في بيانهم معنى ركني الشهادة. وأرى أن لو استبدلت بما هو أولى منها، خاصة أنه يوجد في اشتقاقات جذر كلمة "التخلية" ما هو أولى منها، ككلمة "إخلاء" مثلاً، لدلالتها على التفريغ والإزالة فقط، أما التخلية فلها معانٍ أُخر غير مرادة.

أما "التحلية" فلا أراها سائغة، وليس لها معنى مفهوم في مرادها الموضوعة له في هذا السياق؛ لرجوعها في الأصل للحِلية وللحلوى.

و"التحلية" المرادة هنا ربما ظنوا أن أصلها كلمة "إحلال"، فصرّفوها على وزن "تحلية" لتواكب التخلية! ولا أرى هذا التصريف من العربية في شيء.



وعلى القول بإرجاعها إلى الحلوى أو تحلية الطعام، وهي الوجبة الحلوة المقدمة بعد الدّسم؛ فهو إزراء كبير بمعناها!

هذا ولم أجد للسلف في التعبير بها حرفاً، وكل خير في اتّباع من سلف. وكأن أصلها راجع إلى الطُّرُقيّة، ومن ثمّ إلى أرباب السلوك المتأخرين، ويقصدون بها معاني عدة، منها: الذكر الخاص، وأحوال ترد على قلب المريد والسالك، ونحو ذلك.

الشاهد: أن هذه الجملة في حاجة لإعادة تقويم ونظر. ولو قيل: الكفر بالطاغوت قبل الإيمان، أو البراء قبل الولاء، أو النفي قبل الإثبات.. والأخير كأنه أجود من جهة الإطلاق اللغوي.. وبالله التوفيق. (١)

....

(١) مجلة البيان العدد: ٣٢٠ ربيع الثاني ١٤٣٥هـ، فبراير ٢٠١٤م.

نظرة في تكفير المعين.. غدًا إعتاقٌ أو إيباقٌ!

الحمد لله وبعد: ففي هذا الزمان الحالك, رخصت الفتاوى, وافتُئتَ على أهل العلم, واستُحلّت دماءُ وأعراضُ أهلِ الإسلام من لدن أهل الإسلام! فعادت سُلالة فكرِ ذي الخويصرة جذعة فتيّة, واشرأبّت أعناق الفتن والبلايا من رؤوس حدثاءِ الأسنان سفهاءِ الأحلام, وظهرت قرون الغلوّ التي حذّر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: "إياكم والغلو, فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو" رواه ابن ماجه بسند صحيح.

وموجبات الردة, ونواقض الملة عديدة, وقد استحق وصفَهَا من لا خلاق له ممن رام تبديل الدين والهزء بالشريعة وحرب الله ورسوله, فتتردد بين الحين وأخيه قالاتُ فجورٍ وأفعالُ كفر, حقيقٌ بمن بسط الله يده بالسلطان والتمكين أن يقوم فيها لله محتسباً قَصْبَ الزنادقة.. وكثير ما هم!

وفي مسند أحمد بسند حسّنه الألباني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لَحَدٌّ يُقام في الأرض خير من أن تُمطروا أربعين خريفًا" نعم, فمنفعة الغيث



خاصة بالأجساد, ومنفعة الحدِّ نفعها للأديان, وهي غاية خلقِنا. ولو علم الأثيمُ قُربَ الحدّ من الحدِّ ما اجتازه, ولكن من أَمِنَ أساءَ!

بيد أن مسألة تكفير المعيّن في غاية الخطر إن كانت في يد من لم يملك أدواتها, وفي سلطة من لم يستتم شروط إيقاعها, فلا يجوز بحال أن يُترك عنان التكفير للعامّة, بل هو خاص بمن أوكل الله لهم سياسة الناس بالشريعة, وهم العلماء الراسخون الذين علموا شروط التكفير وموانعه, وأحسنوا إقامة الحجة على متنكبي المحجة, فقد يُتهم المرء بارتكاب مكفِّر وهو منه براء! إنما كُذب عليه كما كُذب على كثير من الأجلّة كافترائهم على شيخ الإسلام ابن تيمية بالكفر والمروق من الدين وإهانته لجناب النبوة! وكذبهم على الإمام المجدد بأنه يبغض الرسول صلى الله عليه وسلم, ويدعو لدين جديد, ونحو ذلك البهتان الذي طال كثيرًا من المصلحين في هذه السنين.

هذا, وقد يركب المرءُ المعصيةَ وهي ليست من المكفرات, فيُرمى - جهلًا وظلمًا - بالردة! كصنيع الخوارج بمرتكب الكبيرة.

كما قد يركب الذنب المكفِر المخرج من الملة في ذاته, ولكن لا يحكم بكفره بسبب أحد الموانع, فلا بد مع استجماعِ الشروطِ انتفاءُ الموانع:



كالجهل: كما في قصة الذي قال لولده: "إذا أنا متُّ فأحرقوني, ثم ذُرُّوا رمادي في الهواء فلئن قدر الله علي ليعذبني..." والحديث مخرّج في الصحيحين, فهذا الرجل شكّ في عموم قدرة الله تعالى, وهذا من المكفرات, مع هذا غفر الله له لخشيته وجهله.

وكالخطأ: كقصة الفَرِح بعودة دابته بعد يأسه من النجاة فقال بعد استمكانه منها: "اللهم أنت عبدي وأنا ربك, أخطأ من شدة الفرح!" ومن فروع ذلك: سبقُ اللسان بما لم يقصده الجنان من ألفاظ الكفر, وبخاصة مع وجود القرائن الصَّارفة.

وكالتأويل الذي له وجه: ولم يتضح الحق لصاحبه, كالكثير ممن يظنون أنهم ينزهون الله تعالى عن طريق قواعد ذهنية أحسنوا بها الظنّ فسمّمت تصوراتهم, فوصل بهم ذلك إلى إنكار بعض صفاته. وقد كان الإمام أحمد يصلي خلف بعض من قال بتلك المقالات. وقال شيخ الإسلام لبعض المحرفة (المؤولة): أنتم تقولون كلاماً لو قلت به لكفرت! لكنكم لم تكفروا عندي لأنكم ترومون التنزيه بذلك التحريف، ولم تتصوروا حقيقة مذهبكم ومآل مقالاتكم. أما تأويلات الباطنية والفلاسفة والرافضة وأشباههم فهي كفر محض.

وكالإكراه: لقوله تعالى: "إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان" وبعضهم خصّ الرخصة بالنطق فقط, وبعضهم خصّ الإكراه بالتهديد بالقتل دون الضرب والحبس, والله أعلم.

واعلم أن تكفير المعين يختلف عن تكفير الوصف فالوصف كقولنا: تارك الصلاة كافر. أما تكفير الشخص المعين فهو أن تقول: فلان كافر! وهنا مكمن الخطر لمن توغَّل في ذلك بغير بينة ولا برهان. وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال في خطبة الوداع _ وتأمل عظمة الموقف وأهمية البيان وقيمة كل حرف فيها _: "فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم وأبشاركم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. ألا هل بلّغت؟" قالوا: نعم, قال: "اللهم اشهد. فليبلّغ الشاهد الغائب, فإنه رُبَّ مُبلّغٍ يُبلّغُه لمن هو أوعى له".

وبالجملة فلا تفريط ولا إفراط, والتقوى وسط بين الغلو والجفاء, وكما قال علي رضي الله عنه: خير الناس النمط الأوسط, الذين يرجع إليهم الغالي ويلحق بهم التالي.

الشاهد من هذا أن على الناصح لنفسه أن لا يقع في شَرَك التكفير بغير حق, وليعلم أن من دخل في الإسلام بيقين فلا يُخرج منه إلا بيقين, وليتيقَّن أن



لكلّ كلمة طالباً من الله تعالى, وأنه موقوف بين يدي الجبار جل جلاله, ومسؤول عن ما اقترفه لسانه أو خطه بنانه, فليعدّ للسؤال جواباً وللجواب صواباً, وأنّى ذلك إلا ببرهان شاف, واستدلال كاف. والكلمة يملكها من كانت حبيسة جوفه, لكن إن خرجت فقد ملكته, فإما إعتاق أو إيباق! والله المسؤول أن يحفظني والقارئ والمسلمين من مضلات الفتن ودواهي المحن, فهو المستعان, وعليه التكلان, ولا إله إلا هو.

ومضة قلم: في الساعةِ التي يتبعُ فيها الجسدُ العقلَ, ويخدم كلاهما الروحَ؛ هناك فقط ستذوق عينَ النعيم, وتوقن أنك في مقصود الخليقة. فلا تضادَّ بينها, ولكن تكامل وأولويات. (١)

....

(١) صحيفة الاقتصادية





رُباعيةُ الفَلاح

الحمد لله وبعد، فإنّ رباعية الفلاح - فاعلم - هي: سلامة القلب، وقوّة الإرادة، وصحّة العلم والذكاء. فسلامة القلب وقوة الإرادة وصحّة العلم عليهما المعوّل بإذن الله تعالى، أما العقل فيكفي في مناط تكليفه تمييز الخير من الشر. فالقلب هو موضع نظر الرب جل وعلا، فأهمّ المهمات صلاحُه وطيبه ونقاء موارده حتى يكون نقيًّا طاهرًا طيّبًا، تعينُه بإذن ربه إرادةٌ قويّة حازمة صابرة، لا تلين قناتها لشدائد البلايا وكبريات الرزايا، بل تزيدها قوةً ومضاء وعزمًا، والطريق الموصل إلى رضوان الله تعالى مفتقر لعلم صحيح يضيء الطريق لنفوذ البصيرة وأنّى ذلك إلا بالوحي المنزل وعلى قدر العلم النافع كمًّا وكيفًا تكون الرفعة وعلو المراتب بإذن الله، فإن ساعد على ذلك ساعدُ ذكاء وحِدّةُ نباهة وجودة ذهن؛ كان المُرتقى العظيم الجليل إلى الله تبارك وتعالى بإذنه ولطفه ورحمته.

وبحمد الله تبارك وتعالى فلم يجعل الله الذكاء شرطًا لرضاه وجنته، إنما علّقه على القلب السليم، فقال سبحانه: (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى



الله بقلب سليم)، فالقلب لا عذر لأحد في بذل وسعه لسلامته لتعلّق المصير المحتوم بذلك، ولكن يحتاج المؤمن لجرعات أرادة حازمة لتطهير ذلك القلب، فالقلب هو الوعاء القُرباني للإله العظيم سبحانه، والإرادة هي الطاقة المُحرّكة والعاملة والحاملة لهذا الوعاء العجيب، أما العلم فهو النور المضيء لجهات بقعة الابتلاء لهذا الإنسان، فيضيء له سبيله الموصل - إن سلكه وثبت عليه - لجنات النعيم، وليس هذا الضياء سوى الوحي المقدّس المنزل، لهذا بعث الله الرسل وأنزل الكتب، ولكن لا تمييز للمرء بدون عقل يسمح له بالمعرفة للحال والمآل والخير والشر على الإجمال، وحسن التصور لما حوله وما مضى وما يستقبل، ويمكّنه من التعامل مع جوارحه الحسية والمعنوية حتى تكون القيادة له والسيطرة لديه، وهذا القدر من العقل هو القدر الكافي لحمل الأمانة وهو المناط للتكليف، أما ما زاد عليه فهو الذكاء، والذكاء مراتب عديدة وأنواع متشعّبة، ويزيد حساب التكليف مع زيادة حدّته وقوّته.

لذلك فالذكاء سلاح ذو حدين فليس كله خير، فإن استعمله في طاعة الله قدر وسعه فهو معراج هائل سريع لنيل القربات العظيمة، لأنه ينفذ به لكوامن العلوم ويحلق به في سماوات المعارف ويحصل به فوائد غيوث

الوحي، فيحفظ الكتّاب والسنة ويغوص في معانيهما ويربط بينها ويحلل العُقد ويجمع الأشتات ويفرّق بين ما فرّقته الشريعة، ويجمع بين ما ماثلَتهُ حقيقة وإن اختلف ظاهراً، ويقارن بين كلام العلماء فيعرف مناطات اختلافهم ومسائل إجماعهم ويستوعب ذلك بما أمدّه الله بذكائه، فيحيل زبدة هذا العلم لقلبه الطاهر السليم، ويستعين بإرادته الصابرة الشديدة للعمل به في نفسه أوّلًا ثم بنشره ونفع الناس به، هناك يكون - بلطف الله تعالى - من أهل العلم النافع والعمل الصالح، وممن رفعهم الله تعالى، (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات).

ولكنّ الذكاء الثاقب بالمقابل باب كبير مشرع على مفاتن الدنيا التي تلوح وتتزين للأذكياء ولا يراها البسطاء، لأنه حقيقة الذكاء أنه نفوذ الإدراك للأشياء كما هي، وعلى قدر الذكاء يكون النفوذ الإدراكي كمًّا بإدراك الأمور البعيدة والخارجة عن المألوفات المعتادة وكيفًا عن طريق النفوذ لتفاصيل التفاصيل مما هو قريب جدًّا حتى غاب بقربه عن إدراك العامّة. فكثير من موارد وساوس الشيطان الخفية سببها ذكاء لم يوفّق صاحبه لاستعماله في مرضاة ربه، فعاد عليه خيبة ووبالًا.

وبالجملة؛ فالذكاء يكون خيرًا للمرء إذا كانت طهارة قلبه وقوّة إرادته مساوية له أو أكبر منه، لأن نفوذه لإدراك الأشياء يكون دومًا محروسًا بقلب طاهر وإرادة صلبة، فهنا تكون حدة الذكاء وقوته وقودًا هائلًا ممتعًا مريحًا يطوي المكان والزمان بثاقب بصيرته، ويرفع الهمة عاليًا لأسقف السماوات بنفوذ إدراكه، لأنه حينها يستعمل العلم ويستفيد منه خير الفوائد، ويُسخّر علومَ دنياه لخدمة آخرته، فيحصّل النفوذ في جواهر العلوم الربانية بالقرآن العظيم، والضياء الرسالي بالسنة المحمدية، فتنكشف له غوامض العلوم المنغلقة على غيره لا لعدمها ولكن لتشابهها أو تفرّقها أو نسيانها أو كثرتها ونحو ذلك، ولكن البرّ الرحيم جمع له الله قلبًا طيبًا سليمًا، وإرادة رجولية صلبة، وعلمًا من الوحي صافيًا من أكدار الأهواء وأخلاطِ العلوم الأرضية الزائفة، وذكاء نافذًا لجواهر المعاني دون الانتظار طويلًا على عتبات الرسوم والشكليات. ومن أمثلة أولئك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ولا أزكي على الله أحدًا.

والمقصود؛ هو أن المؤمن المريد للفلاح لا يستغني عن الصبر، فالصبر هو المُعيلُ - بإذن الله - للإرادة، ومن لا صبر له فإرادته ضعيفة غير مستحقة لنيل معالي الأمور، ولكن إن قوّى الله صبر المرء قويت على إثره إرادته،

فاستطاع - بتوفيق الله له - أن يطهّر قلبه من أدران الخطايا ومشوشات البصيرة، ثم استعمل صبره في تحصيل العلوم النافعة لدينه، المغذّية لإيمانه، العائدة عليه بحلاوة العبادة ولذة المعرفة، ثم حرس قلبه وعقله وإرادته بصبره لله ما دام قلبه يخفق خفقات الابتلاء في دار الابتلاء، والله المستعان.

إن المؤمن حين ينبض فؤاده بمعاني الدين ومقامات الإسلام؛ فنبضه محتاج لجرعات صبر من لدن رب العالمين سبحانه، فهو مضطر إلى الاصطبار لحمل نفسه الإمارة على أحكام التنزيل العزيز، وهو مفتقر إلى كل معاني الصبر أيضًا حينما يسير على خُطا المرسلين حين تنطمس سبلهم وتندرس خطاهم تحت ركام حظوظ دَنايا النفوس وحطام فراغ الرؤوس، فرغبوا العاجلة الفانية دون الآخرة الباقية.

فالمؤمن الموفّق هو من يتحصن بجُنة الصبر عند ادلهامّ الملمّات وانصباب الكُربات، وحينما يرى ببصره وبصيرته أكثرَ الناس قد استبدلوا بالتوحيد شركًا وباليقين شكًّا، فإنه يضع كفَّهُ على نابض قلبه صاعدًا ببصره إلى سماء الله الفسيحة يتلوا مثاني الصبر في كتاب ربه، ضارعًا لإلهه بكل رُوحه



وجوارحه ونفسه وكِيانه أن يُفرِغ على قلبه القُلَّبِ صبرًا يُثَبِّتُه حين تزيغُ أقدام الإقدام عن مراضي الملك العلام. ويا رب هل إلّا عليك المعوّل.





عبرٌ من أصحاب الأخدود

الحمد لله وبعد، فعليك أيها الداعي لسبيل ربك - ولا بد أن نكون جميعًا كذلك - عليك بجادة الصابرين، محسني الظنِّ بلطفِ ربهم، ولا تلتفت لكل مثبّط أو حاسدٍ أو عدو: (فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون) فالله حق ووعده حق ونصره حق ولقاؤه يوم القيامة حق، فاصبر على الحق تكن من أهله، والله المستعان، (فاصبر صبرا جميلا إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا).

ولا تنس - إن نسيتَ - احتساب الأجر عند ربك، فما عند الله الغني الكريم البرِّ الشكور خيرٌ وأبقى لك مما عند خلقه الفانينَ الضعفاءِ الفقراء. وكلُّ عمل تعملُه لله محتسباً أجره وذخره فستلقاه مغتبطًا به ما دمت مخلصًا متبعًا صابرًا، ولَنِعمَ الذخيرة تلك الذخيرة ولنعم الكنز ذلك الكنز!

وائتس في جميع ما يصيبك بنبيك صلى الله عليه وسلم، فعن جندب بن سفيان رضي الله عنه قال: "دُميت إصبعُ رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض تلك المشاهد فقال:





هل أنت إلا إصبعٌ دُميتِ وفي سبيل الله ما لقيتِ

فلكل مصلح: امض لسبيلك متوكلًا على ربك مستنًّا بنبيك ﷺ متأملًا هذا البيان الحاسم من رب العالمين: (أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فما له من هاد).

وليتدبّرِ الداعيةُ الموفقُ قصةَ أصحابِ الأخدودِ وما فيها من أنواع الصبر والمصابرة في ذات الله تعالى سواءً من الغلامِ أو الراهب أو المؤمنين حتى نساءَهم، لقد استحقت تلك القصةُ العظيمةُ الخلودَ في محكم تنزيل رب العالمين: (وما نقموا منهم إلا إن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ۝ الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد) فلا تخفى عليه خافيةٌ مهما دقّت أو جلّت، فهو شهيدٌ على المؤمنين الصابرين، حافظٌ لصبرهم في ذاته المقدسةِ العليّة، فصَبَرُوا أرواحهم قربانًا لوجهه سبحانه وبحمده، وشهيدٌ على الكافرين وطغيانهم وظلمهم وكفرهم. ومع شناعةِ جرمهم وفداحةِ ظلمهم وغليظِ كفرهم إلا أنّ الرحمنَ قد أشرعَ لهم بابَ التوبة على مصراعيه بقوله الأعزِ الأكرمِ الألطفِ: (ثم لم يتوبوا) فلا إله إلا الله ما أعظم حلم الله وأسبغَ رحمته وأوسع فضله.



وقد فصّل حبيبُنا صلى الله عليه وسلم قصةَ أصحاب الأخدود، فقد روى مسلم بسنده عن صهيب رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: "كان ملِكٌ فيمن كان قبلكم، وكان له ساحرٌ، فلما كبر قال للملك: إني قد كبُرتُ، فابعث إليّ غلاما أعلمه السحر، فبعث إليه غلامًا يعلمه.

وكان في طريقه إذا سلك راهبٌ فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، وكان إذا أتى الساحر، مرّ بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيت الساحر، فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك، فقل: حبسني الساحر، فبينما هو على ذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجرًا، فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحبّ إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضيَ الناس، فرماها فقتلها ومضى الناس.

فأتى الراهب فأخبره. فقال له الراهب: أي بني أنت اليوم أفضل مني قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستُبتلى فإن ابتليتَ فلا تدلَّ عليّ.

وكان الغلام يُبرىء الأكمه والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء. فسمع جليس للملك كان قد عمي، فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما ها هنا لك أجمع إن أنت شفيتني. فقال: إني لا أشفي أحدًا إنما يشفي الله تعالى، فإن



آمنت بالله تعالى دعوت الله فشفاك - وهذه رسالة لكل طبيب لأدواء الأرواح أو الأجساد أن يعلّقَ العباد بربهم لا بعلمه وخبرته وطبّه، فهو مجرد سبب قد يتخلف لذاته أو لمانعٍ خارجٍ عنه، أما الشافي في الحقيقةِ فهو اللهُ وحدَه، قال إمام الحنفاءِ عليه السلام: (وإذا مرضت فهو يشفين). - قال: فآمن بالله تعالى فشفاه الله تعالى، فأتى الملِك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: من ردّ عليك بصرك؟ قال: ربي، قال: ولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله. فأخذه فلم يزل يعذبَهُ حتى دل على الغلام، فجيء بالغلام، فقال له الملك: أي بني، قد بلغ من سحرك ما تبرىء الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل! فقال: إني لا أشفي أحدًا، إنما يشفي الله تعالى. فأخذه فلم يزل يعذّبه حتى دلّ على الراهب.

فجيء بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدعا بالمنشار فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقّه حتى وقع شقّاه! - وتأمل كيف هرب هذا الراهب الصالحُ من الابتلاء فلحقه الابتلاء، وإنما يُبتلى المرءُ على قدر دِينه، والقدرُ لا مهرب منه، ولعلهُ خيرٌ له أن بلّغهُ منزلةَ الشهادةِ العظيمة، وأخرجه من سجن الدنيا لفسحة الجنان وجوار الرحمن جل جلاله بإذن الله تعالى ورحمته. وفيه الصبرُ العظيم لهذا الرجلِ، فلم يعطهم مرادَهم، بل صبر حتى



قتلوه في الله ولله وإلى الله، ولا إله إلا الله. – قال: ثم جيء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فوُضع المنشار في مفرق رأسه، فشقه به حتى وقع شقّاه! - وتأمل كيف يفعلُ الإيمانُ المفعمُ باليقين والنصح فعلَهُ في قلوب الخلق، ويشبه هذان الصالحان سحرةَ فرعونَ الذين كانوا في بكرة النهار سحرة أشقياء وفي عشيته بررة شهداء. وتأمل حال صحابة رسول الهدى صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم كيف قاموا لله تعالى تلك المقامات المشهودة والمجاهدات المشهورة بعد أن بلغ الإيمانُ حُشاشةَ قلوبِهم فصفّى كدَرَها وشدّ ضعفها وبلَغَ بها مبلغ أكرَمَ الخلق على الله تعالى بعد الأنبياء والمرسلين.

وهكذا يفعلُ الأبطالُ إذ صدقوا وهكذا يعصفُ التوحيدُ بالوثنِ

فعلى المؤمن أن يثبُتَ على الحق، وأن يقومَ فيه لله تعالى لا يخشى فيه لومةَ لائم – قال: ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدفعه إلى نفرٍ من أصحابه، فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذُروته - أي قِمّته - فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه. فذهبوا به فصعدوا به الجبل، فقال: اللهم أكفنيهم بما شئت - وفيه غاية التوكل والتفويض وإخلاص الاستنصار بالله تعالى.- قال: فرجف بهم الجبل



فسقطوا. - (أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء) فهو مجيب لدعوةِ المضطرِ مطلقًا، فكيف بوليّه الداعي إليه المُبتلَى في ذاته لإعلاء كلمته؟! (أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فما له من هاد) (إن الله يدافع عن الذين آمنوا)-. قال: وجاء يمشي إلى الملك – وتأمل رحمك الله ثقة الغلام بوعد الله تعالى ومعيّته وتأييده، فلم يهرب ويختبئ، بل عاد ليدعو ذلك الملِكَ الظالمَ الضالَّ لعلمه أن في هداية الله له نفعًا عامًّا لرعيته بدخولهم في دين الله تعالى-. قال: فقال له الملِك: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى - (وكفى بالله وليًّا وكفى بالله نصيرًا)

إنَّ المصائب ما تخطَّتْ دِينهُ   نِعمٌ وإن صعُبتْ عليهِ قليلا

واللهُ ليسَ بغافلٍ عن أمرهِ   وكفى بربّك ناصرًا وكفيلا

قال: فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه في قُرقُور – أي سفينةً صغيرة - وتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه. فذهبوا به، فقال: اللهم أكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا.



وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى، فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، قال: ما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع، ثم خذ سهما من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس ثم قل: بسم الله رب الغلام ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني - وفيه نقضٌ لدين هذا الملكِ الطاغوت، فقد جعل ذلك الغلامُ الفذُّ الملكَ يهدمُ الشركَ الذي بناه في قلوب الناس بهذا الفداء العظيم من هذا الشهيد الشاب - قال: فَجَمَع الناسَ في صعيد واحد، وصلَبَه على جذع، ثم أخذ سهمًا من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: بسم الله رب الغلام، ثم رماه فوقع في صدغه، فوضع يده في صدغه فمات، - والصدغ هو ما بين العين والأُذن، وقد وضع يده عليه لتألُّمِهِ قبل وفاته رحمه الله تعالى، وبحمدِ الله فليسَ ألمُ القتل في سبيل الله شديدًا مهما كانت طريقته، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما يجد الشهيدُ من مسّ القتل إلا كما يجد أحدُكم من مسّ القرصة" رواه الترمذي وصححه. قال: فقال الناس: آمنا برب الغلام! فأُتي الملك فقيل له: أرأيتَ ما كنت تحذر قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس. - وهنا نصرُ اللهِ المؤزرُ لدعوةِ ذلك الغلام الصالح، وفيه أن الداعي



إلى الله تعالى قد لا يُمهَلُ حتى يرى ثمار دعوته الطاهرة، بل قد يَسقي اللهُ تعالى بَذْرَتَه فلا تنمو وتثمرُ إلا بعد رحيله عن الدنيا إلى ربه تعالى، وهذا الأمرُ واردٌ حتى على الرسل الكرام، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عُرضت عليّ الأممُ، فرأيتُ النبيَّ ومعه الرهيط، والنبيَّ ومعه الرجلُ والرجلان، والنبيَّ ليس معه أحد". متفق عليه. وتأمل قصةَ أصحابِ القرية في سورة (يس) كيف أرسل الله لهم ثلاثةَ رسلٍ، فكفروا بهم حتى أرسل الله عليهم الصيحةَ فأهلكتهم، ولم يذكرِ اللهُ تعالى أن قد آمن لهم سوى رجلٍ واحد!

قال: فَأَمَرَ بالأخدود بأفواه السكك نخُدّت وأَضرَمَ فيها النيرانَ، وقال: من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها، ففعلوا. حتى جاءت امرأةٌ ومعها صبيٌّ لها، فتقاعست - أي جبُنت وتردّدت -أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أُمَّهْ اصبري فإنك على الحق!".

ولست أُبالي حين أُقتَلُ مسلمًا على أي جنب كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصالِ شِلْوٍ ممزّعِ



وبعد، ففي هذه القصة الهائلة بيانُ الصبر العظيم لذلك الراهب التقي الصالح، وكذلك جليسِ الملك الموفّق الصابر، والغلامِ الشهيد الناصح، فهو شيخُ الغلمان بحق، وهو الداعيةُ الصغير في سِنِّه، الكبيرُ في إيمانه وعمله ودعوته وشهادته وتخليد ذكره، فلم يَرُدّ هؤلاءِ الشهداءِ تهديدُ الطاغوت وأعوانِه، ولا قتلُهُم لهم هذه القَتْلات الشنيعة عن دينهم، فرحمهم الله وألحقنا بهم في الصالحين غيرَ خزايا ولا ندامى هو مولانا ومولاهم ونعم المولى ونعم النصير. وإنما تُعمر الديار ويُدفع البلاء بأمثالهم، بدعائهم وابتهالهم وصلاحهم ودعوتِهمُ العبادَ لسبيل الله تعالى.

وقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم هؤلاء وأمثالَهم لأمته لتعلمَ الأمةُ أنَّ من عباد الله من يرجونه لا يرغبون لغيره، ويخافونَه لا يخشون سواه، وأن الله قد اختارهم وربّاهم واصطفاهم لحمل شدائد دينه في الدنيا ثم لنيل رضوانه وأجره في العُقبى.

وبنحو خبرهم جاءت الأخبار، فلا تخلو الأرض من قائم لله بحجة، فعن أبي عبد الله خبّابِ بن الأَرَتّ رضي الله عنه، قال: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدةً، فقلنا: ألا تستنصرْ لنا، ألا تدعو لنا؟ فقال: "قد كان مَن

قبلكم يؤخذُ الرجلُ فيحفرُ له في الأرض فيجعلُ فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيُجعل نصفين، ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصدُه ذلك عن دينه! والله ليُتِمَّنَّ الله هذا الأمر حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حضرموت لا يخافُ إلا اللهَ والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون". رواه البخاري.

فالإنسانُ عجولٌ بطبعه، وغريزةُ العجلة جِبِلّةٌ لا يسلمُ منها إلا القليلُ، قال عنه خالقُه ومسوّيه: (خُلق الإنسان من عجل) وقال: (وكان الإنسان عجولًا).

ولكنَّ هذه الجبلّةَ العجولَ ليست بعذر في ترك التأنّي، فلقد أصاب المتأني أو كاد، وأخطأ المتعجّلُ أو كاد، والعجلة أمُّ الندامة، إنما المقصود بيانُ أنَّ هذه الغريزةَ النفسانيةَ محتاجةٌ إلى مصابرةٍ حتى تكونَ منقادةٌ لخُلُقِ الأناةِ وعقلِ الرزانة. وقد بشّر صلى الله عليه وسلم أشجَّ عبد القيس بمحبة الله تعالى لأناته وحلمه، وأنه قد جبله عليهما، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأشج عبد القيس: "إن فيك خَصلتين يحبُّهما الله: الحلمُ والأناة". رواه مسلم.

إنّ دين الله منصورٌ لا محالة، فليس على الدين خوفٌ حتى وإن تقلص في ناحية أو ضَعُفَ تديّنُ الناسِ في أخرى، فاللهُ ناصرٌ دينَه ومتمُ نورِه ومظهرٌ سنةَ نبيه صلى الله عليه وسلم، قال سبحانه: (والله متم نوره ولو كره الكافرون . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون). فلا خوفٌ على السفينة، إنّما الخوف أن تمضي بدونك!



ولتكن منكم أمة

حينما يكون المجتمع هو صِمَام أمان إنكار المنكرات فلا يمكن لأحد من الخلق تغييره بالقوة مباشرة.. ولكن بالمكر طويل الأمد مع بطش السلطة بالمخالفين قد ينالون مرادهم أو بعضه، ولله حكمة في ابتلاء الخير بالشر، فالدنيا دار بلاء وابتلاء، والعاقبة في الدارين للمتقين. (ولو شاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض).

فقد تتغير أخلاق ومبادئ المجتمع بقوة السلطة وطول الأمد، كما ذكروا عن باسل الأسد أنه كان ينزع الحجاب بيده من وجوه العفيفات في الميادين العامة في دمشق حتى استمرأ الناس ذلك التبديل، وكما غير أتاتورك الأحرف العربية بجرة قلم رئاسي، ثم أتبعها بقرارات تبديلية للدين جملة.. بل كيف غير البويهيون والصفويون ديانة جلّ المسلمين السنة في فارس إلى دين الرافضة بقوة السلاح!



وبالجملة فمن سنن الله تعالى في المجتمعات أنها عصيّة على التبديل المباشر بالقوة إن كان لديها تديّن - مهما كان الدين - فكيف إن كان الدين المرضي من رب السماء سبحانه..

وحتى لو صُكّت الأمة بالبطش واندفن الناس زمانًا تحت ركام خوفهم فلا يزال العزيز الحميد سبحانه يستغرس منهم فئامًا يستعملهم في عظيم مراضيه، قد جعلهم ذخائر عزم وحصون عفاف وبحار علم وسحائب رحمة وشموس هدى مهما ولوَل اليائسون ونشَج القانطون.. فعلى المؤمن أن يُحسن الظن بربه وأن يستفرغ وسعه في مدافعة منكرات نفسه وأمته لعل الله أن ينتظمه في حزبه السعيد (ألا إن حزب الله هم المفلحون).

وتأمل ما ذكره الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله في ذكرياته قال:

"وكانت النصرانيات واليهوديات من أهل الشام يلبسن قبل الحرب الأولى الملاءات الساترات كالمسلمات، وكل ما عندهن أنهن يكشفن الوجوه ويمشين سافرات، أذكر ذلك وأنا صغير، وجاءت مرة وكيلة ثانوية البنات المدرسة سافرة فأغلقت دمشق كلها حوانيتها، وخرج أهلوها محتجين متظاهرين حتى روّعوا الحكومة فأمرتها بالحجاب وأوقعت عليها العقاب، مع



أنها لم تكشف إلا وجهها، ومع أن أباها كان وزيراً وعالماً جليلاً، وكان أستاذاً لنا".

والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.





همسةٌ في أذن حالق لحيته

الحمد لله وبعد، فحلق اللحية يكتنفه ستة محاذير شرعية وهي كالتالي:

- معصيةٌ لله تعالى ومخالفةُ وصيةِ رسول الهدى صلى الله عليه وسلم بقوله: "إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه" متفق عليه، وقد قال: "أعفوا اللحى" "أرخوا اللحى" "أوفوا اللحى" وكلها في الصحيح.

- وهي مجاهرة بالذنب وفي الحديث: "كل أمتي معافى إلا المجاهرون" متفق عليه".

- إصرار على المعصية، وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: "لا صغيرة مع الإصرار!".

- أنها دعوة عمليّة للتقليد، وبخاصة ممن يقتدون به، وقد قال صلى الله عليه وسلم: "من سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها، ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء". رواه مسلم.

- وهي من التشبه بأعداء الله ومخالفة سنن المرسلين، وفي الحديث: "من تشبه بقوم فهو منهم" رواه أحمد.



- ومن مفاسد حلق اللحية أن ذلك مدخلٌ لتلبيسِ إبليسَ على المرء في دينه، فيوسوس له أنه لابد أن يكون مستقيمًا تامًّا قبل إعفائها وإلا فهو منافق!

وهذا باطل، فلا يخلو أحدٌ من ذنب، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كل بني آدم خطاءٌ، وخير الخطائين التوابون" رواه أحمد.

كذلك فالإعفاء عبادة مستقلة كأي عبادة، ولو طردنا ذلك اللازمَ الباطل لانهدم الدين بالكلية. فكل عبادة وأمر ونهي له وزنه المستقل وحسابه المستقل يوم القيامة مادام الإيمان في الجملة صحيحًا.

إن على المؤمن أن يحرص على الكمال قدر طاقته فإن غُلب دون ذلك كان منه قريبًا بعون ربه ولطف سيده، ولكن ‘ن ضعف دون أمر أو نهي فلا أقلّ من أن يصحّح ما استطاع من شجرة إيمانه وأن يُحصل ما أطاق من صالح العمل.

فهل يمنع تأخير الصلاة من الصدقة، وهل يمنع شرب الدخان من صلة الأرحام، وهل يضادُّ الغيبةَ شهودُ الجمعة والجماعة؟.. وهكذا.



كذلك فلإعفاء اللحية بركات، منها: امتثال الأمر، ومنها الدعوة العملية لاتباع السنة، ومنها طرد شياطين الإنس، فمعلوم أن القلوب تهاب ذي اللحيةِ أكثرَ من حليقها، وتخجلَ أن تُظهر له المعاصي أو تدعوه إليها.

ومن حسناتها أنها حسنةٌ مباركةٌ تنادي حسناتٍ أخرى، ومنها أنها تزيد الإيمان لمن احتسب، وبخاصة إن كان ممن يتعرض للأذى بسبب إعفائها. ومن بركاتها: امتثال الأمر الإلهي، ومنها الدعوة العملية لاتباع السنة، ومنها طرد شياطين الإنس، فمعلوم أن القلوب تهاب ذي اللحيةِ أكثرَ من حليقها، وتخجلَ أن تُظهر له المعاصي أو تدعوه إليها، فلا تستهن باللحية، فهي من شعائر الإسلام، بهاءٌ لوجهك، ونور لطلعتك، واتّباع لسنة نبيك ﷺ، وطاردة للفسقة عن جنابك.

وبالله التوفيق.





المحاسبة والهمّة لطالب العلم

الحمد لله، وبعد: فمِن سنن الله تعالى في خليقته أن نوّع المدارك، وفضّل في المنائح، ورفع بعض الناس على بعض في أديانهم وعقولهم وأخلاقهم وأرزاقهم، وبثّهم في هذه الدار امتحانًا وابتلاءً. كلٌّ منهم يحرث أيامَه بأعمالِه، ويستبقُ أجلَه مع أنفاسه، حتى إذا بلغ المدى الأخير، عادت وديعةُ الروح لصاحبها، ورجعت لخالقها. فإذا أذنَ الله للحساب، ابتعث الأجساد وأقام الأشهاد، وجمع الأولين والآخرين.. حينها يكون تأويلُ الكتاب: (يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا والأمر يومئذٍ لله) (كل نفس بما كسبت رهينة) (يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية). وحينها يكونُ الافتراق العظيم في المصير على قدر الافتراق اليوم في التديّن، كما قال سبحانه: (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون. فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون. وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فؤلئك في العذاب محضرون). فلا إله إلا الله حقًّا وصدقًا وتعبّدًا ورقًّا.



فبما أنّ الأمر بهذا الخطرِ أخا الإيمان؛ فقد وجب على كل ناصح لنفسه أن يُراجع صادقًا مسيرته، ويُسارع لإصلاح سريرته، ويحاسب نفسه قبل الفوات؛ كي يستعتب في دار المهلة ويؤوب قبل ألا تحين مناص. (ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب وقالوا ءامنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد)، (فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون . لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون. قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين . فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين).

يُذَكّرُنِي حامِيمَ والرُّمُ شاجرٌ فهَلّا تلا حامِيمَ قبلَ التقدُّمِ

ومن فروع تلك المحاسبة: ألا يكتفي بإحسان النية دون إحسان الاتّباع، فركُنا قبول العمل: الإخلاص والاتّباع. ولا يكفي شرطٌ عن مُكمّله، فلا بد من تحقيق الشهادة الأولى بتجريد النية وإخلاص العمل وتوجيه الوجه للواحد الأحد لا شريك له، ثم بتحقيق الشهادة الثانية بإحسان الائتساء بمن لَهَجَ له بالشهادة بالرسالة صلوات الله عليه وسلامه وبركاته، وهو القائل - بأبي هو وأمي ونفسي وولدي -فيما رواه الشيخان: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ". أي مردود غير مقبول، وكفى به عن الإحداث

زاجرًا. فقل لمن لم يُخلص: لا تتعب! وقل لمن لم يتّبع لا تَجْهَد، (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعما عملًا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا).

فمن صِدق المحاسبة: العنايةُ القصوى بتعظيم سنة رسول الهدى صلوات الله وسلامه و بركاته عليه بالجَنَان واللسان والأركان، وعدمُ تقديمِ قول بشر عليها بالغًا قدره ما بلغ، والاعتذار لأهل العلم إن أخطأوا مع ترك متابعتهم، وعدم التشغيب عليهم أو الشماتة أو التنفير أو سوء الظن. واحذر مخالفة منهم أعلم منك ببداهة رأيك، وبخاصة إن تتابع كثير من العلماء على القول به.

واطلب العلم تفز، فإن الله يحب طلاب العلم المخلصين (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) واعلم أنّ مفتاحَ العلمِ الشَّغَفُ.

أصبرْ على مضضِ الإدلاجِ بالسَّحرِ وبالرَّواحِ على الحاجات والبُكُرِ

إنّي رأيتُ وفي الأيامِ تجربة للصبرِ عاقبةٌ محمودةُ الأثرِ

وقَلّ مَنْ جَدّ في أمرٍ يُطالبه واستصحب الصبرَ إلا فازَ بالظّفَرِ

قال الجنيد رحمه الله: "ما طلب أحدٌ شيئًا بجدّ وصدق إلا ناله، فإن لم ينله كلّه نال بعضه". وقيل للبخاري: بم أدركت العلم؟ فقال: "بالمصباح، والجلوسِ إلى الصباح".

ومن ثمراتِ المحاسبة: اعتزالُ من تضرّكَ خلطته. فاحذر مصاحبة بعض النفوس التي لا تستطيع العيش والتنفس إلا في أجواء التفرّق والشقاق وانتشار الضغائن، فهي كدغاليب المستنقعات، يغذّيها الكدر، ويقتلها النقاء والصفاء، لا تصحبنّ أولئك فالمصاحبة ذريعة المُشاكلة. ومن خالط الناس وصبر على أذاهم لنفعهم فهو أفضل وأولى، أما من خاف على دينه وفي الناس كفاية عنه فالعزلة أحتم، والعافية لا يعدلها شيء. وليس أروحُ من أنفاسٍ لا تخالطها معصية. واعلم أنّ شيطان الإنسِ أشدُّ فتكًا بالدين من شيطان الجن، وتأمّل تقديم ذكره في الشيطنة في عداوته الأنبياء وأتباعهم: (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن).

ولا تصحب شرّ الناس ذا الوجهين، فيأتيك بوجه ويُدبرُ بآخر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تجدون شرَّ الناس ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجهٍ، وهؤلاء بوجه".



ومَنْ أطعمكَ دنياه ليطعَم من دينك؛ فألقِ دنياه في وجهه، وانفُذ بعافيتك، فدِينك دَينك لا تثلمنّه، ورأس مالك هو الإيمان ولتحقيقه خُلقت. وقد قال حذيفة رضي الله عنه: "إياك والتلوّنَ في دين الله، فإنّ دينَ الله واحد". وأوصى الإمام الشافعي تلميذه الربيع رحمهما الله تعالى فقال: "مَن أحب أن يَفتح اللهُ قلبَه ويرزقه العلم؛ فعليه بالخلوةِ، وقلة الأكل، وتركِ مخالطة السفهاء وبعضِ أهل العلم الذين ليس معهم إنصاف ولا أدب".

والصاحبُ ساحبٌ إما للحق والهدى وإما للشر والردى، ومَن زعم أنه لا يتأثر بجليسه فهو مكابر أو مخدوع، فالطِّباع سَرَّاقةٌ، والنفس الإنسانية بطبعها مجبولة على التأثّرِ بالصحبة. ومن الأصحاب ذبابُ طمعٍ فلا تنخدع بهم ولا تحفل بقربهم. كما قال الأول:

وكان بنو عمّي يقولون مرحبًا   فلمّا رأوني مُعْدمًا مات مرحبُ

والمحبةُ النافعة هي ما كانت لله، وفي الله، وعلى طاعة الله، وفي مرضاته، وما سواها للزوال، بل للوبال. فليكُن ثوبُك نقيًّا من لوثات الهوى، وصحيفتُك بيضاء بطيب عملك.



واسأل ربك الحكمة، فمن أوتيها فقد أوتي خيرًا كثيرًا، فكن حكيمًا هادئًا لا طائشًا متسرّعًا، واحذر أمَّ الندامات: العجلة. وقد أخطأ العجولُ أو كاد، وأصاب المتأنّي أو كاد، وربّ عجلةٍ تُعقِبُ ريثًا. وإن أُعجبتَ برأيك فلا تستعجل قرارَك، وعليك بالتؤدة؛ فقلّما تروّى عاقلٌ فندِم، وكم من حكمةِ ذي رأيٍ تاهت في غَمَرَات العجلة.

وإذا تشاجرَ في فؤادك مرّةً   أمرانِ فاعمد للأعفِّ الأجملِ

وإذا هممتَ بأمرِ سوءٍ فاتئدْ   وإذا هممتَ بأمرِ خيرٍ فاعجلِ

وفي أمورك الكبار لا تعجل باتخاذِ قرارك، بل شاور الأقوياءَ الأمناء، ثم استخر رب الأرض والسماء، فكم من اختيار يُبنى عليه عمرٌ ومصيرٌ، وربَّ لحظةٍ انبثق منها زمانٌ مختلف. فإذا استبان لك طريقُك، وأضاءت بصيرتُك؛ فاعزم عزم الرجال واحزم أمرك حزم الكرام، (فإذا عزمت فتوكل على الله) ثم بادِرْ على مَهْلٍ، ولا تندم على أمرٍ مضيت فيه بعد استخارتك علّامَ الغيوب، واعلم أنّ الخِيرة قد يتأخّر إدراكُها. (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون).

وكم رمتُ أمرًا خِرْتَ لي في انصرافِه   وما زلتَ بي مِنّي أبرَّ وأرحما

وإياكَ والتّردّد، فإنّه عيبٌ في الرجل، وخَوَرٌ في العزم، بل افعل ما يلزمك أن تفعله، وليكن بعد ذلك ما يكون!

إذا كنتَ ذا رأيٍ فكُنْ ذا عزيمةٍ   فإنّ فسادَ الرأيِ أن تَتردّدا

وإنّ من أقوى مخلوقات الله - فاعلم - هِمّةُ الإنسان إن صاحبها عزمٌ وثباتٌ ويقين. فلا تعجل، فكلّ شيء بحساب ومقدار. وفي كلّ معركة -حسيّة كانت أو معنوية -يتبقى هناك خندقٌ أخير، يجتازه المنتصرُ ويُدفن فيه المهزوم، فهل حصّنت خندق إيمانك من عدوّك الرجيم!

واعلم أنّ اتِّبَاعَ العاطفة كثيرًا ما يعقبه الندمُ، فاتْبَعْ علمَك وعقلَك ففيهما الحكمة، أمّا قلبك فأخّره قليلًا، فعاطفتي الشهوةِ والغضبِ عمياوان، وناصحُ العقل خيرٌ من ناصح القلب. فالنفس تُملي وتمنّى، وتُزيّنُ وتُسوّل، وتُبدّل وتتأوّل، والعقلُ واعظٌ ناصحٌ عليمٌ مشفقٌ حكيمٌ، والقلب بينهما حرونٌ متقلب، حتى يطمئن في فردوس الإيمان. قال ابن مسعود رضي الله عنه: "رأسُ الحكمةِ مخافةُ الله". فمن خاف الله؛ خافَهُ كلُّ عدو، ونزل عليه كلُّ توفيق، واعلم أنّ مصيرك غدًا – بإذن الله -هو قرارُك اليوم.

إذا هبّتْ رياحُكَ فاغتنمها   فإنّ لكلّ خافقةٍ سُكونُ

وإن درّتْ نياقُكَ فاحتلبها   فما تدري الفصيلُ لمن يكونُ

وعليك عليك بوقودِ الآخرة وهو الإيمانُ والعملُ الصالح، واعلم أنَّ الأملَ وقودُ الصابرين، والشوقَ وقودُ المحبين، والرجاءَ وقودُ العاملين، والخوفَ وقودُ الهاربين. وكلُّ شيءٍ تخافه ففرّ منه سوى الله: (ففروا إلى الله) وكلُّ شيء يُحَبُّ لغيره خلا الله، فإنه يُحَبُّ لذاته، وكلُّ فوزٍ زائلٌ حاشا الفوزَ بالجنة: (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور). ومهما كثُرتِ الحِكَم فلن تجد كهذه الثلاثية الربانية الفريدة: (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه).

واعلم أنّ الموفق هو من وَرَدَ مناهلَ الحكمة من أهلها، وقَدَحَها من معادنها، وتأمّلْ وصية علي رضي الله عنه لصاحبه كُميل بن زياد النخعي، - ويكأنّما يصفُ عليٌّ حال الَ الناس اليوم - قال كُميل: أخذ بيدي علي بن أبي طالب فأخرجني إلى ناحية الجبّانة، فلمّا أصحر تنفّس ثم قال: "يا كُميل، إنّ هذه القلوب أوعية، فخيرُها أوعاها، احفظ عني ما أقول لك: الناسُ ثلاثة: عالمٌ ربّاني، ومتعلّم على سبيل نجاة، وهمجٌ رعاع أتباعُ كلِّ ناعقٍ، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركنٍ وثيق. يا كُميل: العلمُ خيرٌ



من المال، العلمُ يحرسك، وأنتَ تحرس المال، والعلمُ يزكوا على العمل، والمالُ تنقصه النفقة. يا كميل: محبةُ العالِم دِينٌ يُدانُ بها، العلم يُكسِبُ العالِم الطاعة لربه في حياته، وجميلَ الأحدوثةِ بعد وفاته، وصنيعةَ المال تزولُ بزواله، والعلمُ حاكِمٌ، والمالُ محكومٌ عليه.

يا كُميل: مات خُزّانُ الأموال وهم أحياء، والعلماءُ باقون ما بقي الدهر، أعيانُهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة.. إلى أن قال: لا تخلُ الأرضُ من قائمٍ لله بحُجّة، إمّا ظاهرٌ مشهور، وإما خائفٌ مغمور، لئلّا تبطُلَ حُجَجُ الله وبيّناتُه، وكم وأين أولئك، أولئك هم الأقلّون عددًا، الأعظمون عند الله قدرًا، بهم يدفع اللهُ عن حججِه حتى يؤدوها إلى نظرائهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، هَجَمَ بهم العلمُ على حقيقةِ الأمر، فباشروا روحَ اليقين، واستسهلوا ما استوعرَ منه المُترفون، وأنِسُوا بما استوحش منه الجاهلون، صحِبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحُها معلّقة بالنظر الأعلى".

انتهى كلامه رضي الله عنه.

ويا طالب العلم: لا تتشعبنّ بك سُبُلُ الطلب، فسيّدُ العلوم كلها هو القرآن العظيم حفظًا وتفسيرًا وتدبّرًا وعملًا ودعوة. وكلّ الطرق الصحيحة لطلب العلم تبدأ وتنتهي بالقرآن العظيم، قال ابن مسعود رضي الله عنه: "من أراد



العلم؛ فليثوّر القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين". وربُّ العزة والجلال يقول: (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) وتدبّر: (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) بلى وعزَّتِك. فالموفق المُريد نهضة أمته لا تتشعب به طرق النهوض بالأمة، بل يختصر طريق إصلاحها بالرجوع للينبوع التالد الأصيل القرآن المجيد. ومن ذلك أنّ كلّ أدوات مدافعة النفاق والشرك والكفر والتغريب وغيرها من الشر موجودة بالتفصيل في القرآن العظيم، فعُد إليه وحرّك كنوزه وفُز بنفيس ذخائره، (وبشر الصابرين).

وإن أردت أن تعرف حقيقة اليهود فقد بسطها الله تعالى لك في مئة وسبع آيات من سورة البقرة ابتداءً من الآية الأربعين، فهي أُمّةٌ غريبةٌ أطوارُها، غليظةٌ أكبادُها، متينٌ كفرُها. وفي سورة البقرة فضيحة اليهود، وفي سورة المائدة فضيحة النصارى، وفي سورة التوبة فضيحة المنافقين. ثمّ في بقية سور القرآن مزيدٌ للثلاث طوائف: الغضبُ والضلال والفسق، فإذا اجتنبت صفاتَ اليهود وصفاتَ النصارى وصفات المنافقين؛ فقد اجتنبت الشر كله. ولقد فصّل الله تعالى صفاتهم كي نجتنّبها فنكونَ من الحنفاء المرضيين. ومن توضيح الواضحات أنّ عداء الرافضة واليهود والنصارى والمشركين



لأهل الإسلام لا يزال ما بقي على الأرض مسلم، لكن معاملتهم تختلف بحسب الأحوال.

ومن حكمة الوالد والمربي والعالِم أن يحرص على تلقين القرآن طلابَه ومُتَربّيه، فعلِّمْهُم القرآنَ والقرآنُ سيعلّمهم كل خير.

واعلم أنّ العقل البشري فيه عجيبةٌ، فإنك إن شُغفتَ بأمرٍ ووليت وجهك ونباهتك ووقتك إليه، نشط نشاطًا مُضاعفًا وأدهشك بقوّته وصفاءه، وهنيئًا لمن كان في الله ولله.

لقد ركّب الله فيك أيها الإنسان طاقاتٍ هائلة كامنة تنتظر منك تحديدَ أيّ هدف مشروعٍ تريده، فكن واضح الهدف، حَسَنَ التخطيط لبلوغه، متحلّيًا بالجديّة والانضباط، مع ثقة بالله، وتوكلٍ عليه، واستعانةٍ به، ثم إرادةٍ عازمة، ثم انطلق، فكلُّ من وصل ليس لديه شيء زائد عنك. فآلةُ العلم وحدها ليست كافية، بل الصمصامة محتاجة لذراع عمرو:

وما تَنفَعُ الخَيلُ الكِرامُ وَلا القَنا　　إِذا لم يكُن فَوقَ الكِرامِ كِرامُ



(وظنُّوا ألّا ملجأ من الله إلّا إليه)

الحمد لله وبعد؛ فاللجأ إلى الله تعالى من لوازم العبودية لله تعالى, ومن سيما المؤمنين, وشيم الصالحين, به يُحفظ المؤمن في دينه ودنياه, وبه يُحرس المؤمن من قِبَلِ الحارسِ الذي لا ينام, والقيومِ الذي لا يغفل, والربِّ الذي لا يُهمِل, وبه يُعان من ربه في كل ما أهمّه, وبه يُرزق في دينه ودنياه, وأُولاهُ وآخرته.

والالتجاء هو طلب الحماية والعون, فهو مركبٌ منهما معًا. ففيه عياذٌ واعتضاد, وطلب تحصيلِ ما يُرتفقُ به ويُحتمى ويُتقوّى به.

فالعبد في هذه الدنيا تكتنفه المتالف من كل جهة, والأعداء من كل مكان - خلا فوقَه - فإن لم يحفظه ربُّه فالضيعةُ ملازمة لمسيره, والهلكةُ متضمنة لمصيره, فلا عاصمَ إلا الله, ولا حافظ إلا الله, ولا هادي إلا الله, ولا إله إلا الله.

قال ربنا تبارك وتعالى في وصف المؤمنين المتعلقين به دون سواه، الهاربين منه إليه: (وظنّوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه) هذه الآية الكريمة العظيمة





وصفت حال المؤمنين الملتجئين إلى الله تعالى بيقين لا يهتزّ ولا يتزعزع, وهذا الالتجاء يزيد حال الشدة ولا ينقص حال الرخاء, ورُبَّ حالٍ يظنّه المرءُ رخاءً وهو أشدّ الشّدة! وذلك كحال النعماءِ بعد الشدة, فكم من مؤمن يصبِر حال الشدة ويَضيعُ ويغفل حال النعمة والرخاء, لذلك فمن صفات المؤمن الصالح دوامُ التجائه إلى ربه تبارك وتعالى, فهو مع الله في رخائه وشدّته, يلجأُ إليه إن خاف غِشيانَ معصية أو كسلًا عن طاعة, أو قَتَرَ غفلةٍ أو وَهَجَ شهوةٍ أو كُلُوحَ خِيفة, فهو مُوقنٌ أنه لا غنى له إلا بالله، ولا حافظ له إلا الله, ولا ملجأ له إلا إليه, وهناك يلقى الأمنَ والحفظ والكلأةَ والستر والسعادة.

وفي تأمل السيرة العطرة الشريفة للهادي البشير صلواتُ الله وسلامه وبركاته عليه دروس وعبر، تُربّي قلبَ المؤمن على صدق الالتجاء لربّه تبارك وتعالى. فحياتُه كلُّها التجاء لله وإحسانُ عبوديةٍ له سبحانه.

ومن ذلك خبرُ ذهابه لدعوة أهلِ الطائف في شوالَ سنةَ عشرٍ للنبوة, فقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ماشيًا على قدميه, ومعه مولاه زيدُ بنُ حارثة, كلما مرَّ على قبيلةٍ في الطريق دعاهم إلى الإسلام فلم يجبه أحد, ووصل إلى الطائف فعمد إلى ثلاثةِ أخوةٍ من رؤساء ثقيف,



وهم عبدُ ياليِلِ ومسعودٍ وحبيبٍ أبناءِ عمرو بن عميرٍ الثقفي, فجلس إليهم ودعاهم إلى الله ونُصرة الإسلام, فقال أحدهم: هو يمرط ثياب الكعبة: إن كان الله أرسلك! وقال الآخر: أما وجد الله أحدًا غيرك! وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدًا, إن كنت رسولاً لأنت أعظم خطرًا من أن أرد عليك, ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي أن أكلمك, فقام عنهم رسول الله وقال: "إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني" (١).

وأقام في الطائف عشرةَ أيامٍ, لا يَدَعُ أحدًا من أشرافهم إلا جاءه وكلمه, فقالوا: اخرج من بلادنا, وأَغروا به سفهاءَهم, فلما أراد الخروج تبعه سفهاؤهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به, حتى اجتمع عليه الناسُ فوقفوا له صفين وجعلوا يرمونه بالحجارة, ويسبونه ورجموا عراقيبه, حتى اختضبت نعلاه بالدماء, وزيدُ بنُ حارثة يقيه بنفسه, فأصابه شِجَاجٌ في رأسه رضي الله عنه.

ولم يزل أولئك السفهاءُ بالنبي صلى الله عليه وسلم حتى ألجأوه إلى حائط لعتبةَ وشيبةَ ابني ربيعة, على ثلاثة أميال من الطائف، فرفع كفيه، ورُوي أنه دعا ربه بقوله: "اللهم إليك أشكو ضعف قوتي, وقلةَ حيلتي, وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين, أنت ربُّ المستضعفين وأنت ربي, إلى من تكلني,



إلى بعيد يتجهمني, أم إلى عدوٍ ملّكته أمري, إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي, ولكن عافيتك هي أوسع لي, أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات, وصلَح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تُنزل بي غضبَك, أو يَحلَّ عليَّ سخطُك, لك العتبى حتى ترضى, ولا حول ولا قوة إلا بك" (٢).

فلما رآه ابنا ربيعةَ تحركت له رحِمُهما -لأنّهما قرشيان- فدعوا غلامًا لهما نصرانيًّا, يقال له عدَّاس, وقالا له: خذ قِطفًا من هذا العنب واذهب به إلى هذا الرجل, فلما وضعه بين يدي رسول الله مدّ يده إليه وهو يقول: "بسم الله" ثم أكل, فقال عداس: إن هذا الكلام ما يقوله أهلُ هذه البلاد, فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أي البلاد أنت؟" قال: أنا نصراني, من أهل نينوى, فقال رسول الله: "من قرية الرجلِ الصالح: يونسَ بنِ متّى؟" قال له: وما يدريك ما يونسُ بنُ متّى؟ قال: "ذاك أخي, كان نبيًا وأنا نبي" فأكبّ عدّاسٌ على رأس رسول الله ويديه ورجليه يقبّلُهما (٣).

ورجع رسول الله في طريقه إلى مكة, وهو في غاية الالتجاء لرب العالمين, قد تبرّأ من حوله وطَوله وقوّته والعالمين، ولجأ لقيومِ السماواتِ والأرضين ومدبّرِ الكون وَفْقَ رحمته وحكمته سبحانه. روى البخاري في صحيحه عن عروة بن الزبير أن عائشة رضي الله عنها حدثته أنها قالت للنبي صلى الله

عليه وسلم: هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ عليك من يوم أحد؟ قال: "لقيتُ من قومكِ ما لقيت, وكان أشدَّ ما لقيتُ منهم يومُ العقبة, إذ عرضتُ نفسي على ابنِ عبدِ ياليلِ بنِ عبدِ كِلالٍ فلم يجبني إلى ما أردت, فانطلقت وأنا مهموم على وجهي, فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب, -وهو ميقات السيل- (٤) فرفعت رأسي, فإذا أنا بسحابة قد أظلّتني, فنظرتُ فإذا فيها جبريل, فناداني فقال: إن الله قد سمع قولَ قومك لك, وما ردّوا عليك, وقد بعث الله إليك ملكَ الجبال لتأمُرَهُ بما شئتَ فيهم, فناداني مَلَكُ الجبال, فسلّم عليّ, ثم قال: يا محمد, ذلك فما شئت؟ إن شئت أن أطبقَ عليهم الأخشبين" وهما جبلا مكة يحيطان بها, قال النبي صلى الله عليه وسلم: "بل أرجو أن يُخرج الله عز وجل من أصلابهم من يعبدُ الله عز وجل وحده لا يشركُ به شيئًا" (٥).

الله أكبر! هكذا كانت إجابة النبيّ الرؤوفِ الرحيمِ بأمته, الحليمِ الحكيمِ بإذن ربه. فمع كلِّ ما قابله من تكذيبٍ وتحريشٍ وأذى يقولُ: "بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبدُ الله وحده لا يشرك به شيئًا". لا غرو ولا غرابة فهو الرحمة المهداة (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين. وقد استجاب الله دعاءه وكان عند حسن ظن عبده به, سبحانه وبحمده.



الملتجئُ لربه لا يخيب, والمفتقرُ لغناه لا يحتاج لغيره, والمتوكلُ عليه يكفيه عما سواه, والمعتصم به يحفظه ويحوطه. وتأمل لجوءَ نبي الله صلوات الله وسلامه عليه لربه في بدر, وهي أعظمُ معركةٍ في التاريخ بإطلاق, وفيها من ظهورِ التجاءِ نبي الله صلى الله عليه وسلم إلى رب العالمين, وتعلّقِه به وضراعته إليه ما يكفي السائرين على سنته والمقتفين أثره.

واعلم إن الفلاحَ بحذافيره منوطٌ بالتوحيد, والهلاكَ بالشرك, ويا نفسُ أخلصي تخلصي, (من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت)

قال ابن الجوزي رحمه الله: "يا مخدوعًا قد فُتن! يا مغرورًا قد غُبِن! من لك إذا سُوّي عليك اللّبن؟

أنت في دار شتاتٍ فتأهب لشتاتك

واجعل الدنيا كيومٍ صمته عن شهواتك

وليكن فطرك عند الله في يوم وفاتك

إخواني! العمر أنفاسٌ تسيرُ بل تطيرُ، والأملُ منامٌ لا تُرى فيه إلا الأحلامُ، هذا سيف الموت قد دنا، هذا الرحيلُ ولا زاد عندنا، انتبهوا من رُقاد الغفلةَ.





أولُ منازلِ الآخرةِ القبرُ، فمن مات فقد حَطَّ رَحْلَ السفر، وسائرُ الورى سائر.

من كان في سجن التّقى فالموت يطلقهُ، ومن كان هائمًا في بوادي الهوى فالموت له حبس يُوثقه.

من كان واثقًا بالسلامة من الجناية فرح بفكّ باب السجن «والدنيا سجن المؤمن» (٦).

لما توعّد فرعونُ السحرةَ بالصلبِ أنساهم أملُ لقاءِ الحبيبِ مرارةَ الوعيد ﴿قالوا إنا إلى ربنا منقلبون﴾ يا فرعون! غايةُ ما تفعل تُحرق الجِيم والركب قد سرى ﴿ إنا إلى ربنا منقلبون ﴾ من لاحت له منًى نسي تعب المَدْرَج.

متى رُفعت لها بالغور نار وقرّ بذي الأراك لها قرارُ

فكلُّ دمٍ أراق السير منها بحكم الشوق مطلولٌ جُبارُ(٧)

لابد للمحبوب من اختبار المحبّ ﴿ولنبلونكم﴾.

أسلم أبو جندل بن سهيل فقيّدَهُ أبوه، فلما نزل رسول الله ﷺ الحديبيةَ خرج أبو جندلٍ يرسُفُ في قيده، فدخل في الصحابة، فقال سهيلُ: هذا أَوَّلُ من أقاضيكَ عليه، فاستغاث أبو جندل: يا معشر المسلمين، أُردُّ إلى المشركين



فيفتنوني عن ديني، فقال رسول الله ﷺ: «وإنا لا نغدر بهم» (٨) فرُدَّ إليهم، فَقَدَمُه يسعى إليهم، وقلبُه يُجهّزُ جيوشَ الحيل في الخلاص، فخلّصهُ الله.

لما أسلم مصعب بن عميرٍ حبسهُ أهلُه، فأفلت إلى الحبشة، ثم قَدِمَ مكة، فدخل على رسول الله ﷺ، فأرسلت إليه أمه: يا عاقُّ! أتدخل بلدًا أنا فيه ولا تبدأ بي؟ فقال: ما كنتُ لأبدأ بأحدٍ قبلَ رسول الله ﷺ، فأرادت حبسه، فقال: والله لئن حبستني لأحرصنّ على قتل من يتعرّض لي، فتركَتْهُ.

عذّبوا بلالًا فأصرّ على الصبر، فسلّموه إلى صبيانهم في حديدة يصهرونه في حرّ مكة، ويضعون على صدره وقت الرمضاء صخرة، ولسان محبته يقول:

بعينيكَ ما يلقى الفُؤادُ وما لقي ... وللشوقِ ما لم يبقَ منّي وما بقي

قَدِمَ الطفيلُ الدّوسيُّ مكة، فقالت له قريشٌ: لا تدنُ من محمد، فإنا نخافُ أن يفتنك، فسدَّ أُذنيه بقطنتين، ثم تفكّر، فقال: والله ما يخفى عليَّ الحَسَنُ من القبيح، فانطلق فسمع من رسول الله ﷺ فأسلم.



قطعتْ قريشٌ لحمَ خبيب، ثم حملوه إلى الجذع ليُصلب، فقالوا: أتُحبُّ أن محمدًا مكانك؟ فقال: والله ما أحبّ أني في أهلي وولدي، وأن محمدًا شِيكَ بشوكة، ثم نادى: وامحمداه! (٩).

لما بُعث معاذُ إلى اليمن خرج الرسول ﷺ يُودّعهُ، ودموع معاذٍ ترشُّ طريق الوداع.

كانت الدنيا بمثلهم عَسَلًا، فتعلقمت بمثلنا، خَلَتِ الديار من الأحباب، فلمّا فرغت رُدِمَ الباب".

ولتحذر أيها الملتجئ لربك من مبارزته بالمعاصي في الخلوات, فهي من أسباب الشقاء وذرائع الهلكات, "قال إبراهيم التيمي: كنت كثير التردد إلى المقابر أذكر الموت والبلى, فبينما أنا ذات ليلة بها إذ غلبتني عيناي فنمت, فرأيت قبرًا قد انشقّ, وسمعت قائلًا يقول: خذوا هذه السلسلة فاسلكوها في فيه, وأخرجوها من دبره! وإذا الميت يقول: يا رب ألم أكن أقرأ القرآن, ألم أحج بيتك الحرام؟ وجعل يعدد أفعال البر شيئًا بعد شيء، وإذا قائل يقول: كنت تفعل ذلك ظاهرًا، فإذا خلوت بارزت الله بالمعاصي ولم تراقبه.



وعن عبد الله بن المديني قال: كان لنا صديق فقال: خرجت إلى ضيعتي, فأدركتني صلاة المغرب, فأتيت إلى جنب مقبرة فصليت المغرب قريبًا منها، فبينما أنا جالس إذ سمعت من جانب القبور أنينًا, فدنوت إلى القبر الذي سمعت منه الأنين وهو يقول: آه قد كنت أصوم, قد كنت أصلي, فأصابني قشعريرة، فدعوتُ من حضرني فسمع مثل ما سمعت.

ومضيت إلى ضيعتي، ورجعت - يعني في اليوم الثاني - وصليت في موضعي الأول, وصبرت حتى غابت الشمس وصليت المغرب, ثم استمعت إلى ذلك القبر, فإذا هو يئن ويقول: آه, قد كنت أصلي, قد كنت أصوم، فرجعت إلى منزلي ومرضت بالحمى شهرين.

وأقول (١٠): قد وقع لي نظير ذلك، وذلك أني كنت وأنا صغير أتعاهدُ قبرَ والدِي رحمه الله, فخرجت يومًا بعد صلاة الصبح بغلس في رمضان، بل أظن أن ذلك كان في العشر الأخير, بل في ليلة القدر، ولم يكن بالمقبرة أحد غيري، فإذا أنا أسمع التأوه العظيم والأنين الفظيع بآهٍ آهٍ آه, وهكذا بصوت أزعجني مِن قبر مبنيٍّ بالنورة والجُصِّ, فاستمعت فسمعت صوت ذلك العذاب من داخله, وذلك الرجل المعذب يتأوه تأوهًا عظيمًا بحيث يُقلقُ سماعُه القلبَ ويفزعه, فاستمعت إليه زمنًا، فلما وقع الإسفار خفي حسُّه

عني، فمر بي إنسان فقلت: قبرُ من هذا؟ قال: هذا قبر فلان, لرجل أدركتُه وأنا صغير، وكان على غايةٍ من ملازمة المسجد والصلواتِ في أوقاتها والصمتِ عن الكلام!

وهذا كلُّه شاهدتُه وعرفته منه, فكبُرَ عليَّ الأمرُ جدًّا لِمَا أعلمُه من أحوالِ الخير التي كان ذلك الرجل متلبّسًا بها في الظاهر، فسألتُ واستقصيت الذين يطّلعون على حقيقة أحواله فأخبروني أنه كان يأكلُ الربا، فإنه كان تاجرًا ثم كبُرَ وبقي معه شيء من الحطام، فلم ترض نفسه أن يأكلَ من جنبه حتى يأتيه الموت, بل سوّلَ له الشيطان محبة المعاملة بالربا حتى لا ينقص مالُه, فأوقعه في ذلك العذاب الأليم حتى في رمضان حتى في ليلة القدر" (١١).

فلا إله إلا الله ونعوذ به من غضبه وعقابه. اللهم إنا نعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك لا نحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، والحمد لله رب العالمين.

....

(١) رواه ابن إسحاق (٢/٤١٩)

(٢) سيرة ابن هشام ٢/٤٢٠) أخرجه الطبراني كما في مجمع الزوائد (٦/٣٥) قال الهيثمي (٦/٣٥): فيه ابن إسحاق، وهو مدلس ثقة، وبقية



رجاله ثقات. وضعفه الالباني في السلسلة الضعيفة (٤٨٩/٦) قلت: والحديث وإن كان في سنده كلام لتدليس ابن إسحاق, إلا أن معانيه عظيمة شريفة وتلوح عليه أنوار النبوة بأصدق ابتهال وأخلص دعاء وأجمل معنى.

(٣) ابن إسحاق (٤٢١/٢)

(٤) ويسمى قرن المنازل, وهو ميقات أهل نجد والمشرق, ويسمى حالّياً: السَّيل.

(٥) البخاري (٣٢٣١)

(٦) رواه مسلم (١٧٦٣)

(٧) مطلول: مهدور، جبار: هدر.

(٨) أحمد (١٩٤٢٣)

(٩) انظر قصته في يوم الرجيع، سيرة ابن هشام ١٧٢/٢ وهذا النداء من باب الوجد والمحبة، وهو معتاد في لسان العرب، وليس مقصوده الاستغاثة والشرك بحال - وحاشاه -.

(١٠) القائل هو المؤلف، أعني به: ابن حجر الهيتمي رحمه الله.

(١١) الزواجر عن اقتراف الكبائر, للهيتمي (١/ ٣١ -٣٤) باختصار





العفاف ضرورة الزمان

الحمد لله، وبعد: فإن العفاف تاج أخلاق المؤمنين، وشمس صفات المتقين، وقد أجمعت أمم الأرض على استحسانه، ورفعت صاحبه للمقامات العالية، ذلك أنه لا يكون إلا لشريف النفس سامي الخُلق، مأمون الجوانب الغادرة.

ولقد أثنى الله تعالى على أهله، وجلّلهم بحفظه ومعونته، ووعدهم أجزل العطايا وأكبر الهبات لأنهم تساموا بنقاء أرواحهم وحسن تدينهم عن كل ما يشوب ذلك النقاء أو يخدش جناب الإيمان.

وإنه لخُلُقٌ قلبي قبل أن يكون ظاهرًا، فالقلب العامر بمحبة الله تعالى والحياء منه وحسن الرجاء فيه وعظم الخوف منه وتمام التوكل عليه لا بد أن يثمر ذلك صحيح العفاف، فالعفاف عمل قلب لأنه حركة القلب للصلاح والمباح وكفه وسكونه عن الحرام، فهو عمل من هذه الحيثية، وهو كذلك ثمرة من ثمار أعمال القلوب الزاكية، وظهوره في الثمرة أجلى من العمل.





وحَدُّ العفاف: كف النفس عما لا ينبغي لها. وعلى قدر تحقيقه يقترب صاحبه من كماله في نفسه ورفعته عند ربه.

هذا والعفة أنواع عديدة، وجماعها الكف عن الحرام والاستيحاش منه والازورار بعيدًا عن ذرائعه. وهي منقسمه على الجوارح، وأصولها ثلاثة:

عفة الفرج وعفة اللسان وعفة البطن، والبقية متفرعة عنها كالعفة في المال والرئاسة والمدح والتكاثر ونحو ذلك.

وإذا ضبط المرء عفته في أنواع العفة الثلاث فقد انتظمت له سائرها، وتيسرت له عواقبها، ويكون حينها قد لبس ثوب العفاف. وهي كالتالي:

أولًا: العفة عما في أيدي الناس:

وهي أن يعفَّ عما في أيدي الناس، سواء ببصره أو سمعه أو لسانه أو حتى فكره، وأن يقنع برزق الله له، فهو أحكم وأعلم وأرحم. قال الله تبارك وتعالى: (لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ) وكذلك بأن يترك مسألتهم، فعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من يكفل لي ألا يسأل الناس شيئًا وأتكفَّل له بالجنة". فقال ثوبان: أنا. فكان لا يسأل أحدًا شيئًا. (١)



ثانيًا: كف اللسان عن الأعراض:

فيجب على المسلم كف لسانه عن أعراض الناس، وألا يقول إلا طيبًا. فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه، ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه". (٢) ويتبع اللسان القلم والكتابة. فالقلم هو اللسان الثاني. ويلحق به الكف عن الدماء والازورار عن تخوّضها بلا برهان شريعة. ويتبعه كذلك لحظ العين أو حركة اليد أو غيرهما بازدراء أو همز أو لمز، أو أي أذيّةٍ لأي كائن – حتى لو كان كافرًا أو بهيمة أو طيرًا - لم يأذن بها الله عز وجل.

ثالثًا: عفة الفرج عمّا حرم الله:

وهي أن يعفَّ فرجه عن المحرمات والفواحش. وقد اشتدت الحاجة في هذا الزمان للتذكير به والتنويه بشأن أهله والتحذير من تدنيسه، والله المستعان.

الفرج الحرام حفرة إلى الجحيم، وأكثر أهل النار إنما دخلوا منها ومن اللسان، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم



عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ فقال: «تقوى الله وحسن الخلق»، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار. فقال: «الفم والفرج». (٣)

ويتبع عفاف الفرج عفافُ رُسله كالسمع والبصر والكلام وغيرها. يكفي في خبث المعصية مسمّاها لأنها جرأة على مخالفة الجبار جل جلاله ونوع كفر لنعمه التي لا تعد ولا تحصى، فكيف نعصي من لا قوام لنا إلا به؟!

قيمة العفّة وضرورة المؤمن إليها!

إن العفاف برهان التقوى ودليل الاستقامة، فالدنيا بأسرها امتحان صبر واختبار صدق، فمن عفّ وكفّ وصبر لله على الاستقامة فهو المؤمن حقًّا والفاضل صدقًا.

والعفاف ضرورة الزمان، لأنا نعيش زمانًا عاصفًا بكل المقاييس، فأبواب الشهوات المحرمة مشرعة على القلوب الضعيفة بلا رقيب إلا من لدن علام الغيوب!

بل قد تسلطت الشهوات على الشبهات حتى استبطنتها خفية، فصارت الشبهات سلّمًا لبلوغ حظوظ النفس الأمارة بالسوء والفحشاء، ففي الأموال ضعف وازع الخوف من الربا – على سبيل المثال – بسبب اشتباه معاملات



الحلال بالحرام، وساعد على ذلك فتاوى لمتفقّهة التيسير - زعموا - الذين يسوّغون للناس أبوابًا ما كان الشيطان يحلم بها في الزمن الأول! فابتدعوا للعامة معاملات تدور هي والربا على رحى واحدة وتصدر من نبع سوء واحد، قد يقترب بعضها حتى يكون ربًا صريحًا أو يتأخر قليلًا بحسب حقيقته، لكنه لا يخرج من المشتبه المذموم. ولا يعني هذا التعميم بحال لا بأوصاف ولا بأشخاص، فثم علماء أهل فضل وورع، وثمّ معاملات أحدثها الناس لا لبس فيها ولا اشتباه، إنما القصد تنبيه النبيه.

وفي الأنكحة اخترع الشيطان للناس طرقًا قذف زخرفها في قلوب بعضهم فروّجوها حتى اشتبه السفاح الذميم بالنكاح الشريف. وحتى لو خالفه في بعض صوره وشروطه لكنه باقٍ في قبيل المشتبهات. فإذا استمرأ العبد المشتبه والمكروه سهل عليه خوض الحرام الصريح، إذ ثوب الإيمان يتقلص عن المؤمن شيئًا فشيئًا مع كثرة اختلاط المشتبهات والمكروهات في قلبه، وينقص حتى لا يطيق مدافعة الباطل ولا مجاهدة الأمّارة!

حتى في أمور السلطان جرت ببعضهم كلاليب شُبَهٍ ارتضعت لَبَانَ الشهوات، فصار دين بعضهم شهوة سلطانه بلسان حاله فأشبهوا إمامية الرفض وطُرُقية الخرافة.



وفي أمور الرئاسات وسباع الغضب وأدخنة اللهو وقتار الغفلة ما لا يكاد يُحصى تنظيرًا وتطبيقًا.

لذا، كانت قيمة العفاف عزيزة جدًّا في هذا الزمان.

إن العفيف سيد نفسه، غير مستعبد لهواه وطمعه، بل قد علّق ناصية عبادته على وفق شرع ربه، كلّما هبت على نفسه عواصف الشهوات ثبت به العفاف الراسخ في قلبه كالجبل الأشم، يسمو ببصيرته صُعُدًا في مراقي الفلاح، يتنسّم وحي ربه فيتسنّم سبيل رضوانه.

قلبه العامر بالغنى بربه كفاه عفافًا عما سواه، كان في بداية أمره يجاهد نفسه الأمارة حتى رقّاها لتكون لوّامة، فما زال بها حتى اطمأنت وسكنت وابتهجت واغتنت، وأيقنت أن الغِنى - كل الغنى - في الاستعفاف عما لا يحل؛ فكانت من المفلحين. حينها التفت بقلبه العفيف إلى ما خلّفه من حطام وبهرج ثم أشاح عنه عازمًا على لزوم ذلك المنهج، وأي منهج؟! إنه سبيل الله وصراطه ودينه ورضوانه.

يقرأ قول ربه الحاضّ على لزوم طريق العفة بكل أنواعها في البطن والفرج والمال والجوارح وهو يرى تكرار الأمر به في الشريعة: (قل للمؤمنين يغضوا



من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون) فغض البصر يسبقه غض القلب عن خطرات الحرام ويثمر منه حفظ الفرج وصيانته.

وقال سبحانه آمرًا أمرًا حاسمًا جازمًا قاطعًا لكل تسويل باطل وتسويغ ذريعته: (وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله) فعليهم العفاف ومن الله لهم الغنى. والفقر ليس بعذر في الخطيئة: (وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم) وقد تكفّل الله تعالى لأهل العفاف بالغنى والمعونة، فقد بشرنا صلى الله عليه وسلم بوعد الله تعالى للمتعففين، وهو الوعد الذي أحقّه على نفسه كرمًا وامتنانًا وهو لا يخلف الميعاد، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاثة حق على الله عونهم: المجاهد في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف». (٤)

ويتذكّر الصدّيق الذي رمى كل شهوة الدنيا خلف ظهره صارخًا في وجه الهوى: (معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون) فعافاه مولاه: (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين)



حفظه ربه بالعفاف لإخلاصه ونقائه وصدق توحيده فصرف حفرة الغفلة عنه عليه السلام.

لقد كانت العفة محورًا من محاور دعوة النبي العفيف الكريم صلوات ربي وسلامه وبركاته عليه، فلقد كان العفاف حاضرًا في حياته يفعله قبل قوله، فقد كان العفيف الكامل في زمنٍ لم يكن يُستنكر فيه طمع الهوى الظلوم، فقد كان هو الصادق الأمين، والأمين هو المستأمَن على كل ما يخشى عليه تلف الاستطالة من دم أو عرض أو مال.

لقد كان العفاف من الأصول الأولى للإسلام، فقد كان الأمر به واضحًا صريحًا من البداية، فقد ذكره أبو سفيان رضي الله عنه لهرقل حينما سأله عن أوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ففي حديث ابن عباس رضي الله عنهما في شأن كلام هرقل لأبي سفيان ومن معه من رجالات قريش، وفيه: "ويأمرنا بالصلاة، والصدقة، والعفاف.." (٥)

والعفيف غني بقناعته وطيب نفسه وانشراح صدره، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفّة في طعمة». (٦)

لقد كان العفيف الأكبر صلوات الله وسلامه و بركاته عليه يعلي قيمة العفة ويُثنى على الناس بها، إذْ كان العفاف من معايير الإيمان لديه.

وتأمل حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه في أوصاف أهل الجنة وأهل النار وكيف كان العفاف ظاهراً جليًّا معتبرًا ويكأنه الميزان لغيره من الخصال، فحدّث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم في خطبته: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا". وقال: "وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق. ورجل رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم. وعفيفٌ ذو عيال". (٧)

وحتى عند أعنف أمر وهو القتل فعفاف المؤمن حاضر هنالك، فلا يتعدى ولا يمثّل فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أعفّ الناس قتلة: أهلُ الإيمان». (٨)

ومن أدعيته صلوات الله وسلامه و بركاته عليه لربه تعالى: «اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى". (٩)



والعفيف موعود على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم بالجنة، فعن سهل بن سعد رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة». (١٠)

واعلم أن من أعظم أسباب العفاف صدق الدعاء والثقة بالعطاء وحسن الظن بمن هو أرحم بنا من أنفسنا، والعطاء أحب إليه من المنع، ويفرح إن دُعي وسُئل واستُعين واستُغيث واستُنصِر واستُغنِي.

وأكرِم بهذه البشارة النبوية للمتعففين فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «عُرِض عليّ أولُ ثلاثة يدخلون الجنة: شهيد وعفيف متعفف وعبد أحسن عبادة الله ونصح لمواليه». (١١)

فتأمل كيف وصفه بالعفاف والتعفف، ذلك أن النفس مهما كانت سامية عن الدنايا فإنه لا يزال يعرض لها ما يكاد يصرفها عن استقامتها، فكان العبد في حاجة دائمة للمجاهدة بالتعفف، وفيه معنى استمرارية المجاهدة بالتعفف.



إن العفاف خلق يسموا بالنفس جدًّا ويرفعها وينزهها عن الإهانة والمذلة حتى مع ضيق ذات اليد، ولا بد للعفيف من قناعة تبرد لواعج حاجته وتشبع نهمة فاقته.

ولله أبي الحسن النعيمي إذ يقول:

إِذَا أَظْمَأَتْكَ أَكُفُّ اللِّئام كَفَتْكَ القَنَاعَةُ شِبْعاً وَرِيَّا

فَكُنْ رَجُلاً رِجْلُهُ فِي الثَّرَى وَهَامَةُ هِمَّتِهِ فِي الثُّرَيَّا

أَبِيّاً لِنَائِلِ ذِي ثَرْوَةٍ تَرَاهُ بِمَا فِي يَدَيْهِ أَبِيَّا

فَإِنَّ إِرَاقَةَ مَاءِ الحيَاة دُونَ إِرَاقَةِ مَاءِ المُحَيَّا (١٢)

هذا ويتأكد العفاف جدًّا – بمعناه العام - في أزمنة المجاعات أو الفتن التي يختلط فيها الحق بالباطل ويستطيل البشر في الدماء والأموال والأعراض، وهو حديث عزيز جدًّا حريّ بنشره وإشهاره، ففعن أبي ذر رضي الله عنه قال: ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم حمارًا وأردفني خلفه وقال: «يا أبا ذر، أرأيت إن أصاب الناس جوع شديد لا تستطيع أن تقوم من فراشك إلى مسجدك، كيف تصنع؟" قال: الله ورسوله أعلم. قال: «تعفّف».

قال: "يا أبا ذر، أرأيت إن أصاب الناس موت شديد يكون البيت فيه بالعبد - يعني القبر- كيف تصنع؟»، قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «اصبر».

قال: «يا أباذر، أرأيت إن قتل الناس بعضهم بعضًا حتى تغرق حجارة الزيت (١٣) كيف تصنع؟»، قال: الله ورسوله أعلم. قال: «اقعد في بيتك وأغلق عليك بابك»، قال: فإن لم أُتْرَك؟ قال: «فائت من أنت منهم (١٤) فكن فيهم»، قال: فآخذ سلاحي؟ قال: «إذًا تشاركهم فيما هم فيه! ولكن إن خشيت أن يروعك شعاع السيف (١٥) فألقِ طرف ردائك على وجهك حتى يبوء بإثمه وإثمك»، (١٦) إذن فمن العفاف ما يكون في الدماء، وهو أعظم العفاف، والله المستعان.

وهاتِكَ لفتةً عظيمة جميلة في شأن العفاف وهي أن المرء في سيره لإعفاف نفسه ومن يعول فهو مكتوب من أهل سبيل الله، فعن كعب بن عجرة رضي الله عنه أنه قال: مرَّ على النبي صلى الله عليه وسلم رجل، فرأى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من جَلَدِه ونشاطه، فقالوا: يا رسول الله! لو كان هذا في سبيل الله؟ (١٧) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن كان خرج يسعى على ولده (١٨) صغارًا (١٩) فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله،

وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان (٢٠)». (٢١)

هذا والعفاف الخالص لله عز وجل من أكبر أسباب كشف الكربات بإذن الله تعالى، وتأمل حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة في الغار. وفيه: "فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا، ففرج الله عنهم فخرجوا". (٢٢)

هذا وعفيف البطن موعود بالفلاح، ولفظ الفلاح هو أشمل لفظٍ لخيري الدنيا والآخرة، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافًا، وقنّعه الله بما آتاه». (٢٣)

فسِرُّ العفاف إذن هو القناعة!

وقال الحسن البصري: "لا يزال الرجل كريمًا على الناس حتى يطمع في دينارهم، فإذا فعل ذلك استخفوا به، وكرهوا حديثه وأبغضوه". قلت: تصديق ذلك في حديث أبي العباس سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، دلني على



عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس، فقال: "ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس".(٢٤)

ذلك أن المال عزيز بأيدي أصحابه ولا يهون عليهم أخذه من أيديهم، بل إنهم ليصولون دونه صيال السباع الضواري (وتحبون المال حبًّا جما) فكما أنه يهمّهم ويسوقهم تحصيله فكذلك يؤرقهم ويروقهم حفظه، فالشّح مغروز في نفوس البشر، فمن أراد مزاحمتهم عليه قَلوه وأبغضوه إلا من سخت نفسه منهم لأمر خارج عن ذلك كزهد أو غياث أو تحبّب أو صدقة ونحو تلك الرغائب. فأقل الناس أهل القناعة، وأقل قليلهم أهل الزهادة!

واعلم أن فتنة النساء أشد من فتنة المال عند بعضهم، والعكس صحيح لدى آخرين، وكل امرئ قد ركّب فيه ضعف وميل بحكم بشريّته فيستحكم في جهة دون الأخرى، وقد حذّر رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته من الفتنتين فقال في شأن النساء: «ما تركت بعدي فتنة هي أضرّ على الرجال من النساء». (٢٥) وقال في فتنة شأن المال: «لكل أمة فتنة، وفتنة أمتي المال». (٢٦) فلدى بعض الناس ميل غريزي للنساء أكثر بكثير من ميله لجمع المال، ولدى آخرين طمع وجشع وشح وهلع للمال مع زهده في أمر النساء، والشيطان يشمّ قلب عدوه وابن عدوه آدم فحيثما وجد ضعفًا ولج



منه، سواء من هذين البابين أو من سواهما كحب الرئاسة أو محبة الظلم أو غير لك.

وقد جمعهما حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الدنيا حلوة خَضِرة (٢٧) وإن الله مستخلفكم فيها، فناظر كيف تعملون، فاتقوا فتنة الدنيا وفتنة النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل في النساء». (٢٨) ففتنة المال من أوّليات فتنة الدنيا للعالمين.

وبالله التوفيق، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان.

....

١. أبو داود (١٦٤٣) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٦٤٣)

٢. البخاري (١٠)

٣. أحمد (٢/ ٤٧٢، ٢/ ٢٩١) قال محقق جامع الأصول (١١/ ٦٩٤): رواه ابن حبان في صحيحه، وهو حديث صحيح بشواهده. وابن ماجه (٤٢٤٦)

٤. أحمد (٧٤١٦) والترمذي وحسّنه (١٦٥٥) وجوّد إسناده ابن باز في حاشية بلوغ المرام (٧٦٥)

٥. البخاري، الفتح ٦ (٢٩٤١) واللفظ له. ومسلم (١٧٧٣)

٦. أحمد (٢/ ١٧٧) (٦٦٦١) واللفظ له وقال الشيخ أحمد شاكر (١٠/ ١٣٩): إسناده صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٣٠١) (٨٨٦)

٧. مسلم (٢٨٦٥)

٨. أبو داود (٢٦٦٦) واللفظ له. وأحمد (١/ ٣٩٣) (٣٧٢٧) وقال شاكر: إسناده صحيح (٥/ ٢٧٥)

٩. مسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه (٢٧٢١)

١٠. البخاري (٦٤٧٤)

١١. الترمذي (١٦٤٢) وقال: حديث حسن واللفظ له. أحمد (٢/ ٤٢٥) وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده حسن (١٨/ ١٣٧)

١٢. سير أعلام النبلاء (١٧ / ٤٤٧)

١٣. حجارة الزيت: موضع بالمدينة في الحرة سمى بها لسواد الحجارة ولمعانها حتى كأنما طلبت بالزيت، والمراد: أن الدم يعلو حجارة الزيت ويسترها لكثرة القتلى. وهذه إشارة إلى وقعة الحرة التي كانت زمن يزيد من الدماء.

١٤. أي: أهلك وعشيرتك ممن كان على عفافك وورعك.



١٥.أي: إن غلب ضوء السيف وبريقه عينك ونفسك وخشيت أن تقاتل فغطّ وجهك حتى يقتلك فتكون ابن آدم المقتول لا القاتل. وهذا خاص في أزمنة الفتن أما في غيرها فالمدافعة هي السنة لما رواه مسلم ١/٨٧ (١٤٠) (٢٢٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ قال: "فلا تعطه مالك" قال: أرأيت إن قاتلني؟ قال: "قاتله" قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: "فأنت شهيد" قال: أرأيت إن قتلتُه؟ قال: "هو في النار".

١٦.أبو داود (٤٢٦١) وصححه الألباني (٣/ ٨٠٣) وابن ماجه (٣٩٥٨) والحاكم (٤/ ٤٢٤) وأحمد (٥/ ١٤٩، ١٦٣) واللفظ له.

١٧.قالوا هذا لمحبتهم الجهاد في سبيل الله وضنّهم بأشداء الرجال إلا يتوانوا عن تلك المواقف التي يُعزّوا بها دين الله، فأرشدهم صلى الله عليه وسلم بلطفه المعهود إلى أن فضل الله واسع وأن سبيله يشمل من كان ساعياً في شأن عفافه وعفاف عياله.

١٨.الولد يشمل الذكر والأنثى، وفي التنزيل: (يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين).

١٩.يتبع الصغار من كان في حكمهم لمرضه أو إعاقته ونحو ذلك، وخصهم بالذكر إخراجًا للأقوياء من الأولاد حتى لا يتواكلوا ويكونوا عالة يقتاتون على جهد غيرهم وقد أغناهم الله بالقوة.

٢٠.فالاعتبار أنما هو بالنيات.

٢١.رواه الطبراني في الكبير (١٩/ ١٢٩) وقال المنذري في الترغيب والترهيب: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح (٣/ ٦٣)

٢٢.البخاري (٣٤٦٥)

٢٣.مسلم (١٠٥٤)

٢٤.أخرجه ابن ماجه (٤١٠٢) والحاكم (٤/٣١٣) وحسنه النووي في الرياض.

٢٥.متفق عليه.

٢٦.الترمذي (٢٣٣٦) وقال: حديث حسن صحيح غريب.

٢٧.خَضِرَة: غضَّة ناعِمَة طريَّة نضِرة كالثمرة الطيبة.

٢٨.مسلم (٧١٢٤)

وظائف اليوم والليلة

الحمد لله وبعد، فللمؤمن كلّ يوم وليلة أعمالٌ صالحة ترفع للسماء، بعضها واجب وبعضها مستحب، هي درجاتٌ في مراتب الجنات، فمستقلٌّ ومستكثر من فضل رب البريات، قد جعلها الله وظائفَ لعمر المؤمن، يزيد بها أجره ويُقربُه بها من مرضاته وجنته.

والمومن الموفّق يبدأ يومه بصلاة الفجر جماعة مع المسلمين في بيت الله تعالى، فحينما تسمع الأذان انهض مباشرة واحذر من نزغات الشيطان التي تدعوك للكسل عن الصلاة. فمن صفات المنافقين: (وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى). فإن بادرت للمسجد قبل الأذان فأنت من خيرِ مَن أنتَ منهم.

اذكر ربك من حين انتباهِكَ من نومك وأسبغ وضوءك وامش إلى المسجد بسكينة ووقار، ولك بكل خطوة درجة وتكفير خطيئة، كما في الصحيحين.

وعند دخولك المسجد قدّم رجلك اليمنى وقل: "أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وسلطانه القديم، من الشيطان الرجيم، بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله، اللهم افتح لي أبواب رحمتك".



وهناك سنّةٌ راتبة بين الأذان والإقامة، وهي ركعتان خفيفتان، ومما ورد في فضلها قوله صلى الله عليه وسلم: "ركعتا الفجر خير من الدنيا وما عليها" رواه البخاري. وما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعها حضرًا ولا سفرًا، وهي الرغيبة، ويقول: "صلّوها ولو طردتكم الخيل". وإذا كان هذا فضل سنة الفجر، فما بالكم بصلاة الفجر؟! ومن السنة أن تقرأ في الركعة الأولى سورةَ الكافرون وفي الثانية قل هو الله أحد.

ومن فاتته سنة الفجر قبل الصلاة فيشرع أن تُقضى بعد ارتفاع الشمس وإن بعد صلاة الفجر فلا بأس.

واعلم أخي المسلم: إن لصلاة الفجر شأنًا عظيمًا كما قال تعالى: (وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا)" وقال صلى الله عليه وسلم: "مَن صلى البردين دخل الجنة" رواه البخاري، والبردان هما الفجر والعصر. ومنها أن "من صلى الفجر فهو في ذمة الله" رواه مسلم.

ومن أدلة أهمية صلاة الفجر أن الصحابة كانوا يرون أن التخلف عنها من علامات النفاق، كما قال ابن مسعود: "ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق".



أخي في الله: يشرعُ لك بعد الفجر أن تبدأ صباحك بأذكار الصباح الواردة عن نبينا صلى الله عليه وسلم التي تجعل قلبك يعيش في رياض الإيمان، (أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) فالذكر للروح كالماء للسمك، وقال صلى الله عليه وسلم: "مثلُ الذي يذكر ربه والذي لا يذكره كمثل الحي والميت" رواه البخاري.

وإذا صليت الفجر فاذكر أذكار الصلاة ثم أتبعها بأذكار الصباح ولا تقم حتى ترتفع الشمس ففيها أجر عظيم، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ صَلَّى الفجر في جماعة، ثم قَعَدَ يذكرُ الله حتى تطلُع الشمس، ثم صلى ركعتين، كانت له كأجر حَجّةٍ وعمرة تامّة تامّة تامّة». أخرجه الترمذي وحسّنه ووافقه ابن باز والألباني.

ويا عبد الله: لا بد أن يكون لك ورد يومي من القرآن لا يقل عن جزءٍ قد استطاعتك، فلا تهجر كلام ربك فتدخل في شِكاية رسولك صلى الله عليه وسلم، (وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورًا) فليكن لك ورد لا يقطعه إلا الموت، فالأبل ترد الماء لتحيا، وكذلك القلب يردُ القرآن ليحيا، فأحيه بالقرآن ولا تُقسّه بهجره، فأبعدُ القلوب عن الله القلبُ القاسي.



والموفق يعتني بصلاة الضحى، وروى البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "أَوْصَانِي خَلِيلِي بِثَلَاثٍ لا أَدَعُهُنَّ حَتَّى أَمُوتَ: صِيامِ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَصَلاةِ الضُّحَى، وَأن أوتر قبل أن أنام". ويبدأ وقتها بعد طلوع الشمس بنحو ربع ساعة حتى قبيل الظهر بربع ساعة، وأقلها ركعتان، ولا حدّ لأكثرها.

فإذا أُذّن لصلاة الظهر فيستحب لك صلاة أربع ركعات بسلامينِ قبلها لأنه وقتٌ تُفتح فيه أبواب السماء، ثم صل وركعتين بعد صلاة الظهر، كما جاء في الحديث: "من صلى ثنتي عشرة ركعة بنى له الله بيتاً في الجنة"، وهي أربعٌ قبل الظهر، واثنتان بعده. واثنتان بعد المغرب في البيت واثنتان بعد العشاء في البيت، واثنتان قبل صلاة الفجر.

يا عبد الله، بادر وبكّر للصلاة فإنك لا تزال في صلاك ما كنت في انتظارها فإذا صليت فإن الملائكة تستغفر لك ما دمت في مصلاك مالم تنصرف أو تُحدِث، كما صح عنه صلى الله عليه وسلم. فلا تستعجل الخروج من المسجد بعد الصلوات، واعمر وقتك بالذكر فأنت في رياض الجنة.

فإذا دخل وقت العصر استُحِبَّ لك صلاةُ أربع ركعات بسلامين قبل الفريضة، قال صلى الله عليه وسلم: "رحم الله امرأً صلى قبل العصر أربعاً".



وصلاة العصر جِدُ عظيمة، قال تعالى: (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى) والمراد بالوسطى هي العصر. وقال صلى الله عليه وسلم: "مَن ترك صلاة العصر فقد حبط عمله" رواه البخاري.

فإذا صليت العصر وذكرت أذكارها فلا تقم حتى تذكر أذكار المساء، فإنك أن قمت أَنْسَتْك مشاغلُ الدنيا غنائمَ الآخرة! والمؤمن حازمٌ فطن (والآخرة خير وأبقى).

وتحرمُ الصلاة بعد العصر حتى غروب الشمس مما ليس له سبب، وأما الصلوات التي لها سبب فتجوز في أوقات النهي، كصلاةِ الجنازة والاستخارة والطواف والوضوء وتحيةِ المسجد ونحو ذلك، فيجوز فعلُ كلِّ ذلك حتى في أوقات النهي؛ لأنها من ذوات الأسباب. ولكن إذا اقترب وقت الغروب أو الشروق أو الزوال فلا تُصلّى حتى ذواتِ الأسبابِ، وذلك لورود التشديد في النهي عن الصلاة فيها، فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: "ثلاثُ ساعاتٍ نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نصلّي فيهن أو ندفن فيهن موتانا: حين تطلع الشمس بازغةً حتى ترتفع، وحين يقومُ قائمُ الظهيرة حتى تميلَ، وحين تَضَيَّفُ الشمسُ للغروب حتى تغرب".



فإذا غربت الشمس استُحبّت ركعتان قبل صلاتها، قال صلى الله عليه وسلم: "صَلُّوا قبل المغرب، صلُّوا قبل المغرب" وقال في الثالثة: "لمن شاء" رواه البخاري. وعن أنس رضي الله عنه قال: لقد رأيتُ كبار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يبتدرون السواريَ عند المغرب. رواه البخاري.

فإذا صليت المغرب فصل ركعتين والأفضلُ أن تصليَها في بيتك، قال صلى الله عليه وسلم فيها: "هذه صلاة البيوت" رواه مسلم.

وصلاة العشاء معظّمة في الإسلام، قال صلى الله عليه وسلم: "مَن صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الفجر في جماعة فكأنما قام الليل كله" رواه أبو داود بسند صحيح. وقال صلى الله عليه وسلم: "أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً" رواه البخاري. وبعد الفراغ من الصلاة يستحب لك صلاة ركعتين، وهي من السنن الرواتب.

اللهم حبب إلينا الإيمان، وزيِّنْهُ في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين، اللهم ارزقنا حسنَ عبادتك آناء الليل وأطراف النهار.



وإن من أحب الأعمال إلى الله – فاعلم - الصلاةُ في جوف الليل، فصلاة الليل هي أفضل الصلواتِ بعد الفريضة، وصلاة الليل هي زاد المؤمن وراحته وجَنته وجُنَتَه، ومن أسباب الأمن يوم القيامةِ قيامُ الليل، قال تعالى: (واذكر اسم ربك بكرة وأصيلًا . وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلا . إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يومًا ثقيلًا) وتدبر رحمك الله قولَ اللهِ عز وجل عن المؤمنين: (تَتَجَافى جُنُوبُهُم عن المضاجع يدعون ربَّهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم يُنفقون " فلا تعلم نفسٌ مآ أُخفِيَ لهم من قُرَّةِ أَعْيُنٍ جزآءً بما كانوا يعملون).

فإنّ في الجنة نعيمًا ليس من جنس نعيم الدنيا، بل هو جديدٌ بكل تفاصيله وأسمائه، وليس في الدنيا ما يعبَّرُ عنه به حتى ولو على سبيل التقريب والتشبيه، ففي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يقول الله عز وجل: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. اقرءوا إن شئتم: (فلا تعلمُ نفسٌ ما أُخفِي لهم من قُرَّةِ أعينٍ جزاءً بما كانوا يعملون)". فلم يخطُر ذلك النعيمُ على قلبٍ أصلًا، نسأل الله الكريم من فضله. قال بعض السلف: أخفوا لله العمل فأخفى الله لهم الجزاء، فلو قَدِموا عليه لأقرّ تلك الأعين عنده.



وقال الله عن أهل الجنة: (كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ) وقال صلى الله عليه وسلم: "عليكم بقيام الليل؛ فإنه دأبُ الصالحين قبلكم، وقربة إلى الله تعالى، ومكفرة للسيئات، ومنهاة عن الإثم، ومطردة للداء عن الجسد" رواه أحمد والترمذي وصححه الألباني. وقال صلى الله عليه وسلم: "أتاني جبريلُ فقال: يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزُّه استغناؤه عن الناس" رواه الحاكم والبيهقي وحسنه الألباني.

ولا تنس لا تنس لا تنس أن تذكر الله وتعوه في الثلث الأخير من الليل، فعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلثُ الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيبَ له من يسألُني فأعطيَه من يستغفرُنِي فأغفرَ له" وفي رواية: "حتى ينفجر الصبحُ". متفق عليه. فالغنائم أيها النائم.

ومن أراد الخير فليعمل بأسبابه ورأسها الاستعانة بالله تعالى وتقواه، وذُكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلًا نام ليلَهُ حتى أصبح فقال: "ذاك رجل بال الشيطان في أُذنيه" متفق عليه، وهذا فيمن فاته قيامُ الليل؛ فكيف بمن فاتته فريضة الفجر؟! اللهم لا تجعل مصيبتنا في ديننا.



ولما اشتكوا للحسن ضعفهم عن التهجد قال: قيّدتكم خطاياكم. وللسلف مع قيام الليل أخبار شريفة.

أخي في الله: إن من توفيق الله لعبده أن يهديَه لعملٍ صالحٍ لا ينقطع بموته، فلا يزال يصعد درجات الجنة حتى بعد رحيله عن دنيا العمل، بكلمةٍ علّمها، أو نفس أسعدها، أو جَوعة أشبعها، أو علّة داواها، أو بئرٍ حفرها، أو جِلدٍ أدفأه، أو ظلامٍ بدّده، أو طريق عبّده، أو نفعٍ سبّله، أو مسجد بناه، ونحو ذلك من مراضي رب العالمين، إنما المقصود مراعاة رأس المال قبل تحصيل الربح، فإن ذهبت العبادة الخاصة فما تلاها أولى بِذَهابٍ.

وعليك ببناء علمك بالطلب فهو بداية الوصول، والتلاوةِ فهي عطر الروح، والتدبّرِ فهو مفتاح العقل، والحفظِ فهو كنز العلم، والمراجعةِ فهي تأكيدُ الفائدة، والمُدارسةِ فهي لِقاحُ المعرفة، والعلم الذي لا يُدرس يَندرس. وقال إبراهيم بن عبد الواحد موصياً الضياء المقدسي لمّا أراد الرحلة للعلم: أكثِر مِن قراءة القرآن ولا تتركه؛ فإنه يتيسّر لك الذي تطلبه على قدر ما تقرأ. قال الضياء: فرأيت ذلك وجرّبته كثيرًا، فكنتُ إذا قرأتُ كثيرًا تيسّر لي من سماع الحديث وكتابته الكثير، وإذا لم أقرأ لم يتيسر لي.

وعليك بالدعاء فهو زاد المؤمن وقُوْتُه وسلاحه، وما خاب من دعا، وما ندم من ابتهل، وما خسر من تضرّع. ومِن أعظم أسباب إجابة الدعاء: اليقين بربك، وحسن ظنك به، والثقة بلطفه، والطمأنينة لوجوده وإحاطته وعلمه وقُربُه ورحمته. ومن وصايا طاووس بن كيسان: "إيّاك أن تطلب حوائجك ممن أغلق دونك أبوابه، وجعل دونك حجَّابه، وعليك بمن أمرك أن تسأله، ووعدك الإجابة". (وقال ربكم ادعوني أستجب لكم).

ولتكن مستمتعًا دومًا بتطهير روحك برياض العبادة وبساتين الذكر، وغسلِ قلبك بالسجود والخضوع والضراعة، وعينِك بالتفكر والرقائق والدموع، وصدرِك بمحبة الخير للناس والشفقة عليهم والإحسان إليهم، وبطنِك بكثرة الصيام والصدقة وأكلِ الحلال. وواهًا لمن جمعها.

اللهم صل على محمد وأله وصحبه ومن تبعهم بإحسان.



(إذا جاءَ نصرُ اللهِ والفتح)

الحمد لله وبعد، فإن النصر للإسلام مهما انتهت إليه ظنونُ الناس، وحقيقةُ النصر هي تديّن الناس بالإسلام واعتناقهم إيّاه ودخولهم في حوزته، وثباتُ أهله عليه، فثبات المؤمنين على الدين هو حقيقةُ نصرِ الدين، أما ملكُهُ للآفاق فليست كنصرِهِ في النفوس، وإن كنّا -بحمد الله -قد وُعدنا بهذا وهذا.

إنَ من المهمات في هذا العصر نشرُ التفاؤلِ بنصر الإسلام، والاستبشارُ بمستقبله، وحسنُ الظن بالله تعالى فيه، وبعظيم حكمته في أقداره، وحسنِ عاقبته للمؤمنين. فهو الذي وعد نبيَّه بعلوِّ دينه ونصر جنده وعزِّ شريعته مهما تكالبت عليها سباع الكفرة وضباع المنافقين. والتفاؤلُ بجمال المستقبل ليس ضعفًا إذا كان ناشئًا عن حسن الظن بالله تعالى وليس عن خوَر وعجزٍ وكسل، فاستفرِغ جهدك في نصر دين الله ما استطعت لذلك سبيلا، وأحسن الظن بجميل تدبيره. واعلم أنّ الفرقانُ بين التفاؤل والأماني هو الجديةُ والعمل، فالأملُ محتاج لعمل. وأعظمُ الجدّيةِ هي الجديّةُ في الاستقامة على الإسلام، فدعوةٌ بلا استقامة؛ لا عمود لها ولا ثبات ولا



صدقيّة، وإن أردتَ امتحان جدية رجلٍ في الاستقامة، فارقُب تبكيره لشهود صلاة الجمعة، ألا ما أقلّهم وأكْرِم بقليلهم.

وقد يُظنُّ جهلًا بالمتفائلِ سذاجةً لقوّة تفاؤله، ولكن حقيقتُه حسن الظن بربّه ومعرفتُه بسنن الله في خلقه. فلا تخذُل نفسك بالقلق، بل أسعفها بالتفاؤل. ومهما كبَسَت على صدرك جيوشُ الهموم وتراكمت على روحك أرتالُ الغموم، فثمّ نورٌ في الروح، إنّه حسن الرجاء بالله تعالى. ومهما بلغ حجم جليد الكذب يومًا، فشمسُ الزمان كفيلةٌ بإذابته، حينها سيحصحصُ الحقُّ. ومع تتابع الفواجع الدامية في جسد الأمة، تبقى هناك ألطافٌ مدهشة غيرُ متوقعةٍ، ليس لها تفسير سوى لطفِ اللهِ المحض، (إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم).

إن من تأمل أحوال الأمة يرى تكالب الأعداء عليها واستضعافهم لها وتنكيلهم بها ولكن هذه سنة الله تعالى في المداولة والمدافعة وله في ذلك الحكم الباهرة التي تتقاصر دون فهم تفاصيلها العقول، فعلى المؤمن أن يثق كل الثقة ويوقن كل اليقين بأنّ الله ولي الصالحين، وأنّه إن رضيَ عنه، فلا عليه ما فاته من غيره، فالخيرُ بحذافيره في مراضيه، والنعماءُ بكمالها بين يديه، وقد وعد - ووعده الحق - أنّ العاقبة للمتقين.

والحقُّ منصورٌ ومُمتَحنٌ فلا   تعجب فهذي سنةُ الرحمنِ

وتدبر قول الله تعالى: (وما النصر إلا من عند الله) وقد ذكر الله هذا الحرف في آل عمران وكرره في الأنفال مختتما إياه في الموضعين بذكر اسميه الجليلين (العزيز الحكيم) فهو العزيز القوي الغالب، وهو الحكيم الذي يضع الأمور في مواضعها اللائقة وله الحُكُمُ والحكمة، ولا نصر على الإطلاق إلا من الله وحده، فكلما احتجت لنصر - وأنت على الدوام كذلك - فردّد بقلبك: (وما النصر إلا من عند الله) فلن تنتصر على نفسك أو على غيرك من الإنس والجن وغيرهم إلا بحبل الله الناصر، فنصره حقيقي تام، ونصر غيره هباء فانٍ، فتعلّق به وحده واعبده حق العبادة.

لقد وعدنا الله بالنصر إن نصرنا دينه، وبالعز أن اعتصمنا به دون سواه، وبالتمكين إن مكّنّا عبادته في القلوب والأعمال، قال تعالى: (ولينصرن الله من ينصره) وقال سبحانه: (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي) وقال جل وعز: (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) ولا يكفي الصبرُ لإدراك النصر، بل لا بد أن يُقرن بالتقوى (وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئًا).



وأبشر أخا الإسلام ببشرى الله: (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم في الأرض) فالعاقبة للتقوى.

وبحمد الله فمهما صلصل الباطل وجلجل فهو إلى تباب، ويبقى الحق شامخًا راسخًا، وتدبّر أمر أهل الباطل حين: (سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم) ثم كانت النهاية بأيسر طريق: (وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون) إنها سُنَّةُ الصراع بين الحق والباطل ونهايته: (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) (وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا).

جيشٌ من الكفر مهزومٌ إذا صَدَقَتْ نيّاتُ قومي إلى أعلى أعاليها

وافرح – أخا الإيمان -ببشارة نبي الإسلام بنصر الله للإسلام، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله زوى لي الأرضَ فرأيتُ مشارقها ومغاربها، وإنّ أمتي سيبلغ ملكها ما زُوي لي منها". وقال أيضًا: "ليبلغنّ هذا الأمرُ ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك اللهُ بيتَ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلا أدخله الله هذا الدين، بعزِّ عزيزٍ أو بذلّ ذليل، عزًّا يعز الله به الإسلام وأهله، وذلًّا يذل به الكفر".



وتأمل حال الأمة اليوم، واعلم أنّ أحاديث آخر الزمان في الفتن جُلّها في العراق، والملاحم جُلّها في الشام، حتى طريق الدجال للحجاز يكون من بينهما، نعوذ بالله من مضلات الفتن، ونسأله جبرَ القلوب بعزّة الإسلام في قلوب أهله وميادينِ الجهاد في سبيله. وقال الحسن البصري رحمه الله: "لكلّ طريقٍ مختصرًا، ومختصرُ طريقِ الجنةِ الجهادُ". فالنصر للإسلام مهما طال الزمان، ولكل زمانٍ رجالُه.

خَلقَ اللهُ للحروبِ رجالًا   ورجالًا لقَصعةٍ وثَرِيدِ

ولا تكن -لك الله -من المُرجفين ولا البكّائين المتشائمين، وفي الصحيح: "إذا قال الرجل: هَلَكَ الناسُ، فهو أهلكُهُم". والإسلام يعلو ولا يُعلى عليه، واعلم أنّ نصرَ المؤمن وفوزَه لا يلزم منه كسبُ الحرب العسكرية، بل يكفي منه ثبات الناس على الإسلام والإيمان والفضيلة، وهذا معنىً حَسَنٌ تِكرَارُه في المجامع والخلَوات، فمن ثَبَتَ على دينه فهو المنتصر حقًّا مهما كان حال دنياه. فالعبرةُ الحقّ إنما هي بالدين الحق، أما الدنيا فمجرد مَمَرٍّ للسائرين. ورضوانُ الله عز وجلّ أصلُ جميع السعادات، وكلّها راجعة إليه، قال سبحانه لمّا ذكر نعيم الجنة: (ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم).

وتذكّر دومًا تمام النعمة بالإسلام. قال ربنا عز وجل ممتنًّا: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا) وتدبر قوله: (رضيت لكم الإسلام) وهذه أعظم نعمة في الوجود أن هدانا للإسلام ورضيه لنا للوصول إلى مرضاته، قال ابن عباس رضي الله عنهما: "أكملَ لهم الدين فلا يحتاجون إلى زيادة أبدًا، وأتمّه فلا ينقصه أبدًا، ورضيه فلا يسخطه أبدًا".

فتذكر دومًا نعمة هداية الله لك بالإسلام (أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب). وتفكّر كثيرًا كيف تمّمَ الله عليك النعمة في نفسك، وأراكَ العِبرة في غيرك، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق.

فلتكن - رعاك الله -من أصحاب المبادئ لا من أصحاب المصالح، واعلم أنّ المصالحَ تتدثرُ أحيانًا بثياب المبادئ، فتجمعُ ضِغْثًا على إبالة، وحَشَفًا وسُوءَ كِيْلَة. فإنْ يومًا ضعُفَتْ نفسُك وحارَ عقلُك وتحرّك يقينك وتزعزع جأشك؛ فتدبرْ خاتمة الصافات، وفيها يقول ربنا الأعلى: (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين (١٧١) إنهم لهم المنصورون (١٧٢) وإن جندنا لهم الغالبون (١٧٣) فتول عنهم حتى حين (١٧٤) وأبصرهم فسوف يبصرون



(١٧٥) أفبعذابنا يستعجلون (١٧٦) فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين (١٧٧) وتول عنهم حتى حين (١٧٨) وأبصر فسوف يبصرون (١٧٩) سبحان ربك رب العزة عما يصفون (١٨٠) وسلام على المرسلين (١٨١) والحمد لله رب العالمين).

لقد جعل الله تعالى معدَنَ الإسلامِ محفوظًا، فهو غير قابل للتغيير والنّحت والتبديل، قد يتغيّر بعض معتنقيه لكنّ حقيقته باقية محفوظة في صدور وسطور من شاء الله تعالى الله من عباده الذين حفظه بهم وحفظهم به. ومهما اشتدت ضراوة الحرب على الإسلام والتنكيل بأهله، ومهما علت قمم المكر به وكيده، إلا أنّ خصومَهُ يعودون منه بأحمالِ الخيبة، ذلك أنه كاملٌ في ذاته، عَصيٌّ على السقوط بكامله، حتى وإن تعثّر أهلُه لجهلٍ أو ضعفِ عزيمة أو ساعةِ خطيئة، لكنهم في الحقيقة يَعلُون به ولا يُعلى عليهم بغيره.

وأبشر أخا الإيمانِ فالفتحُ قادمٌ وإنْ أجلبَ الشيطانُ كلَّ النَّوَاديا

وليس على الأرض من جميع الأديان والثقافات خصمٌ ثقافي حضاري أخلاقي يقارب الإسلام، لذلك فلا نستغرب توحيدَ الهجمات المتتابعة عليه، قال تبارك وتعالى: (والله متم نوره) فدين الله نور يكتسح ظلام الجاهليات ويُبدِّدُ ظُلُمَ الشياطين ويهدي للحق المبين (ذلك بأن الله هو الحق



وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير)، وقال سبحانه: (ليُظهره على الدين كله ولو كره المشركون) وتدبر معنى الظهورِ المتضمنِ للعلوِ والقهرِ والغلبة والوضوح.

وقال الله تعالى في وصف أثر الإسلام على ظلمات الجهل والظلم والكفر: (يخرجهم من الظلمات إلى النور) فظلماتُهم كثيرةٌ، وسوادُها كثيفٌ، لكن الإسلام شمسٌ تسطعُ فتنير الأرجاءَ، وتضيء الأنحاءَ، وتُذيب أقنعة شمع الأعداء، قال المصباح المنير والبشير النذير صلوات الله وسلامه وبركاته عليه وآله: "لنْ يشادَّ الدينَ أحدٌ إلّا غَلَبَهُ". وفي طلعةِ البدرِ ما يُغنيك عن زُحلِ.

لئِنْ عَزّ ديني واستُبيحَتْ جوارحي فأينَ مقامُ العزِّ إلا مقامِيا





لِبَاس الجوع

الحمد لله حمدًا يليق بجميل فضله وعميم جوده وسابغ إحسانه، والصلاة والسلام والبركة على خيرته من خلقه ومصطفاه من عباده وخليله وكليمه نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان، أما بعد:

فقد سمعت وقرأت أخبارًا كثيرة في الجوع والبأساء والضراء، في اجتماع الفقر والمخمصة والوباء، ولم يطرق قلبي ويهزُّ شعوري كقصة الشيخ إبراهيم بن عبدان البكري الشهري وقد رواها ناصحًا الناس أن يشكروا نعمة الله عليهم وأن يتذكروا قول الله تعالى: (الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف). فما من نعمة إلا من الله (وما بكم من نعمة فمن الله) والله تعالى قد وعد الشاكرين بالمزيد: (وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد) وقد حذّرنا سبحانه من مصارع الأمم وأنذرنا المثُلات: (وقد خلت من قبلهم المثلات وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب) ومن رحمته تعالى أن مسّ عباده بألمٍ كي يزعجهم عن الركون للفانية ويستيقظوا من رقدات الغفلات فقال تبارك وتعالى: (ولقد



أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) وقال سبحانه: (فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلّهم يتضرعون) والبأساء الفقر الشديد، والضراء المرض.

ولقد حدثني الشيخ عبد الله بن محمد الرشيد حفظه الله تعالى عن أخبار الجوع المشهور الذي ربض على نجد قبل عقود، وذكر أنهم كانوا يموتون في الطرقات والفَلَوات وعلى عتبات البيوت، فنسأل الله أن يوزعنا شكر نعمته وأن يعصمنا كفرها، إنه سميع قريب مجيب.

وإلى الخبر الحزين المروّع بلسان الشيخ إبراهيم الشهري، قال حفظه الله ورعاه:

"كنت طفلًا صغيرًا حين نشب خلاف بين أمي وأبي، فغادرت أمي بيتنا مصطحبة معها أخويّ الصغيرين، وتركتني باعتباري أكبر منهما مع والدي، وتزوج أبي زوجة أخرى وأنجب منها طفلتين.

وفي نحو سنة ١٣٥٧ أجدبت ديارنا، وشحّت أرضنا، وانتشر الجوع والفاقة، وضاقت الأرض بما رحبت على أهلها، حتى أكلوا أوراق الشجر وجلود

الحيوانات، حتى كان الرجل يبيع أرضه التي كانت أغلى من روحه من أجل وجبة عشاء يمنح بها نفسه وأهله فرصة أخرى قصيرة للحياة.

حينها شعر والدي بأنه يمثل عبئًا على والده "جدّي" وأنه لن يتمكن من الوفاء بحاجته وحاجة أطفاله، قرر الرحيل بنا، وخرجنا حتى وصلنا إلى الشعف (شعف زهران).

فالتفت إلي والدي وطلب مني الرجوع لأبقى مع جدي وجدتي، فاستجبت له ورحل ثم التفت يقول لي قبل الوداع: لعلنا لا نلتقى بعد هذه اللقاء أبدًا يا بني.

إنها رحلة إلى المجهول، سفر بلا وجهة ولا هدف سوى البحث عن لقمة تسد رمق الطفلتين وأمهما.

وعدت مع جدي، وازدادت الأمور سوءًا، والجوع يخيم على المكان والزمان، والناس تفر من البلد، ولم يبق إلا كبار السن وبعض الصغار.

وحين خاف جدي علي أن أموت جوعًا، أشار علي أن ألحق بأمي وأخويّ الصغيرين عند أهلها.



فذهبت أمشي وأنا في حدود الثانية عشرة إلى أمي على بعد ثلاثين كيلا إلى الشمال من المندق (في منطقة الباحة السعودية) وبقيت أمشي من الصباح حتى جاء المساء، ووصلت إليها ففرحت بي فرحًا عظيمًا واستقبلتني، ورأيتها تبيع الحطب من أجل أن تسد رمق أخويّ الصغيرين، فأضفت إليها عبئًا جديدًا، ولم يمرّ وقت طويل حتى شعرت بأنها عاجزة عن إطعامنا، وخافت أن يقتلنا الجوع، فقالت: انزل يا بني إلى تهامة، لعلك تجد والدك أو تجد شيئًا تأكله. وأرسلت معي أخي الذي يصغرني، وتركت أصغرنا معها، وصحبنا ابن خالتي الصغير أيضًا.

ونزلنا إلى تهامة أقود رحلة الأطفال البؤساء - حيث كنت أكبرهم - فوصلنا إلى تهامة، حيث تنتشر الملاريا والوباء، والناس يموتون فرادى وجماعات من فتك المرض، ولكن لا خيار لنا؛ الموت جوعًا أو وباء! إنها خيارات متقاربة، لابد من الركض إلى النهاية.

مضينا حيث لا نعرف طريقًا ولا وجهة، نقترب في المساء من البيوت لنؤنس وحشتنا، ونأكل ما نجد في الطريق من الشجر، حتى وصلنا سوق الثلاثاء في قلوة اليوم، والناس يتبايعون الحبوب والتمر والزبيب، فنستبق إلى

حبة سقطت هنا أو هناك، والناس لا يكترثون بمنظر الأطفال الجياع يبحثون عن الحبوب كالطير، وذلك لأن الفاقة تضرب الجميع والجوعى كثر.

تفرقنا في السوق، فلما جاء المساء لم أجد أخي ولا ابن خالتي.

بحثت عنهما طوال الليل فلم أجد أخي الصغير وعمره ثمان سنوات إلا في الصباح، فضربته بعنف لشدة خوفي عليه وألمي من فراقه ليلة كاملة، ثم ندمت ندمًا شديدًا على ضربي إياه وهو الصغير الشريد الجائع! فكنت أحتضنه طوال الليل وأبكي ندمًا ورحمة به، ولم أجد ابن خالتي إلا في اليوم الثالث، وجدته قد مات - جوعًا أو مرضًا-.

حينها قررت العودة إلى أمي في الحجاز، وقد خسرنا في الرحلة ابن خالتي، وصعدت بأخي الصغير إلى أمي، وأعلمتها بوفاة صاحبنا، فحزنوا إن كان بقي في قلوبهم حزن حينها، وبكوا إن بقيت لهم عيون يبكون بها.

وما إن وصلت حتى ارتفعت حرارة أخي الذي كان رفيقي في الرحلة، لقد أصابته الملاريا هو الآخر، وظلت أمي وأنا نسهر معه طوال الليل، وكنت أضمّه إلى صدري وأبكي، وحين بزغ الفجر أرادت أمي أن تذهب لتأتي بقربة ماء فناداها أخي المحموم بصوت خافت: لا تذهبي؛ إنني سأموت



الآن قبل أن تعودي بالقربة، وبالفعل مات! شعرتُ أن أمي المسكينة لم يعد في قدرتها القيام بإطعامي مع أخي؛ فعدت إلى جدي في المندق لعل الأوضاع قد تحسنت، فإذا هي قد ازدادت سوءًا، والجوع قد كلح بوجهه في كل الزوايا!

فاقترح عليَّ جدّي أن أنزل من جديد إلى تهامة إلى والدي في القرية الفلانية، فذهبت أمشي أربعة أيام في طريق المجهول، أقترب من المزارع آكل منها وأمضي، وفي ذات مرة اقتربت من بستان أقتات ما أستطيع منه، فإذا بي أرى أبي!

فاحتضنني وبكيت بحرقة وأعلمته بوفاة أخي، وأخبرني بوفاة زوجته، وجعل يخفض من حزني ويقول: سوف أعود فآخذ أمك وأخوك ونعود إلى المندق ويلتئم شملنا من جديد.

فاجتاحني فرح أنساني كل أحزاني، وبشّرت أختيَّ الصغيرتين، وضممتها إليّ، وحدثتهما عن أحلامي وعودة أمي، وكانوا في حجرة صغيرة تحت صخرة في وادي تهامة، وقلت: سأذهب أجتني لكم النبق (وهو ثمر شجر السدر).

وحين عدت بعد المغرب إذ أبي ينتفض من الحرارة، فجعلت أرشُّ عليه الماء وأضع النبق في فمه لعله يأكل، لكنَّ الأجل كان أسرع، ومات أبي وحبات النبق في فمه لم يتمكن من بلعها!

وماتت الفرحة بسرعة، وجاء الناس حولنا حين سمعوا صراخي مع الصغيرتين فدفنوا أبي، ثم ذهبوا وتركونا في الغار وحدنا أنا مع أختيّ، إحداهما في الثانية من عمرها والثانية في الرابعة.

وانضمّت أجسادنا واجتمعت علينا الأحزان، وتجاوبنا الدموع تلك الليلة الموحشة، لنستيقظ في الصباح على موت أختي ذات الأربع سنوات ولحاقها بأبي!

فدفنتها بجوار قبره، ورحلت بالطفلة ذات العامين أسير في حرّ الشمس حتى وصلت إلى قرية في وادي ثمران، حينها رأتني عجوز ورأت اختي على ظهري تصهرها الشمس فقالت: يا ولدي، اترك هذه الضعيفة معي فقد قتلتها الشمس، واذهب لعلها تتعافى ثم تعود إليها، أو تموت فتستريح فتركتها!

وذهبت إلى جدي في المندق وأعلمته بوفاة والدي وزوجته وأختي الصغيرة؛ فبكاه بحرقة وظلّ يبكيه طويلًا حتى فقد بصره، ثم عدت بعد أيام ألتمس أختي عند العجوز فأخبرتني أنها ماتت بسرعة بمجرد فراقي لها!

واستمر الجوع فترة، ثم فرجها الله سبحانه، ونزلت الأمطار على البلد، وأغاث الله الخلق وكشف ما بهم". أهـ

قال الراوي عن الشيخ إبراهيم: "هذا ليس فصلًا من رواية البؤساء، ولا مقطعًا من فيلم في الخيال.. إنها قصة إنسان في هذه الأرض قبل سبعة عقود فقط، قصة بقايا الآلام في وجوه الأحبة الذين ترونهم الآن في الثمانين والتسعين من أعمارهم.

اقرؤوا تلك القصص في وجوههم، دعوهم يحدثونكم عن ندوب التاريخ في وجوههم وأكفهم وقلوبهم.

حدثوا أطفالكم عن معنى المأساة والألم والأحزان والفاقة .

كافحوا أيها الأحبة من أجل الحفاظ على النعم بالعبادة والطاعة وترك المعاصي

والتعاون على البر والتقوى.



أكثروا من الدعاء، ودَعوا الإسراف والتبذير واالتفاخر والكبر، فإن الأيام دول.

تراحموا وارحموا الضعفاء والبائسين والمساكين.

اللهم إنا نعوذ بك من زوال نعمتك وتحول عافيتك وفجاءة نقمتك وجميع سخطك".

وإلى وقفات وعبر في هذا الشأن:

قال الله تعالى واصفًا كيفية إحاطة الجوع بالناس كاللباس: (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كانت آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا من كل مَكَان فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ...} قال الشنقيطي رحمه الله: "في هذه الآية الكريمة سؤال معروف، هو أن يقال: كيف أوقع الإذاقة على اللباس في قوله (فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ...) وروي أن ابن الراوندي الزنديق قال لابن الأعرابي إمامِ اللغة والأدب: هل يُذاق اللباس؟! يريد الطعن في الآية، فقال له ابن الأعرابي: لا بأس أيها النسناس! هب أن محمدًا صلى الله عليه وسلم ما كان نبيًا! أما كان عربيًّا؟



قال مقيده عفا الله عنه: والجواب عن هذا السؤال ظاهر، وهو أنه أطلق اسم اللباس على ما أصابهم من الجوع والخوف؛ لأن آثار الجوع والخوف تظهر على أبدانهم، وتحيط بها كاللباس. ومن حيث وجدانهم ذلك اللباس المعبرَّ به عن آثار الجوع والخوف أوقع عليه الإذاقة، فلا حاجة إلى ما يذكره البيانيون من الاستعارات في هذه الآية الكريمة". (١)

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله في قوله تعالى: (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ . الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ): "أخبر تعالى أنه يبتلي عباده المؤمنين أي: يختبرهم ويمتحنهم، كما قال تعالى: (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ) فتارة بالسرّاء، وتارة بالضرّاء من خوف وجوع، كما قال تعالى: (فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ) فإن الجائع والخائف كل منهما يظهر ذلك عليه؛ ولهذا قال: لباس الجوع والخوف.

وقال هاهنا: (بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ) أي: بقليل من ذلك (وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ) أي: ذهاب بعضها (وَالأَنْفُسِ) كموت الأصحاب والأقارب

والأحباب (وَالثَّمَرَاتِ) أي: لا تُغِلّ الحدائق والمزارع كعادتها. كما قال بعض السلف: فكانت بعض النخيل لا تثمر غير واحدة.

وكل هذا وأمثاله مما يختبر الله به عباده، فمن صبر أثابه الله ومن قنط أحل الله به عقابه. ولهذا قال: (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ).

ثم بيَّنَّ تعالى مَنِ الصابرون الذين شكرهم، قال: { الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ } أي: تسلَّوا بقولهم هذا عما أصابهم، وعلموا أنَّهم ملك لله يتصرف في عبيده". (٢)

وقال في قول الله تعالى: (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ): "هذا مثل أريد به أهل مكة، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يُتخطَّف الناس من حولها، ومن دخلها آمن لا يخاف، كما قال تعالى: (وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا)، وهكذا قال هاهنا: (يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا) أي: هنيئًا سهلًا (مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ) أي: جحدت آلاء الله عليها وأعظم ذلك بعثة محمد صلى الله عليه وسلم إليهم،



كما قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ).

ولهذا بدَّلهم الله بحاليهم الأولين خلافهما، فقال: (فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ) أي: ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يُجبى إليهم ثمرات كل شيء، ويأتيها رزقها رغدًا من كل مكان، وذلك لما استعصوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبوا إلّا خلافه، فدعا عليهم بسبعٍ كسبع يوسف، فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم.

وقوله: (وَالْخَوْفِ) وذلك بأنهم بُدِّلوا بأمنهم خوفًا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، حين هاجروا إلى المدينة، من سطوة سراياه وجُيوشه، وجعلوا كل ما لهم في سَفَال ودمار، حتى فتحها الله عليهم، وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول الذي بعثه الله فيهم منهم، وامتن به عليهم.

وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم، فخافوا بعد الأمن، وجاعوا بعد الرغد، بَدَّل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمنًا، ورزقهم بعد العَيْلَة، وجعلهم أمراء الناس وحكامهم، وسادتهم وقادتهم وأئمتهم". (٣)



والنعيم محلُّ السؤال غدًا بين يدي الله تعالى، قال تعالى: (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) أخرج الإمام أحمد بسنده عن أبي عسيب مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلًا فمرّ بي فدعاني فخرجت إليه، ثم مرّ بأبي بكر فدعاه فخرج إليه، ثم مرّ بعمر فدعاه فخرج إليه، فانطلق حتى أتى حائطًا لبعض الأنصار، فقال لصاحب الحائط: "أطعمنا". فجاء بِعذْق فوضعه، فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ثم دعا بماء بارد فشرب، وقال: "لتسألُنَّ عن هذا يوم القيامة". قال: فأخذ عُمَرُ العذْقَ فضرب به الأرض، حتى تناثر البُسرُ قِبَلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: يا رسول الله، إنا لمسئول عن هذا يوم القيامة؟ قال: "نعم، إلا من ثلاثة: خرقة لفّ بها الرجل عورته، أو كسرة سَدَّ بها جوعته، أو بجحر تَدخَّل فيه من الحرّ والقرّ". (٤)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فقال: "ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟" قالا: الجوع يا رسول الله! قال: "وأنا، والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما، قوما" فقاما معه، فأتى رجلًا من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة، قالت: مرحبًا وأهلًا. فقال لها رسول



الله صلى الله عليه وسلم: "أين فلان؟" (٥) قالت: ذهب يستعذِبُ لنا الماء.(٦) إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله، ما أحد اليوم أكرم أضيافًا منّي، فانطلق فجاءهم بعذق فيه بُسْرٌ وتمر ورطب، فقال: كلوا، وأخذ المُدْيَة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إياك والحلوب" فذبح لهم، فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا.

فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما: "والذي نفسي بيده، لتسألُنَّ عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم". رواه مسلم. (٧)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إنّ أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة من النعيم أن يقال له: ألم نُصِحّ لك جسمك، ونُرْويكَ من الماء البارد؟". (٨)

وعلى مرارة الفقر إلا أنّ الغنى أخطر على المؤمن منه، لأنه سبيل اتّباع شهوات النفوس والأجساد وطيش الأخلاق، فعن عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا عبيدة

بن الجراح رضي الله عنه إلى البحرين يأتي بجزيتها، فقدم بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة، فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، انصرف، فتعرّضوا له، فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآهم، ثم قال: "أظنّكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين؟" فقالوا: أجل يا رسول الله، فقال: "أبشروا وأمّلوا ما يسرّكم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكنّي أخشى أن تُبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم". متفق عليه. (٩)

وقد رضي رسول الله صلى الله عليه وسلم الفقر الكفاف فكان غنيًّا شاكرًا وفقيرًا صابرًا، قد جمع الله له معاقد أخلاق البر وأزِمّة معالي الأمور، فقد عرض الله عليه كنوز الدنيا لو شاءها لكنّه رضيَ الكفاف، فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: "ما شبع آل محمد صلى الله عليه وسلم من خبزِ شعير يومين متتابعين حتى قُبض". متفق عليه. وفي رواية: "ما شبع آل محمد صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعًا حتى قُبض". (١٠) وقالت لعروة: "والله، يا ابن أختي، إن كنّا ننظر إلى الهلال، ثم الهلال: ثلاثة أهلّة في شهرين، وما أُوقد في أبيات رسول الله صلى الله عليه

وسلم نار. قلت: يا خالة، فما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان التمر والماء، إلّا أنّه قد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم جيران من الأنصار، وكانت لهم منائح (١١) وكانوا يرسلون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من ألبانها فيسقينا". متفق عليه.(١٢)

وعن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنه مرّ بقوم بين أيديهم شاة مَصليّة (١٣) فدعوه فأبى أن يأكل، وقال: "خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير". رواه البخاري. (١٤)

وعن أنس رضي الله عنه قال: "لم يأكل النبي صلى الله عليه وسلم على خِوَانٍ (١٥) حتى مات، وما أكل خبزًا مُرَقَّقًا حتى مات". رواه البخاري. وفي رواية له: "ولا رأى شاة سميطًا (١٦) بعينه قط". (١٧)

وذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما أصاب الناس من الدنيا، فقال: "لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يظلُّ اليوم يلتوي ما يجد من الدَّقْلِ (١٨) ما يملأ به بطنه". رواه مسلم. (١٩)



وعن سهل بن سعد رضي الله عنه، قال: "ما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم النَّقِيَّ (٢٠) من حين ابتعثه الله تعالى حتى قبضه الله تعالى. فقيل له: هل كان لكم في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مناخل؟ قال: ما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مِنْخلًا من حين ابتعثه الله تعالى حتى قبضه الله تعالى، فقيل له: كيف كنتم تأكلون الشعير غير منخول؟ قال: كنا نطحنه وننفخه، فيطير ما طار، وما بقي ثريناه (٢١)". رواه البخاري. (٢٢)

وعن خالد بن عمير العدوي، قال: خطبنا عتبة بن غزوان، وكان أميرًا على البصرة، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: "أما بعد، فإن الدنيا قد آذَنَت (٢٣) بصُرْمٍ، (٢٤) وولت حَذَّاء، (٢٥) ولم يبق منها إلا صُبابة (٢٦) كصبابة الإناء يتصابّها (٢٧) صاحبُها، وإنّكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم، فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يُلقى من شفير جهنم فيهوي فيها سبعين عامًا لا يُدرك لها قعرًا، والله لتُملأنّ، أفعجبتم؟!

ولقد ذُكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين عامًا، وليأتينّ عليها يوم وهو كَظِيظٌ (٢٨) من الزحام.



ولقد رأيتُني سابع سبعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما لنا طعامٌ إلا ورق الشجر، حتى قرحت (٢٩) أشداقنا، فالتقطت بردة فشققتها بيني وبين سعد بن مالك، فاتّزرت بنصفها، واتّزر سعد بنصفها، فما أصبح اليوم منا أحد إلا أصبح أميرًا على مصر من الأمصار، وإني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيمًا، وعند الله صغيرًا". رواه مسلم. (٣٠)

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: أخرجت لنا عائشة رضي الله عنها كساء وإزارًا غليظًا، قالت: قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين. متفق عليه. (٣١)

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: "إنّي لأوّل العرب رمى بسهم في سبيل الله، ولقد كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لنا طعام إلا ورق الحبْلَة، وهذا السَّمر، حتى إن كان أحدنا ليضعُ كما تضعُ الشاة ما له خُلْطٌ". متفق عليه. (٣٢)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللهم اجعل رزق آل محمد قُوتًا (٣٣)". متفق عليه. (٣٤)



وعن عائشة رضي الله عنها قالت: "توفّي رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعًا من شعير". متفق عليه. (٣٥)

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيت الليالي المتتابعة طاويًا، وأهلُه لا يجدون عشاء، وكان أكثرُ خبزهم خبزُ الشعير". (٣٦)

وعن أنس رضي الله عنه قال: رهن النبي صلى الله عليه وسلم درعه بشعير، ومشيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم بخبز شعير وإهالة سنخة (٣٧)، ولقد سمعته يقول: "ما أصبح لآل محمد صاع (٣٨) ولا أمسى". وإنهم لتسعة أبيات. رواه البخاري. (٣٩)

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: "كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم من أَدَمٍ (٤٠) حشوه ليف". رواه البخاري. (٤١)

وهكذا صبر أصحابُه على المرارة واللأواء لعلمهم أن الدنيا متاعُ المسافر وزادُ الراكب وبُلْغَةُ الطريق، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "لقد رأيت سبعين من أهل الصفة، ما منهم رجل عليه رداء، إما إزار وإما كساء، قد

ربطوا في أعناقهم منها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين فيجمعه بيده كراهية أن تُرى عورتُه". رواه البخاري.(٤٢)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: والله الذي لا إله إلا هو، إن كنتُ لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشدّ الحجر على بطني من الجوع. ولقد قعدت يوما على طريقهم الذي يخرجون منه، فمرَّ بي النبي صلى الله عليه وسلم، فتبسم حين رآني، وعرف ما في وجهي وما في نفسي، ثم قال: "أبا هرّ" قلت: لبيك يا رسول الله، قال: "الحق" ومضى فاتّبعته، فدخل فاستأذن، فأذن لي فدخلت، فوجد لبنًا في قدح، فقال: "من أين هذا اللبن؟" قالوا: أهداه لك فلان - أو فلانة - قال: "أبا هر" قلت: لبيك يا رسول الله، قال: "الحق إلى أهل الصُّفَّة فادعهم لي" قال: وأهلُ الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحد، وكان إذا أتته صدقة بعث بها إليهم، ولم يتناول منها شيئًا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم، وأصاب منها، وأشركهم فيها. فساءني ذلك، فقلت: - أي في نفسي - وما هذا اللبن في أهل الصفة! كنتُ أحقُّ أن أصيب من هذا اللبن شربةً أتقوّى بها، فإذا جاءوا وأمرني فكنت أنا أعطيهم؛ وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن. ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم بدٌّ،



فأتيتهم فدعوتهم، فأقبلوا واستأذنوا، فأَذن لهم وأخذوا مجالسهم من البيت، قال: "يا أبا هرّ" قلت: لبيك يا رسول الله، قال: "خذ فأعطهم" قال: فأخذت القَدَح، فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يردُّ علي القدح، فأعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يرد علي القدح، فأعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يرد علي القدح، حتى انتهيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقد روي القوم كلُّهم، فأخذ القدح فوضعه على يده، فنظر إليّ فتبسم، فقال: "أبا هرّ" قلت: لبيك يا رسول الله، قال: "بقيت أنا وأنت" قلت: صدقت يا رسول الله، قال: "اقعد فاشرب" فقعدت فشربت، فقال: "اشرب" فشربت، فما زال يقول: "اشرب" حتى قلت: لا، والذي بعثك بالحق لا أجد له مسلكًا! قال: "فأرِني" فأعطيته القدح، فحمد الله تعالى، وسمّى وشرب الفضلة. رواه البخاري. (٤٣)

وعن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: "لقد رأيتُني وإني لأخِرُّ فيما بين منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حجرة عائشة رضي الله عنها مغشيًّا عليّ، فيجيء الجائي، فيضع رجله على عنقي، ويرى أني مجنون، وما بي من جنون، ما بي إلا الجوع!". رواه البخاري. (٤٤)

صُفْرُ الوجوهِ كأنَّ السُّلَّ خَامَرَهُمْ ... وما بهم غيرَ جَهْدِ الجوعِ من باسِ

إن السعيدَ من ولد آدم هو من كان عظيمَ الإيمان راسخَ اليقين رخيَّ البال بالقناعة، وهي الحياة الطيبة، فعن عبيد الله بن محصن الأنصاري الخطمي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أصبح منكم آمنًا في سِرْبِه، (٤٥) معافى في جسده، عنده قوتُ يومه، فكأنّما حيزت له الدنيا بحذافيرها". رواه الترمذي وحسّنه. (٤٦)

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "قد أفلح من أسلم، وكان رزقه كفافًا، وقنّعه الله بما آتاه". رواه مسلم. (٤٧)

وعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا صلى بالناس، يخرُّ رجالٌ من قامتهم في الصلاة من الخَصاصة -أي من الجوع، وهم أصحاب الصفة - حتى يقول الأعراب: هؤلاء مجانين. فإذا صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف إليهم، فقال: "لو تعلمون ما لكم عند الله تعالى، لأحببتم أن تزدادوا فاقة وحاجة". رواه الترمذي وصححه. (٤٨)

والله تبارك وتعالى يبتلي أولياءه حتى إذا ضاقت أمورهم فرّجها برحمته، وإن تعسّرت أحوالهم يسّرها بفضله، وإن أظلمت نفوسهم نوّرها بهُداه، وإن



انقطعت سُبُلهم وصلها بإحسانه، فهو طبيب عباده يبتليهم ليرفع درجتهم ويطهّرهم، وفرجه لهم عند حاجتهم أقرب إليهم من رمش عيونهم، فليس مع الله ضيعة. وغمسةٌ في الجنة تُنسي شقاء الدنيا كله!

يا صاحب الهم إن الهم منفرج أبشر بخير فإن الفارج الله

وإذا بُليت فثق بالله وارض به إن الذي يكشف البلوى هو الله

الله يحدث بعد العسر ميسرة لا تجزعن فإن الصانع الله

والله ما لك غير الله من أحد فحسبك الله في كل لك الله

فالبلاء إن نزل معه الصبر والرضا فهو رحمة ونعمة، فإن قابله بجزع وتسخّطٍ فهو عذاب إلى عذاب. فكلُّ مصيبة ليست في الدين فهي نعمة في الحقيقة.

وأولياء الله مهما اشتدت بهم البلايا فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، قال ربنا تبارك وتعالى: (إن الله يدافع عن الذين آمنوا) وقال سبحانه في الحديث الإلهي: "مَنْ عادى لي وَلِيّاً فَقَدْ آذَنْتهُ بالحَرْبِ (٤٩) وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدي بشَيءٍ أَحَبَّ إلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقرَّبُ إلَيَّ بالنَّوافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحببْتهُ كُنْتُ سَمعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ،



وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي أَعْطَيْتُهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ". رواه البخاري. (٥٠)

فاشدُد يديك بحبل الله معتصمًا فإنّه الركن إن خانتك أركانُ

وعن أبي عبد الله جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمّر علينا أبا عبيدة رضي الله عنه، نتلقى عيرًا لقريش، وزوّدنا جِرابًا من تمر لم يجد لنا غيره، فكان أبو عبيدة يعطينا تمرة تمرة، فقيل: كيف كنتم تصنعون بها؟ قال: نمصُّها كما يمصُّ الصبي، ثم نشرب عليها من الماء، فتكفينا يومنا إلى الليل، وكنا نضرب بعصينا الخَبَط، ثم نبلُّه بالماء فنأكله. قال: وانطلقنا على ساحل البحر، فرُفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضخم، فأتيناه فإذا هي دابة تدعى العنبر(٥١) فقال أبو عبيدة: ميتة، ثم قال: لا، بل نحن رسلُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، وفي سبيل الله، وقد اضطررتم فكلوا، فأقمنا عليه شهرًا، ونحن ثلاثمئة حتى سمنّا، ولقد رأيتُنا نغترف من وَقْبِ عينه بالقِلال الدهنَ، ونقطع منه الفِدَرَ كقدر الثور، ولقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلًا فأقعدهم في وقْبِ عينه، وأخذ ضلعًا من أضلاعه فأقامها ثم رحَّلَ أعظم بعير معنا فمرّ من تحتها، وتزوّدنا من لحمه وشائق، فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله صلى الله

عليه وسلم فذكرنا ذلك له، فقال: "هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شيء فتطعمونا؟" فأرسلنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منه فأكله. رواه مسلم. (٥٢)

لقد كان احتمال الفاقة بسخاوة النفوس من كريم سجايا العرب، فإنْ صاحبها إيثارٌ ومواساة فهي من الأخلاق بالمحل الأرفع ومن الشيمِ بالمكان السامي، فالمؤمنون يصبرون ويرضون ويؤثرون، (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) وقال تعالى في وصف الأنصار: (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة). وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: إنِّي مجهودٌ (٥٣) فأرسل إلى بعض نسائه، فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء، ثم أرسل إلى أخرى، فقالت مثل ذلك، حتى قلن كلهن مثل ذلك: لا والذي بعثك بالحقِّ ما عندي إلا ماء!

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "من يضيِّفُ هذا الليلة؟" فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله، فانطلق به إلى رَحله، فقال لامرأته: أكرمي ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم. - وفي رواية - هل عندك شيء؟ فقالت: لا، إلا قوت صبياني. قال: فعلِّليهم بشيء، وإذا أرادوا العشاء



فنوّميهم، وإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج، وأريه أنا نأكل. فقعدوا وأكل الضيف وباتا طاويين.

فلما أصبح غدا على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: "لقد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة" متفق عليه. (٥٤)

والعرب تمجِّد الكريم المؤثِر على نفسه، قال عروة بن الورد - وهو من شعراء الصعاليك-:

أَتَهْزَأُ مِنِّي أَنْ سَمِنْتَ وَأَنْ تَرَى ... بِجِسْمِي مَسَّ الْحَقِ وَالْحَقُّ جَاهِدُ

أُقَسِّمُ جِسْمِي فِي جُسُومٍ كَثِيرَةٍ ... وَأَحْسُو قِرَاحَ الْمَاءِ وَالْمَاءُ بَارِدُ

يريد: أنه يقسم قوته على أضيافه، فشبّه قسم قوته على أضيافه بقسم جسمه؛ لأنّ اللحم الذي كان ينبته ذلك الطعام صيّره لغيره، ويحسو ماء القراح في الشتاء ووقت الجدب والضيق؛ لأنه يؤثر باللبن أضيافه ويجوّع نفسه حتى نحل جسمه، وهذا شعر شريف المعاني والألفاظ. (٥٥)

وقد حمدوا لحاتم الطائيِّ كرمه وإيثاره، ومن حديثه أن ماويَّةَ امرأةَ حاتم حدَّثت: أن الناس أصابتهم سَنَة فأذهبت الخُفَّ والظلف، فبتنا ذاتَ لَيلةٍ بأشدِّ الجوع، فأخذ حاتم عديًّا وأخذْتُ سفَّانة فعلَّلْنَاهما حتى ناما، ثم أخذ

يُعَللني بالحديث لأنام، فرققت له لما به من الجهّد، فأمسكت عن كلامه لينام ويظن أني نائمة. فقال لي: أنِمْتِ؟ - مرارًا - فلم أجبه، فسكت.

ونظر من وراء الخِباء فإذا شيء قد أقبل، فرفَع رأسَه فإذا امرأة تقول: يا أبا سَفَّانة، أتيتُكَ من عند صِبْية جِياع، فقال: أحضريني صبيانَكِ، فواللّه لأشْبِعَنَّهم، قالت: فقمتُ مُسْرِعة فقلت: بماذا يا حاتم؟ فوالله ما نام صِبْيَانك من الجوع إلا بالتعليل!

فقام إلى فَرَسه فذبَحه، ثم أجَّجَ نارا ودفع إليها شَفْرة وقال: اشْتَوِي وكُلِي وأطْعِمِي ولدك، وقال لي: أيْقِظِي صبيتَكَ فأيقظتهما.

ثم قال: واللّه إن هذا للؤم أنْ تأكُلُوا وأهلُ الصِّرْمِ (٥٦) حالُهم كحالكم، فجعل يأتي الصِّرْمِ بيتًا بيتًا ويقول: عليكم النار، فاجتمعوا وأكلوا وتَقَنَّع بكسائه وقَعَد ناحيةً حتى لم يوجد من الفرس على الأرض قليل ولا كثير، ولم يَذُقْ منه شيئًا.

وزعم الطائيون أن حاتمًا أخذ الجودَ عن أمِّهِ غنية بنت عفيف الطائية وكانت لا تليق شيئاً سَخَاء وجودًا". (٥٧)

والحمد لله رب العالمين.

١٤٤١/١/١٩

....

١. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٢ / ٤٦٠)

٢. تفسير ابن كثير (١ / ٤٦٧)

٣. تفسير ابن كثير (٤ / ٦٠٨) باختصار.

٤. المسند (٥/٨١) وحسنه الألباني في المشكاة (٤١٨٢) والأرناؤوط في المشكل (٤٩٦)

٥. هو أبو الهيثم بن التيهان كما جاء مبيّنًا في رواية الترمذي في جامعه (٢٣٦٩)

٦. أي: يطلب الماء العذب.

٧. مسلم ١١٦/٦ (٢٠٣٨) (١٤٠)

٨. الترمذي (٣٣٥٨) وصححه، ووافقه الألباني في صحيح الترمذي (٣٣٥٨) والأرناؤوط في الزاد (٤/ ١٩٧)

٩. البخاري ١١٧/٤ (٣١٥٨) ، ومسلم ٢١٢/٨ (٢٩٦١) (٦)

١٠. البخاري ٩٧/٧ (٥٤١٦) ، ومسلم ٢١٧/٨ (٢٩٧٠) (٢٠)



١١. المنحة والمنيحة: أن يعطيه ناقة أو شاة أو بقرة، ينتفع بلبنها ويعيدها. النهاية (٣٦٤/٤).

١٢. البخاري ٢٠١/٣ (٢٥٦٧) ، ومسلم ٢١٨/٨ (٢٩٧٢) (٢٨)

١٣. أي مشويّة.

١٤. البخاري ٩٧/٧ (٥٤١٤)

١٥. الخوان: ما يوضع عليه الطعام عند الأكل. النهاية (٨٩/٢).

١٦. أي مشوية. وفعيل بمعنى مفعول، وأصل السمط أن ينزع صوف الشاة المذبوحة بالماء الحار، وإنما يفعل بها ذلك في الغالب لتشوى.

١٧. البخاري ٩٨/٧ (٥٤٢١) و١١٩/٨ (٦٤٥٠)

١٨. الدقل: تمر رديء.

١٩. مسلم ٢٢٠/٨ (٢٩٧٨) (٣٦)

٢٠. أي الذي ليس فيه نخالة.

٢١. ثريناه: أي: بللّناه وعجنّاه.

٢٢. البخاري ٩٦/٧ (٥٤١٣)

٢٣. أي: أعلَمَتْ.

٢٤. أي: بانقطاع وفناء.

٢٥. أي: سريعة.

٢٦. الصُبابة: هي: البقية اليسيرة.

٢٧. أي: يجمعها.

٢٨. الكظيظ: الكثير الممتلئ.

٢٩. قرحت: أي صارت فيها قروح.

٣٠. مسلم ٨/٢١٥ (٢٩٦٧) (١٤)

٣١. البخاري ٧/١٩٠ (٥٨١٨) ، ومسلم ٦/١٤٥ (٢٠٨٠) (٣٥)

٣٢. البخاري ٨/١٢١ (٦٤٥٣) ، ومسلم ٨/٢١٥ (٢٩٦٦) (١٢)

٣٣. أي: ما يسد الرمق.

٣٤. البخاري ٨/١٢٢ (٦٤٦٠) ، ومسلم ٣/١٠٢ (١٠٥٥) (١٢٦)

٣٥. البخاري ٤/٤٩ (٢٩١٦)، ومسلم ٥/٥٥ (١٦٠٣) (١٢٥)

٣٦. ابن ماجه (٣٣٤٧) ، والترمذي (٢٣٦٠)

٣٧. أي الشحم الذائب المتغير الرائحة.

٣٨. الصاع: مكيال يسع أربعة أمداد. النهاية (٣/ ٦٠)

٣٩. البخاري ٣/١٨٦ (٢٥٠٨)

٤٠. الجلد المدبوغ.

٤١. البخاري ٨/١٢١ (٦٤٥٦)

٤٢. البخاري ١/١٢٠ (٤٤٢)

٤٣. البخاري ٨/١١٩ (٦٤٥٢)

٤٤. البخاري ٩/١٢٨ (٧٣٢٤)

٤٥. أي في نفسه وقومه.

٤٦. الترمذي (٢٣٤٦) وقال: حديث حسن غريب.

٤٧. مسلم ٣/١٠٢ (١٠٥٤) (١٢٥)

٤٨. الترمذي (٢٣٦٨) وقال: حديث حسن صحيح.

٤٩. أي: أعلمته بأنّي محارِب لَه.

٥٠. البخاري ٨/١٣١ (٦٥٠٢)



٥١. وهو حوت عظيم.

٥٢. مسلم ٦/٦١ (١٩٣٥) (١٧)

٥٣. أي: مهزولٌ جائع.

٥٤. البخاري ٥/٤٢ - ٤٣ (٣٧٩٨)، ومسلم ٦/١٢٧ (٢٠٥٤)

٥٥. المجالسة وجواهر العلم (٥ / ٣٧٦) بتصرف.

٥٦. أي: جماعة البيوت.

٥٧. مجمع الأمثال (١ / ١٨٢)





من هدايات سورة الشعراء

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى أله وصحبه وسلم، أما بعد؛ فهذه وقفات تدبّرية لبعض آيات سورة عظيمة مكّية هي الشعراء.

ذكر الله تعالى خليله إبراهيم عليه السلام بأخبار جميلة وأوصاف حميدة، فهو من وصفه ربّه تعالى في سورة النعم بكونه أمّة: (إن إبراهيم كان أمة)، وتأمل كيف كانت صفة الرضا بالله وعن الله معلمًا واضحًا من معالم شخصيته وآثار سيرته عليه السلام، وكيف كان إمام المستسلمين لأمر الله تعالى، قال سبحانه في سورة البقرة: (إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين) وكيف أتمّ الكلمات الي ابتلاه الله بها (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن)، وكيف سلّم أمره وابنه تمامًا لربّه تعالى (فلما أسلما وتله للجبين)، ثم جاهد في الله حق جهاده في الدعوة والجهاد باللسان والحجة واليد - بكسر الأصنام - والصبر العظيم والرضا العجيب والحمد الكبير لربه حينما كان يُبتلى فيه فيرضى ويسلّم ويجاهد لوحده أمّة كافرة جائرة لوجه ربه تبارك وتعالى.

قال سبحانه: (إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين. شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين. ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين).

وقال الأمام المجدد رحمنا الله وإيّاه في الكلام على هذه الآية الكريمة: (إن إبراهيم كان أمّة): "لئلّا يستوحش سالكُ الطريق من قلّة السالكين، (قانتا لله)، لا للملوك ولا للتّجار المُترفين، (حنيفًا)، لا يميل يمينًا ولا شمالًا كفعل العلماء المفتونين، (ولم يك من المشركين)، خلافًا لمن كثّر سوادهم وزعم أنّه من المسلمين". (١)

وتدبّر كيف نسب الله كل نبي في سورة الشعراء لقومه (إذ قال لهم أخوهم نوح)، (إذ قال لهم أخوهم هود)، (إذ قال لهم أخوهم صالح)، (إذ قال لهم أخوهم لوط)، خلا ثلاثة أنبياء ولكل منهم سبب، الخليل وموسى وشعيب عليهم السلام.

أما موسى عليه السلام فلعل من الأسباب؛ ابتداءُ خبرِه بنداء ربه تعالى له فقال جل شأنه: (وإذ نادى ربك موسى) وهذه التَّقدُمة الهائلة شرف ما بعده شرف، وبهذا فكأنّه خرج عن هذا العالم إلى عالم الملكوت السماوي





الربّاني برفعه لرتبة أن يكلّمه الله تعالى بلا واسطة مع وجود الحجاب، أما بدون حجاب فهو الكِفَاح، وهو الكلام مع المواجهة والرؤية ومنه حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لقِيني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مُهْتَمّ، فقال: "ما لي أراك مُنكسرًا؟" قلتُ: اسْتُشْهِدَ أبي يومَ أُحُد، وترك عيالًا ودَيْنا، فقال: "ألا أُبَشّرُكَ بما لقي اللهُ به أباك؟" قلتُ: بلى، قال: ما كلَّم الله أحدًا قطُّ إلا من وراء حجاب، وإنه أحيَى أباك، فكلَّمه كِفاحًا، فقال: يا عبدي، تمنَّ عليَّ أُعْطِكَ، قال: يا ربِّ، تُحيِيني فأُقتل ثانية، قال سبحانه: قد سَبَقَ منّي أنَّهم إليها لا يرجعون، فنزلت: {ولاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أمْوَاتا بَلْ أحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُون}. (٢)

وأما شعيب عليه السلام فلعل ذلك راجع إلى وصف الله تعالى لأمته بأصحاب "لئيكة" والأيكة هي الشجر الملتفّ وهي الغيضة، وقيل إنها من الدّوم، وهو شجر كالنخيل لكن ثمره قليل النفع، ويكثر في السباخ. وقيل من المَقْل، وهو السّدر ويسمّى كذلك النّبق. فلمّا عبدوا الشجرة من دون الله ونسبهم الله إليها نزّه الله رسوله عن الانتساب إليهم وإليها، صيانة لاسمه عن فعلهم ووصفهم. قال ابن جزي رحمه الله تعالى في قول الله تعالى: (إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ): "لم يقل هنا أخوهم كما قال في قصة نوح وغيره،



وقيل: إنّ شعيباً بُعث إلى مدين، وكان من قبيلتهم، فلذلك قال: { وإلى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً } [الأعراف : ٨٥ ، هود : ٨٤ ، العنكبوت : ٣٦]، وبُعث أيضًا إلى أصحاب الأيكة ولم يكن منهم، فلذلك لم يقل أخوهم، فكان شعيباً - على هذا - مبعوثًا إلى القبيلتين. وقيل: إنّ أصحاب الأيكة مدين، ولكنه قال: (أخوهم) حين ذَكرهم باسم قبيلتهم، ولم يقل أخوهم حين نسبهم إلى الأيكة التي هلكوا فيها، تنزيهًا لشعيب عن النسبة إليها". (٣)

شاهد المقال أنه قد جاء في نفس السياق وذات السورة كذلك ذكر الله تعالى تكذيب الأمم بأعيانها، فقال سبحانه: (كذبت قوم نوح المرسلين)، (كذبت عاد المرسلين)، (كذبت ثمود المرسلين)، (كذبت قوم لوط المرسلين)، (كذب أصحاب الأيكة المرسلين)، أما إبراهيم عليه السلام فلم يذكر ذلك في قومه، كذلك موسى عليه السلام، أمّا موسى عليه السلام فلعل السبب إرساله إلى أمتي القبط وبني إسرائيل، فأصالة لبني إسرائيل وتبعًا لمن تيسّر له من الفراعنة كما في دعوته للملأ من قوم فرعون: (قال ربكم ورب آبائكم الأولين)، ولسحرة فرعون: (قال لهم موسى ويلكم لا



تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى) وقد أسلموا - بحمد الله على يديه -.

أما خليل الرحمن أبو الأنبياء عليه وعليهم السلام فله شأن آخر في ذلك كلّه، فابتداء لم ينسبه ربه إلى قومه كبقية إخوته الأنبياء، كما لم يذكر قومه بنفس ذكر بقية الأقوام وتكذيبهم المرسلين، والله أعلم بمراده من ذلك، ولعل من الأسباب أنّه كان أمّة وحده تقتدي به من بعده جميع الأمم برسلهم وأنبيائهم وإليه تنسب الملّة الحنيفيّة، فهو لهم إمام حتى ختم الله أنبياءه ورسله بالنبي الرسول الأمّة الحنيف الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم، الذي صلّى بجميع الأنبياء إمامًا في المسد الأقصى ليلة الإسراء والمعراج، وقد أخذ الله على جميع الأنبياء والمرسلين عهدًا باتّباعه ولم يستثن في الآية أحدًا، فقال سبحانه: (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ). والإصْرُ: هو العهد والميثاق.

وقد قال على بن أبى طالب، وابن عمه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: "ما بعث الله نبيًّا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بعث محمدًا وهو حيٌّ



ليؤمننّ به ولينصرَنَّه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته: لئن بُعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه". (٤) وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه، أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى رسولَ الله بنسخة من التوراة، فقال: يا رسول الله، هذه نسخة من التوراة، فسكت فجعل يقرأُ ووجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتغيّر، فقال أبو بكر: ثكلتك الثواكل، ما ترى بوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم! فنظر عمر إلى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أعوذ بالله من غضب الله، ومن غضب رسوله، رضينا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًّا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والذي نفس محمد بيده، لو بدا لكم موسى فاتّبعتموه وتركتموني لضللتم عن سواء السبيل، ولو كان حيًّا وأدرك نبوّتي لاتّبعني". (٥)

وكان نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم أشبه الناس بأبيه إبراهيم عليهما السلام خلْقًا وخُلُقًا. فمحمدٌ مجدِّدٌ لدين إبراهيم وزيادة، صلى الله عليهما وآلهما وسلّم وبارك.

والمقصود، أنّ الله تعالى قد وصف الله خليله عليه السلام بقوله: (إنّ إبراهيم كان أمة) فإبراهيم عليه السلام معروفٌ نسبه في أُمّته وقد بُعث فيهم رسولًا



عظيمًا، ولكن لمّا كان إبراهيم عليه السلام بهذه المثابة في التأسّي بملّته وإمامته صار انتساب خيارِ الأمم إليه بدلًا من مجرد قومه.

ثمّ تأمل كيف طلب الخليل أن يلحقه الله بالصالحين فقال: (رب هب لي حكمًا وألحقني بالصالحين) والحكم هو النبوّة، ولم يُذكر أنْ قد سبقه أصلح منه، فلا أخير منه سوى ابنه رسولنا محمد صلى الله عليهما وسلم، فلاحظ تواضعه، ولاحظ محبته للصالحين.

ولاحظ أنّ الأمم القديمة كنوح وعاد وثمود قد وصفهم الله بتكذيب جميع المرسلين، فـ"أل" في المرسلين استغراقية فتعمّ جميع الرسل، وسبب نسبة كفرهم برسلٍ لم يخلقوا أصلًا إلا بعد قرون من فناء تلك الأمم لأنّ من كفر بنبيّ واحد فهو كافر بجميع الأنبياء والمرسلين.

ومن هدايات سورة الشعراء تواضع الكليم عليه السلام للحق، فحينما ذكّره فرعون بقتله القبطي بقوله: (وفعلت فعلتك التي فعلن وأنت من الكافرين) وكان المقام مقام حِجاج وإفحام خصم، لم يتلكّأ عليه السلام أو ينكر أو يحيد بل قال بكل ثبات ورباطة جأش على الحق: (فعلتها إذن وأنا من الضالين). ومن وضوح حجته أن أقرّ بالفعل لكنه لم يقرّ فرعون على وصفه بالكفر، فقد أقرّ على نفسه أنّه لم يُوّفق للصواب بقتله القبطي، وكان قصد فرعون



كفر النعمة، ولكن لِعلم موسى عليه السلام أنّ المُنعِم على الحقيقة هو الله تعالى، وأنّ فرعون مجرّد سبب إن شاء الله أمضاه وإن شاء ردّه، فلم يكن لفرعون إذلال موسى بذلك، ولمّا أقرّ بالخطأ ولم يتكبّر على الاعتراف به دُهش فرعون بهذا الجواب المليء بالثقة والتواضع. ثم قلبها موسى عليه حينما وسّع ميدان النظر كثيرًا بقوله: (وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل)؟! أي هل لأنّك غذوت واحدًا نسيت استعبادك واستسخارك قومه! أهذه نعمة تعدّها مع علمك بأنّك إن وضعت الأمرين في الميزان استبان الفرق لكل ذي عينين.

فلُطم فرعون بذلك لدرجة أن فتح باب التساؤل والمناظرة في الربوبية، فزعم أنّه لا يعرف الله مع أنّه على يقين من وحدانية الله تبارك وتعالى، قال سبحانه: (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف عاقبة المفسدين)، فليس مجرد علم بوحدانيّة الله ألوهيّةً وربوبية، بل يقينٌ مستقر في قلوبهم، لكن ردّهم الظلم وإرادة العلوّ في الأرض.

قال فرعون متسائلًا مستبعدًا مكذّبًا: (وما رب العالمين)؟! وهنا تظهر العظمة الرساليّة لموسى عليه السلام، ويتجلّى عظيم صبره ووافر حلمه وغزير علمه وإحكام منطقه وجميل منطوقه، فقال: (رب السماوات والأرض وما



بينهما إن كنتم موقنين) موقنين بعقولكم وبالسماء التي تُظلكم والأرض المقلّةِ لكم، فابدؤا بهذه اليقينيات التي تبنون عليها الحجة الدامغة والسلطان العلميّ الواضح، فاستدلّ على وجود الله وربوبيته بمخلوقاته العظام وهزّ يقينياتهم وحرّكها علّها أن تثور من عقال كفرها وكبرها لفطرتها الأولى وتوحيدها السابق، فهزئ فرعون به قائلًا لملئه: (ألا تستمعون)، أي ألا تعجبون للعجب العُجاب من هذا الإنسان الذي يقول كلامًا ليس تحته حقائق. فأجابه الكليم مباشرة مُصرّا على مبدئه القويم وحجته المستقيمة وبرهانه الساطع، غير آبهٍ بتُرّهات الخصم الذي ذهب لأوديةٍ شتّى من سخرية وتشتيتٍ وإخراجِ محلّ الخلاف عن دائرة تركيز النظر، وكلُّ هذا خلاف ما أقيمت المناظرة لأجله، فقال: (ربكم ورب آبائكم الأولين) فعاد إليهم بعبارة أشدّ وحجة أدحض، وخلاصتها: أنّك يا فرعون مربوب لست بربّ، وأنت ولدٌ لآباءٍ سبقوك، إذن فلست بخالق ولا مالك ولا مُدبّر ولا ربّ ولا إله، وكذلك حال الملأ الذين يسمعون هذه المناظرة.

هنا غضب فرعون واشتدّت غطرسته وتيهها وكبره فلجأ إلى حيلة الجهلة ضعفاء العقول والعلوم والنفوس على مر الأزمان وهي اتّهام المُصلحين في عقولهم وعلومهم وأديانهم فقال: (إن رسولكم الذي أرسل أليكم لمجنون)!



أي أنه يقول ما لا يُعقله العقلاء. وهل استُفزَّ الكليم الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه بذلك؟ كلّا، بل كان رابط الجأش ثابت الفؤاد شديد الشكيمة وافر الحلم رَحْبَ الخُلُق والفطنة والعلم والحكمة، فقال بعدما اتّهم بالجنون: (رب فعاد إلى نفس الحجّة المباركة ونفس الهدف الدعويّ الرساليّ ونفس المعنى، لكن بعبارات أخرى ومعنًى أوسع، فقال: (رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون)، فأراد تحريك ذلك الشيء في قلوبهم ورؤوسهم الذي اتهموه بفقدانه وهو العقل، فاستفزّ قريحتهم بقوله: (إن كنتم تعقلون) فإن كنت يا فرعون تتهمني بالجنون فأولى بك أن تتأكد من سلامة عقلك وصحة ذهنك وملئك كذلك أما هذه المناظرة لإقامة التوحيد لله رب العالمين وحده لا شريك له.

هنا سقطت حجة فرعون في الأرض وأُسقط في يده وعاد خاسئًا في مقام الحجاج، فعاد بجُحْرِ أخلاق الجبابرة فأعلن الوعيد بالعذاب لمن خالفه، فقال كقول من سبقه ولحقه من أزواجه وأشباهه وأقرانه: (لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين). فهل استفزّ ذلك موسى أو أخافه؟ كلّا، لم يستفزّه طيشه ولم يهزّ شيئًا من كيانه ولا قلبه ولا إيمانه ولا علمه بربه وتعلقه به، فكان خوفه من الله لا من غيره، فهو مُحقّق للتوحيد، ومن حققه



فلا يخاف إلا ربّه، كما قال تعالى في شأنهم: (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله وكفى بالله حسيبا).

فلمّا توعّده هذا الطاغية الجبار بالسجن طوى ما مضى من سجلّات الحجاج ثم عرض عليه بألطف أسلوب وأجمل بيان وأحسن أداء وأقرب بلاغ فقال عارضًا مُشدّدًا: (أولو جئتك بشيء مبين)، فطوى حِجاج المعاني الذهنيّة للبراهين الحسّية، والمعاني الذهنية هي الأقوى لدى العقلاء، لأنها مبنيّة على قطعيّات يقينية مُركّبة على مرّ عمر عقل المرء وتأمّلاته لعلاقة الأشياء ببعضها، وأكثر براهين القرآن من ذلك القبيل، فدلائله وبيّناته وتوجيهاته تشحذ القريحة العقلية للنظر والتفكّر التدبر والتفكر، كذكر ابتداء الخلق، وأنّ من خلقهم من عدم قادر على بعثهم بطريق الأولى، ثم تُثنّي بحفز نظرات حسّية ومآلاتها عقليّة ذهنية عقلية من التفكّر في عظمة المخلوقات وكِبَرها واتّساعها واتّساقها وجودة صنعها وإحكام تدبيرها ونحو ذلك، وتردفها بمثال حسّي نافذٍ للذهن السليم وهو التفكّر في المطر والنبات ومراحله وهشيمه، ومقارنة نبتةِ الزرع ومراحلها بنبتةِ الجنين، وأنّ خالق الاثنين واحد وهو الرب القادر المدبر والإله العظيم العليم، ثم تثلّث بالشعور والعاطفة بالتذكير



بالفطرة التوحيديّة الأولى ، ثم بعد ذلك بشحن عواطف بني الإنسان بجنة الوعد ونار الوعيد.

وبالجملة؛ فقد أحسن موسى عليه السلام أيّما إحسان في المناظرة بجميع مراحلها، فقال بعد إتمام المقاصد التي يغلب عليها العقل إلى المقاصد البرهانيّة التي يغلب عليها الحسّ الذي قد استبطنه العقل، لأنّ ذاته حقيقة لا خيال. فقال عليه السلام: (أولو جئتك بشيء مبين) أي آية حسّية واضحة لكل أحد، غير ما أسلفت لك من الكلام النظري البرهاني الصحيح. فالقسم الأول من المناظرة مفتقر لقياس عقليّ، مع ما استودع في الفطرة من معانٍ صالحة وأصول توحيدية مستقيمة. أما القسم الثاني فهو ملموس حسّا فيراه بجارحة عينه ويسمعه بأذنه بل ويلمسه بيده إن شاء، فالأولى تُدرك بالتأمل والتفكّر والقياس، والثانية بالمشاهدة والسماع والحس، فانتقل من تغليب المعنى لتغليب الحسّ حتى يُفرَغَ على عدوّ الله كلّ الحجج الكبار، ويُبطل عذره بالجهل، ولا يبقى سوى العناد والاستكبار.. وهو ما كان!

(أولو جئتك بشيء مبين) واضح على صدق دعوتي وثبات كلمتي واستقامة حجّتي، فأجابه الفرعون: (فأت به إن كنت من الصادقين) ولاحظ استمرار التكذيب والسخرية من هذا الطاغية الجبار. (فألقى عصاه فإذا هي ثعبان



مبين ونزع يده فإذا هي بيضاء للناضرين) فعاد فرعون لشبهة من سبقه ولحقه من سفهاء الرؤساء فزعم قائلًا: (إن هذا لساحر علين يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره).. الآيات.

ولاحظ ما ورد في قصة فرعون وطبّقها على الطغاة الجبابرة في كل مكان وزمان إذ بضاعة المفسدين واحدة وزاملة المبطلين واحدة، وقد قال ربنا تعالى فيهم في سورة مريم: (ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا. فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا).

فتأمل كلام فرعون وهتافه الشقيّ بقوله وهو على سرير غفلته وعرش طغيانه وأُبَّهة جبروته وراحلة خُذلانه وحفرة سوء منقلبه: (إن هؤلاء لشرذمة قليلون وإنهم لنا لغائظون وإنا لجميع حاذرون) فوصف الصالحين والمُصلحين بالشرذمة، والشرذمة: الطائفة القليلة من الناس، وخصّها بعضهم بالحُقراء والأخسَّاء والسّفلة منهم، وقصد بذلك أنهم بمنزلة العبيد والخدم لي ولكم. وذُكر عن مجاهد رحمه الله قال: "هم يومئذ ستّ مئة ألف، ولا يُحصى عدد أصحاب فرعون. وأظهر فرعون غيظه وغضبه وألزم أتباعه بفعل فعله ولبس لأمة الحرب للصالحين فقال: (وإنهم لنا لغائظون وأنا لجميع

حاذرون) آخذين أُهبتنا مستعدّين لتدميرهم، فما هي نتيجة ذلك الطغيان: أنها الاستئصال!

قال تعالى: (فأخرجناهم من جنات وعيون . وكنوز ومقام كريم كذلك وأورثناها بني إسرائيل) فساق الله مال أعدائه لبني إسرائيل، سنة ماضية وآية باقية الله وناموس ثابت: (استكبارا في الارض ومكر السيّء ولا يحيق المكر السيّء إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنة آلاولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا . أولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الارض إنه كان عليما قديرا . ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دآبة ولاكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جآء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا).

ومن هدايات سورة الشعراء كذلك أن البلاء موكل بالمنطق، بيان ذلك أن قوم شعيب عليه السلام لما كذبوه تعنّتوا عليه بقولهم: (ما أنت إلا بشر مثلما وإن نظنك لمن الكاذبين . فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين) أي قِطَعًا من السماء، فانظر كيف يتحيّنون عذابهم ويستجلبون هلكتهم بألسنتهم، فأحالهم الرسول الكريم إلى علّام الغيوب

ومن بيده مقاليد الأمور قائلًا: (ربي أعلم بما تعملون)، فما ذا كان جواب الله تعالى لهم: (فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم). وأخرج ابن المنذر عن السُّدّي قال: "فتح الله عليهم بابًا من أبواب جهنم، فغشيهم من حرِّه ما لم يطيقوه، فتبرَّدوا بالماء وبما قدروا عليه، فبينما هم كذلك إذ رُفعت لهم سحابة فيها ريح باردة طيبة، فلما وجدوا بردها ساروا نحو الظُّلّة، فأتوها يتبرّدون بها، فخرجوا من كل شيء كانوا فيه، فلما تكاملوا تحتها، طبَّقتْ عليهم بالعذاب"! (٦)

وقد فعلت فعلهم قريش فعلهم، فلمّا التقى القوم في بدرٍ قال أبو جهل: "اللهم أقطَعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة"، فكان ذلك استفتاحًا منه، فنزلت: (إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح)، أي النصر، لكنّه عليكم لا لكم! فأُحنوا وقُتلوا وأسروا وهُزموا، نعوذ بالله من النار وحال أهل النار.

وتأمل حسن الخطاب وجمال الردّ الرسولي، فقوم نوح عليه السلام لما قالوا له: (أنؤمن لك واتبعك الارذلون) ووصفوه اتباعه بذلك، لم يسكت على الباطل، بل وصف أتباعه بأحسن وصف وهو الإيمان بالله، فقال: (وما أنا بطارد المؤمنين) أما من سبّوهم وسخروا منهم فقد ضرب صفحًا عن



مبادلتهم السيئة بمثلها. ومن ذلك: (يا قوم ليس بي ضلالة)، (وإنا أو إيا كم لعلى هدى أو في ضلال مبين) فشخصنة القضية وسبّ الأشخاص مُحيلة للموضوع عن هدفه الأسمى وغايته السامية.

وتدبّر قوله تعالى: (والشعراء يتّبِعُهم الغاوون) نعوذ بالله من الغواية عن الهداية، ومن الجهل بعد الحلم، ومن الحوْرِ بعد الكور، وقد ذكر الله تعالى في ذات السورة – الشعراء- جزاء الغاوين فقال: (وبُرِّزَت الجحيم للغاوين)، فالشعر دحض مزلّة إلا من حفظ الله ممن خافوه ورجوا لقاءه، لهذا استثنى سبحانه أولئك الثُلة بقوله الأعز الأكرم: (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون).

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

٤/ ١٢/ ١٤٤١

....

(١) تيسير العزيز الحميد (١ / ٧٨)

(٢) رواه الترمذي (٣٠١٠) وابن ماجه (١٩٠) وحسنه الألباني وأيمن صالح شعبان.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (١ / ١٣٠٥)

(٤) جامع البيان (٦/٥٥٥)، وتفسير القرآن العظيم (٢/٥٦)، والدر المنثور (٢/٢٥٢)

(٥) الدارمي (١/١٢٦) (٤٣٥)، وأحمد (٣/٣٨٧)، وابن أبي عاصم (١/٢٧) (٥٠) وصحح إسناده الحافظ ابن كثير من رواية أحمد، وقال: "تفرّد به أحمد، وإسناده على شرط مسلم". البداية والنهاية (٢/١٢٣)

(٦) الدر المنثور (١١ / ٢٩٢)



حَسّن إسلامك

مرَّ رجلٌ بعامر بن عبد القيس وهو يأكل ملحًا وبقلًا، فقال له: يا عبد الله، أرضيتَ من الدنيا بهذا؟ فقال: "ألا أدلُّك على من رضيَ بشرٍّ من هذا"؟ قال: بلى، قال: "من رضيَ بالدنيا عوضًا عن الآخرة". وكان محمد بن واسع رحمه الله يُخرج خبزًا يابسًا فيبلُّه بالماء ويأكُله بالملح ويقول: "من رضي من الدنيا بهذا؛ لم يحتج إلى أحد". قال شيخ الإسلام: "إخراجُ فضولِ المال والاقتصار على الكفاية أفضلُ وأسلمُ وأفرغُ للقلب وأجمعُ للهمِّ وأنفعُ في الدنيا والآخرة". وأبلغُ من ذلك قولُ رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من كانت الدنيا همَّهُ؛ فرّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتب له، ومن كانت الآخرة نيّته؛ جمعَ الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة".

قُمْ في الدِّجَى واتلُ الكتاب ولا تنمْ ... إلا كنَومةِ حائرٍ ولْهانِ

فلربَّما تأتي المنيّةُ بغتةً ... فتُسَاقُ من فُرُشٍ إلى الأكفانِ

يا حبَّذَا عينانِ في غَسَقِ الدُّجَى ... من خشيةِ الرحمن باكيتانِ



فيا عبد الله، دع ما لا يعنيك. فمن انشغل بعيوب نفسه وتحصيل مصالحها؛ اشتغل عن عيب غيره وتتبع أموره. قال طاووس بن كيسان رحمه الله: "نِعْمَ صومعةُ الرجلِ بيته، يكف فيها سمعه وبصره". إنّ عمر الإنسان للدنيا كعمرِ شهابٍ عابرٍ بالنسبة لعمره، وبعدَ فوات الأوان ستدرك أنّك قد أهدرت بلا طائلٍ أثمنَ ما لديك: وقتك. وتذكّر أنّ صلاحيةَ جسدك قرابةَ الستين سنة أو السبعين، وهو معرّض للتلف قبلها، ومُعتركُ المنايا من الستين إلى السبعين، فمن تجاوز السبعين فهو من القليل. ولو علمَتِ الوردةُ قِصرَ عمرها ما تبسّمَتْ.

فهنّ المنايا أيّ وادٍ سلكتُه ... عليها طريقي أو عليّ طريقُهَا

وفي العشرين بدايات نضج العقل حتى الأربعين مع طروء عوارض طيش. ومن الأربعين حتى الستين استحكام العقل والجسد، وغالبُ منجزات البشر قد نحتوها في خريطة الزمان وهم في هذه المرحلة التي تُعَد رأس الهرم الإنساني. وحقيقٌ بما بعد الستين أن يُسمّى العمر الجميل، إذِ اجتمع فيه الهدوء والسكينة والراحة والحكمة والزهد لمن سلم من آفات الروح. كفى الشيبُ والإسلامُ للمرءِ ناهيا.

دَعْ عَنكَ ما قَدْ فات في زَمَنِ الصِّبا ... واذكر ذنوبكَ وابكها يا مذنبُ

واخشَ مناقَشَةَ الحِسَابِ فإِنَّه ... لا بدّ يُحصى ما جنيتَ ويُكتبُ

لم يَنسَهُ المَلِكانِ حين نَسِيته ... بَل أَثبَتَاهُ وَأَنتَ لاهٍ تلعَبُ

والروحُ فيكَ وديعةٌ أودِعْتَها ... ستَرُدَّها بالرغم منكَ وتُسلبُ

فيا صاحب العشرين والثلاثين: اعلم أنّ أكثر أهلَ القبور من الشباب. ويا من طرقت الأربعين والخمسين: هلّا تنبّهت إلى أنّك في ثلث عمرك الأخير إن سرتَ كما رحل الأكثرون، ويُسارُ بك وإن لم تسِر، وتأمل طلائعَ مشيبك فهي رسل نضوج ثمرة العمر التي اقترب قِطافُها. ويا أيها الكهل الستيني: أَعْذَرَ اللهُ إليكَ أنْ بلّغَكَ الستين فما عُذْرُك إليه! فيا محطةَ الرحيل الأخير: أغلقي باب الإقلاع؛ فقد حان السفرُ للآخرة، وقد أَنْجَدَ من رأى حَضَنًا، (وأن إلى ربك الرجعى). قال ابن الجوزي: "أعجبُ خلائقِ الخلائق: محسنٌ في ليل شبابه، فلمّا لاح الفجرُ؛ فَجَرَ".

أضحتْ خَلاءً وأضحى أهلُها احْتَمَلوا ... أَخْنَى عليها الذي أَخْنَى على لُبَدِ

وكلّ ذنب -مهما تعلّقت نفسُك به -سيأتيك يومٌ وترحلُ عنه للأبد، إن لم يكن بتوبتك واختيارك؛ فبعجزك أو وفاتك، فاتركه الآن قبل ألا يتركك غدًا أمام الديّان. وعند دنو الرحيل؛ تُشرق حقائقُ الضمائر، فالزمخشري



الذي قعّد لنفي الصفات الاختيارية عن الله تعالى، لمّا دنت وفاته؛ لم يرحل إلا وقد طبع الكاغد بماتع ابتهاله: يا من يرى مدّ البعوض جناحها..

وتفكّر طويلًا في آية طه فهي كافية في تعريةِ جسدِ الدنيا وكشفِ حقيقةِ زيفِها: (ولا تمدنّ عينيك إلى ما متعنا به أزوجًا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى). وما بكت العرب على شيء كما بكت على الشباب، وقد بكاه الفضلاء والعقلاء والعلماء والعُبّاد.

شَيئَانِ لَوْ بَكَت الدُّمُوعَ عَلَيهِمَا　　عينَايَ حتى يُؤذِنَا بذَهَابِ

لم يَبلُغَا المِعشَارَ مِنْ حقَّيِهما　　فَقدُ الشَّبابِ وفُرقَةُ الأَحبابِ

فلماذا هذه اللوعة على مرحلة عمريّة مضت؟ الجواب: أنّ الصالحين يبكونها لأنها النشاط والقوة لصالح الأعمال، فالشابّ يتهجّد ما شاء من الليل، فيتّخذ الليل جَمَلًا يحمله لعِلّيّين، ولا يشتكي حكّةَ جِلْدِهِ وضعْفَ نفَسِهِ ووهنَ عظامِهِ، ويحفظ ما شاء من القرآن والأذكار والعلم فلا تخونه ذاكرته بضعفه وتشويشه ونسيانه، ويصوم ما شاء ولا يشتكي ضعفه وظمأهُ وهزاله، ويضرب وجوه الكافرين بيده لا يشتكي عجزه وارتخاءه وزمانته، ويقرأ ما شاء من كتاب الله بقوةِ بصرٍ وصفاء ذهن واستظهارٍ للتدبر والتفكّر، وغير



ذلك من العبادات التي يساعد عليها التلذُذ بها وقودُ الشبيبة. فتلذَّذ بطاعات مولاك قبل ذبول الجسد وانحناء الظهر وصياح نقيِّ العظام من أمراض الشيخوخة.

ونُحْتُ على الشبابِ بدمع عينِي فَمَا نَفَعَ البُكاءُ ولا النَّحِيبُ

فَيَا ليتَ الشَّبابَ يعودُ يومًا فأُخبرهُ بمَا فَعَلَ المَشِيبُ

أما من بكى عليه لضياع شهواته؛ فقد خاب وخسر، بل الأَولى أن يفرح بها مِنْ هذه الحيثيةِ؛ كي لا تشوِّش عليه مسيره الذي اقتربت نهايته. وقد سئل شيخ كبير حكيم عن حالِه مع كِبَره فقال بفرح: "الحمد لله، ذهب الشبابُ وشرُّه، وأقبل المشيب وخيرُه، إن قمتُ؛ قلتُ: باسم الله، وإن قعدت؛ قلتُ: الحمد لله، فأنا أحبّ هذا الخير".

إنّ الحياة غالية جدًّا، ولا تُبذل إلا لما هو أغلى وأحب، والوقتُ هو الأجزاء المُقيمة لهذه الحياة، فلا يُجاد به إلا لما هو أنفس، فيا هذا: وقتُك هو حياتك. ألم ترَ أن الزمن يمضي أسرع من أن نتأمله! هكذا هي الأعمار، فكلها أيام باقية دونها أيام، ونستكمل رزقنا في هذه الدنيا، ثم نرحل عنها إلى ربنا. ولقد قال السلف: "علامةُ المقتِ؛ إضاعة الوقت".



توفي رجلٌ من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال رجل: أبشر بالجنة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أو لا تدري، فلعلّه تكلّم بما لا يعنيه، أو بخلّ بما لا يغنيه". وجِماعُ ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مِنْ حُسْنِ إسلام المرء تركُه ما لا يعنيه". فَحَسِّنْ إسلامك - رعاني الله وإياك -. ومن جميل ما قالوا: " تَمْضِيةُ وقتك بالسعي لإدخال نفسك الجنة، أولى بك من السعي لإثبات أنّ غيرك سيدخل النار".

لذا فمن المهمات: أن ينشغل المؤمن بما ينفعه مما خُلق لتحقيقه وهو العبادة، وألّا يستغرق وقته فيما لا ينفع، حتى وإن نَزَعَتْ نفسُه إليه وحاولت تزيينه في عينيه، فلها مع العقل مسارب وحِيَل تُتِيهُهُ فيها أحيانًا، فلا يصحو إلا بعد مضي زمان من نفيس عمره.. فقد ذهبت ليلى فما أنت صانعُ!

ولكم سلبت شبكاتُ التواصل من أوقاتٍ لو صرفت في عمارة آخرة أو حراثة دنيا؛ لكانت ثمارها نافعة، ولكنّها فتنة الزمان وهي الثقب الأسود للأوقات. وأشدّ من ذلك السيلُ المغرق بالشبهات والشهوات في هذا العصر. وإنه لمن الغبن الشديد أن ترى عدوّك يشاركك في تربية ولدك رغمًا عنك، فقد دخل بقنواته وأفلامه وأفكاره لداخل غرف نومهم، والله المستعان.



ولك أن تعلم أن العمليّات الذهنية لطلب العلم كالحفظ والتفهّم والتأمل ونحوها يحتاج العقل فيها نَفْسًا صافية، غير مزدحمة المشاعر فرحًا أو ترحًا أو غيره، لذلك أرشد الله تعالى لناشئة الليل وقرآن الفجر، لأن الذهن فيهما أصفى ما يكون. فأين ذهنك في تلك الأوقات!

ولقد كان أبو بكر رضي الله عنه يتمنّى أنه كان طيرًا يؤكل أو شجرة تعضد مع بشارته التامة بالجنة، وبنحو ذلك قال عثمان وطلحة وعائشة وهم بالجنة مبشّرون، ومن الناس من يمشي بين الناس آمنًا مكرَ الجبار كأنّما قد بُشّر بالجنة! فإنما يخاف المرء من الله ويخشاه على قدر علمه به، قال تعالى: (إنما يخشى الله من عباده العلماء) والخشيةُ خوف مع علم. وإنّ خوف المُبَشّرين بالجنة، إنما هو خوف الهيبة والجلال والخشية، لمعرفتهم عظمة الله وكبرياءه وإحاطته وغناه سبحانه، وليس كخوف القانطين. والجمهور على تغليب الخوف وقت العافية والنشاط، وعلى تقديم الرجاء حال المرض، مع الموازنة بينهما.

واحذر غدرات الخطايا الخفيّات، فعن ثوبان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لأعلمنَّ أقوامًا مِن أمتي يأتون يوم القيامة بحسناتٍ أمثال جبال تهامة بيضًا، فيجعلُها اللهُ عزّ وجلّ هباءً منثورًا". قال ثوبان: يا



رسول الله، صِفْهُمْ لنا، جَلِّهِمْ لنَا، ألّا نكوَن منهم ونحن لا نعلم. قال: "أما إِنّهم إخوانكم ومن جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم أقوامٌ إذا خلَوا بمحارم الله انتهكوها". ومن رام المكارم اجتنب المحارم. ومن درر الإمام الشافعي رحمه الله: "أعزّ الأشياء ثلاثة: الجودُ من قلّة، والورعُ في خلوة، وكلمةُ الحق عند من يُرجى أو يُخاف". واجعل بينك وبين المحرمات حاجزًا مِنْ ترك المكروهات حِمىً لورعك وحفظًا لأمانتك، قال سهل بن عبد الله رحمه الله تعالى: "أعمالُ البِرِّ يُطيقها البرُّ والفاجرُ، ولكن لا يصبر عن المعاصي إلا صدِّيق". وقال الحجاج بن يوسف: "الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذابه". والقاعدة المضطردة التي لم ولن تخرم: من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه. وتأمل عَقْرَ سليمان عليه السلام خيله غضبًا لله إذ ألهته عن صلاة العصر، فعوّضه الشكور الحميد عنها بالريح: (تجري بأمره رخاء حيث أصاب). ولقد قال صلى الله عليه وسلم: "كلّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقِ له". فاحذر أن يكون تيسيرك لعمل أهل الشقاوة! ولا تأمن مكر الله تعالى، وتذكر صفات جلاله كما تتذكر صفات جماله. وتدبر قوله تعالى: (حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة) فقد بُغتوا بعذاب ليس له مقدمات.

يا راقدَ الليلِ مسرورًا بأوّلِهِ ... إنّ الحوادثَ قد يطرُقنَ أسحارًا

فضيلة التواضع

يا عبد الله تواضع، فالتواضع في موضعه رفعةٌ وعزٌّ، والله تعالى قد جعل أكرم الناس أتقاهم، لا أنسبهم ولا أعلمهم ولا أكثرهم مالًا وولدًا وجاهًا، وتعظُم الرزية حين يكونُ المتفاخِرُ طالب علم! وتأمّل كيف كان الرجل يدخل على الرسول ﷺ وهو بين أصحابه فيسألهم: أيّكم محمد؟ لقد كان صلى الله عليه وسلم مدرسةً متكاملة في كل خصال الخير. وقد كانت جواري الحيّ الصغيرات ينتهين بغنمهن إلى أبي بكر الصديق فيقول لهن بكل تواضع: "أتُحِبْنَ أن أحلبَ لكنَّ حَلْبَ ابن عفراء"؟

فحدّث نفسك على الدوام ألّا تظن أنها أفضل من أحد من المسلمين، فإن أبت فذكّرها الثلاث: أنّك لا تعلم باطِنَه؛ فقد يكون خيرًا من باطنك، ولا تعلمُ قَبولك عند ربك؛ فقد تكون أعمالك رُدّت، ولا تعلم خاتمته وخاتمتك. ويا أيها الفاني تواضع. واعلم أنك ترتفع وتسمو في قلوب الناس على قدر اتّضاعك العفويّ لهم، وتسقطُ من عيونهم وتتّضع في صدورهم على قدر ترفّعك عنهم وتكبّرك عليهم.





وإنّ لكل إنسان قصةَ حياة كاملة، قد تكون أعجب مما تتصوّر، وله أحاسيسه المُفعمة بألوان المشاعر مهما رأيت فراغ كينونته، وكلّ شَخص لدَيه قصة حُزنٍ بداخله، فرِفقًا بِمن تحبُون، ولا تحقرنّ من البشر أحدًا. وتأمل مليّا أول قصة في التاريخ. واعلم أن بعض صورها يتكرر فيك وبك، فتدبر واستلهم العبر. إنها: (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة) وكن كأبيك الصالح لا عدوِّك الرجيم. وإن رأيت من أحدٍ ذنبًا تتعاظَمُهُ، فلا تحجُرَنَّ عنه رحمة الله وهدايته، فإنك لا تعلم خابيته ولا خاتمته، ولقد قال عامر بن ربيعة رضي الله عنه يومًا: لا يُسلم الذي رأيتُ - أي عمر - حتى يُسلم حمار الخطاب! فما هو إلا زمن ليس بالطويل؛ وإذ بعمر قد صار وزيرًا مُقرّبًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وعزًّا للإسلام، وغيظًا للشيطان وحزبه، وأميرًا للمؤمنين.

واعلم أنّه ليس من عادة الصدرِ الأوّل تصديرُ الأسماء بألقاب التفخيم كسموّه، ومعاليه، وفضيلته، ولا بحرف الدال والميم، ولا تقديم النسب على الاسم، بل كانوا أهل تواضع وبساطة وعفويّة. كما أنّه ليس من شرط العلم والثقافة نيل الشهادات العُرفيّة، فالرافعي والعقاد اللذان أسمعا آذان الدنيا شهادتُهما هي الابتدائية فقط، كما أنّ بعض كبار العلماء وفحول الفقهاء



ونحارير العلم في هذا الزمان ليس لهم شهادة ولا منصب أصلًا، فلا تغترّ بالزبد وانفذ للصَّريح.

لقد رفع الإسلامُ سلمانَ فارسٍ وأذلّ الشركُ الشريفَ أبا لهب

هذا وإن الأصل في الفخر بالنسب هو المنع مهما كان شرفُهُ إلا في الحرب، وذلك لأمرين:

١-عمومات النهي عن التفاخر بالحسب والنسب، ولا استثناء إلا بدليل.

٢-أنّ شرف النسب لا يخلو من كونه نعمةً في الدنيا فيكون حاله كالمالِ والمتاع ونحوه؛ فلا يُشرع الفخر به، أو أن يكون نعمةً دينية كالإيمان والفقه؛ فالمنعُ من التفاخر به آكد.

ومهما يكن من أمر؛ فالمرءُ لا يوزن بماله ولا نسبه ولا لحمه، بل بدينه وعلمه وعقله وأدبه. قال شيخ الإسلام: "ليس في كتاب الله آيةٌ واحدةٌ يُمدح فيها أحدٌ بنسبه ولا يُذمُّ أحدٌ بنسبِه". وقال الرجيم يومًا مفتخرًا بأصله، متعاليًا على نبي كريم، خلقَه الله بيده، ونفخ فيه من روحه: (أنا خيرٌ منه) فَمَنْ تعَالى على الناس بنسبه؛ فشيخُهُ إبليس، ومن تعالى عليهم بماله؛ فشيخُه قارون، وعلمٌ لا يقرّب من الله؛ لا خير فيه. وخيرُ أصلٍ تنتسب إليه هو



أصل الإسلام (هو سماكم المسلمين) فهو النّسبُ الذي يستحق الغبطة حقًّا. وتفكّر في العِندية في قول الله تعالى: (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وتأمل قوله ﷺ: "أنا سيّد ولد آدم ولا فخر". فحتى في مقام السيادة على جميع البشر، تبرّأ من الافتخار على أحدٍ منهم، فهو يتحدّثُ بنعمة الله لا يفتخر. وقال شيخ الإسلام رحمه الله: "غلط من ألغى فضيلة الأنساب، وغلط من ظنّ أنها تفضيلٌ بتعيين الشخص، والحقُّ أنّها فضيلةُ جُملة، وفضيلةٌ لأجل المظنّة والسبب، أما فضيلة التقوى ففضيلة تعيين". ومثال ذلك في معادن الأرض لمن ينقبون عن الذهب، فنراهم يُركّزون البحث في بقاعٍ معيّنة أكثر من غيرها، لأنّه في الأغلب تكثر فيها عروق الذهب أكثر مما عداها، مع علمهم أنّه قد توجد في البقاع التي رغبوا عنها عروق أفضل وأجود مما ظنّوه في الأولى، فالمسألة مسألة غلبة ظنّ بوجود الصفات الحسنة في كذا وكذا، وقد لا توجد في الحقيقة، وقد توجد ناقصة، وقد يوجد في غيرها أفضل منها. ومن ذلك أنّ جنس المهاجرين أفضل من جنس الأنصار، ولكن يوجد من الأنصار كسعد بن معاذ وأسيد بن حضير وعبادة بن الصامت وغيرهم أشخاص أفضل من كثير من المهاجرين، فعاد الأمر للمَظِنَّة والأغلبية، لا التعيين بالذات، وبكل حال:

إن يختلف ماءُ الوصالِ فماؤنا   عذبٌ تحدّرَ من غمامٍ واحدِ

أو يختلف نسبٌ يؤلفُ بيننا   دينٌ أقمناه مقام الوالدِ

ولا تهتم للون بشرتك في الدنيا، فمصيرها للدود، ولا لنسبك فهو للفناء، ولكن اهتم لبياض وجهك غدًا بين يدي ربك (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) وإنما يُحمدُ المرء بما له تصرُّفٌ فيه؛ كخُلُقه الحسن، وعلمه النافع، وعمله المبرور، وسجاياه الكريمة، أما ما سواه فلا يعوَّل عليه. وعلى المؤمن أن يقنعَ بقدَرِ الله له مما ليس له حيلةٌ في كسبه ولا دفعه؛ كجنسه ولونه ونسبه وزمانه، ومن الضياع مدافعة ذلك. وعند عتبةِ الموت تذوبُ كل الفروق. وإنّ جمالُ الصورة وعدمها ليس بمُكتَسب، فلا يُذمُّ المرء على أمرٍ لم يصنعه لنفسه، لكنّ الأخلاق مُكتسبة، فهي محل الحمد والذمّ. ولما سأل رجلٌ آخر عن نسبه ليضع من قدره أجابه: "يا هذا، نسبُكَ ينتهي بك، ونسبي يبدأ بي"! ومنه قول الأول:

إنّ الفتى من يقول ها أنا ذا   ليس الفتى من يقول كان أبي

ومما يؤلم المؤمنَ أنَّ نبرةَ الازدراء للعنصر المختلف لا تزال سائدة لدى كثير من المسلمين، فلا يزالُ بعض قومنا إذا ذكر العنصر المختلف بلونه أو نسبه

أو شكله أو جنسيته أو إقليمه نَبَزَه، وليس مراد كثيرهم التوضيح بل نظرة الدون، وهذا التلوّث المعياري لا يسلم منه بلدٌ من بلاد الإسلام، لكنه يزداد في بلدٍ عن غيره بحسب نفخة الشيطان لأهله، وربُّ العزة يقول: (هو سماكم المسلمين) فبئسًا لأوضار الجاهلية، وتعسًا لمروط الخيلاء!

أبِي الإسلامُ لا أب لي سِواهُ   وإن افتَخرُوا بقيسٍ أو تميمِ

وعند طروءِ الحسبِ والسلالة الطيبة التي عُنيت بمعالي الأمور على قلب العاقل؛ فإنها تُثمرُ الهمَّة العالية، وسموَّ النفس عن سفساف الأمور، والبعدِ عن كلّ ما يشين، وتدفُقُ في صدره التواضع الصادق. أمّا إن وردت قلب السفيه؛ فإنها تثمر الكبرَ، والغرور، والتّيه، والدوران حول ذواتٍ قد فَنَت، والفخرَ بما ليس له، والغفلةَ عما خُلِقَ له. ومَنْ تواضع ارتفع، ومن تعالى اتّضع، ولا يتواضع إلّا من كان واثقًا بنفسهِ، ولا يتكبّر إلا من كان عالمًا بنقصهِ.

لسنَا وإن كَرُمَتْ أوائلُنا   يومًا على الأحساب نتّكلُ

نَبني كما كانت أوائلنا   تبني ونفعلُ مثلَ ما فعلوا

ومن فروع ذلك؛ كثرةُ الحديث وطول النقاش عند مسألة التفضيل بين الذكر والأنثى، والذي ينتهي إليه فضلاء العقلاء: أنّ المسألة في جوهرها: تكاملٌ لا تفاضل.

وخيرٌ لك ألّا ترى ذاتك. فكن في غبراء الناس، إن حضرتَ لم يأبهوا لك، وإن غبتَ لم يَفقدوك. واكسرْ صولةَ عُجبِك بتذكُّرِ ذنبك، وتَعاظُمَ نفسِك بنقصك وفنائك، وحِرصِك بحتم قضائك، وطولِ أملك باقترابك كلّ مرحلة من موعد رحيلك. واعبر الدنيا بالعبادة، ولا تعمرها بالغفلة. وأحسِنْ علاقتك بالحي القيوم، ثم الْتَحِف بقيّةَ عُمُرِك.

قال ابن القيم رحمه الله: "إذا أراد الله بعبده خيرًا، سلب رؤية أعماله الحسنة من قلبه، والإخبار بها من لسانه، وشغَلَهُ برؤية ذنبه، فلا يزال نُصبَ عينيه حتى يدخل الجنة". فمن التوفيقِ لكلّ ناصح لنفسه: أن يجعل نصب عينيه دومًا ذنوبًا سالفة، وأن يستعظمها بلا قنوط، كسرًا لسورة الكبر في نفسه، وقرْعًا لصولة عبادته وتدينّه، وما أقرب التائب من ربه: (إن الله يحب التوابين). فيا صاحبي: كن مخلصًا في غير خنوع، صادقًا في غير غفلة، شريفًا في غير تيه. واعلم أنّ علامة العظَمة: التواضع، وأمارة الجبن: البطش



بالضعيف، وبرهان العقل: الاستعداد للقاء الله تعالى. والورع قيد التقوى، والتقوى جماع الخير. وإذا أردت تعلّم علمٍ؛ فاعترف بجهلك به أوّلًا.

ويا عبد الله؛ ازهد في الرئاسة زُهدك في الميتة، فحُبُّ الرئاسة من فروع حبِّ الدنيا، وهو آخرُ ما يسقط من رؤوس الصدّيقين، فترى الرجلَ من أزهد الناس في المال والمتاع، حتى إذا هزهزهُ منصبٌ أو رئاسةٌ؛ تهالك على تحصيله تهالُكَ الغريق بالخشبة، ونسيَ ما كان يُوعظُ به. وسبيلُ الموت غايةُ كلِّ حيٍّ.

ولِحُب الرئاسة علامات، قال شيخ الإسلام: "وطالب الرئاسة -ولو بالباطل -ترضيه الكلمة التي فيها تعظيمه وإن كانت باطلًا، وتُغضبه الكلمة التي فيها ذمّه وإن كانت حقًّا. والمؤمن ترضيه كلمةُ الحق له وعليه، وتغضبه كلمةُ الباطل له وعليه؛ لأنّ الله تعالى يُحبُّ الحقّ والصدق والعدل، ويبغض الكذب والظلم".

وشتّان بين من وصفهم ربهم بقوله: (إنهم كانوا قبل ذلك محسنين) وبين: (إنهم كانوا قبل ذلك مترفين) والقبورُ مليئة بهؤلاء وأولئك، ونحن سِراعًا على الأثر. ولكلِّ جيلٍ فِتَنُه.



ولا تفرح بالشهرة، فالأضواء مُحرقة، وقد كان السلف يغبطون المجتهد الخفي. وإنّ الزهد في الدنيا ليس محصورًا في المال فقط، إنّه أكثر من ذلك وأشدّ، وأهونُ الزهد هو الزهد في المال، ولكلِّ نفسٍ رُكنٌ تضعُف فيه، وبابٌ يولَجُ على حُرْمَتِها منه. وإبليسُ يشمّ القلبَ ويُدرك باب ضعفه الذي يلج منه، فاحذره. (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا) وكتبَ سفيان الثوري لأخٍ له: "واحذرْ حُبَّ المنزلة؛ فإنَّ الزّهادة فيها أشدُّ من الزهادة في الدنيا". فازهد في الثناء، وازهد في الرئاسة، وازهد كذلك في المال، وفي كلِّ ما لا ينفعُ في الآخرة.

وعليك بالورع في لسانك ويدك وبطنك وجوارحك، ولا تحفل بما لا ينفعك في مبعثك، وأولى عنه ما تخشى مغبتّه، ورُبّ لُعاعةِ دنيا؛ حجبتْ رضوان الله! ولو عُرِضَتْ عليك حسناتٌ نضيرَ مبلغ مالي، فهل ستشتريها، أو عُرِضَ عليك حملُ بعضِ أوزارك عنك مقابل مبلغ مالي، فهل ستقبل؟! هل تعلم أنّك تأخذ ذلك من الخلق إذا انتهكوا لك حقًّا؟ وأنّك تعطيهم ذلك إذا انتهكت لهم حقًّا، فغدًا يومُ الدينونة.

وكثيرٌ من سور القرآن العظيم تُختم بمواعظ عميقة ترقّق قسوة القلوب، فما ظنك بختام القرآن كله وهو قول الله تعالى: (واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى



الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) فما أعظمه من وداع، وما أجلّها من خاتمة، وهي آخر عهدٍ نزل من السماء، وآخر وصية لي ولك من الله العظيم، فتأملها وتدبرها وتفكّرْ فيها، فأنتَ المعنِيُّ بها.



إضاءةُ الجنانِ من أضواءِ البيانِ

(في حجابِ الوجه)

إضاءة من مشكاة أضواء البيان في مسألة في استدلال الشيخ الشنقيطي على وجوب تغطية وجه المسلمة

الحمد التامُّ لله كما ينبغي له، والشكر الكامل له فهو الأهلُ له، والصلاة والسلام والبركة على سيد الأولين والآخرين نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان، أما بعد:

فإن مسألة حكم تغطية وجه المسلمة عن غير المحارم قد كثر فيها الكلام والترخّص حتى بين العامّة الذين تربّوا ونشأُوا على العمل به، فصارت المرأةُ تُنازع في وجوبه وتنقل أقوال المُجيزين، حتى إذا نالت مرادها بكشف الوجه ألحقت به حَسْرَ الشعر، ثم التخلص من شروط العباءة الساترة الحشيمة لأخرى مُحتاجة لعباءة، حتى انتهى حال بعضهن لكشف النحر والساق ولبس الضيق والشفّاف، فبدأت بالشبر وانتهت بالميل.. كلُّ ذلك





لأن باب الهوى قد انفتح بكشف الوجه أَوّلًا، ولو أنّها تحجبت كالصحابيات الصالحات ما وصل بها الحال لهذا.

ومسألة ستر الوجه هي من المسائل التي ابتلى الله الحكيم تبارك وتعالى عباده بها فيتميزّ فيها من اجتهد في طلب الحق وأصابه أو لم يوُفّق إليه، علمًا أو عملًا، فثمَّ مسائل في الشريعة يكتنفها نوع اشتباه في بعض نواحيها من جهة الدليل أو الاستدلال ابتلاءً من اللّه تعالى لعباده أيخوضوا المشتبه ويتوسّعوا في التأويل ويتطلبّوا الترخّص بأدنى مسوّغ، أم يأخذون بالمحكمات ويردّون إليها المشتبهات ويعملون بالعزيمة حتى تنبلج شمس الرخصة.

والمشتبهات على درجات، فمنها ما يكون الاشتباه يسيرًا فترُدّ الفروع الغريبة المحتملة لأصولها الثابتة الواضحة كبعض مسائل الغناء والمعازف والإسبال ونحو ذلك، فترِدُ في المسألة أدلّة واضحة جليّة كثيرة في بيان حكمها، ثم يبتلي الله تعالى عباده بتقدير دليل محتمل فيصح حمله على الأدلة الأولى وهي المحكمات ويكون له وجه - لو كان لوحده - محتمل لحكم آخر مخالف، فالراسخون في العلم يردُّون ذلك الدليل المحتمل للحكم العام الذي جاءت به المحكمات، أما صاحب الهوى فيتعلّق بذلك لا طلبًا للحق ولكن رغَبًا في ضدّه وإعناقًا في خلافه. قال ربُّ العزة تبارك وتعالى في بيان ذلك: (هو



الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأمّا الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب).

ومنها مسائل يقوى فيها الاشتباه ويطول فيها البحث ولا يستقرّ فيها لطائفة دليلٌ حاسم مرجّح، فيكون المجتهد فيها بين الأجر والأجرين، والعافية في هذا المسائل تكون بالاستمساك بالأصول والمُحكَمَات والعمل بالاحتياط والبعد قدر الطاقة عن المشتبهات. فعن أبي محمد الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما قال: حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم: "دع ما يَريبك إلى ما لا يريبك" رواه الترمذي وصححه. (١) وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إنّ الحلال بيّنٌ، وإنّ الحرام بيّن، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام". متفق عليه.(٢)

وإنّ من المسائل التي كثر فيها الكلام بأَخَرَةٍ مسألة كشف وجه المسلمة، وقد تسلّق منها بعض من يريدون للمسلمة أن تميل ميلًا عظيمًا، وقد أجلى



العلماء الأمر بالوجوب وأوضحوا أدلّته وأبطلوا الإيرادات عليها، ومِنْ أَمْتَنِ من وقفت على كلامهم في هذه المسألة علّامة راسخ من مفاخر عصرنا العلمية ذاكم هو الفقيه النحرير والمفسر الحبير الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي في سِفْرِه النفيس الماتع أضواء البيان، ولن أتقدّمه بمقدمة في أصل المسألة وأدلتها وترجيحها لأنها ستكون بمثابة التيمّم عند وجود الماء وانعدام العذر، وسأكتفي بذكر مهمّات كلام الشيخ في المسألة اختصارًا واقتصارًا على ما تمسّ إليه الحاجة، قال رحمنا الله وإياه في قول الله تعالى:

"{قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ. وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ}.

أمر الله جل وعلا المؤمنين والمؤمنات بغض البصر، وحفظ الفرج، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ} والأظهر عندنا أن مادة الغض تتعدى إلى المفعول بنفسها وتتعدى إليه أيضا بالحرف الذي هو {مِنْ}، ومثل ذلك كثير في كلام العرب، ومن أمثله تعدي الغض للمفعول بنفسه قول جرير:

فغض الطرف إنك من نميرٍ فلا كعبًا بلغت ولا كلابًا





وقول عنترة:

وأغضُّ طرْفي ما بدت لي جارتي   حتّى يواري جارتي مأواها

لأن قوله: غض الطرف مصدر مضاف إلى مفعوله بدون حرف.

ومن أمثلة تعدي الغض بـ{مِنْ} قوله تعالى: {يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ} و{يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ}، وما ذكره هنا من الأمر بغض البصر قد جاء في آية أخرى تهديد من لم يمتثله ولم يغض بصره عن الحرام، وهي قوله تعالى: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ} [غافر: ١٩].

وقد قال البخاري رحمه الله: "وقال سعيد بن أبي الحسن للحسن: إن نساء العجم يكشفن صدرهن ورؤوسهن، قال: اصرف بصرك عنهن، يقول الله عز وجل: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ}، قال قتادة: عما لا يحل لهم، {وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ}، خائنة الأعين النظر إلى ما نهي عنه".(٣)

وبه تعلم أن قوله تعالى: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ} فيه الوعيد لمن يخون بعينه بالنظر إلى ما لا يحل له، وهذا الذي دلت عليه الآيتان من الزجر عن النظر إلى ما لا يحل جاء موضحا في أحاديث كثيرة.



منها: ما ثبت في الصحيح، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إياكم والجلوس في الطرقات"، قالوا: يا رسول اللها ما لنا من مجالسنا بد نتحدث فيها، قال: "فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه"، قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: "غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر". (٤)

ومنها: ما ثبت في الصحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: أردف النبي صلى الله عليه وسلم الفضل بن عباس يوم النحر خلفه على عجز راحلته، وكان الفضل رجلًا وضيئًا فوقف النبي صلى الله عليه وسلم للناس يفتيهم، وأقبلت امرأة من خثعم وضيئة تستفتي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فطفق الفضل ينظر إليها وأعجبه حسنها، فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم والفضل ينظر إليها، فأخلف بيده، فأخذ بذقن الفضل فعدل وجهه عن النظر إليها.. الحديث".(٥)

ومحل الشاهد منه: أنه صلى الله عليه وسلم صرف وجه الفضل عن النظر إليها، فدلّ ذلك على أن نظره إليها لا يجوز.



ومنها: ما ثبت في الصحيحين وغيرهما: من أنّ نظر العين إلى ما لا يحلّ لها تكون به زانية، فقد ثبت في الصحيح عن ابن عباس، أنه قال: ما رأيت شيئًا أشبه باللّمم مما قال أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنى أدرك ذلك لا محالة، فزنى العين: النظر، وزنى اللسان: المنطق، والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك كله ويكذبه". (٧) ومحل الشاهد منه قوله صلى الله عليه وسلم: "فزنى العين النظر"، فإطلاق اسم الزنى على نظر العين إلى ما لا يحل دليل واضح على تحريمه والتحذير منه، والأحاديث بمثل هذا كثيرة معلومة.

ومعلوم أن النظر سبب الزنى، فإنّ مَن أكثر من النظر إلى جمال امرأة مثلا قد يتمكن بسببه حبها من قلبه تمكنًا يكون سبب هلاكه، والعياذ بالله، فالنظر بريد الزنى. وقال مسلم بن الوليد الأنصاري:

كسبتُ لقلبي نظرةً لتسرَّهُ ... عيني فكانت شقوة ووبالًا

ما مرّ بي شيءٌ أشدّ من الهوى ... سبحان من خلق الهوى وتعالى

وقال آخر:

ألم تر أن العين للقلب رائدٌ ... فما تألف العينان فالقلب آلف



وقال آخر:

وأنت إذا أرسلت طرفك رائدًا ... لقلبك يوما أتعبتك المناظرُ

رأيتَ الذي لا كلّه أنت قادرٌ ... عليه ولا عن بعضه أنت صابرُ

وقال أبو الطيب المتنبي:

وأنا الذي اجتلب المنية طرْفُهُ ... فمن المطالب والقتيل القاتلُ

وقد ذكر ابن الجوزي رحمه الله في كتابه "ذم الهوى" فصولًا جيدة نافعة، أوضح فيها الآفات التي يسببها النظر وحذر فيها منه، وذكر كثيرًا من أشعار الشعراء، والحكم النثرية في ذلك، وكله معلوم، والعلم عند الله تعالى.

وقال تعالى: {وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا}.

اعلم أولًا أن كلام العلماء في هذه الآية يرجع جميعه إلى ثلاثة أقوال:

الأول: أن الزينة هنا نفس شيء من بدن المرأة؛ كوجهها وكفيها.

الثاني: أن الزينة هي ما يتزين به خارجًا عن بدنها.

وعلى هذا القول ففي الزينة المذكورة الخارجة عن بدن المرأة قولان:



أحدهما: أنها الزينة التي لا يتضمن إبداؤها رؤية شيء من البدن؛ كالملاءة التي تلبسها المرأة فوق القميص والخمار والإزار.

والثاني:(٧) أنها الزينة التي يتضمن إبداؤها رؤية شيء من البدن؛ كالكحل في العين، فإنه يتضمن رؤية الوجه أو بعضه، وكالخضاب والخاتم، فإن رؤيتهما تستلزم رؤية اليد، وكالقرط والقلادة والسوار، فإن رؤية ذلك تستلزم رؤية محله من البدن؛ كما لا يخفى. (٨)

وسنذكر بعض كلام أهل العلم في ذلك، ثم نبين ما يفهم من آيات القرآن رجحانه.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية، وقوله تعالى: {وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا}، "أي: لا يُظهرن شيئًا من الزينة للأجانب، إلا ما لا يمكن إخفاؤه، قال ابن مسعود: كالرداء والثياب، يعني على ما كان يتعاطاه نساء العرب من المقنعة التي تجلّل ثيابها، وما يبدو من أسافل الثياب، فلا حرج عليها فيه، لأن هذا لا يمكنها إخفاؤه، ونظيره في زي النساء ما يظهر من إزارها، وما لا يمكن إخفاؤه، وقال بقول ابن مسعود: الحسن، وابن سيرين، وأبو الجوزاء، وإبراهيم النخعي وغيرهم، وقال الأعمش عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: {وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا}، قال:

وجهها وكفيها والخاتم. وروي عن ابن عمر، وعطاء، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وأبي الشعثاء، والضحاك، وإبراهيم النخعي وغيرهم نحو ذلك. وهذا يحتمل أن يكون تفسيرًا للزينة التي نهين عن إبدائها، كما قال أبو إسحاق السبيعي، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال في قوله: {وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ} الزينة: القرط، والدملوج، والخلخال، والقلادة. وفي رواية قال: الزينة زينتان، فزينة لا يراها إلا الزوج الخاتم والسوار، وزينة يراها الأجانب، وهي الظاهر من الثياب.

وقال الزهري: لا يبدو لهؤلاء الذين سمّى الله ممن لا تحل له إلا الأسورة والأخمرة والأقرطة من غير حسر، وأما عامة الناس، فلا يبدو منها إلا الخواتم. وقال مالك، عن الزهري {إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا}: الخاتم والخلخال.

ويحتمل أن ابن عباس، ومن تابعه أرادوا تفسير ما ظهر منها: بالوجه والكفين، وهذا هو المشهور عند الجمهور، ويستأنس له بالحديث الذي رواه أبو داود في سننه: عن عائشة رضي الله عنها: أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم، وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها، وقال: "يا أسماء، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا"، وأشار إلى وجهه وكفيه. لكن قال أبو داود، وأبو حاتم الرازي: هو مرسل، خالد

بن دريك لم يسمع من عائشة رضي الله عنها،(٩) والله أعلم". أهـ كلام ابن كثير. (١٠)

وقال القرطبي في تفسيره لقوله تعالى: {إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا}: "واختلف الناس في قدر ذلك، فقال ابن مسعود: ظاهر الزينة هو الثياب. وزاد ابن جبير: الوجه. وقال سعيد بن جبير أيضًا، وعطاء، والأوزاعي: الوجه والكفان والثياب. وقال ابن عباس، وقتادة، والمسور بن مخرمة: ظاهر الزينة هو الكحل والسوار والخضاب إلى نصف الذراع والقرطة والفتخ ونحو هذا، فمباح أن تبديه المرأة لكل من دخل عليها من الناس. وذكر الطبري عن قتادة في معنى نصف الذراع حديثًا عن النبي صلى الله عليه وسلم، وذكر آخر عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر إذا عركت أن تظهر إلا وجهها ويديها إلى هاهنا"، وقبض على نصف الذراع. (١١)

قال ابن عطية: ويظهر لي بحكم ألفاظ الآية أن المرأة مأمورة بأن لا تبدي وأن تجتهد في الإخفاء لكل ما هو زينة، ووقع الاستثناء فيما يظهر بحكم ضرورة حركة فيما لا بد منه، أو إصلاح شأن ونحو ذلك، فما ظهر على هذا الوجه مما تؤدي إليه الضرورة في النساء، فهو المعفوّ عنه.



قلت: وهذا قول حسن إلا أنه لما كان الغالب من الوجه والكفين ظهورهما عادة وعبادة، وذلك في الصلاة والحج، فيصلح أن يكون الاستثناء راجعًا إليهما، يدل لذلك ما رواه أبو داود عن عائشة رضي الله عنها، ثم ذكر القرطبي حديث عائشة المذكور الذي قدمناه قريبًا، ثم قال: وقد قال ابن خويز منداد من علمائنا: إن المرأة إذا كانت جميلة، وخيف من وجهها وكفيها الفتنة، فعليها ستر ذلك، وإن كانت عجوز أو مقبحة جاز أن تكشف وجهها وكفيها". أهـ (١٢)

وقال الزمخشري: "الزينة ما تزينت به المرأة من حلي أو كحل أو خضاب، فما كان ظاهرًا منها كالخاتم والفتخة والكحل والخضاب، فلا بأس به، وما خفي منها كالسوار، والخلخال، والدملج، والقلادة، والإكليل، والوشاح، والقرط، فلا تبديه إلا لهؤلاء المذكورين، وذكر الزينة دون مواقعها للمبالغة في الأمر بالتصوّن والتستر؛ لأن هذه الزينة واقعة على مواضع من الجسد لا يحل النظر إليها لغير هؤلاء، وهي الذراع، والساق، والعضد، والعنق، والرأس، والصدر، والأذن. فنهى عن إبداء الزينة نفسها ليعلم أن النظر إذا لم يحل إليها لملابستها تلك المواقع، بدليل أن النظر إليها غير ملابسة لها لا مقال في حلّه، كان النظر إلى المواقع أنفسها متمكنًا في الحظر، ثابت القدم

في الحرمة، شاهد على أن النساء حقهن أن يحتطن في سترها ويتقين الله في الكشف عنها".. إلى آخر كلامه.

وقال صاحب الدر المنثور: "وعن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: {وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ}، قال: الزينة السوار والدملج والخلخال، والقرط، والقلادة {إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا}، قال: الثياب والجلباب.

وأيضًا عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: الزينة زينتان، زينة ظاهرة، وزينة باطنة لا يراها إلا الزوج. فأما الزينة الظاهرة: فالثياب، وأما الزينة الباطنة: فالكحل، والسوار والخاتم. ولفظ ابن جرير: فالظاهرة منها الثياب، وما يخفى: فالخلخالان والقرطان والسواران.

وعن أنس في قوله: {وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا}، قال: الكحل والخاتم.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الكحل والخاتم والقرط والقلادة. وقال أيضًا: هو خضاب الكف، والخاتم. وقال أيضًا: وجهها، وكفاها والخاتم. وقال أيضًا: رقعة الوجه، وباطن الكف.

وعن عائشة رضي الله عنها: أنها سئلت عن الزينة الظاهرة؟ فقالت: القلب والفتخ، وضمت طرف كمّها.

وعن عكرمة قال: الوجه وثغرة النحر.

وعن سعيد بن جبير قال: الوجه والكف.

وعن عطاء قال: الكفان والوجه.

وعن قتادة قال: المسكّان والخاتم والكحل.

وعن المسور بن مخرمة قال: القلبين، يعني السوار والخاتم والكحل". (١٣)

وقد رأيت في هذه النقول المذكورة عن السلف أقوال أهل العلم في الزينة الظاهرة والزينة الباطنة، وأن جميع ذلك راجع في الجملة إلى ثلاثة أقوال؛ كما ذكرنا.

الأول: أن المراد بالزينة ما تتزين به المرأة خارجًا عن أصل خلقتها، ولا يستلزم النظر إليه رؤية شيء من بدنها؛ كقول ابن مسعود، من وافقه: إنها ظاهر الثياب؛ لأن الثياب زينة لها خارجة عن أصل خلقتها وهي ظاهرة بحكم الاضطرار، كما ترى.

وهذا القول هو أظهر الأقوال عندنا وأحوطها، وأبعدها من الريبة وأسباب الفتنة.

القول الثاني: أن المراد بالزينة: ما تتزين به، وليس من أصل خلقتها أيضًا، لكن النظر إلى تلك الزينة يستلزم رؤية شيء من بدن المرأة، وذلك كالخضاب والكحل، ونحو ذلك؛ لأن النظر إلى ذلك يستلزم رؤية الموضع الملابس له من البدن، كما لا يخفى.

القول الثالث: أن المراد بالزينة الظاهرة بعض بدن المرأة الذي هو من أصل خلقتها؛ كقول من قال: إن المراد بما ظهر منها الوجه والكفان، وما تقدم ذكره عن بعض أهل العلم.

وإذا عرفت هذا، فاعلم أننا قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها: أن يقول بعض العلماء في الآية قولًا، وتكون في نفس الآية قرينة دالة على عدم صحة ذلك القول، وقدّمنا أيضًا في ترجمته أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يكون الغالب في القرآن إرادة معنى معين في اللفظ، مع تكرر ذلك اللفظ في القرآن، فكون ذلك المعنى هو المراد من اللفظ في الغالب، يدل على أنه هو المراد في محل النزاع؛ لدلالة غلبة إرادته في القرآن بذلك اللفظ، وذكرنا له بعض الأمثلة في الترجمة.



وإذا عرفت ذلك، فاعلم أن هذين النوعين من أنواع البيان للذين ذكرناهما في ترجمة هذا الكتاب المبارك، ومثلنا لهما بأمثلة متعددة كلاهما موجود في هذه الآية، التي نحن بصددها.

أما الأول منهما، فبيانه: أن قول من قال في معنى: {وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا}، أن المراد بالزينة: الوجه والكفان مثلًا، توجد في الآية قرينة تدل على عدم صحة هذا القول، وهي أن الزينة في لغة العرب، هي ما تتزين به المرأة مما هو خارج عن أصل خلقتها: كالحلي، والحلل.

فتفسير الزينة ببعض بدن المرأة خلاف الظاهر، ولا يجوز الحمل عليه، إلا بدليل يجب الرجوع إليه، وبه تعلم أن قول من قال: الزينة الظاهرة: الوجه، والكفان خلاف ظاهر معنى لفظ الآية، وذلك قرينة على عدم صحة هذا القول، فلا يجوز الحمل عليه إلا بدليل منفصل يجب الرجوع إليه.

وأما نوع البيان الثاني المذكور، فإيضاحه: أن لفظ الزينة يكثر تكرره في القرآن العظيم مرادًا به الزينة الخارجة عن أصل المزيّن بها، ولا يراد بها بعض أجزاء ذلك الشيء المزيّن بها؛ كقوله تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ} [الأعراف: ٣١]، وقوله تعالى: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ} [الأعراف: ٣٢]، وقوله تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى



الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا﴾ [الكهف: ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ [القصص: ٦٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات:٦]، وقوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨]، وقوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ [القصص: ٧٩]، وقوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾ [الحديد: ٢٠]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ [طه: ٥٩]، وقوله تعالى عن قوم موسى: ﴿وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ [طه: ٨٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، فلفظ الزينة في هذه الآيات كلها يراد به ما يزيّن به الشيء وهو ليس من أصل خلقته، كما ترى. وكون هذا المعنى هو الغالب في لفظ الزينة في القرآن، يدل على أن لفظ الزينة في محل النزاع يراد به هذا المعنى، الذي غلبت إرادته في القرآن العظيم، وهو المعروف في كلام العرب؛ كقول الشاعر:

يأخذن زينتهن أحسن ما ترى ... وإذا عطلن فهن خير عواطلِ

وبه تعلم أن تفسير الزينة في الآية بالوجه والكفين، فيه نظر.

وإذا علمت أن المراد بالزينة في القرآن ما يتزين به مما هو خارج عن أصل الخلقة، وأن من فسروها من العلماء بهذا اختلفوا على قولين، فقال بعضهم: هي زينة لا يستلزم النظر إليها رؤية شيء من بدن المرأة كظاهر الثياب. وقال بعضهم: هي زينة يستلزم النظر إليها رؤية موضعها من بدن المرأة؛ كالكحل والخطاب، ونحو ذلك.

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: أظهر القولين المذكورين عندي قول ابن مسعود رضي الله عنه: أن الزينة الظاهرة هي ما لا يستلزم النظر إليها رؤية شيء من بدن المرأة الأجنبية، وإنما قلنا إن هذا القول هو الأظهر؛ لأنه هو أحوط الأقوال، وأبعدها عن أسباب الفتنة، وأطهرها لقلوب الرجال والنساء.

ولا يخفى أن وجه المرأة هو أصل جمالها ورؤيته من أعظم أسباب الافتتان بها؛ كما هو معلوم والجاري على قواعد الشرع الكريم، هو تمام المحافظة والابتعاد من الوقوع فيما لا ينبغي.

وقال تعالى: {وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ}.



قد قدّمنا أن من أنواع البيان: أن يقول بعض العلماء في الآية قولًا، وتكون في نفس الآية قرينة تدلّ على عدم صحة ذلك القول، ومن أمثلته قول كثير من الناس: إن آية "الحجاب"، أعني قوله تعالى: {وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ}، خاصة بأزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم، فإنّ تعليله تعالى لهذا الحكم الذي هو إيجاب الحجاب بكونه أطهر لقلوب الرجال والنساء من الريبة في قوله تعالى: {ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ}، قرينة واضحة على إرادة تعميم الحكم، إذ لم يقل أحد من جميع المسلمين إن غير أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم لا حاجة إلى أطهريّة قلوبهن وقلوب الرجال من الريبة منهنّ، وقد تقرّر في الأصول: أن العلّة قد تعمّم معلولها، وإليه أشار في "مراقي السعود"، بقوله:

وقد تخصّص وقد تعمّم ... لأصلها لكنها لا تخرم

وبما ذكرنا، تعلم أن في هذه الآية الكريمة الدليل الواضح على أن وجوب الحجاب حكم عام في جميع النساء، لا خاص بأزواجه صلى الله عليه وسلم، وإن كان أصل اللفظ خاصًّا بهن؛ لأن عموم علّته دليل على عموم الحكم فيه، ومسلك العلّة الذي دلّ على أن قوله تعالى: {ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ}، هو علّة قوله تعالى: {فَاسْأَلوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ}، هو المسلك

المعروف في الأصول بمسلك الإيماء والتنبيه، وضابط هذا المسلك المنطبق على جزئياته، هو أن يقترن وصف بحكم شرعي على وجه لو لم يكن فيه ذلك الوصف علّة لذلك الحكم؛ لكان الكلام معيباً عند العارفين، وعرف صاحب "مراقي السعود" دلالة الإيماء والتنبيه في مبحث دلالة الاقتضاء والإشارة والإيماء والتنبيه، بقوله:

دلالة الإيماء والتنبيه ... في الفن تقصد لدى ذويه

أن يقرن الوصف بحكم إن يكن ... لغير علّة يعبه من فطن

وعرّف أيضًا الإيماء والتنبيه في مسالك العلّة، بقوله:

والثالث الإيماء اقتران الوصف ... بالحكم ملفوظين دون خلف

وذلك الوصف أو النظير ... قرانه لغيرها يضير

فقوله تعالى: {ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ}، لو لم يكن علّة لقوله تعالى: {فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ}، لكان الكلام معيباً غير منتظم عند الفطن العارف.

وإذا علمت أن قوله تعالى: {ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ}، هو علّة قوله: {فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ}، وعلمت أن حكم العلّة عام؛ فاعلم أن العلّة قد

تعمّم معلولها، وقد تخصّصه كما ذكرنا في بيت "مراقي السعود"، وبه تعلم أن حكم آية الحجاب عام لعموم علّته، وإذا كان حكم هذه الآية عامًّا، بدلالة القرينة القرآنيّة، فاعلم أن الحجاب واجب بدلالة القرآن على جميع النساء.

واعلم أنَّا في هذا المبحث نريد أن نذكر الأدلَّة القرآنيَّة على وجوب الحجاب على العموم، ثم الأدلّة من السنّة، ثم نناقش أدلَّة الطرفين، ونذكر الجواب عن أدلّة من قالوا بعدم وجوب الحجاب، على غير أزواجه صلى الله عليه وسلم، وقد ذكرنا آنفًا أن قوله: {ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ}، قرينة على عموم حكم آية الحجاب.

أدلة القرآن الكريم:

من الأدلّة القرآنيّة على احتجاب المرأة وسترها جميع بدنها حتى وجهها، قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ}، فقد قال غير واحد من أهل العلم: إن معنى: {يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ}: أنهن يسترن بها جميع وجوههن، ولا يظهر منهن شيء إلا عين واحدة تبصر بها، وممن قال به: ابن مسعود، وابن عباس، وعبيدة السلماني وغيرهم.



فإن قيل: لفظ الآية الكريمة، وهو قوله تعالى: {يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ}، لا يستلزم معناه ستر الوجه لغة، ولم يرد نص من كتاب، ولا سنّة، ولا إجماع على استلزامه ذلك، وقول بعض المفسّرين: إنه يستلزمه معارض بقول بعضهم: إنه لا يستلزمه، وبهذا يسقط الاستدلال بالآية على وجوب ستر الوجه.

فالجواب: أن في الآية الكريمة قرينة واضحة على أن قوله تعالى فيها: {يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ}، يدخل في معناه ستر وجوههنّ بإدناء جلابيبهنّ عليها، والقرينة المذكورة هي قوله تعالى: {قُلْ لِأَزْوَاجِكَ}، ووجوب احتجاب أزواجه وسترهن وجوههن، لا نزاع فيه بين المسلمين. فذكر الأزواج مع البنات ونساء المؤمنين يدلّ على وجوب ستر الوجوه بإدناء الجلابيب، كما ترى.

ومن الأدلّة على ذلك أيضًا: هو ما قدمنا في سورة النور، في الكلام على قوله تعالى: {وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا}، من أن استقراء القرءان يدلّ على أن معنى: {إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا} الملاءة فوق الثياب، وأنه لا يصحّ تفسير: {إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا} بالوجه والكفين، كما تقدّم إيضاحه.



واعلم أن قول من قال: إنه قد قامت قرينة قرآنيّة على أن قوله تعالى: {يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ}، لا يدخل فيه ستر الوجه، وأن القرينة المذكورة هي قوله تعالى: {ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ}، قال: وقد دلّ قوله: {أَنْ يُعْرَفْنَ} على أنهنّ سافرات كاشفات عن وجوههن؛ لأن التي تستر وجهها لا تعرف باطل، وبطلانه واضح، وسياق الآية يمنعه منعًا باتًّا؛ لأن قوله: {يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ}، صريح في منع ذلك.

وإيضاحه: أن الإشارة في قوله: {ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْن} راجعة إلى إدنائهن عليهن من جلابيبهن، وإدناؤهن عليهن من جلابيبهن، لا يمكن بحال أن يكون أدنى أن يعرفن بسفورهن، وكشفهن عن وجوههن كما ترى، فإدناء الجلابيب مناف لكون المعرفة معرفة شخصية بالكشف عن الوجوه، كما لا يخفى.

وقوله في الآية الكريمة: {لِأَزْوَاجِكَ} دليل أيضًا على أن المعرفة المذكورة في الآية، ليست بكشف الوجوه؛ لأن احتجابهن لا خلاف فيه بين المسلمين.

والحاصل: أن القول المذكور تدلّ على بطلانه أدلّة متعدّدة:

الأول: سياق الآية، كما أوضحناه آنفًا.



الثاني: قوله: {لِأَزْوَاجِكَ}، كما أوضحناه أيضًا.

الثالث: أن عامّة المفسّرين من الصحابة فمن بعدهم فسّروا الآية مع بيانهم سبب نزولها، بأن نساء أهل المدينة كن يخرجن بالليل لقضاء حاجتهن خارج البيوت، وكان بالمدينة بعض الفسّاق يتعرّضون للإماء، ولا يتعرّضون للحرائر، وكان بعض نساء المؤمنين يخرجن في زيّ ليس متميّزًا عن زي الإماء، فيتعرّض لهن أولئك الفساق بالأذى ظنًّا منهم أنهن إماء، فأمر اللَّه نبيّه صلى الله عليه وسلم أن يأمر أزواجه وبناته ونساء المؤمنين أن يتميّزن في زيهن عن زي الإماء، وذلك بأن يدنين عليهن من جلابيبهن، فإذا فعلن ذلك ورآهن الفساق، علموا أنهن حرائر، ومعرفتهم بأنهن حرائر لا إماء هو معنى قوله: {ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ}، فهي معرفة بالصفة لا بالشخص.

وهذا التفسير منسجم مع ظاهر القرآن، كما ترى. فقوله:{يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ}، لأن إدنائهن عليهن من جلابيبهن يشعر بأنهن حرائر، فهو أدنى وأقرب لأن يعرفن، أي: يعلم أنهن حرائر، فلا يؤذين من قبل الفساق الذين يتعرّضون للإماء، وهذا هو الذي فسّر به أهل العلم بالتفسير هذه الآية، وهو واضح، وليس المراد منه أنّ تعرُّضَ الفساق للإماء جائز بل هو حرام، ولا شك أن المتعرضين لهن من الذين في قلوبهم مرض، وأنهم يدخلون في

عموم قوله: {وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} في قوله تعالى: {لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ}، إلى قوله: {وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً}.

ومما يدلّ على أن المتعرض لما لا يحل من النساء من الذين في قلوبهم مرض، قوله تعالى: {فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ}، وذلك معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول الأعشى:

حافظٌ للفرج راضٍ بالتُّقى　　　ليس ممن قلبه فيه مرض

وفي الجملة: فلا إشكال في أمر الحرائر بمخالفة زي الإماء ليهابهنّ الفساق، ودفع ضرر الفساق عن الإماء لازم، وله أسباب أُخر ليس منها إدناء الجلابيب.

تنبيه:

قد قدّمنا في سورة "بني إسرائيل"، في الكلام على قوله تعالى: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ}، أن الفعل الصناعي عند النحويين ينحل عن مصدر وزمن؛ كما قال ابن مالك في "الخلاصة":

الْمَصْدَرُ اسْمُ مَا سِوَى الزَّمَانِ مِنْ　　　مَدْلُولَيِ الْفِعْلِ كَأَمْنٍ مِنْ أَمِنْ

وأنه عند جماعات من البلاغيين ينحل عن مصدر، وزمن ونسبة.

وإذا علمت ذلك، فاعلم أن المصدر والزمن كامنان في مفهوم الفعل إجماعًا، وقد ترجع الإشارات والضمائر تارة إلى المصدر الكامن في مفهوم الفعل، وتارة إلى الزمن الكامن فيه.

فمثال رجوع الإشارة إلى المصدر الكامن فيه، قوله تعالى هنا: {يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ}، ثم قال: {ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ}، أي: ذلك الإدناء المفهوم من قوله: {يُدْنِينَ}.

ومثال رجوع الإشارة للزمن الكامن فيه قوله تعالى: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ}، فقوله: {ذَلِكَ} يعني زمن النفخ المفهوم من قوله: {وَنُفِخَ} أي: ذلك الزمن يوم الوعيد.

ومن الأدلّة على أن حكم آية الحجاب عام هو ما تقرّر في الأصول، من أن خطاب الواحد يعمّ حكمه جميع الأُمّة، ولا يختص الحكم بذلك الواحد المخاطب، وقد أوضحنا هذه المسألة في سورة "الحجّ"، في مبحث النهي عن لبس المعصفر، وقد قلنا في ذلك؛ لأن خطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم لواحد من أُمّته يعمّ حكمه جميع الأمة، لاستوائهم في أحكام التكليف، إلا



بدليل خاص يجب الرجوع إليه، وخلاف أهل الأصول في خطاب الواحد، هل هو من صيغ العموم الدالَّة على عموم الحكم؟ خلاف في حالٍ لا خلاف حقيقي، فخطاب الواحد عند الحنابلة صيغة عموم، وعند غيرهم من المالكية والشافعية وغيرهم أن خطاب الواحد لا يعمّ؛ لأن اللفظ للواحد لا يشمل بالوضع غيره، وإذا كان لا يشمله وضعًا، فلا يكون صيغة عموم. ولكن أهل هذا القول موافقون على أن حكم خطاب الواحد عام لغيره، ولكن بدليل آخر غير خطاب الواحد وذلك الدليل بالنص والقياس.

أمّا القياس فظاهر، لأن قياس غير ذلك المخاطب عليه بجامع استواء المخاطبين في أحكام التكليف من القياس الجلي. والنص كقوله صلى الله عليه وسلم في مبايعة النساء: "إني لا أصافح النساء، وما قولي لامرأة واحدة إلا كقولي لمئة امرأة". (١٤)

قالوا: ومن أدلّة ذلك حديث: "حكمي على الواحد حكمي على الجماعة". قلت: والحديث ثابت من حديث أُميمة بنت رقيقة، وأشار إلى ذلك في "مراقي السعود" بقوله:

خِطَابُ وَاحِدُ لِغَيْرِ الْحَنْبَلِ مِنْ غَيْرِ رَعْيِ النَّصِّ وَالْقَيْسِ الْجَلِي



وبهذه القاعدة الأصولية تعلم أن حكم آية الحجاب عام، وإن كان لفظها خاصًّا بأزواجه صلى الله عليه وسلم؛ لأن قوله لامرأة واحدة من أزواجه، أو من غيرهن كقوله لمئة امرأة.

ومن الأدلّة القرآنيّة الدالَّة على الحجاب، قوله تعالى: {وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}؛ لأن اللَّه جلَّ وعلا بيَّن في هذه الآية الكريمة أن القواعد أي العجائز اللاتي لا يرجون نكاحًا، أي: لا يطعمن في النكاح لكبر السن وعدم حاجة الرجال إليهن يرخص لهن برفع الجناح عنهن في وضع ثيابهنّ، بشرط كونهن غير متبّرجات بزينة، ثمّ إنه جلَّ وعلا مع هذا كله قال: {وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ}، أي: يستعففن عن وضع الثياب خير لهن، أي: واستعفافهن عن وضع ثيابهن مع كبر سنهنّ وانقطاع طمعهن في التزويج، وكونهن غير متبرّجات بزينة خير لهن.

وأظهر الأقوال في قوله: {أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ}، أنه وضع ما يكون فوق الخمار، والقميص من الجلابيب، التي تكون فوق الخمار والثياب.



فقوله جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة: {وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ}، دليل واضح على أن المرأة التي فيها جمال ولها طمع في النكاح، لا يرخّص لها في وضع شيء من ثيابها ولا الإخلال بشيء من التستّر بحضرة الأجانب.

وإذا علمت بما ذكرنا أن حكم آية الحجاب عام، وأن ما ذكرنا معها من الآيات فيه الدلالة على احتجاب جميع بدن المرأة عن الرجال الأجانب، علمت أن القرآن دلَّ على الحجاب، ولو فرضنا أن آية الحجاب خاصة بأزواجه صلى الله عليه وسلم، فلا شكّ أنهن خير أسوة لنساء المسلمين في الآداب الكريمة المقتضية للطهارة التامّة وعدم التدنّس بأنجاس الريبة، فمن يحاول منع نساء المسلمين كالدعاة للسفور والتبرّج والاختلاط اليوم، من الاقتداء بهنّ في هذا الأدب السماوي الكريم المتضمّن سلامة العرض والطهارة من دنس الريبة غاش لأُمّة محمّد صلى الله عليه وسلم مريض القلب؛ كما ترى.

أدلّة السنة:

واعلم أنه مع دلالة القرآن على احتجاب المرأة عن الرجال الأجانب، قد دلّت على ذلك أيضًا أحاديث نبوية، فمن ذلك ما أخرجه الشيخان في صحيحيهما وغيرهما من حديث عقبة بن عامر الجهني رضي اللَّه عنه: أن النبيّ



صلى الله عليه وسلم قال: "إيّاكم والدخول على النساء"، فقال رجل من الأنصار: يا رسول اللَّه أفرأيت الحمو؟ قال: "الحمو الموت". (١٥)

فهذا الحديث الصحيح صرّح فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم بالتحذير الشديد من الدخول على النساء، فهو دليل واضح على منع الدخول عليهنّ وسؤالهن متاعًا إلا من وراء حجاب؛ لأن من سألها متاعًا لا من وراء حجاب فقد دخل عليها، والنبيّ صلى الله عليه وسلم حذَّره من الدخول عليها، ولما سأله الأنصاري عن الحمو الذي هو قريب الزوج الذي ليس محرمًا لزوجته، كأخيه وابن أخيه وعمّه وابن عمّه ونحو ذلك، قال له صلى الله عليه وسلم: "الحمو الموت" فسمّى صلى الله عليه وسلم دخول قريب الرجل على امرأته وهو غير محرم لها باسم الموت، ولا شك أن تلك العبارة هي أبلغ عبارات التحذير؛ لأن الموت هو أفظع حادث يأتي على الإنسان في الدنيا، كما قال الشاعر:

والموت أعظم حادث مما يمرّ على الجبِلّة

والجبلة: الخلق، ومنه قوله تعالى: {وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ}، فتحذيره صلى الله عليه وسلم هذا التحذير البالغ من دخول الرجال على النساء، وتعبيره عن دخول القريب على زوجة قريبه باسم الموت، دليل



صحيح نبوي على أن قوله تعالى: {فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ} عام في جميع النساء، كما ترى. إذ لو كان حكمه خاصًّا بأزواجه صلى الله عليه وسلم لما حذر الرجال هذا التحذير البالغ العامّ من الدخول على النساء، وظاهر الحديث التحذير من الدخول عليهنّ ولو لم تحصل الخلوة بينهما، وهو كذلك، فالدخول عليهن والخلوة بهن كلاهما محرّم تحريمًا شديدًا بانفراده، كما قدّمنا أن مسلمًا رحمه الله أخرج هذا الحديث في باب تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها، فدلّ على أن كليهما حرام. وقال ابن حجر في "فتح الباري"، في شرح الحديث المذكور: "إياكم والدخولَ"، "بالنصب على التحذير، وهو تنبيه المخاطب على محذور ليتحرّز عنه، كما قيل: إياك والأسد، وقوله: "إياكم"، مفعول لفعل مضمر تقديره: اتّقوا. وتقدير الكلام: اتّقوا أنفسكم أن تدخلوا على النساء، والنساء أن يدخلن عليكم. ووقع في رواية ابن وهب، بلفظ: "لا تدخلوا على النساء"، وتضمن منع الدخول منع الخلوة بها بطريق الأولى" أهـ. (١٦)

وقال البخاري رحمه الله في "صحيحه": "باب: {وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ}. عن عائشة رضي الله عنها، قالت: يرحم الله نساء المهاجرات



الأول، لما أنزل الله: {وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ}، شققن مروطهن فاختمرن بها.

وعن صفيّة بنت شيبة أن عائشة رضي الله عنها، كانت تقول: لما نزلت هذه الآية {وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ}، أخذن أزرهن فشققنها من قبل الحواشي، فاختمرن بها" أهـ. وقال ابن حجر في "الفتح"، في شرح هذا الحديث: "قولها: فاختمرن، أي غطّين وجوههن، وصفة ذلك: أن تضع الخمار على رأسها وترميه من الجانب الأيمن على العاتق الأيسر، وهو التقنّع. قال الفراء: كانوا في الجاهلية تسدل المرأة خمارها من ورائها وتكشف ما قدامها فأمرن بالاستتار". أهـ (١٧)

والحديث الصحيح صريح في أن النساء الصحابيّات المذكورات فيه فهمن أن معنى قوله تعالى: {وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ}، يقتضي ستر وجوههن، وأنهن شققن أزرهن فاختمرن، أي: سترن وجوههن بها امتثالاً لأمر الله في قوله تعالى: {وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ}، المقتضي ستر وجوههن، وبهذا يتحقّق المنصف: أن احتجاب المرأة عن الرجال وسترها وجهها عنهم ثابت في السنّة الصحيحة المفسّرة لكتاب الله تعالى، وقد أثنت عائشة رضي الله عنها على تلك النساء بمسارعتهن لامتثال أوامر الله في كتابه،

ومعلوم أنهن ما فهمن ستر الوجوه من قوله: {وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ}، إلا من النبيّ صلى الله عليه وسلم لأنه موجود وهن يسألنه عن كل ما أشكل عليهن في دينهن، والله جلَّ وعلا يقول: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ}، فلا يمكن أن يفسرنها من تلقاء أنفسهن.

وقال ابن حجر في "فتح الباري": "ولابن أبي حاتم من طريق عبد الله بن عثمان بن خيثم، عن صفية ما يوضح ذلك، ولفظه: ذكرنا عند عائشة نساء قريش وفضلهن، فقالت: إن لنساء قريش لفضلًا، ولكن والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشدّ تصديقًا بكتاب الله، ولا إيمانًا بالتنزيل، ولقد أنزلت سورة "النور": {وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ}، فانقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل فيها، ما منهنّ امرأة إلا قامت إلى مرطها فأصبحن يصلين الصبح معتجرات كأن على رؤوسهن الغربان". (١٨)

ومعنى معتجرات: مختمرات، كما جاء موضحًا في رواية البخاري المذكورة آنفًا، فترى عائشة رضي الله عنها مع علمها وفهمها وتقاها، أثنت عليهن هذا الثناء العظيم، وصرّحت بأنها ما رأت أشدّ منهن تصديقًا بكتاب الله، ولا إيمانًا بالتنزيل، وهو دليل واضح على أن فهمهنّ لزوم ستر الوجوه من قوله تعالى: {وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ}، من تصديقهن بكتاب الله وإيمانهن

بتنزيله، وهو صريح في أن احتجاب النساء عن الرجال وسترهن وجوههن تصديق بكتاب الله وإيمان بتنزيله، كما ترى.

فالعجب كل العجب، ممن يدّعي من المنتسبين للعلم أنه لم يرد في الكتاب ولا السنّة ما يدلّ على ستر المرأة وجهها عن الأجانب، مع أن الصحابيات فعلن ذلك ممتثلات أمر الله في كتابه إيمانًا بتنزيله، ومعنى هذا ثابت في الصحيح، كما تقدم عن البخاري. وهذا من أعظم الأدلّة وأصرحها في لزوم الحجاب لجميع نساء المسلمين، كما ترى.

وعن أبي الأحوص، عن عبد الله رضي الله عنه، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، قال: "إن المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان، وأقرب ما تكون بروحة ربّها وهي في قعر بيتها". (١٩) وقد ذكر هذا الحديث صاحب "مجمع الزوائد"، وقال: "رواه الطبراني في "الكبير"، ورجاله موثقون، وهذا الحديث يعتضد بجميع ما ذكرنا من الأدلّة، وما جاء فيه من كون المرأة عورة، يدلّ على الحجاب للزوم ستر كل ما يصدق عليه اسم العورة.

ومما يؤيّد ذلك: ما ذكر الهيثمي أيضًا في "مجمع الزوائد"، عن ابن مسعود قال:" إنما النساء عورة، وإن المرأة لتخرج من بيتها وما بها من بأس

فيستشرفها الشيطان، فيقول: إنك لا تمرّين بأحد إلا أعجبتيه، وإن المرأة لتلبس ثيابها فقال: أين تريدين؟ فتقول: أعود مريضًا أو أشهد جنازة، أو أصلي في مسجد، وما عبدت امرأة ربها، مثل أن تعبده في بيتها، ثم قال: رواه الطبراني في "الكبير"، ورجاله ثقات" (٢٠). ومثله له حكم الرفع إذ لا مجال للرأي فيه.

ومن الأدلّة الدالَّة على ذلك الأحاديث التي قدّمناها، الدالَّة على أن صلاة المرأة في بيتها خير لها من صلاتها في المساجد، كما أوضحناه في سورة "النور" في الكلام على قوله تعالى: {يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ}، والأحاديث بمثل ذلك كثيرة جدًا، وفيما ذكرنا كفاية لمن يريد الحقَّ.

فقد ذكرنا الآيات القرآنيّة الدالَّة على ذلك، والأحاديث الصحيحة الدالَّة على الحجاب، وبيَّنا أن من أصرحها في ذلك آية "النور" مع تفسير الصحابة لها، وهي قوله تعالى: {وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ}، فقد أوضحنا غير بعيد تفسير الصحابة لها، والنبيّ صلى الله عليه وسلم موجود بينهم ينزل عليه الوحي، بأن المراد بها يدخل فيه ستر الوجه وتغطيته عن الرجال، وأن ستر المرأة وجهها عمل بالقرآن، كما قالته عائشة رضي الله عنها.

مناقشة أدلّة المجيزين:



وإذا علمت أن هذا القدر من الأدلّة على عموم الحجاب يكفي المنصف، فسنذكر لك أجوبة أهل العلم، عمّا استدلّ به الذين قالوا بجواز إبداء المرأة وجهها ويديها، بحضرة الأجانب.

فمن الأحاديث التي استدلّوا بها على ذلك حديث خالد بن دريك عن عائشة رضي اللَّه عنها: أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبيّ صلى الله عليه وسلم، وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها، وقال: "يا أسماء، إن المرأة إذا بلغت الحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا"، وأشار إلى وجهه وكفّيه، وهذا الحديث يجاب عنه بأنه ضعيف من جهتين:

الأولى: هي كونه مرسلًا، لأن خالد بن دريك لم يسمع من عائشة، كما قاله أبو داود، وأبو حاتم الرازي كما قدّمناه في سورة "النور".

الجهة الثانية: أن في إسناده سعيد بن بشير الأزدي مولاهم، قال فيه في "التقريب": ضعيف.

مع أنه مردود بما ذكرنا من الأدلّة على عموم الحجاب، ومع أنه لو قدر ثبوته قد يحمل على أنه كان قبل الأمر بالحجاب.





ومن الأحاديث التي استدلّوا بها على ذلك حديث جابر الثابت في الصحيح،(٢١) قال: شهدت مع رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم الصلاة يوم العيد، فبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان، ولا إقامة، ثم قام متوكّئًا على بلال فأمر بتقوى اللَّه، وحثّ على طاعته، ووعظ الناس، وذكّرهم ثم مضى حتى أتى النساء، فوعظهن وذكّرهن، فقال: "تصدقن فإن أكثركن حطب جهنم"، فقامت امرأة من سِطَةِ النساء سفعاءُ الخدّين، فقالت: لِمَ يا رسول اللَّه؟ قال: "لأنكن تكثرن الشكاة، وتكفرن العشير" ، قال: فجعلن يتصدقن من حليهن يلقين في ثوب بلال من أقرطهن وخواتمهن". قالوا: وقول جابر في هذا الحديث: سفعاء الخدّين يدلّ على أنها كانت كاشفة عن وجهها، إذ لو كانت محتجبة لما رأى خدّيها، ولما علم بأنها سفعاء الخدين.

وأجيب عن حديث جابر هذا: بأنه ليس فيه ما يدلّ على أن النبيّ صلى الله عليه وسلم رآها كاشفة عن وجهها، وأقرّها على ذلك، بل غاية ما يفيده الحديث أن جابرًا رأى وجهها، وذلك لا يستلزم كشفها عنه قصدًا، وكم من امرأة يسقط خمارها عن وجهها من غير قصد، فيراه بعض الناس في تلك الحال، كما قال نابغة ذبيان:

سقط النصيفُ ولم ترد إسقاطه فتناولته واتّقتنا باليدِ



فعلى المحتجّ بحديث جابر المذكور، أن يثبت أنه صلى الله عليه وسلم رآها سافرة، وأقرّها على ذلك، ولا سبيل له إلى إثبات ذلك. وقد روى القصة المذكورة غير جابر، فلم يذكر كشف المرأة المذكورة عن وجهها، وقد ذكر مسلم في "صحيحه" ممن رواها غير جابر أبا سعيد الخدري، وابن عباس، وابن عمر، وذكره غيره عن غيرهم. ولم يقل أحد ممن روى القصة غير جابر أنه رأى خدي تلك المرأة السفعاء الخدّين، وبذلك تعلم أنه لا دليل على السفور في حديث جابر المذكور. وقد قال النووي في شرح حديث جابر هذا عند مسلم، وقوله: "فقامت امرأة من سطة النساء"، هكذا هو في النسخ سطة بكسر السين، وفتح الطاء المخفّفة. وفي بعض النسخ: واسطة النساء. قال القاضي: معناه: من خيارهن، والوسط العدل والخيار، قال: وزعم حذاق شيوخنا أن هذا الحرف مغيّر في كتاب مسلم، وأن صوابه من سفلة النساء، (٢٢) وكذا رواه ابن أبي شيبة في مسنده، والنسائي في سننه. في رواية لابن أبي شيبة: امرأة ليست من علية النساء، وهذا ضد التفسير الأول ويعضده قوله بعده: سفعاء الخدّين هذا كلام القاضي، وهذا الذي ادّعوه من تغيير الكلمة غير مقبول، بل هي صحيحة، وليس المراد بها من خيار النساء، كما فسّره به هو، بل المراد: امرأة من وسط النساء جالسة في



وسطهن. قال الجوهري وغيره من أهل اللغة: "يقال: وسطت القوم أسطهم وسطًا وسطة، أي: توسطتهم"، أهـ منه.

وهذا التفسير الأخير هو الصحيح، فليس في حديث جابر ثناء البتّة على سفعاء الخدّين المذكورة، ويحتمل أن جابرًا ذكر سفعة خدّيها ليشير إلى أنها ليست ممن شأنها الافتتان بها؛ لأن سفعة الخدّين قبح في النساء. قال النووي: سفعاء الخدين، أي: فيها تغيّر وسواد. وقال الجوهري في "صحاحه": والسفعة في الوجه: سواد في خدّي المرأة الشاحبة، ويقال للحمامة سفعاء لما في عنقها من السفعة، قال حميد بن ثور:

مِنَ الْوُرْقِ سَفْعَاءُ الْعِلَاطَيْنِ بَاكَرَتْ فُرُوعَ أَشَاءٍ مَطْلَعَ الشَّمْسِ أَسْحَمَا

قال مقيّده -عفا الله عنه وغفر له- : السفعة في الخدّين من المعاني المشهورة في كلام العرب: أنها سواد وتغيّر في الوجه، من مرض أو مصيبة أو سفر شديد، ومن ذلك قول متمم بن نويرة التميمي يبكي أخاه مالكًا:

تَقُولُ ابْنَةُ الْعُمَرِيِّ مَا لَكَ بَعْدَمَا أَرَاكَ خَضِيبًا نَاعِمَ الْبَالِ أَرْوَعَا

فَقُلْتُ لَهَا طُولُ الْأَسَى إِذْ سَأَلْتِنِي وَلَوْعَةُ وَجْدٍ تَتْرُكُ الْخَدَّ أَسْفَعَا



ومعلوم أن من السفعة ما هو طبيعي كما في الصقور، فقد يكون في خدي الصقر سواد طبيعي، ومنه قول زهير بن أبي سلمى:

أَهْوَى لَهَا أَسْفَعُ الْخَدَّيْنِ مُطَّرِقُ   رِيشَ الْقَوَادِمِ لَمْ تُنْصَبْ لَهُ الشَّبَكُ

والمقصود: أن السفعة في الخدّين إشارة إلى قبح الوجه، وبعض أهل العلم يقول: إن قبيحة الوجه التي لا يرغب فيها الرجال لقبحها، لها حكم القواعد اللاتي لا يرجون نكاحًا.

ومن الأحاديث التي استدلّوا بها على ذلك، حديث ابن عباس الذي قدّمناه، قال: أردف رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم الفضل بن عباس رضي اللَّه عنهما، يوم النحر خلفه على عجز راحلته، وكان الفضل رجلًا وضيئًا فوقف النبيّ صلى الله عليه وسلم يفتيهم، وأقبلت امرأة من خثعم وضيئة تستفتي رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم، فطفق الفضل ينظر إليها، وأعجبه حسنها فالتفت النبيّ صلى الله عليه وسلم، والفضل ينظر إليها، فأخلف بيده، فأخذ بذقن الفضل فعدل وجهه عن النظر إليها، فقالت: يا رسول اللَّه إن فريضة اللَّه في الحجّ على عباده، أدركت أبي شيخًا كبيرًا... الحديث. (٢٣) قالوا: فالإخبار عن الخثعمية بأنها وضيئة يفهم منه أنها كانت كاشفة عن وجهها.



وأجيب عن ذلك أيضًا من وجهين:

الأول: الجواب بأنه ليس في شيء من روايات الحديث التصريح بأنها كانت كاشفة عن وجهها، وأن النبيّ صلى الله عليه وسلم رآها كاشفة عنه، وأقرّها على ذلك بل غاية ما في الحديث أنها كانت وضيئة، وفي بعض روايات الحديث: أنها حسناء، ومعرفة كونها وضيئة أو حسناء لا يستلزم أنها كانت كاشفة عن وجهها، وأنه صلى الله عليه وسلم أقرّها على ذلك، بل قد ينكشف عنها خمارها من غير قصد، فيراها بعض الرجال من غير قصد كشفها عن وجهها، كما أوضحناه في رؤية جابر سفعاء الخدين. ويحتمل أن يكون يعرف حسنها قبل ذلك الوقت لجواز أن يكون قد رآها قبل ذلك وعرفها، ومما يوضح هذا أن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما الذي روي عنه هذا الحديث لم يكن حاضرًا وقت نظر أخيه إلى المرأة، ونظرها إليه لما قدمنا من أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قدمه بالليل من مزدلفة إلى منى في ضعفة أهله، ومعلوم أنه إنما روى الحديث المذكور من طريق أخيه الفضل، وهو لم يقل له: إنها كانت كاشفة عن وجهها، واطّلاع الفضل على أنها وضيئة حسناء لا يستلزم السفور قصدًا لاحتمال أن يكون رأى وجهها،



وعرف حسنه من أجل انكشاف خمارها من غير قصد منها، واحتمال أنه رآها قبل ذلك وعرف حسنها.

فإن قيل: قوله: إنها وضيئة، وترتيبه على ذلك بالفاء، قوله: فطفق الفضل ينظر إليها، وقوله: وأعجبه حسنها، فيه الدلالة الظاهرة على أنه كان يرى وجهها، وينظر إليه لإعجابه بحسنه.

فالجواب: أن تلك القرائن لا تستلزم استلزامًا لا ينفكّ أنها كانت كاشفة، وأن النبيّ صلى الله عليه وسلم رآها كذلك، وأقرّها لما ذكرنا من أنواع الاحتمال، مع أن جمال المرأة قد يعرف وينظر إليها لجمالها وهي مختمرة، وذلك لحسن قدّها وقوامها، وقد تعرف وضاءتها وحسنها من رؤية بنانها فقط، كما هو معلوم. ولذلك فسّر ابن مسعود: {وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا}، بالملاءة فوق الثياب، كما تقدم. ومما يوضح أن الحسن يعرف من تحت الثياب، قول الشاعر:

طَافَتْ أُمَامَةُ بِالرُّكْبَانِ آوِنَةً ... يَا حُسْنَهَا مِنْ قَوَامٍ مَا وَمُنْتَقِبَا

فقد بالغ في حسن قوامها، مع أن العادة كونه مستورًا بالثياب لا منكشفًا.

الوجه الثاني: أن المرأة محرمة وإحرام المرأة في وجهها وكفيها، فعليها كشف وجهها إن لم يكن هناك رجال أجانب ينظرون إليه، وعليها ستره من الرجال في الإحرام، كما هو معروف عن أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم وغيرهن، ولم يقل أحد أن هذه المرأة الخثعمية نظر إليها أحد غير الفضل بن عباس رضي اللَّه عنهما، والفضل منعه النبيّ صلى الله عليه وسلم من النظر إليها، وبذلك يعلم أنها محرمة لم ينظر إليها أحد فكشفها عن وجهها (٢٤) إذًا لإحرامها لا لجواز السفور.

فإن قيل: كونها مع الحجاج مظنّة أن ينظر الرجال وجهها إن كانت سافرة؛ لأن الغالب أن المرأة السافرة وسط الحجيج، لا تخلو ممن ينظر إلى وجهها من الرجال.

فالجواب: أن الغالب على أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم الورع وعدم النظر إلى النساء، فلا مانع عقلًا ولا شرعًا ولا عادة، من كونها لم ينظر إليها أحد منهم، ولو نظر إليها لحكي كما حكي نظر الفضل إليها، ويفهم من صرف النبيّ صلى الله عليه وسلم بصر الفضل عنها، أنه لا سبيل إلى ترك الأجانب ينظرون إلى الشابة، وهي سافرة كما ترى، وقد دلّت الأدلّة المتقدمة على أنها يلزمها حجب جميع بدنها عنهم.



وبالجملة، فإن المنصف يعلم أنه يبعد كل البعد أن يأذن الشارع للنساء في الكشف عن الوجه أمام الرجال الأجانب، مع أن الوجه هو أصل الجمال، والنظر إليه من الشابة الجميلة هو أعظم مثير للغريزة البشرية وداع إلى الفتنة، والوقوع فيما لا ينبغي، ألم تسمع بعضهم يقول:

قُلْتُ اسْمَحُوا لِي أَنْ أَفُوزَ بِنَظْرَةٍ   وَدَعُوا الْقِيَامَةَ بَعْدَ ذَاكَ تَقُومُ

أترضى أيها الإنسان أن تسمح له بهذه النظرة إلى نسائك وبناتك وأخواتك، ولقد صدق من قال:

وَمَا عَجَبٌ أَنَّ النِّسَاءَ تَرَجَّلَتْ   وَلَكِنَّ تَأْنِيثَ الرِّجَالِ عُجَابُ

مسألة تتعلق بهذه الآية الكريمة أعني آية الحجاب هذه:

اعلم: أنه لا يجوز للرجل الأجنبي أن يصافح امرأة أجنبية منه. ولا يجوز له أن يمسّ شيء من بدنه شيئًا من بدنها.

والدليل على ذلك أمور:

الأول: أن النبيّ صلى الله عليه وسلم ثبت عنه أنّه قال: "إني لا أصافح النساء"، الحديث. (٢٥) والله يقول: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}، فيلزمنا ألاّ نصافح النساء اقتداء به صلى الله عليه وسلم.



وكونه صلى الله عليه وسلم لا يصافح النساء وقت البيعة دليل واضح على أن الرجل لا يصافح المرأة، ولا يمسّ شيء من بدنه شيئًا من بدنها؛ لأن أخفّ أنواع اللّمس المصافحة، فإذا امتنع منها صلى الله عليه وسلم في الوقت الذي يقتضيها وهو وقت المبايعة، دلَّ ذلك على أنها لا تجوز، وليس لأحد مخالفته صلى الله عليه وسلم، لأنه هو المشرع لأُمّته بأقواله وأفعاله وتقريره.

الأمر الثاني: هو ما قدمنا من أن المرأة كلها عورة يجب عليها أن تحتجب، وإنما أمر بغضّ البصر خوف الوقوع في الفتنة، ولا شكّ أن مسّ البدن للبدن، أقوى في إثارة الغريزة، وأقوى داعيًا إلى الفتنة من النظر بالعين، وكل منصف يعلم صحّة ذلك.

الأمر الثالث: أن ذلك ذريعة إلى التلذّذ بالأجنبية، لقلّة تقوى الله في هذا الزمان وضياع الأمانة، وعدم التورّع عن الريبة، فالحق الذي لا شكّ فيه التباعد عن جميع الفتن والريب وأسبابها، ومن أكبرها لمس الرجل شيئًا من بدن الأجنبية، والذريعة إلى الحرام يجب سدّها، كما أوضحناه في غير هذا الموضع، وإليه الإشارة بقول صاحب "مراقي السعود":

سَدُّ الذَّرائِع إِلَى الْمُحَرَّمِ   حَتْمٌ كَفَتْحِهَا إِلَى الْمُنْحَتِمِ



تنبيه:

قد ذكرنا في كلام أهل العلم في الزينة أسماء كثير من أنواع من الزينة، ولعل بعض الناظرين في هذا الكتاب، لا يعرف معنى تلك الأنواع من الزينة، فأردنا أن نبينها هاهنا تكميلا للفائدة:

أما الكحل والخضاب فمعروفان، وأشهر أنواع خضاب النساء الحناء، والقرط ما يعلق في شحمة الأذن، ويجمع على قرطة كقردة، وقراط، وقروط، وأقراط، ومنه قول الشاعر:

أَكَلْتُ دَمًا إِنْ لَمْ أَرُعْكِ بِضَرَّةٍ بَعِيدَةِ مَهْوَى الْقُرْطِ طَيِّبَةِ النَّشْرِ

والخاتم معروف، وهو حلية الأصابع. والفتخ: جمع فتخة بفتحات وهي حلقة من فضة لا فص فيها، فإذا كان فيها فص، فهو الخاتم. وقيل: قد يكون للفتخة فص، وعليه فهي نوع من الخواتم، والفتخة تلبسها النساء في أصابع أيديهن، وربما جعلتها المرأة في أصابع رجليها، ومن ذلك قول الراجزة، وهي الدهناء بنت مسحل زوجة العجاج:

وَاللَّهِ لَا تَخْدَعُنِي بِضَمِّ وَلَا بِتَقْبِيلٍ وَلَا بِشَمِّ

إِلَّا بِزِعْزَاعٍ يُسَلِّي هَمِّي تَسْقُطُ مِنْهُ فَتَخِي فِي كُمِّي



والخلخال، ويقال له:

الخلخل حلية معروفة تلبسها النساء في أرجلهن كالسوار في المعصم، والمخلخل: موضع الخلخال من الساق، ومنه قول امرئ القيس:

إِذَا قُلْتُ هَاتِي نَوِّلِينِي تَمَايَلَتْ عَلَيَّ هَضِيمَ الْكَشْحِ رَيَّا الْمُخَلْخَلِ

والدملج: ويقال له الدملوج: هو المعضد، وهو ما شد في عضد المرأة من الخرز وغيره، والعضد من المرفق إلى المنكب، ومنه قول الشاعر:

مَا مَرْكَبٌ وَرُكُوبُ الْخَيْلِ يُعْجِبُنِي كَمَرْكَبٍ بَيْنَ دُمْلُوجٍ وَخَلْخَالِ

والسوار: حلية من الذهب، أو الفضة مستديرة كالحلقة تلبسها المرأة في معصمها، وهو ما بين مفصل اليد والمرفق، وهو القُلْبُ بضم القاف.

وقال بعض أهل اللغة: إن القلب هو السوار المفتول من طاق واحد، لا من طاقين أو أكثر، ومنه قول خالد بن يزيد بن معاوية في زوجته رملة بنت الزبير بن العوام رضي الله عنه:

تَجُولُ خَلَاخِيلُ النِّسَاءِ وَلَا أَرَى لِرَمْلَةَ خَلْخَالًا يَجُولُ وَلَا قُلْبًا

أُحِبُّ بَنِي الْعَوَّامِ مِنْ أَجْلِ حُبِّهَا وَمِنْ أَجْلِهَا أَحْبَبْتُ أَخْوَالَهَا كَلْبًا



والمسكة بفتحات: السوار من عاج أو ذبل، والعاج سن الفيل، والذبل بالفتح شيء كالعاج، وهو ظهر السلحفاة البحرية، يتخذ منه السوار، ومنه قول جرير يصف امرأة:

تَرَى الْعَبَسَ الْحَوْلِيَّ جَوْنًا بِكُوعِهَا لَهَا مَسَكًا فِي غَيْرِ عَاجٍ وَلَا ذَبَلْ

قاله الجوهري في "صحاحه"، والمَسَك بفتحتين: جمع مَسَكة.

وقال بعض أهل اللغة: المسك أسورة من عاج أو قرون أو ذبل، ومقتضى كلامهم أنها لا تكون من الذهب، ولا الفضة، وقد قدمنا في سورة "التوبة"، في الكلام على قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ}، في مبحث زكاة الحلي المباح من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عند أبي داود النسائي: أن امرأة أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعها ابنتها وفي يد ابنتها مسكتان غليظتان من ذهب، الحديث. (٢٦) وهو دليل على أن المسكة تكون من الذهب، كما تكون من العاج، والقرون، والذبل. وهذا هو الأظهر خلافا لكلام كثير من اللغويين في قولهم: إن المسك لا يكون من الذهب، والفضة، والقلادة معروفة، والله تعالى أعلم". (٢٧)

وصلى الله وسلم وبارك على محمد وآله وصحبه.



٩/ ١/ ١٤٤١

....

١. الترمذي (٢٥١٨) والنسائي ٣٢٧/٨ وصححه الألباني في صحيح الجامع (١ / ٥٦٩) (٣٣٧٧)

٢. البخاري ٢٠/١ (٥٢)، ومسلم ٥٠/٥ (١٥٩٩) (١٠٧)

٣. البخاري (٨ / ٠) باب قول الله تعالى { يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون }.

٤. البخاري ٦٣/٨ (٦٢٢٩) ، ومسلم ١٦٥/٦ (٢١٢١) (١١٤)

٥. البخاري (٦٢٢٨) ومسلم (١٣٣٤)

٦. البخاري ٢٨٩/١٢ (٦٢٤٣) ومسلم (٤٥٦/٨، ٤٥٧)

٧. وهو الثالث من الأقوال.

٨. قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: "والسلف قد تنازعوا في الزينة الظاهرة على قولين: فقال ابن مسعود ومن وافقه: هي الثياب. وقال ابن عباس ومن وافقه:



هي في الوجه واليدين مثل الكحل والخاتم. وعلى هذين القولين تنازع الفقهاء في النظر إلى المرأة الأجنبية.

فقيل: يجوز النظر لغير شهوة إلى وجهها ويديها، وهو مذهب أبي حنيفة والشافعي وقول في مذهب أحمد.

وقيل: لا يجوز، وهو ظاهر مذهب أحمد؛ فإن كل شيء منها عورة حتى ظفرها. وهو قول مالك.

وحقيقة الأمر: أن الله جعل الزينة زينتين: زينة ظاهرة، وزينة غير ظاهرة. وجوّز لها إبداء زينتها الظاهرة لغير الزوج وذوي المحارم. وكانوا قبل أن تنزل آية الحجاب كان النساء يخرجن بلا جلباب، يرى الرجل وجهها ويديها. وكان إذ ذاك يجوز لها أن تظهر الوجه والكفين، وكان حينئذ يجوز النظر إليها لأنه يجوز لها إظهاره. ثم لما أنزل الله عز وجل آية الحجاب بقوله: { يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن } حجب النساء عن الرجال، وكان ذلك لما تزوج زينب بنت جحش فأرخى الستر ومنع أنسًا أن ينظر. ولما اصطفى صفية بنت حيي بعد ذلك عام خيبر قالوا: إن حجبها فهي من أمهات المؤمنين، وإلا فهي مما ملكت يمينه، فحجبها. فلما أمر الله ألا يُسألن إلا من وراء حجاب، وأمر أزواجه وبناته ونساء المؤمنين أن يدنين عليهن من جلابيبهن، والجلباب: هو الملاءة، وهو الذي يسميه ابن مسعود وغيره الرداء، وتسميه العامة الإزار، وهو الإزار الكبير الذي يغطي رأسها





وسائر بدنها. وقد حكى أبو عبيد وغيره: أنها تدنيه من فوق رأسها فلا تظهر إلا عينها. ومن جنسه النقاب، فكنَّ النساء ينتقبن.

وفي الصحيح أن المحرمة لا تنتقب ولا تلبس القفازين، فإذا كنّ مأمورات بالجلباب لئلا يعرفن، وهو ستر الوجه أو ستر الوجه بالنقاب؛ كان الوجه واليدان من الزينة التي أُمِرت ألا تُظهرها للأجانب، فما بقي يحل للأجانب النظر إلا إلى الثياب الظاهرة. فابن مسعود ذكر آخر الأمرين، وابن عباس ذكر أول الأمرين". مجموع الفتاوى (٢٢ / ١١١)

٩. سنن أبي داود برقم (٤١٠٤). وقال أبو داود: خالد بن دريك لم يدرك عائشة رضي الله عنها. قال العلائي في جامع التحصيل ص ١٧٠: خالد بن دريك البناني روى عن ابن عمر وعائشة رضي الله عنهما ولم يدركهما، قال شيخنا المزي وحكي عن أبي داود أنه قال: لم يدرك عائشة. أهـ.

وقال الزيلعي في نصب الراية ١/٢٩٩، قال ابن القطان: ومع هذا نخالد مجهول الحال، قال المنذري وفيه أيضًا سعيد بن بشير أبو عبد الرحمن البصري نزيل دمشق مولى بني نضر تكلم فيه غير واحد، وقال ابن عدي في الكامل هذا حديث لا أعلم رواه عن قتادة غير سعيد بن بشير، وقال فيه مرة عن خالد بن دريك عن أم سلمة بدل عائشة.

فالحديث لا يثبت ولا ينهض للاستدلال به.



١٠. تفسير ابن كثير (٦ / ٤٥)

١١. الطبري في تفسيره (١٩/ ١٥٧) وقال الألباني في جلباب المرأة: "منكر، لضعفه من جهة إسناده، ومخالفته لما هو أقوى منه".

١٢. الجامع لأحكام القرآن (١٢ / ٢٢٨)

١٣. الدر المنثور (١١ / ٢٢) باختصار.

١٤. أحمد (٦/ ٣٥٧)، والترمذي ٤/ ١٥١- ١٥٢، (١٥٩٧)، وصححه، والنسائي (٤١٨١)

١٥. البخاري ٤٨/٧ (٥٢٣٢) ، ومسلم ٧/٧ (٢١٧٢) (٢٠)

١٦. فتح الباري (٩ / ٣٣١)

١٧. فتح الباري (٨ / ٤٩٠)

١٨. فتح الباري (٨ / ٤٩٠)

١٩. الترمذي (١١٧٣) وحسنه. وصححه السيوطي في الجامع (٩١٧٤) والمنذري في الترغيب (١/١٨٠)

٢٠. الطبراني في المعجم الكبير (٨٩١٤) (٩/١٨٥)

٢١. البخاري (٢/٢٢) ومسلم (٣/١٨)

٢٢. وقد ورد هذا اللفظ في مسند أحمد من حديث جابر (١٤٤٢٠) "فقالت امرأة من سفلة النساء، سفعاء الخدين". قال الأرناؤوط: "إسناده صحيح على شرط مسلم، وأخرجه النسائي في "المجتبى" ١٨٦/٣، وفي "الكبرى" (١٧٨٤)، وابن خزيمة (١٤٦٠)، والدارقطني ٤٦/٢-٤٧ من طريق يحيى بن سعيد، بهذا الإسناد.

وقوله: "من سفلة النساء" بفتح السين وكسر الفاء، وبعض العرب يخفف، فيقول: من سفلة، فينقل كسرة الفاء إلى السين، أي: من النازلات رتبة، لا من عليتهن وخيارهن حسبا ونسبا، ووقع في رواية مسلم وابن خزيمة: "من سطة النساء"، ولضبط هذا الحرف والكلام عليه انظر "مشارق الأنوار" ٢١٤/٢، و"شرح النووي" ١٧٥/٦.

وقوله: "سفعاء الخدين"، قال ابن الأثير في "النهاية" ٣٧٤/٢: السفعة: نوع من السواد ليس بالكثير، وقيل: هو سواد مع لون آخر". مختصرًا.

٢٣. البخاري (٦٢٢٨)

٢٤. أي على فرض أنها كانت كاشفة لوجها.

٢٥. أحمد (٦/ ٣٥٧)، والترمذي (١٥٩٧)، وصححه، والنسائي (٤١٨١)

٢٦. أحمد (٢/١٧٨) (٦٦٦٧) وأبو داود (١٥٦٣) والترمذي (٦٣٧) والنسائي (٥/٣٨)

٢٧. أضواء البيان (٦/ ١٢٧-١٤٠) (٦/ ٣٨٣-٣٩٦) مختصرًا.





الحَسَدُ آكلُ الحسنات

الحمد لله وبعد، فإن المؤمن حريصٌ على تنقيةِ قلبِه وتصفيةِ صدره وغسْلِ روحِه من سيئات الأخلاق ودنيا النفوس. ولقد تأملت سيءَ الأخلاق فما رأيت أشأمَ من خَصلتي الكبر والحسد، ثم تدبرتُها في القرآن فوجدتُهما سبب إبلاسِ إبليسَ في الشرِّ، وارتكاسِهِ في الخذلان، ووقوعِه في اللعنة والرجم.

لقد حسد آدمَ وتكبّر عليه، فأخلِق بمن تشبّه به في سواد قلبه أن يَمتنعَ الخيرُ عن قلبه ومِن قلبه، فحُبُّ الخيرِ للناس مفتقرٌ لقلبٍ واسع طاهر، ونيّةٍ طيبة حسنة، وقبل ذلك لمحضِ توفيقٍ من الرحمن.

والشيطانُ حريص على تلويث قلوبِ العباد بسواد خبثه وقتار شؤمه، ولم يجد من رواحله كالحسد والكبر. فعند أحمدَ بسند حسنٍ عن الزبير بن العوام رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللَّه صلى الله عليه وسلم قال: "دَبَّ إليكم دَاءُ الأُممِ قبلَكم: الحسدُ والبغضاءُ، وَهي الْحَالِقةُ أمَا إنّي لا أَقُولُ: تَحْلِقُ الشَّعْرَ،





ولكن تَحْلِقُ الدِّينَ، والَّذي نَفْسي بِيدِه لا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حتَّى تُؤْمِنوا، ولا تُؤمِنُون حتى تَحابُّوا، أَلا أَدُلُّكم على مَا تَتَحَابُّونَ بِهِ؟ افْشُوا السلامَ بينَكُم".

فالمؤمن الناصح لنفسه يحرسُها من آكِلِ الحسناتِ الحسد، ولا يسكنُ الحسدُ إلا قلبَ وضيعٍ، ولا يتمكنُ إلا من نفسٍ خسيس، أما المؤمن فيردُّه إيمانه ويحجُزُه ورعه، وأما العاقل فيثْنِيهِ عقلُهُ، وأمّا الشريف فيستحي لشرفِهِ. وقيل لبعضهم: ما بالُ فلانٍ يُبغضك؟ قال: لأنه شقيقي في النسب، وجاري في البلد، وشريكي في الصناعة، فذكر جميع دواعي الحسد.

أخي المؤمن: إياك والحسد! فإنه آكل الحسنات، فيأكلها كما تأكل النار الحطب، وموبِقُ إبليسَ في أسحقِ الدركات، وهو أوَّلُ ذنبٍ عُصيَ اللهُ به، واعلم أنه لا يجتمع في قلبٍ حسدٌ مع حبِّ الخيرِ للناس، فلا بدَّ لأحدهما أن يُزيحَ مكانَهُ أو بعضَهُ للآخر. فاغسِلْ قلبك من حوبات الذنوب، وطهّر صدرك من نجاسات الأحقاد والشحناء ولوْثات الحسد والبغضاء. ومن توكل على ربه وفوض إليه أمره أوشك أن يصل لتوفيقه ورضوانه بإذنه تعالى ورحمته، فليس مع الرحمن يأسٌ.

واعلم أنّ كثيرًا من نعرات الشقاق بين الناس فسببُها الخفيُّ حسدٌ كامنٌ في الضمائر، مستترٌ عن الظواهر، ولكن تشمّه الأرواح، وتستوحشه النفوس، ويُظهره الخذلان، ويُختم بسوء العاقبة والحرمان.

والحاسد معترض على قدر الله تعالى بحاله: قال الله تعالى: (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله). وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: ألا لا تعادُوا نِعَمَ الله، قيل: ومن يعادي نعم الله؟ قال: الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله.

أيا حاسدًا لي على نعمتي ... أتدري على من أسات الأدب

أسأت على الله في حُكْمِهِ ... لأنّك لم ترضَ لي ما وهب

والحاسد سقيم غَمِّهِ وقتيل هَمِّهِ، وذكروا عن الإمام الشافعي قوله: إن سمعتَ بسفينة تمشي على الرمل فصدّق، لكن إياك أن تصدّق أن حاسدًا يبيتُ قرير العين! وقال عمر رضي الله عنه: يكفيكَ من الحاسد أنه يغتمّ وقتَ سرورك. وقال الفقيه أبو الليثِ السَّمَرْقَندي رحمة الله تعالى علينا وعليه: تَصِلُ إلى الحاسد خمسُ عقوبات قبل أن يصل حسدُهُ إلى المحسود: غَمٌّ لا ينقطع، ومصيبةٌ لا يُؤجرُ عليها، ومذمّةٌ لا يُحمدُ عليها، وسَخَطُ الربِّ، ويُغلق

عنه باب التوفيق. فالحاسد شقيٌّ مكلوم مهموم، قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى: لم أرَ ظالمًا أشبه بالمظلوم من حاسد.

وقال الأصمعي: رأيتُ أعرابيًا قد بلغ عمرُه مئةً وعشرين سنة، فقلت له: ما أطولَ عُمُرَك، فقال: تركتُ الحسدَ فبقِيتُ. كما قيل: قاتلَ اللهُ الحسدَ ما أعدلَهَ، بدأَ بصاحبه فقتلَه، فالنارُ تأكلُ بعضَها إن لم تجد ما تأكلُه.

ولقد تأملت في الناس فرأيت أن الحسد يستتر خلف كثير مما يسمّونه أسباب كراهية، فَجُزْ ناديهم بطهارة قلبك وسلامة صدرك وحسن ظنك. وإن البرَّ يا صاحبي أسلافٌ.

والحسد والكبر خصلتا إبليس، ومطيّتاه لغزو قلوب العباد، ولو رُفع الحسدُ من الأرض؛ لأغلقت المحاكمُ أبوابَها. ومن الخطأ أن تطلب ألّا تُحسد فلكل نعمةٍ حاسد.

وقال ابن تيمية: "قد يبتلى بعض المنتسبين إلى العلم وغيرهم بنوع من الحسد لمن هداه الله لعلم نافع أو عمل صالح، وهو خلق مذموم مطلقًا، وهو في هذا الموضع من أخلاق المغضوب عليهم". وأرى العداوةَ لا أَرَى أسبابَها! لذلك فعند كلامك على الأقران - مهما كان حالهم وعلمهم ومقامهم - حاذر

أن تلامس المقارنة بينهم، لأن هذا من شأنه أن يثير الحسد الكامن في قلوبهم. قال ابن تيمية: الحسد مرض غالب، لا يخلص منه إلا القليل من الناس!

ولقد صدق أبو الأسود الدؤلي إذ قال: "إذا أردت أن تعظم فمُت". فالميِّتُ تكبُرُ محاسنُه، وتُنسى معايبه، وتَدفِنُ الرحمةُ به الحسدَ عليه. وبالتغافل عن الحُساد يستريح الفؤاد.

فاحرص - رعاك الله - على سلامة صدرك وليكُنْ قلبُك طاهراً من كل ما يُشينُهُ، فلا تحمِلْ على الناس لأجل دنيا.

وسلامة الصدر هي الطريق لحسن النصح للمسلمين، فمن أراد بلوغ مرتبة أن يحب لإخوانه ما يحب لنفسه فليبدأ بتفقّد سلامة صدره لهم. فالمؤمن قلبُه سليمٌ، وصدرُهُ سليمٌ، ونصحُه للناس صافٍ مُتدفِّقٌ، يُحب لهم ما يُحب لنفسه من خيري الآخرة والدنيا.

وصدره سالم من سواد الحسد، وقَتَرَةِ الحِقد، ودخانِ الضغينة، فهو سليمٌ كقلب الطيرِ البريء، طهَّر قلبَه من نتنِ معصية، وقُبح خطيئةٍ وضِرَامِ بغضاءٍ لمسلم، ومثلُ هذا موعودٌ برحمة ربه وجزيل هباته. (جزاؤهم عند ربهم

جناتُ عدنٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه).

وهل تعلم سرَّ استنارةِ الوجوه وانفساحِ الصدور: إنه القلب السليم! فتفقّد - رحمك الله - طهارةَ قلبك، وسلامةَ صدرك، فإنها من نفيسِ رأس مالك في الدار الآخرة، فنِعَمّا طهارةُ القلبِ ذخيرةٌ بين يديك غدًا، وأكرِمْ بها قربانًا وزُلفى إلى مولاك أبدًا، أن تكون من الذين قال الله تعالى فيهم: (من أتى الله بقلب سليم).

فإن السعيد من ولد آدم هو من اتقى الله تعالى حق التقوى، وتحلى بسلامة الصدر وطهارة القلب، فالفائز عند الله غدًا هو من سَلِمَ صدره اليومَ. والمؤمنُ طاهرُ القلب كأبيه آدم عليه السلام، فإن خُدِعَ يومًا لطيبته فلهُ سلَفٌ صالحٌ بأبيه، الذي لم يكن يتصوّر أن هناك من سيقسم بالله كاذبًا (وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين).

إنّ سلامةَ الصدرِ خلق شريف، يتحلّى به أهلُ المروءاتِ العظيمةِ، والنفوسِ الساميةِ والرغائبِ الكبرى في فلاح الدار الآخرة. وكان السلف رحمهم الله يحفظون لسالِمِ الصدر هذه الخَصلةَ ويحمدونه عليها. قال اياسُ بنُ معاوية: كان أفضلُهُم عندَهم أسلَمُهم صدورًا وأقلُّهم غِيبة.



ومن كان قلبه سليمًا الحسدِ وصدرُهُ خاليًا من الحقدِ فقد تنعّم بشيء من نعيم الجنة، فِمنْ نفيسِ نعيمِهَا سلامةُ صدورِ سكانِها وراحتُهم، قال ربنا تعالى: (ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانًا على سرر متقابلين).

وسلامة الصدر منحةٌ من الله تعالى ومحض فضل من لدنه، يختص به من أراد توفيقه من خواصّ عباده. وسئل الإمام أحمد: ما التوفيق؟ فقال: ألّا يكلك الله إلى نفسك. فالقلبُ قُلَّبٌ مالم يعصمه مولاه، والصدر ضيّق ما لم يفسحه الله، والهم ملازم ما لم يرفعه الله. (إن في ذلك لآيات لأُولي النهى).

إنّ سالمَ الصدرِ على عباد الله يعيشُ بين الناسِ وجنتُهُ في صدره، وبستانُه في قلبه، وسعادته وسكينته في روحه، ينظرُ إليهم بعيني قلبِه السليمِ، وصدرِهِ الناصح الناصع الواسع، فلا يرى شيئًا من نَكَدِهِم عليه يستحقُّ ذلك المقابلَ، فينقلبُ إليهم سليمَ الصدرِ، حسَنَ الظنِّ، مُحبًّا لهم كل خيرٍ يُطيقه، مُسديًا لهم كل فائدة يسطِيعها، لعلمِه أنه لم يُخلق لحملِ همومِ دنيا وغمومِ فانية.

إنه فقط يحمل هم آخرته، ويسعى لتحصيل رضى مولاه، فإن صادَفَهُ ظلمٌ له أو أذىً؛ لم يتكدّرْ تَكَدُّرَ الهلوعين، ولم تَضِقْ نفسُهُ بأمرٍ هو عند الناسِ عظيمٌ وعندَ الأتقياءِ تافه.



فَمَا كُلُّ ما راجتْ عند الناس عظمَتُهُ عظيمًا، وما كلُّ ما تهالك الناس على تحصيله يستحق، ولا كلّ ما حَمَلَ الناسُ همَّ إزاحتِه واجتنابِه حقيقٌ بذلك، فالميزانُ هو ميزانُ الآخرة، وإنما المعوّلُ على رضى الرحمن. ومن كان معيارُهُ الآخرة؛ نَفَذَتْ بصيرتُه، واستقام عمله، ومن كان ميزانُهُ العاجلة؛ عمي قلبه وانتكس عمله. (يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار).

والدنيا كَدرٌ وكَبَدٌ وعناء فلا تفرح بها ولا تحزن لها ولا تعطها فوق قدرها، ولن يُنالُ منها نعيمٌ إلا وفي طَرَفِهِ بؤسٌ، وما تحت الخضراءِ وفوقَ الغبراءِ بمستريحٍ (لقد خلقنا الإنسان في كبد).

إذا أنتَ لم تشربْ مِرَارًا على القَذَى ظمئتَ وأيُّ الناسِ تصفو مَشَارِبُه





الاستهزاء بالدين ردّةٌ عنه، وغيبة المؤمنين نقصٌ فيه

الحمد لله، وبعد: فإن من أصول الإسلام تعظيم رب العالمين وإجلاله وهيبته وخشيته، ومن لوازم ذلك تعظيم شعائره وذلك شرط التقوى، قال سبحانه: (ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب) وقال: ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه).

وما من عضو بعد القلب أشدّ خطراً من هذا اللسان، وما من جارحة أحقُّ بطول حبس منه، وإنه لعجيبة من عجائب خلق الله تعالى، ونعمة جليلة من أكبر آلائه، فبِهِ يكون البيان الذي نبّه ربُّ العزة لجلال شأنه بقوله: (علمه البيان).

فبه لسانًا وبَنانًا يُعرب عن مكنون ضميره ورغائب نفسه، وبه يطلب حاجته، وبه يعبد ربه ويدعوه ويلهج بذكره وشكره. فهو من أعظم وسائل رضى الله عن عبده لمن أحسن استعماله في طاعته.

وبالمقابل فهو هاوية لا قرار لها إلا في دركات الجحيم لمن أطلق عنانه بالكفر والشرك ومساقط غضب الجبار جل جلاله، وروى البخاري أن النبي صلى



الله عليه وسلم قال: "إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يلقي لها بالًا يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالًا يهوي بها في جهنم". وتأمّل: "لا يلقي لها بالًا"! إنه اللسانُ، ذلك البَنَّاءُ العجيبُ للحسنات، والهادمُ لها!

من هنا يتبيّن للمؤمن خطر هذه الجارحة التي تسمّى اللسان، وفي زماننا - زمان الكتابة - أصبح القلم أحد اللسانين، فاحفظ لسانَيك لعلّك تنجو. ولا يكن لسانُك: كحسامِ السيف ما مسَّ قطع!

وإن كان بغيُ السِّنان مُعطِبٌ فإن مبدأه اللسانُ، وكم في المقابر من قتيلِ لسانه، ومَن سلّ سيف بغيٍ لسانه قُتل به، وعقلُ المرءِ مدفون بلسانه، فاللسان غطاء العقل، فمتى نطق انكشف الغطاء، ولكل عملِ جارحةٍ غدًا من الله طالبٌ وسائلٌ، فهل أعددت جوابًا صوابًا؟!

ولا بد للمؤمن أن يعرف حدود ربه حتى لا يتجاوزَها عن جهل أو جهالة، ولقد أَوْلَى أهل العلم مناهي الشرعِ في الألفاظ عناية تامّة، لأن اللسان مؤاخذ بنطقه ومسؤول عن كلامه (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد).



ولا بد للمؤمن أن يعرف حدود ربه حتى لا يتجاوزَها عن جهل أو جهالة، ولقد أَوْلَى أهل العلم مناهي الشرع في الألفاظ عناية تامّة، لأن اللسان مؤاخذ بنطقه ومسؤول عن كلامه.

ومما يحزن قلب المؤمن ما يراه من تساهل بعض الناس في شأن الاستهزاء بالدين وشعائره، مع أن ذلك من موجبات الردة عن الإسلام عياذًا بالله تعالى، قال في شأن المستهزئين بالدين: (ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون . لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم). وتدبّر كيف أثبت لهم إيمان ثم كفروا بكلمة! قال ابن عمر: كأني أنظر إليه متعلقًا بنسعة ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن الحجارة لتنكب رجليه وهو يقول: "إنما كنا نخوض ونلعب" ما يلتفت إليه رسول الله، ويقرأ: (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون..) الآية. قال الإمام المجدد: وفيه أن من الأعذار ما لا يُقبل من صاحبه.

وقال العلّامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله: من كان ديدنه قول: المطاوعة كذا وكذا. فهذا يخشى عليه أن يكون مرتدا، فلا ينقم عليهم إلا أنهم أهل طاعة.



وقال العثيمين رحمه الله: الذين يسخرون من الملتزمين بدين الله فيهم نوع نفاق، فالله قال عن المنافقين: (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين).

وفي فتاوى اللجنة الدائمة: من قال لآخر: يا لحية. وقصده السخرية فهو كفر، وإن قصد التعريف فليس بكفر، لكن لا ينبغي أن يدعوه بذلك.

وقال ابن جبرين رحمه الله: وقع كثير من الشباب في ردة جماعية، وقد دخل عليهم الشيطان من بابين: ترك الصلاة، والاستهزاء بالدين.

فاحفظ لسانك إن رمت النجاة، واعلم أن من أعظم أسباب حفظ اللسان: دوامُ ذكر الله تعالى، فالذكر يملأ فراغ القلب بتعظيم العظيم، ويشغل اللسان بالأمر العظيم، حينها يرى صاحبُه نفاسة عمره فيحفظه. (ولذكر الله أكبر). والذكر هو اتصال البال بالله تعالى بأي وجه كان، بالقلب: تذكُّرًا وتفكُّرًا واعتبارًا، وباللسان: بالقرآن والأذكار وقول الخير، وبالأفعال الشرعية.

وللذكر مراتبٌ وتفاضلٌ: في أنواعه وأفضلها القرآن، وأحواله وأشرفها السجود، وأزمنته وأطيبُها السَّحر، وأمكنته وأجلّها عَرَفَة، والدين كله ذكرٌ، وضدُ الذكرِ الغفلة.



فعلى المؤمنين بعامّة وطلبة العلم خاصّة الاعتناء بحراسة اللسان من فخّ إبليس في المجالس: الغِيبة. فهي من كبائر الذنوب، مع ذلك فحال كثير من الصالحين معها كالمستحلّين لها بالحال لا بالاعتقاد، خذلانًا وخيبة!

فالنفس تستروح لتنقّصِ الناس لتستريح من لومها على تقصيرها، وهذا الإسقاط الخفي إن لم يتداركه الناصح لنفسه في نفسه فإنه يستفحل به حتى يأكل حسناته بكيل مظالم العباد. وقد قيل: القلوب كالقدور في الصدور، تغلي بما فيها، ومغارفُها ألسنتُها، فانتظر الرجلَ حتى يتكلم، فإنّ لسانه يغترف لك ما في قلبه من بين حلو وحامض وعذب وأجاج.

لقد توسّع بعضهم في التساهل في الغيبة بما لم تُبحه الشريعة، فالأصل الثابت هو حرمة العرض المسلم، فلا يباح خرق هذا الأصل إلا على برهان من الشريعة، وليس كلّ من زعم أنه يحذّر من بدعةٍ محقّ في تحذيره ولا مستنٌّ في أسلوبه وطريقته، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردّ". متفق عليه.

وكذلك حمّالةُ حطب السيئات: النميمة. وبعضهم ينمّ ولا يشعر ظانًّا أن النميمة لا تكون مذمومة إلا إن كانت بقصد سيء، وما علم أن النميمة هي نقلُ الكلام على وجه الإفساد بأي وجه كان، فكم من ناقل كلمة على وجه



المرح والتفكّه أفسد مودة القلوب وأحيا ميت العداوات، كيف إن صحبها مكر ودناءة وسوء طوية. ومن حمل إليك حطب نميمته في الناس، فاعلم أنه سيسلخك قريبًا في قدورهم.

ومن جعل قلبه وعاءً لاستقبال النمائم، وساعدها بأجنحة سوء ظنونه بالناس؛ فليبشر بخراب مدينة سروره، واضمحلال هناءة عيشه، فالعَضْهُ نفّاخةُ فتن.

ففتّش صحيفتك ونقّها اليوم قبل نشرها غدًا، ونقّ سريرتك الليلة قبل ابتلاء السرائر غدًا، وتذكّر قول الحبيب صلى الله عليه وسلم: "لا يدخل الجنة نمّام". ولما مرّ بقبرين قال: "إنهما يعذبان، وما يعذبان في كبير! بلى إنه كبير: أما أحدهما، فكان يمشي بالنميمة.." متفق عليهما.

ومن بوائقِ الألسن: التنابزُ بالألقاب بغيًا وعدوانًا، ويكأن زماننا هو زمان هذا النوع من البغي، والله المستعان. ولما قال رجل لصاحبه: إني لأرحمُك مما يقول الناس فيك؟ قال: أفتسمعُني أقولُ فيهم شيئًا؟ قال: لا، قال: إياهم فارْحَم.

فاعتقل قلمَك ولسانك في محبس حكمتك وعقلك وورعك، ولا تُطلِقْهما إلا بخير، وفكّر واعتبر بمآل خطواتك قبل الإقدام، وصوّب قراراتك قبل انطلاق السهام.

وإن أردت الإحساس بحلاوةِ الإيمان وتذوُّقِ لذة العبادة والانتعاش ببرد اليقين واستشعار نور الصدر ودفئه وانفساحه فانشغل بما يفيدك في المعاد، وبما هو من مهمّاتك الأوّلية وما خلقتَ من أجل تحقيقه.

وتدبر حال أهل الجنة: (ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة) لمّا طهّرُوها في الدنيا بيّضها لهم يوم لقياه ورؤيته، وأذلّوها له بالسجود في الدنيا فأعزّهم في دار كرامته. فابحث – وفقك الله - عن نعيمك المرتقب وسعادتك اللذيذة في سجدة خاشعة طويلة تغسل فيها همومك وتبخّر من صدرك غمومك: (اسجد واقترب).

ومتى تعلق المؤمن بكلّيته بربه، وفوّض إليه كل أمره، وقطع عن قلبه كل حبال الرجاء بالخلق ويأس منهم ووثق بربه؛ فهو حريّ حينها بكرامة الله له ولطفه به، فسلّم أمرك للسلام.



فإذا تبصّرت مواقع رُشدك وعواقب غيّك، وانتبهت لعيوبك وأبصرتَها، وحرستَ قلبَك وطهّرته، وحصّنت عقلك ونفسك بالعلم والحكمة ومعرفة دخائل النفس وحظوظها العاجلة الخفيّة؛ فستذوق حينها بلسان قلبك حلاوة ثمار الإيمان، وستبتهج بحياتك في رياض القرآن، وستذوق نعيمًا في الدنيا وهو في حقيقته رقيقةٌ من نعيم الجنان، والله الموفق وهو المستعان وعليه المعوّل والتكلان.





من المناهي اللفظية

الحمد لله الذي خلق اللسان، فأعرب به عما في الجَنان، ففارق الإنسانُ غيره بعلم البيان، وأتمّ به النعمة بكمال الأركان، وميّز العاقل عن الجاهل بما جرى على اللسانِ، أما بعد:

إن حفظَ المرء للسانه دليلُ عقله وأدبه؛ وبرهان زكاءِ نفسه، وروى البخاريُّ أن رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قالَ: "مَنْ يَضْمَنْ لي ما بينَ لَحْيَيْهِ وَما بينَ رِجلَيْهِ، أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ".

أن كثرة اللغط مفضية للخيبة، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: مَنْ كَثُرَ كَلامُهُ كَثُرَ سَقَطُهُ، وَمَنْ كَثُرَ سَقَطُهُ كَثُرَتْ ذُنُوبُه، وَمَنْ كَثُرَتْ ذُنُوبه كانَتِ النَّارُ أَوْلَى بِهِ. وقال ابن مسعود رضي اللّهُ عنه: مَا مِنْ شَيْءٍ أَحَقُّ بِطول السِّجْنِ مِنَ اللسانِ.

وروى الترمذي وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر معاذًا بملاك الأمور فقال: "كُفَّ عليك هذا" وأشار صلى الله عليه وسلم إلى لسانه، فقال معاذ: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟! فقال صلى الله عليه وسلم:





"ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكُبُّ الناسَ في النار على وجوههم إلا حصائدُ ألسنتهم؟!" وروى الترمذي وغيره عن سفيان الثقفي رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، ما أخوف ما تخاف عليَّ؟ قال: فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بلسان نفسه، ثم قال: "هذا".

أيها الموفق: احفظ لسانك وصُنه واحرسه حتى لا يفتِك بدينك، فإنه سبعٌ ضارٍ عقور إن أطلقته في الهوى، وهو ذخيرة وكنز ومِغراف أجر كبير إن استعملته فيما خلق له من طاعة الله وذكره وشكره ودعاءه والثناء عليه.

قال ابن القيم رحمه الله: ومن العجب أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنا والسرقة وشرب الخمر، ومن النظر المحرم وغير ذلك، ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه، حتى ترى الرجل يشار إليه بالدين والزهد والعبادة، وهو يتكلم بالكلمات من سخط الله لا يلقي لها بالًا، يزلّ بالكلمة الواحدة منها أبعد مما بين المشرق والمغرب؛ وكم ترى من رجل متورع عن الفواحش والظلم؛ ولسانه يفري في أعراض الأحياء والأموات، ولا يبالي ما يقول.

لهذا كان علقمة يقول: كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث! يعني قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان

الله تعالى ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه". رواه الترمذي وصححه. وكان الصديق رضي الله عنه يمسك لسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد.

عبد الله: إن صمتك عن رد مسبة الجاهل ليست نقصًا فيك، بل هي من كمال عقلك وجمال أدبك وهي مجلبة لدفاع الملائكة الكرام عنك، فقد جلس الرسول صلى الله عليه وسلم مع أصحابه يومًا، فجاء رجل فشتم أبا بكر الصديق رضي الله عنه، فسكت أبو بكر ولم يرُدَّ عليه، فشتمه الرجل مرة ثانية، فسكت أبو بكر، فشتمه مرة ثالثة فرد عليه أبو بكر، فقام صلى الله عليه وسلم من المجلس وتركهم، فقام خلفه أبو بكر يسأله: هل غضبتَ علي يا رسول الله فقمتَ؟ فقال الله صلى الله عليه وسلم: "نزل مَلَك من السماء يكذِّبه بما قال لك، فلما انتصرتَ - أي رددتَ عليه - وقع الشيطان - أي: حضر - فلم أكن لأجلس إذ وقع الشيطان" رواه أبو داود.

هذا، ولا بد للمؤمن أن يعرف حدود ربه حتى لا يتجاوزَها عن جهل أو جهالة، ولقد أولى أهل العلم مناهي الشرع في الألفاظ عناية تامّة، لأن

اللسان مؤاخذ بنطقه ومسؤول عن كلامه "ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد".

فإلى بيان شيء من أخطاء الناس الشائعة في كلامهم:

فمن ذلك قولهم: (بِالعون) عند الاجتهاد في الإخبار، فهنا صارت الباء للقسم، والعون ليس من أسماء الله تعالى، قال نبي الله صلى الله عليه وسلم: "من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك" رواه الترمذي وحسنه.

ومن ذلك: القسم بغير الله مطلقًا كمن يقسم بالنبي صلى الله عليه وسلم الله أو بحياة أحد أو حياة أولاده، أو بالأمانة ونحو ذلك.

ومن المناهي دعاء صفات الله تعالى، مثل قول بعضهم: يا قدرة الله ويا رحمة الله ويا وجه الله، ونحو ذلك، فهذا محذور، فاسأل الله بصفته ولا تسل الصفة نفسها، فإن الصفة ليست هي الموصوف بل هي دالة عليه، فقل: اللهم أسألك بوجهك وأسألك برحمتك وأعوذ برضاك من سخطك ونحو ذلك.

ومما ينهى عنه من الألفاظ: الاستثناء في الدعاء، كقول: جزاك الله خيرًا إن شاء الله، ووفقك الله إن شاء الله، وشفاك الله إن شاء الله ونحو ذلك،

لأن في ذلك إيهامًا بسوء بثقلها على الله والله تعالى هو القدير الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يقولن أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة فإنه لا مكره له". متفق عليه.

ومما ينهى عنه: سبُّ الوجه وتقبيحُه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه، ولا يقل: قبّح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك، فإن الله عز وجل خلق آدم عليه السلام على صورته". رواه أحمد وحسنه الألباني.

ومن المناهي اللفظية: الذكر بمجرد تكرار اسم الله، فهذا من لوثات أهل الخرافة والتصوّف، فعندهم أن ذكر العامة هو لا إله إلا الله، وذكرُ الخاصة هو تكرارُ اسم الله، وذكر خاصة الخاصة هو تكرار: هو هو، وهذا من الجهل المطبق الثقيل، فإن أعظم الذكر على الإطلاق هو لا إله إلا الله، وهي الكلمة التي من أجل إقامتها خلق الله الجن والإنس والجنة والنار وأنزل الكتب وأرسل الرسل، وهي مفتاح الجنة وسبيل الرضوان، وهي التي ترجُح بالسماوات والأرض، فاللهم أحينا عليها وأمتنا وابعثنا عليها إله الحق.



ومن المناهي قول بعضهم: بذلت جهدي والباقي على الله. لأن فيه سوء أدب مع الله من جهة الإيهام بالتشريك في تدبير الله الأمور، فالأمر كله لله وليس باقيه فقط، وكذلك من جهة أنه اعتمد على نفسه أولًا ثم فوّض أمره ثانيًا، وهذه خطيئة، فتفويض الأمور لله لا ينفك عنه المؤمن.

ومن المناهي: التلبيس على الناس بتزيين ألقاب المنكر حتى تستسيغها النفوس، ولكم أن تعلموا أن إبليس هو أول من لبّس فقد سمّى الشجرة التي نهى الله آدم عن أكلها بشجرة الخلد، ثم تبعه حزبه فسموا الخمر بمشروب الروح والزنا بالعلاقة والميسر باليانصيب والرشوة بالقهوة والمكس بالجمارك وغير ذلك من تلبيس الشيطان.

ومن المناهي: قول بعضهم: يعلم الله أني فعلت كذا، وقد يكون كلامه مخالفًا للحقيقة ولو في بعض أجزائه فيكون قد اتهم الله بالجهل بقدر ما أخطأ فيه، تعالى الله وتقدس.

ومن المناهي: قول بعضهم: فلان شكله غلط، والله تعالى يقول: "لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم" وقال: "الذي خلقك فسواك فعدلك". فالحذر من الاستهزاء بصنع الله تعالى وخلقه بأي حال.



ومن المناهي قول بعضهم: تبارك علينا فلان، وسبب النهي - كما حرره ابن القيم رحمه الله - أن كلمة تبارك جاءت على وزن تفاعل، وهذا البناء يراد به المبالغة في البركة وإنمائها وهي لا تكون إلا لله، خاصة وأن كل ما جاء في القرآن على هذا النحو فقد أُفرد لله تعالى وحده كقول الله تعالى: "تبارك الذي نزل الفرقان" و"تبارك الذي بيده الملك"، ولكن لا بأس أن يقول: فلان مبارك أو فيه بركه ونحو ذلك، إنما المحذور هو قول: تبارك فلان.

ومن المناهي قول بعضهم: شاءت حكمة الله كذا أو قدرة الله أو شاء القدر كذا ونحو ذلك، لأن الحكمة صفة للموصوف سبحانه، فلا مشيئة لها، والذي يشاء هو الله.

ومن المناهي الشنيعة قول بعضهم: ظلمك الله كما ظلمتني أو خانك الله كما خنتني، ونحو ذلك وهذا جهل عظيم بالله تعالى "إن الله لا يظلم مثقال ذرة" والله تعالى يمكر بمن مكر به ولكنه لا يخون تعالى وتبارك وتقدّس.

ومن المناهي قول بعضهم: فلانٌ ما يستاهل، وفلان لا يستحق، ونحو ذلك لأنه اعتراض على حكم الله تعالى وتسخط على قدره وتعقّب لأمره. "لا يسأل عما يفعل وهم يسألون"، "وعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا".



ومن المناهي: سبُّ الدهر، وهذا يجري كثيرًا على ألسنة جهلة الشعراء، فيذمون الزمان وينعتونه بالغدر والخيانة والظلم ونحو ذلك، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قال الله عز وجل: يؤذيني ابنُ آدم يسب الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلّب الليل والنهار" رواه الشيخان، فالدهر مسخّر بأمر ربه فليس أهلًا للسب، وسبّه يعود على من صرّفه ودبّره، فليعتن المؤمن بذلك، وليحفظ لسانه من سّب ربه وهو لا يدري! ولا قوة إلا بالله.

ومن مناهي الألفاظ قول بعضهم: من حسن الطالع أن حدث كذا، فهذا التعبير قد تسلل إلى بعض العامة من شرك التنجيم وهو محرّم، لأن الطالع هو النجم، وعبدةُ النجومِ يحيلون التدبير إليها، ويقرؤونه من مطالعها ومنازلها، وقد هدم الرسل الشرك في الربوبية كما هدموا شرك الألوهية، فلا خالقَ ولا مدبرَ ولا متصرفَ إلا اللهُ وحده لا شريك له، "الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار".

ومن المناهي: قول بعضهم: اقرأوا الفاتحة على روح فلان، فهذا محدث، وكل بدعة ضلالة، والميت ينفعه الدعاء والاستغفار والصدقة والحج والعمرة، فلا ينبغي أن يُتساهل فيما لم يرد في الشرع الحنيف، والاستحسان باب البدع.



ومن المناهي: قول من أراد تنزيه الله تعالى عن الخطأ: العصمة لله، ووجه المنع أن العصمة لا بد لها من عاصم، والله تعالى هو الذي لا عاصم من أمره، ولا يحتاج لمن يعصمه فهو الخالق لكل شيء، وهو على كل شيء قدير، سبحانه وبحمده. أما إن أراد بها أن الله هو الذي يعصم ويحفظ فلا بأس بها، والسياق هو الذي يحدّد المراد.

ومن المناهي قول: توكلت على الله وعليك، فالتوكّل عبادة لا يتوجّه بها إلا إلى الله وحده، وعلى المرء أن يقول: توكلت على الله ثم اعتمدت عليك، فيردف التوكل على الله بـ"ثمّ" المفيدة للترتيب، ويتحاشى لفظةَ التوكلِ على المخلوق ويستبدلها بلفظ الاعتماد، وهو الأحوط للدين والأبرأ للذمة والأصوَن للسان، أما عبارة: وكّلت فلانًا، فلا بأس بها لأنها من باب الإنابة لا الاعتماد.

ومن فروعِ النهيِ عن التشريك: النهيُ عن قول: ما شاء الله وشئت، ولولا الله وفلان ونحو ذلك.

ومن المناهي: الإعراضُ عن لُبابِ التوحيد وهو الدعاء، والاستهانة به، بشبهة علمِ الله تعالى بالحال، وقد يجادلون بما لا تصح نسبته لأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام بأنه قال حينما ألقي في النار: علمه بحالي يغني عن



سؤالي. وهذا باطل لا يصح لا سندًا ولا متنًا، وقد ذكر الله تعالى عن خليله عليه السلام أنه كثير الدعاء والضراعة إليه ومن دعواته: "رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء" وقد قال حينما ألقوه في النار: حسبي الله ونعم الوكيل، وفيها كمال التسليم مع تضمن الدعاء بالسلامة، فهذا الدعاء العظيم قد جمع الثناء والمسألة، وهذا من فقه الأنبياء العظيم، لذلك قالها رسولنا صلى الله عليه وسلم حينما قال له الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم: "فزادهم إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل".

ودعاء المسألة في حقيقته دعاء ثناء لأنه يتضمن الأصول الحسنة للتوكل على الله وحسن الظن به والعلم به وعظيم الرجاء والرغبة والرهبة، كما أن دعاء الثناء يتضمن دعاء المسألة بجميل التعرض لكرم الكريم بالثناء عليه الثناء الجميل، وبالله التوفيق.

ومن المناهي: قول بعضهم: مسيجد، مصيحف، لأن ذلك التصغير اللفظي موهم بالتصغير المعنوي المفضي للاستهانة بشعائر الله تعالى، فالواجب تعظيمها وإجلالها بالقول والفعل والاعتقاد. "ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب".



ومن المناهي التي بدأت في الانتشار: القول بأن اليهود والنصارى ليسوا كفارًا، وأن الأديان الثلاثة على سبيل نجاة، وينسبون كفر اليهود والنصارى - ظلمًا وضلالًا - لإمام الحنيفية إبراهيمَ عليه السلام فيقولون: الأديان الثلاثة الإبراهيمية كلها موصلة للجنة، وهذا ضلال مبين، وتكذيب لله رب العالمين إذ قال: "لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة" وقال تعالى: "قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون". وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار" رواه مسلم.

ومن مناهي القول: قول بعضهم للأخر: الله يسأل عن حالك! فالله تعالى عليم بكل شيء، ولا تخفى عليه خافية، وليس في حاجة لسؤال واستخبار، فحتى وإن كان قصد القائل أن يعافيَ الله فلانًا ويوفقه فالتعبير عن قصده لم يوفَّق له، بل عليه أن يقول: وفقك الله وأعانك ولطف بك وسلّمك ونحو ذلك.

ومن الأخطاء: تسميةُ النبي صلى الله عليه وسلم بأسماءٍ بعض سور القرآن الكريم مثل: طه، يس. فهي ليست من أسمائه صلى الله عليه وسلم، بل هي



من الآيات المنزلة في أوائل سور الكتاب العزيز كأمثال: ألم، ألر، ق، ص، ونحوها.

إما أسماؤه صلى الله عليه وسلم نخذها من فيه إذ قال: "إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي؛ الذي يمحو الله بيَ الكفر، وأنا الحاشر؛ الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب؛ والعاقب الذي ليس بعده نبي" متفق عليه.

ومن المناهي: قول: رأي الدين هو كذا وكذا، قال الشيخ أبو زيد رحمه الله: الرأيُ أساسه مبني على التدبر والتفكر، ويتردد بين الخطأ والصواب. فلا يقال رأي الدين، بل حكم الله وأمره ونهيه وقضاؤه، أما إذا كان الرأي صادرًا عن اجتهاد فلا يقال فيه رأي الدين، ولكن يقال: رأي المجتهد أو العالم.

هذا ومن الأدب مع الله تعالى أن تقول في إنكارك على من جاهر بالمنكر أو عاند أو حارب أو حادّ شرع الله أن تقول: ما أغرّ فلانًا بالله! ولا تقل: ما أجرأ فلانًا على الله، فهي موهمة لشيء من قدرة المخلوق على الخالق، وهذا محال. "يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم؟".



ومن المناهي الشديدة: أن يتألّى العبد على ربه إعجابًا بطاعته واحتقارًا لعباد الله، فيقول: لن يغفر الله لفلان، أو يستحيل أن يتوب فلان، أو فلان من أهل النار ونحو ذلك، فهذا التألي من أسباب حبوط العمل - عياذًا بالله - ولا يغني عنه أن يكون دافعه الغيرة على محارم الله، فالله لا يُتقرب إليه بمعصيته، والعباد عباد الله، وهو أعلم بهم وببواطنهم وبخواتمهم. ووقد روى مسلم عن رسول الله صلوات الله وسلامه و بركاته عليه قولَه: "قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله عز وجل: من ذا الذي يتألّى -أي يحلف - عليّ ألا أغفر لفلان؟! فإني قد غفرت له، وأحبطت عملك".

ومن المناهي قول بعضهم في سياق إلحاحه على أخر: وجهَ الله أن تفعل كذا، أو جاه الله عليك أن تفعل كذا، أو أسوق جاه الله عليك ونحو ذلك، وهذا سوء أدب مع الله تعالى، لأنه استشفاع بالعظيم الكبير الباقي على المخلوق الحقير الصغير الفاني، فهو محرم لا يجوز، بل قد ورد عند أبي داود - بسند فيه لين - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اشتد غضبه حينما اشتُشفع بالله تعالى عليه، وبالله التوفيق.

تمامُ النعمة بالإسلام

"إن الدين عند الله الإسلام" تكامل إسلام العقيدة في ديننا بإسلام الشريعة، فتمت به النعمة الإلهية على البشرية.

وبحمد الله تعالى فمعدن الإسلام الأصيل إلهي محفوظ، فهو غير قابل للتغيير والنحت والتبديل، قد يتغير بعض معتنقيه لكن حقيقته باقية محفوظة في صدور وسطور من شاء الله تعالى الله من عباده الذين حفظه بهم وحفظهم به.

ومهما اشتدت ضراوة الحرب على الإسلام والتنكيل بأهله، ومهما علت قمم المكر به وكيده، إلا أن خصومه يعودون منه بأحمال الخيبة، ذلك أنه كامل في ذاته عصيّ على السقوط بكامله حتى وإن تعثر أهله لجهل أو ضعف عزيمة لكنهم في الحقيقة يعلون به ولا يُعلى عليهم بغيره.

إن حقيقة الإسلام شديدة النصوع بالغة النصح، فمن ضرب معدنه بحرب مادة وجد بين يديه مادة ثورية تجتثه، ومن رام تبديله بفكر أو خرافة اندهش لرسوخ حقائق العلم والفطرة في أركانه، ومن قارنه بغيره تبيّن له



شموخه وسموّه ورفعته عن كل ما عداه من دين مبدل أو فكر محدث.

"يخرجهم من الظلمات إلى النور".



لا تحزن

الحزن شعور سلبي سوداوي مخالف للسرور والسعادة والاستبشار، وهو مفضٍ مع الاستمرار في سردابه للكآبة والقنوط وسوء الظن بالله تعالى وحسن تدبيره وعظيم حكمته ولطفه ورحمته و بره. والله تعالى يحب الخير لعباده ويدلهم على طريق الفرح (قل بفضل الله و برحمته فبذلك فليفرحوا) ونهى عن الحزن في غير موضعه: (ولا تحزن عليهم).

وبما أن المؤمن بشر مثل جنسه فلا يُنكر عليه الحزن العارض لفوات ملائم أو طروء مخالف لطبعه أو مضايقة روحه ونفسه، ولكن عليه أن يكون مَلِكَ نفسه وسيد مشاعره وطبيب روحه؛ فيرخي لمشاعره الزمام شيئًا بحيث لا يكبتها، كما لا يتركها بلا قيد ولا خطام. وليستعمل علمه بالله وحسن ظنه به وعقله وفكره فيما بين يديه من دوافع حزنه وروافع بلائه وأسباب سلوانه، فإن كان الأمر لفوات دنيا فليعلم أن الدنيا بحذافيرها لا تستحق على التحقيق حزن ساعة! لكن لضعفنا البشري المركّب وغفلتنا الآنيّة نسترسل فيما لا ينبغي للعاقل الاسترسال فيه.



وأما إن كان الحزن للدِّين فينظر: إن كان لذنب أو فوات طاعة وقُربَه، فحزنه محمود، لكن عليه أن يجعل حزنه إيجابيًّا بحيث يعوّض ما فاته ويستدرك ما فرط فيه بحسب وسعه وطاقته، ويستغفر لذنبه ويلح بدعاء ربه بقبول توبته والعفو عنه.

وأما الحزن لدِين غيره كتقصير الناس في طاعة الله وانتشار المنكرات وضعف حال المسلمين وضعف تدينهم وظلمهم من قبل أعداء الدين قتلًا وسجنًا وتشريدًا، فحزنه محمود، ولكن لا بد أن يكون حزنًا باعتدال، مع مزجه بالاحتساب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تجاه المنكرات وبالرضا بالقضاء لمصيبات الأمة ونقص أمنهم وأرزاقهم، مع بذله جهده وطاقته في سبيل رفع ما يمكن رفعه من حال الأمة، وكلٌّ ميسر لما خلق له. وبالله التوفيق.





أسباب معينة على الصبر على البلاء

قال شمس الدين ابن القيم رحمه الله تعالى:

"أحدها: شهود جزائها وثوابها.

الثاني: شهود تكفيرها للسيئات ومحوها لها.

الثالث: شهود القدر السابق الجاري بها، وأنها مقدرة في أم الكتاب قبل أن يُخلق فلا بد منها، فجزعه لا يزيده إلا بلاء.

الرابع: شهوده حقِّ الله عليه في تلك البلوى، وواجبُه فيها الصبرُ بلا خلاف بين الأمة، أو الصبر والرضا على أحد القولين، فهو مأمور بأداء حق الله وعبوديته عليه في تلك البلوى، فلا بد له منه وإلا تضاعفت عليه.

الخامس: شهود ترتّبها عليه بذنبه كما قال الله تعالى: (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) فهذا عام في كل مصيبة دقيقة وجليلة، فشغلُه شهودُ هذا السبب بالاستغفار الذي هو أعظم الأسباب في دفع تلك المصيبة، قال علي بن أبي طالب: ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع بلاء إلا بتوبة.





السادس: أن يعلم أن الله قد ارتضاها له واختارها وقسمها، وأن العبوديةَ تقتضي رضاه بما رضي له به سيدُه ومولاه، فإن لم يوف قدر المقام حقه فهو لضعفه، فلينزل إلى مقام الصبر عليها، فإن نزل عنه نزل إلى مقام الظلم.

السابع: أن يعلم أن هذه المصيبة هي دواء نافع ساقه إليه الطبيب العليم بمصلحته، الرحيم به، فليصبر على تجرعه ولا يتقيأه بتسخطه وشكواه، فيذهب نفعه باطلًا.

الثامن: أن يعلم أن في عقبى هذا الدواء من الشفاء والعافية والصحة وزوال الألم مالم تحصل بدونه، فإذا طالعت نفسه كراهة هذا الدواء ومرارته فلينظر إلى عاقبته وحسن تأثيره، قال تعالى: (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) وقال الله تعالى: (فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) وفي مثل هذا القائل:

لعل عتبك محمود عواقبه ... وربما صحت الأجسام بالعلل

التاسع: أن يعلم أن المصيبة ما جاءت لتهلكه وتقتله، وإنما جاءت لتمتحن صبره وتبتليَه، فيتبين حينئذ هل يصلح لاستخدامه وجعله من أوليائه وحزبه



أم لا، فإن ثبت اصطفاهُ واجتباه، وخلع عليه خِلَعً الإكرام، وألبسه ملابس الفضل، وجعله من أولياءه وحزبه.

وإن انقلب على وجهه ونكص على عقبيه طُرد وصُفع قفاه وأُقصي، وتضاعفت عليه المصيبة وهو لا يشعر في الحال بتضاعفها وزيادتها، ولكن سيعلم بعد ذلك بأنّ المصيبة في حقه صارت مصائب، كما يعلم الصابر أن المصيبة في حقه صارت نعمًا عديدة.

وما بين هاتين المنزلتين المتباينتين إلا صبر ساعة، وتشجيعُ القلب في تلك الساعة، والمصيبةُ لا بد أن تقلع عن هذا وهذا، ولكن تقلع عن هذا بأنواع الكرامات والخيرات، وعن الآخر بالحرمان والخذلان، لأن ذلك تقدير العزيز العليم، وفضلُ الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

العاشر: أن يعلم أن الله يُربّي عبده على السراء والضراء والنعمة والبلاء، فيستخرجُ منه عبوديتَه في جميع الأحوال، فإن العبد على الحقيقة من قام بعبودية الله على اختلاف الأحوال.



وأما عبدُ السراء والعافية الذي يعبدُ الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه؛ فليس من عبيده الذين اختارهم لعبوديته.

فلا ريب أن الإيمان الذي يثبت على محل الابتلاء والعافية هو الأيمان النافعُ وقت الحاجة، وأما إيمان العافية فلا يكاد يصحب العبد ويبلغه منازل المؤمنين، وإنما يصحبه إيمانٌ يثبُت على البلاء والعافية، فالابتلاء كَيْرُ العبد، ومحكّ إيمانه، فإما أن يخرج تبرًا أحمرَ وإما أن يخرج زَغَلًا محضًا، وإما أن يخرج فيه مادتان ذهبيةُ ونحاسية، فلا يزال به البلاء حتى يُخرج المادةَ النحاسية من ذهبه، ويبقى ذهبًا خالصًا.

فلو علم العبد أن نعمةَ الله عليه في البلاء ليست بدون نعمة الله عليه في العافية؛ لشغلَ قلبَه ولسانه بشكره، ولقال: "اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك" (١).

وكيف لا يشكر من قيّض له ما يستخرج خبثَه ونحاسه وصيّره تِبرًا خالصًا يصلح لمجاورته والنظرِ إليه في داره.



فهذه الأسباب ونحوُها تثمر الصبرَ على البلاء، فإن قويت أثمرت الرضا والشكر، فنسأل الله أن يسترنا بعافيته، وألا يفضحنا بابتلائه، بمنه وكرمه"(٢).

....

١- رواه أبو داود (١٥٢٢) والنسائي ٣/ ٥٣ بسند صحيح.

٢- طريق الهجرتين (١ / ٥٠٢)





مقويّات الصبر عن معصية الله تعالى

الحمد لله والصلاة والسلام والبركة على نبيه ومصطفاه وعلى آله وصحبه، وبعد:

فإن المؤمن الناصحَ لنفسه الراغبَ لخيرِها وفلاحِها وسعادتها حريصٌ على الدوام على كل ما فيه مصالحُها وحراستها من كل شر يحيط بها، ولمّا كان رأس الشر عصيان الرحمن كان على المؤمن التجافي عن الخطيئة قدر طاقته، قال ربنا تبارك وتعالى: (ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين)

فالمؤمن يتطلّب الأسباب الشرعية المفضية لبعده عن المعصية حتى يسلم من غوائل السقوط من عين الله تعالى، وقد ذكر الإمام ابن القيم بعض هاتيك الأسباب المانعة من وقوع العبد في معصيه مولاه تعالى فقال:

"أحدها: علم العبد بقبحها ورذالتها ودناءتها، وأن الله إنما حرمها ونهى عنها صيانةً وحماية عن الدنايا والرذائل كما يحمي الوالد الشفيق ولده عما يضره، وهذا السبب يحمل العاقل على تركها ولو لم يُعلّق عليها وعيد بالعذاب.





السبب الثاني: الحياء من الله سبحانه، فإن العبد متى علم بنظر الله إليه ومقامه عليه وأنه بمرأى منه ومسمع، وكان حييًّا استحيي من ربه أن يتعرض لمساخطه.

السبب الثالث: مراعاةُ نعمه عليك وإحسانه إليك، فإن الذنوب تزيل النعم ولا بد، فما أذنب عبد ذنبًا إلا زالت عنه نعمةٌ من الله بحسَب ذلك الذنب، فإن تاب وراجع رجعت إليه أو مثلها وإن أصر لم ترجع إليه (ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم). ولا تزال الذنوب تزيل عنه نعمه حتى تسلب النعم كلها، قال الله تعالى: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم).

وأعظم النعم الإيمان، وذنب الزنا والسرقة وشرب الخمر وانتهاب النهبة يزيلها ويسلبها. وقال بعض السلف: أذنبت ذنبًا فحرمت قيام الليل سنة! وقال آخر: أذنبت ذنبًا فحرمت فهم القرآن، وفي مثل هذا قيل:

إذا كنت في نعمة فارعها   فإن المعاصي تزيل النعم

وبالجملة فإن المعاصي نار النعم، تأكلها كما تأكل النار الحطب عياذا بالله من زوال نعمته وتحوّل عافيته.





السبب الرابع: خوف الله وخشية عقابه، وهذا إنما يثبت بتصديقه في وعده ووعيده، والإيمان به وبكتابه وبرسوله، وهذا السبب يقوى بالعلم واليقين ويضعف بضعفهما، قال الله تعالى: (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وقال بعض السلف: كفى بخشية الله علماً والاغترار بالله جهلاً.

السبب الخامس: محبةُ الله، وهي أقوى الأسبابِ في الصبر عن مخالفته ومعاصيه، فإن المحب لمن يحب مطيع، وكلما قوي سلطان المحبة في القلب كان اقتضاؤه للطاعة وترك المخالفة أقوى.

وإنما تصدر المعصية والمخالفة من ضعف المحبة وسلطانِها، وفرق بين من يحمله على ترك معصية سيده خوفُه من سوطه وعقوبته، وبين من يحمله على ذلك حبُّه لسيده، وفي هذا قال عمر: نعم العبد صهيب، لو لم يخف الله لم يعصه. يعني أنه لو لم يخف من الله لكان في قلبه من محبة الله وإجلاله ما يمنعه من معصيته.

فالمحب الصادق عليه رقيب من محبوبه، يرعى قلبه وجوارحه. وعلامة صدق المحبة شهود هذا الرقيب ودوامُه.



وههنا لطيفة يجب التنبه لها، وهي أن المحبةَ المجردة لا توجب هذا الأثر ما لم تقترن بإجلال المحبوب وتعظيمه، فإذا قارنها بالإجلال والتعظيم أوجبت هذا الحياء والطاعة، وإلا فالمحبةُ الخالية عنهما إنما توجب نوعَ أنسٍ وانبساطٍ وتذكرٍ واشتياق، ولهذا يتخلف عنها أثرُها وموجبها، ويفتش العبدُ قلبه فيرى نوع محبة لله، ولكن لا تحمله على ترك معاصيه! وسبب ذلك تجردها عن الإجلال والتعظيم.

فما عَمَرَ القلبَ شيء كالمحبة المقترنة بإجلال الله وتعظيمه. وتلك من أفضل مواهب الله لعبده أو أفضلها وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

السبب السادس: شرف النفس وزكاؤها وفضلها وأَنفتها وحميتها أن تختار الأسباب التي تحطها وتضع من قدرها وتخفض منزلتها وتحقرها وتسوي بينها وبين السفلة.

السبب السابع: قوة العلم بسوء عاقبة المعصية وقبح أثرها والضرر الناشئ منها؛ من سواد الوجه وظلمة القلب وضيقه وغمه وحزنه وألمه وانحصاره وشدة قلقه واضطرابه، وتمزق شمله، وضعفه عن مقاومة عدوه، وتعرّيه من زينته، والحيرة في أمره، وتخلي وليِّه وناصرِه عنه، وتولّي عدوّه المبين له، وتواري العلم الذي كان مستعدًّا له عنه، ونسيان ما كان حاصلاً له أو





ضعفه ولا بد، ومرضِه الذي إذا استحكم به فهو الموت ولا بد، فإن الذنوب تميت القلوب.

ومنها ذله بعد عزه، ومنها أنه يصير أسيرًا في يد أعدائه بعد أن كان ملكًا متصرفًا يخافه أعداؤه، ومنها أنه يضعف تأثيره فلا يبقى له نفوذ في رعيته ولا في الخارج، ومنها زوال أمنه وتبدله به مخافة فأخوف الناس أشدهم إساءة، ومنها زوال الأنس والاستبدالُ به وحشة، وكلما ازداد إساءة ازداد وحشة.

ومنها زوال الرضى واستبدالُه بالسخط، ومنها زوال الطمأنينة بالله والسكونِ إليه والإيواءِ عنده واستبدالُه بالطرد والبعد منه، ومنها وقوعه في بئر الحسرات فلا يزال في حسرة دائمة كلما نال لذة نازعته نفسه إلى نظيرها إن لم يقض منها وطرًا أو إلى غيرها إن قضى وطره منها، وما يعجز عنه من ذلك أضعافُ أضعافِ ما يقدر عليه، وكلما اشتد نزوعه وعرف عجزه اشتدت حسرته وحزنه، فيا لها نارًا قد عُذب بها القلبُ في هذه الدار قبل نار الله المُوقَدة التي تطلع على الأفئدة!

ومنها فقره بعد غناه، فإنه كان غنيًّا بما معه من رأس مال الإيمان، وهو يتّجر به ويربح الأرباح الكثيرة، فإذا سلب رأسُ ماله أصبح فقيرًا معدمًا،



فإما أن يسعى بتحصيل رأس مال آخرَ بالتوبة النصوح والجد والتشمير، وإلا فقد فاته ربح كثير بما أضاعه من رأس ماله.

ومنها نقصان رزقه، فإن العبد يحرم الرزق بالذنب يصيبه، ومنها ضعف بدنه، ومنها زوال المهابة والحلاوة التي لبسها بالطاعة، فتبدَّل بها مهانةً وحقارة، ومنها حصولُ البُغضةِ والنفرةِ منه في قلوب الناس، ومنها ضياع أعز الأشياء عليه وأنفسِها وأغلاها وهو الوقت الذي لا عوض منه ولا يعود إليه أبدًا.

ومنها طمع عدوه فيه وظفره به، فإنه إذا رآه منقادًا مستجيبًا لما يأمره اشتد طمعه وحدث نفسَه بالظفر به، وجعله من حزبه حتى يصيرَ هو وليُه دون مولاهُ الحق.

ومنها الطبع والرين على قلبه، فإن العبد إذا أذنب نُكت في قلبه نكتةٌ سوداء، فإن تاب منها صُقل قلبه، وإن أذنب ذنبًا آخر نكت فيه نكتة أخرى، ولا تزال حتى تعلوَ قلبه فذلك هو الران، قال الله تعالى: (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون).



ومنها أنه يحرمُ حلاوة الطاعة، فإذا فعلها لم يجد أثرها في قلبه من الحلاوة والقوة ومزيدِ الإيمان والعقل والرغبة في الآخرة، فإن الطاعة تثمر هذه الثمرات ولا بد.

ومنها أن تمنع قلبَه من ترحُّله من الدنيا ونزولِه بساحة القيامة، فإن القلب لا يزال مشتتًا مضيّعًا حتى يرحل من الدنيا وينزلَ في الآخرة، فإذا نزل فيها أقبلت إليه وفود التوفيقِ والعناية من كل جهة، واجتمع على جمع أطرافه وقضاء جَهازه وتعبئة زاده ليوم معاده، وما لم يترحل إلى الآخرة ويحضرَها فالتعب والعناء والتشتت والكسل والبطالة لازمة له لا محالة.

ومنها إعراضُ الله وملائكته وعبادِه عنه، فإن العبد إذا أعرض عن طاعة الله واشتغل بمعاصيه أعرض الله عنه، فأعرضت عنه ملائكته وعباده، كما أنه إذا أقبل على الله أقبل الله عليه وأقبل بقلوب خلقه إليه.

ومنها أن الذنبَ يستدعي ذنبًا آخر، ثم يقوى أحدُهما بالآخر فيستدعيان ثالثًا، ثم تجتمع الثلاثة فتستدعي رابعًا وهلم جرا حتى تغمرَه ذنوبُه وتحيطُ به خطيئته! قال بعض السلف: إن من ثواب الحسنة الحسنةُ بعدها، ومن عقوبة السيئةِ السيئةُ بعدها.



ومنها علمه بفوات ما هو أحبُّ إليه وخير له منها من جنسها وغير جنسها، فإن الله لا يجمع لعبده بين لذة المحرمات في الدنيا ولذة ما في الآخرة، كما قال تعالى: (ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها) فالمؤمن لا يُذهب طيباتِه في الدنيا، بل لا بد أن يترك بعض طيباته للآخرة، وأما الكافر فإنه لا يؤمن بالآخرة فهو حريص على تناول حظوظه كلِّها وطيباته في الدنيا.

ومنها علمه بأن أعمالَه هي زادُه ووسيلته إلى دار إقامته، فإن تزود من معصية الله أوصله ذلك الزاد إلى دار العصاة والجُناة، وإن تزود من طاعته وصل إلى دار أهل طاعته ووَلايته.

ومنها علمه بأن عملَه هو وليُّه في قبره، وأنيسُه فيه وشفيعه عند ربه، والمخاصمُ والمحاج عنه، فإن شاء جعله له، وإن شاء جعله عليه.

ومنها علمه بأن أعمال البر تنهض بالعبد وتقوم به وتصعد إلى الله به، فبحسَب قوة تعلقه بها يكون صعوده مع صعودها، وأعمال الفجور تهوي به وتجذبه إلى الهاوية وتجره إلى أسفل سافلين، وبحسَب قوة تعلقه بها يكون هبوطه معها ونزوله إلى حيث تستقر به، قال الله تعالى: (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) وقال تعالى: (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها



لا تفتح لهم أبواب السماء) فلما لم تفتح أبواب السماء لأعمالهم بل أغلقت عنها لم تفتح لأرواحهم عند المفارقة، بل أغلقت عنها، وأهلُ الإيمان والعملِ الصالح لما كانت أبواب السماء مفتوحةً لأعمالهم حتى وصلت إلى الله سبحانه؛ فتحت لأرواحهم حتى وصلت إليه تعالى وقامت بين يديه، فرحمها وأمر بكتابة اسمها في عليين.

ومنها خروجه من حصن الله الذي لا ضيعةَ على من دخله، فيخرج بمعصيته منه إلى حيث يصير نهباً للصوص وقطاع الطريق، فما الظن بمن خرج من حصن حصين لا تدركه فيه آفة إلى خَرِبَةٍ موحشة هي مأوى اللصوصِ وقطاع الطريق، فهل يتركون معه شيئًا من متاعه؟! ومنها أنه بالمعصية قد تعرّض لمحق بركته.

وبالجملة فآثار المعصية القبيحة أكثر من أن يحيطَ بها العبدُ علمًا، وآثارُ الطاعة الحسنة أكثرُ من أن يحيطَ بها علمًا، فخيرُ الدنيا والآخرة بحذافيره في طاعة الله، وشر الدنيا والآخرة بحذافيره في معصيته. وفي بعض الآثار يقول الله سبحانه وتعالى: "من ذا الذي أطاعني فشقي بطاعتي، ومن ذ الذي عصاني فسعد بمعصيتي".



السبب الثامن: قصرُ الأمل، وعلمه بسرعة انتقاله، وأنه كمسافر دخل قرية وهو مزمع على الخروج منها، أو كراكب قال في ظل شجرة ثم سار وتركها، فهو لعلمه بقلّة مُقامه وسرعة انتقاله حريصٌ على ترك ما يُثقله حملُه ويضره ولا ينفعه، حريص على الانتقال بخير ما بحضرته، فليس للعبد أنفع من قصر الأمل، ولا أضر من التسويف وطول الأمل.

السبب التاسع: مجانبة الفضول في مطعمه ومشربه وملبسه ومنامه واجتماعه بالناس، فإن قوة الداعي إلى المعاصي إنما تنشأ من هذه الفضول، فإنها تطلب لها مصرِفًا فيضيق عليها المباح، فتتعداه إلى الحرام.

ومن أعظم الأشياء ضررًا على العبد بطالتُه وفراغُه، فإن النفس لا تقعد فارغةً، بل إن لم يشغلها بما ينفعها شغلته بما يضره ولا بد.

السبب العاشر: وهو الجامع لهذه الأسباب كلها ثباتُ شجرة الإيمان في القلب، فصبرُ العبد عن المعاصي إنما هو بحسَب قوة إيمانه، فكلما كان إيمانه أقوى كان صبره أتمّ، وإذا ضعف الإيمان ضعف الصبر، فإن من باشر قلبُه الإيمان بقيام الله عليه ورؤيته له وتحريمه لما حرم عليه وبغضِه له ومقته لفاعله، وباشر قلبُه الإيمانَ بالثواب والعقاب والجنة والنار امتنع من ألا يعمل بموجب هذا العلم.





ومن ظن أنه يقوى على ترك المخالفات والمعاصي بدون الإيمان الراسخ الثابت فقد غلط، فإذا قوي سراج الإيمان في القلب وأضاءت جهاته كلها به وأشرق نوره في أرجائه سرى ذلك النورُ إلى الأعضاء وانبعث إليها، فأسرعت الإجابةَ لداعي الإيمان، وانقادت له طائعةً مذللةً غيرَ متثاقلةٍ ولا كارهة، بل تفرح بدعوته حين يدعوها كما يفرح الرجل بدعوة حبيبه المحسنِ إليه إلى محل كرامته، فهو كل وقت يترقب داعيه ويتأهب لموافاته، والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم. (١)

....

(١) طريق الهجرتين لابن القيم رحمه الله (١ / ٤٠٤ - ٤١٥) باختصار يسير.



قربُك من الله تعالى بقدر طاعتك له

تدبر: الكلام المباشر: "ويا آدم.."

كذلك: "ولا تقربا هذه الشجرة" اسم الإشارة مؤذن بالقرب منه سبحانه.

وبعدها..

أتى الشيطان يوسوس بالقرب منهما ومن الشجرة: "ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة".

وبعد اقتراب الشيطان منهما بالوسوسة بالقرب من الشجرة صارت الشجرة محلًّا للخطيئة فابتعدا عن الله نسبيًّا بقدر معصيتهما..

فبدلًا من الكلام المباشر جاء النداء: "وناداهما" وفيه الإيذان بالبُعد.

كذلك أشار للشجرة - محل الخطيئة - بقوله: "ألم أنهكما عن تلكما الشجرة" ولم يقل: هذه الشجرة!

وبالجملة؛ فالقرب من الله مضطرد مع طاعته..

وتأمل: "كلا لا تطعه واسجد واقترب".





التعلق بالله تعالى.. الفضل والعلامات

لا إيمان إلا بتعلق، ولا عبودية إلا بتعلق، ولا إسلام إلا بتعلق؛ فمدار الدين على تعلق القلب برب العالمين من جهة ربوبيته وإحاطته وحفظه وإمداده ورزقه، ومن جهة إلاهيته وحبه وعبادته؛ فقلب المؤمن معلق بربه مهما باشرت يده تقليب الأسباب.

هذا، وإن التعلق انجذاب وافتقار واحتياج ولزوم، كتعلق الجنين بحبل أمه السري، فهو لا ينفك عنه لحظة، فغذاؤه ودواؤه وحاجات جسده كلها عن طريقه بإذن الله، فالقلب إذا تعلق بربه فخضع وخشع واعترف وتوكل وافتقر واغتنى فقد قام بعبودية التعلق بربه، وعلى قدر تعلقه بالمخلوقين وانجذابه واحتياجه إليهم يكون نقص تعلقه بربه سبحانه. والمؤمن يعلم أن الملك ملك الله، والخلق خلقه، والعبيد عبيده، فهو لا ينفك عن تعلقه بمن هذا شأنه سبحانه وبحمده.

والمؤمن الموفق يعلم أن الله خلقه لعبادته، وأن زبدة رسالة المرسلين هي تحقيق التوحيد وتجريد العبودية لله وحده لا شريك له «ولما بعث صلوات





الله وسلامه عليه صار يقول للناس: «قولوا لا إله إلا الله»[١]، فكان هذا هو أول ما أمرهم به، ومعنى لا إله إلا الله، أن يكون التأله - الذي هو حب القلب وخوفه ورجاؤه - لله وحده، فلا يكون القلب متعلقاً بغير الله، وكل شيء تتعلق به القلوب من غير الله يجب أن يُبطَل وأن ينصرف عنه، فليس لأحد من الخلق من الألوهية شيء.

والمتعلق بالله لا يُخذل في أشد الأهوال ولا يُنسى مع تتابع الكروب، بل تتتابع عليه ألطاف الملك الوهاب، وتتوالى عليه أمداد اللطيف الخبير، وهو ذاكرٌ لربه في كل حال، حتى مع التحام الأقران بتوالي الطعان: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]، والمتعلق بالله لا تضيق عليه المخارج عند الخطوب وتكاثف الغموم، قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: «ضاق بي أمر أوجب غماً لازماً دائماً، وأخذت أبالغ في الفكر في الخلاص من هذه الهموم بكل حيلة وبكل وجه، فما رأيت طريقاً للخلاص، فعرَضت لي هذه الآية: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]، فعلمت أن التقوى سبب للمخرج من كل غم، فما كان إلا أن هممت بتحقيق التقوى فوجدت المخرج.



فلا ينبغي لمخلوق أن يتوكل أو يتسبب أو يتفكر إلا في طاعة الله تعالى، وامتثال أمره، فإن ذلك سبب لكل فرج.

ثم ينبغي للمتقي أن يعلم أن الله كافيه فلا يعلق قلبه بالأسباب، فقد قال عز وجل: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

والمتعلق بالله بصير بحاله، عليم بعاقبة أفعاله، يعلم من أين يؤتى لذلك قلت ذنوبه، وهو حسن الظن بالمولى لذلك كثرت ضراعته وعظمت رغائبه، ويعلم أن لمولاه حِكَماً في تأخير إجابة دعواته أحياناً، يحدّث نفسه وغيره فيقول: «انظر فيما تطلبه هل هو لإصلاح دينك، أو لمجرد هواك؟ فإن كان للهوى المجرد فاعلم أن من اللطف بك والرحمة لك تعويقه، وأنت في إلحاحك بمثابة الطفل يطلب ما يؤذيه فيُمنع رفقاً به، وإن كان لصلاح دينك فربما كانت المصلحة تأخيره، أو كان صلاح الدين بعدمه. وفي الجملة تدبير الحق عز وجل لك خير من تدبيرك، وقد يمنعك ما تهوى ابتلاء ليبلو صبرك؛ فأره الصبر الجميل تر عن قرب ما يسر. ومتى نظفت طرق الإجابة من أدران الذنوب، وصبرت على ما يقضيه لك؛ فكل ما يجري أصلح لك، عطاء كان أو منعاً»[٢].



ومن فضائل التعلق بالله دون سواه أن مَن تعلق بربه ومولاه ربِّ كل شيء ومليكه؛ كفاه ووقاه، وحفظه وتولاه؛ فهو نعم المولى ونعم النصير.

ومَن تعلق بغيره وَكَلَه إلى مَن تعلق به؛ وخَذَلَه، قال وهبُ بن منبه: «أوحى الله تبارك وتعالى إلى نبيه داوُد عليه السلام: يا داوُد! أما وعزّتي وعظمتي لا يعتصم بي عبدٌ من عبادي دون خلقي، أعرف ذلك من نيته، فتكيده السماوات السبع ومن فيهن، والأرضون السبع ومن فيهن، إلا جعلتُ له من بينهن مخرجاً، أما وعزّتي وعظمتي لا يعتصم عبدٌ من عبادي بمخلوقٍ دوني، أعرف ذلك من نيته، إلا قطعتُ أسباب السماء من يده، وأسخت الأرض من تحت قدمه، ثم لا أبالي بأي أوديتها هلك»[٣].

إن المتعلق بالله لا يخشى غيره ولا يخاف سواه، لعلمه أن المخلوقين مهما أوتوا من قوة وخبرة وسلطان وبطش فلا يخرجون عن قَدَره وقُدرته طرفة عين، ولو اجتمعوا على أن ينفعوا أو يضروا أحداً فلا يكون لمرادهم وقوع إلا إن شاء الله، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

واعلم أن من فرائض الإيمان البراءة من التعلق بالخلق، فلا يجتمع في قلب تمامُ تعلق بالله وبغيره، فأحد التعلُّقين سيطرد صاحبه لا محالة، فعلى حسب تعلق القلب بالله تكون براءته وسلامته من التعلق بمخلوقاته، وهذا راجع



إلى تمكن التوحيد من القلب، فإذا استقر في القلب وتمكن من سويدائه فليس له بغير الله متعلق، وكلما ازداد معرفة بالله عظُمَ تعلّقه به حتى لا يبقى في فؤاده بغير ربه أدنى تعلق، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

ومن تعلق بغير ربه فقد حكم على نفسه الحرمان وختمها بالخذلان، وأصل مادة الشر في العالم هي من تعلق المخلوق بغير خالقه، وتأله قلبه لغير إلهه الحق، فما دخل القلب شرك بالله إلا من باب التعلق، فليعتن اللبيب الناصح لنفسه غاية العناية بحراسة هذا الباب لقلبه.

قال شيخ الإسلام: «العبد كلما كان أذل لله وأعظم افتقاراً إليه وخضوعاً له كان أقرب إليه، وأعز له، وأعظم لقدره؛ فأسعد الخلق أعظمهم عبودية لله؛ فأعظم ما يكون العبد قدراً وحرمة عند الخلق إذا لم يحتج إليهم بوجه من الوجوه، فإن أحسنت إليهم مع الاستغناء عنهم كنت أعظم ما يكون عندهم، ومتى احتجت إليهم ولو في شربة ماء نقص قدرك عندهم بقدر حاجتك إليهم، وهذا من حكمة الله ورحمته، ليكون الدين كله لله، ولا يُشرَك به شيء»[٤].



قال الفضيل بن عياض رحمه الله: «والله ما صدق اللهَ في عبوديته مَنْ لأحد من المخلوقين عليه ربّانية».

وقال ابن القيم رحمه الله: «إذا أصبح العبد وأمسى وليس همه إلا الله وحده، تحمَّل الله سبحانه حوائجه كلها، وحَمَل عنه كل ما أهمه، وفرَّغ قلبه لمحبته، ولسانه لذكره، وجوارحه لطاعته. وإن أصبح وأمسى والدنيا همه حمَّله الله همومها وغمومها وأنكادها، ووكله إلى نفسه، فشغل قلبه عن محبته بمحبة الخلق، ولسانه عن ذكره بذكرهم، وجوارحه عن طاعته بخدمتهم وأشغالهم؛ فهو يكدح كدح الوحش في خدمة غيره، كالكير ينفخ بطنه ويعصر أضلاعه في نفع غيره. فكل من أعرض عن عبودية الله وطاعته ومحبته بُلِيَ بعبودية المخلوق ومحبته وخدمته»[٥].

وللتعلق بالله تعالى علامات ومنارات.

فمنها: الخضوع والخشوع لربه: فإذا تعلّق المؤمن بربّه فإنه يذل لأمره ويخضع ويخشع، ويعلم أن الأمر كله لله، وأن الدين دينه، فمهما جرت به رياح الأحكام فهو جارٍ معها رخيّةً كانت عليه أو شديدة، فالله خلقه ليبتليه وليظهر رسوخ قدمه في التسليم لأمره وشرعه.

ومنها: الاستعداد للرحيل: ذلك أن المتعلق بالله مستعدٌّ للرحيل على الدوام، حازمٌ أمره قبل الموت، حاملٌ زاده قبل الفوت، حبلُ أمله في الدنيا أقصر من كراع نملة، وفي الآخرة أوسع من شعاع الشمس.

«ويجب على من لا يدري متى يبغته الموت أن يكون مستعداً.

وَيَبكي عَلى الموتَى ويَترُكُ نفسه ... ويزعَمُ أَن قَد قَلَّ عَنها عَزَاؤُهُ

ولَو كانَ ذا رأيٍ وعقلٍ وَفِطنَةٍ ... لكانَ عَليهِ لا عَليهِم بُكَاؤُهُ

ولا يغتر بالشباب والصحة، فإن أقل من يموت الأشياخ، وأكثر من يموت الشبان. ولهذا يندر من يكبر، وقد أنشدوا:

يعمّر واحدٌ فيغرّ قوماً ... ويُنسى من يموت من الشبابِ

ومن الاغترار طول الأمل، وما من آفة أعظم منه. فإنه لولا طول الأمل ما وقع إهمال أصلاً، وإنما يقدم المعاصي ويؤخر التوبة لطول الأمل وتبادر الشهوات، وتنسى الإنابة لطول الأمل.

وإن لم تستطع قصر الأمل فاعمل عمل قصير الأمل، ولا تمسِ حتى تنظر فيما مضى من يومك، فإن رأيت زلة فامحها بتوبة، أو خرقاً فارقعه باستغفار،



وإذا أصبحت فتأمل ما مضى في ليلك، وإياك والتسويف فإنه أكبر جنود إبليس»[٦].

ومنها: تجديد التوبة النصوح: فالمتعلق بالله محسن لمتابه، فهو يعلم أن قلبَه محلُّ نظر ربه تعالى الذي لا تخفى عليه خافية، ولا يخرج شيء عن حكمه وتدبيره، والحذرَ الحذر من المعاصي، فإن عواقبَها سيئة. فوا أسفاً لمعاقب لا يحس بعقوبته، قال ابن سيرين: عيّرت رجلاً بالفقر فافتقرت بعد أربعين سنة.

فالله الله في تجويد التوبة عساها تكف كف الجزاء، والحذر الحذر من الذنوب خصوصاً ذنوب الخلوات، فإن المبارزة لله تعالى تسقط العبد من عينه، وأصلح ما بينك وبينه في السر يصلح لك أحوال العلانية»[٧].

ومنها: إحسان الظن بالمولى الكريم: فالمتعلق بربه كله أمل في فضله وكرمه وسعة رحمته، وتهش نفسه وتطرب لسماع البشارات للمؤمنين سائلًا ربه أن يسلكه سبيلهم، فهو منتظر لرحمة ربه في الآخرة، راغباً راهباً محباً، يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه.

ومنها: الفرح بالله وبشاراته: فالمتعلق بالله فرح مسرور بربه تعالى، مستبشرٌ حُسنَ العاقبة لديه، فرحٌ بالزلفى بين يديه، محتفٍ بالخير الهائل من يديه، جَذِلٌ مسرورٌ ببشارات رسوله وحبيبه صلى الله عليه وسلم متمثلًا تلك الأوصاف الحميدة والأخلاق الجميلة، ممتلأً قلبه بمحبته والتمسك بسنته والمسارعة لاتّباعه، وقد قال الله عز وجل: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ٤٦ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا} [الأحزاب: ٤٥ - ٤٧].

ومنها: حراسة الوقت من الضياع: فالمتعلق بالله يعلم أن عمره قصير، وأن سنينه مهما امتدت وبسطت فمناه وآماله أكبر وأبعد من أن تحتويها، لذلك فهو يعمر الباقية ولو بخراب الفانية، فيجعل الدنيا معينة على تحصيل فوز الآخرة وفلاح الباقية، مجتهد في عمارة وقته بذكر الله وما والاه، مقدمٌ الأهم على المهم، متكامل في توزيع جهده، منظمٌ في ترتيب وقته، يقطع بحسن نيته وقوة عزيمته ما لا يقطعه الأفذاذ من أقرانه، متعلق بكليته بالله واثقٌ به متوكلٌ عليه مفوض أموره إليه.

يحزن للساعة التي يغفل فيها عن ربه، فإن اختلستها نفسه الأمارة، واستلبها القرين الرجيم حمل عليهما بنفس لوّامة لهما، فاستعاض عما سلف من غفلته



بتدارك ما استقبله والاجتهاد في تعويض ما فاته، فاطمأنت نفسه للخير الذي ترجوه، والأمل الذي ترقبه، فهو بين ادّكار واعتبار وفرح واستبشار، متقلب على مراضي ربه، مراوح بين الفرض والنفل، قد جهز راحلتي صبره وشكره، وأعدّ زاملته بزاد التقوى.

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم منهجاً لمن خشي أن يُفتن في دينه بمخالطة الناس أن عليه أن يعتزل أسباب الفتنة، ولو أن يتخذ البادية بدل المدينة مسكناً وموطناً - وهذا حالٌ يحتاج إلى فقه حتى لا تزل به القدم - فقال صلى الله عليه وسلم: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شَعَفَ الجبال ومواطن القطر، يفر بدينه من الفتن»[٨].

ومنها: توحيد التعلق بالله دون من سواه: وهذه أخص سمات المتعلق الحقيقي، ومن مقتضيات تحقيق العبودية لله تعالى إفراده سبحانه بالتعلق، فمع بذل الأسباب الظاهرة لا بد أن يكون القلب متعلقاً بمسببها سبحانه، فالخير كله بيديه وهو على كل شيء قدير.

وتفكر في قصة خطبة الصديق عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف علّق الناس برب الناس لا بغيره من مخلوقاته، فخطب الناس قائلاً: «أما بعد، فمن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن

الله حي لا يموت. قال الله: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} [آل عمران: ١٤٤]، قال: فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها عليهم أبو بكر، فتلاها منه الناس كلهم؛ فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها»[٩]، فأبو بكر رضي الله عنه قد احتمل هذا الخطب الجسيم لأن قلبه كان شديد التعلق بالخالق فوفّقه في ساعة الشدة، وتأمل فقهه بقوله: «فإن الله حي لا يموت» فيا لله! كم فيها للمؤمنين من ذخرٍ ورضا.

ومن العلامات: شدةُ الحرص على موارد حياة القلب ودفع أسباب ضعفه وموته، فلما كان القلب هو قطب رحى الإرادة، وصندوق ذخائر الإيمان، وبصلاحه صلاح النفس وفلاح المصير؛ كان له المحل الأرفع في استصلاحه وتنمية موارد الخير فيه والعمل على حراسته من غوائل الشيطان. ومن كان هذا حاله فهو البصير حقاً والعاقل صدقاً، وعلى قدر صلاح القلب تكون نسبة تحسسه من دغل الذنوب وتفرسه في مآلاتها في حاله ومآله.



والمتعلق بالله حريص للغاية على رعاية أحوال قلبه، فهو يخشى سقوطه من عين ربه لأدنى زلة، وخوفه من الله وخشيته وهيبته على قدر علمه به.

كما أنه يوطّن نفسه دائماً لأحسن الأحوال مع الله مع اختلاف الأحوال عليه، فهو قد وطّن نفسه على إحسان العبادة على كل حال قدر طاقته ووسعه.

ومن أمارات التعلق بالله: تعلقُ القلب ببيوت الله، فلما تعلق قلبه بربه هفت نفسه لبيوت الله التي رُفعت لذكره: {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ} [النور: ٣٦، ٣٧]، فالمسجد هو قطب رحى راحة المؤمن فإذا خرج منه أحس ببَضعة منه بقيت خلفه فلا يطمئن حتى يعاودها، فهو ينتقل من صلاة لقراءة لذكر لتفكر لدعاء حتى اختلط حب المسجد بلحمه ودمه وعصبه، وكذلك المؤمنة في مصلاها في قعر بيتها، فسلوتها وراحتها في صلاتها وذكرها ودعائها.

ويكفي المؤمن الذي أمسى بهذا الحنين لموطن السجود بشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا

ظله «رجل قلبه معلق بالمساجد»[١٠]. فالمؤمن من عُمّار بيوت الله بقلبه وقالبه. [١١]

https://albayan.co.uk/mobile/MGZarticle2.aspx?id=5687

....

[١] رواه أحمد (١٦٦٠٣) بسند صحيح.

[٢] صيد الخاطر (١/ ٦٣).

[٣] رواه الإمام أحمد وانظر: حلية الأولياء (٤/٢٦).

[٤]الفتاوى (١/٣٩).

[٥] الفوائد (٧٧).

[٦] صيد الخاطر (١ / ٦٥).

[٧] صيد الخاطر (١/ ٦٦).

[٨] البخاري (١٩).

[٩] البخاري (٤٤٥٢).

[١٠] البخاري (٦١١٤) ومسلم (١٠٣١).

[١١] مجلة البيان ٢٠١٧/٢٩/٣ العدد : ٣٥٩



(وبشّر الصابرين)

قال تعالى مبشّرًا أهل الصبر لوجهه، وقد أطلق البُشرى لتذهب النفس في أمنياتها كلّ مذهب جميل، والله الكريم من وراء ذلك كله وأجزلُ وأكرمُ وأوهبُ، وقد مهّد البشارة بذكر إلقائه المشاق الحسيّة والنفسية في طريقهم إليه تعالى، وسمّى ذلك ابتلاءً ليكونوا على بصيرة من أمرهم بأن المراد من هذا البلاء إظهار طيب معادن نفوسهم حين يصهرها البلاء فيبلوها عن أجمل معادن الصبر والرضى والحمد والشكر، ونسب فعل الابتلاء إليه لتقترب قلوبهم من معية ربهم لعلمها أن بلاءه في حقيقته رحمه، وأنه خير لهم وأسعد، وأن فيه من الحكم الربانية ما لا تحيط بها أذهانهم، فيستشعرون قربه ومعيته ورفده وتصبيره وتوفيقه فقال جل جلاله: (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين).

ثم بيّن شعار الصابرين وعيّنهم بأنهم الذين يهتفون لنفوسهم حين نزول البلاء والكرب والشدة والحزن أنها ملك مطلق لربها يصرفها كيف يشاء ويفعل بها ما أراد، وأنهم سيعودون بعد برهة من الزمان إليه للحساب





والجزاء حين يستنفدون أرزاقهم وأجالهم فقال تعالى: (الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون) فهنا البلسم الروحاني والترياق النفساني لكل هزمةِ شدة أو هبّة حزن أو ركضة بلوى أو أنّة مُصاب.

ثم صبّ بشارته الربانيّة النفيسة الجليلة على قلوبهم المؤمنة الراضية المسلّمة له فقال جل شأنه وعز اسمه: (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) فلهم من ربهم العليُّ أجمل ثناء وأعطر ذكر في الوجود وهو ذكره وثناؤه عليهم، فيا لله كم في هذا المقام من جلال وجمال وغبطة وفوز!

ثم ثنّى ببشارتهم برحمته وأنهم من المرحومين، ومن رحمه أرحم الراحمين وإله العالمين فلا تسل عن نعيمه وسعادته وفلاحه في الأولين والأخرين.

ثم ثلّث بشارته لهؤلاء الصابرين بالهدى إرشادًا وعلمًا وتوفيقًا وتثبتًا، فلا خوف عليهم من ضيعة سبيل ولا ضلالة طريق ولا ظلام بصيرة، فالهادي العظيم قد تكفّل بهداهم والأخذ بأيديهم لصراطه المستقيم المفضي بهم إلى رضوانه وجنانه. اللهم اكتبنا من أهل الصبر الجميل، إله الحق.

الاستغناء بالله تعالى

الحمد لله وبعد، فهل تعلم من هو أغنى الناس حقّا وأبسطهم رزقًا وأوفرهم حظًّا؟

إنه المستغني بالله عما سواه. فمن استغنى بالله حق الاستغناء أغناه الله تمام الغنى.

ومعنى الغِنى بالله والاستغناء به: طلب حصول الكفاية وسد الحاجة منه سبحانه دون من سواه.

واعلم أنه بحسَب تحقيق المؤمن للاستغناء بربه تعالى يكون غناه وسدّ فاقته ونُجعه ونُجحه وفوزه وفلاحه.

وبما أن الغنى هو محض فضل الله تعالى, وحيث أن أفضالَه لا تعد ولا تحصى ولا تحصر؛ فاقتضت حكمته سبحانه أن يجعل للغنى مراتبَ ودرجات, "ولما كان الفقر إلى الله سبحانه هو عين الغنى به, فأفقر الناس إلى الله أغناهم به وأذلهم له, وأعزهم وأضعفهم بين يديه أقواهم, وأجهلهم



عند نفسه أعلمهم بالله, وأمقتهم لنفسه أقربهم إلى مرضاة الله؛ كان ذكر الغنى بالله مع الفقر إليه متلازمين متناسبين.

واعلم أن الغنى على الحقيقة لا يكون إلا بالله الغني بذاته عن كل ما سواه, وكل ما سواه فموسوم بسمة الفقر, كما هو موسوم بسمة الخلق والصنع.

قال ابن القيم رحمه الله في الرسالة القشيرية (٢٧٢): لا يوصف بالغنى على الإطلاق إلا مَن غِناه من لوازم ذاته, فهو الغني بذاته عما سواه, وهو الأحد الصمد الغني الحميد.

والغنى قسمان: غنى سافل, وغنى عال.

فالغنى السافل هو الغنى بالعواري المستردة من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث, وهذا أضعف الغنى فإنه غنى بظل زائل وعارية ترجع عن قريب إلى أربابها, فإذا الفقر بأجمعه بعد ذهابها, وكأن الغنى بها كان حلمًا فانقضى, ولا همةَ أضعفُ من همة من رضي بهذا الغنى الذي هو ظل زائل.



وهذا غنى أرباب الدنيا الذي فيه يتنافسون وإياه يطلبون وحوله يحومون, ولا أحبَّ إلى الشيطان وأبعدَ عن الرحمن من قلب ملآنٍ بحب هذا الغنى والخوف من فقده.

قال بعض السلف: إذا اجتمع إبليس وجنوده لم يفرحوا بشيء كفرحهم بثلاثة أشياء: مؤمن قتل مؤمنًا, ورجل يموت على الكفر, وقلب فيه خوف الفقر.

وهذا الغنى محفوف بفقرين: فقر قبله, وفقر بعده, وهو كالغفوة بينهما. فحقيقٌ بمن نصح نفسه أن لا يغتر به ولا يجعله نهاية مطلبه, بل إذا حصل له جعله سببًا لغناه الأكبر ووسيلة إليه, ويجعله خادمًا من خدمه لا مخدومًا له, وتكون نفسه أعز عليه من أن يعبّدها لغير مولاه الحق, أو يجعلها خادمة لغيره.

وأما الغنى العالي: فهو بحصول ما يسد فاقة القلب ويدفع حاجته, وفي القلب فاقة عظيمة وضرورة تامة وحاجة شديدة, لا يسدها إلا فوزه بحصول الغنيّ الحميد, الذي إن حصل للعبد حصل له كل شيء, وإن فاته فاته كل شيء.



فكما أنه سبحانه الغنيّ على الحقيقة ولا غني سواه, فالغنيّ به هو الغني في الحقيقة ولا غِنى بغيره البتة, فمن لم يستغن به عما سواه تقطّعت نفسه على السوى حسرات, ومن استغنى به زالت عنه كل حسرة, وحضره كل سرور وفرح, والله المستعان. وقد قال صلى الله عليه وسلم: "من أصبح والدنيا أكبرُ همِّه جعل الله فقرَهُ بين عينيه, وشتّت عليه شمله, ولم يأته من الدنيا إلا ما قدّر له. ومن أصبح والآخرة أكبر همّه جعل الله غناه في قلبه, وجمع عليه شملَه, وأتته الدنيا وهي راغمة" رواه أحمد.

ومدار ذلك كله على الاستقامة باطنًا وظاهرًا, ولهذا كان الدين كله في قوله تعالى: (فاستقم كما أمرت) وقال سبحانه: (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون)

وهذه الاستقامة ترقى بصاحبها إلى الغنى بالحق تبارك وتعالى عن كل ما سواه, وهي أعلى درجات الغنى.

فأول هذه الدرجة أن تشهد ذكر الله عز وجل إياك قبل ذكرك له, وأنه تعالى ذَكَرَكَ فيمن ذَكَرَهُ من مخلوقاته ابتداء قبل وجودك وطاعتك وذكرك, فقدّر خلقك ورزقك وعملك وإحسانه إليك ونعمه عليك حيث لم تكن شيئًا البتة, وذكرك تعالى بالإسلام فوفقك له واختارك له دون من خذله,



قال تعالى: (هو سماكم المسلمين من قبل) فجعلك أهلًا لما لم تكن أهلًا له قط, وإنما هو الذي أهّلك بسابق ذكره, فلولا ذكره لك بكل جميل أولاً كَهُ لم يكن لك إليه سبيل.

ومن الذي ذَكَرَكَ باليقظة حتى استيقظت وغيرك في رقدة الغفلة مع النوّام؟ ومن الذي ذكرك سواه بالتوبة حتى وفقك لها وأوقعها في قلبك وبعث دواعيك وأحيي عزماتك الصادقة عليها حتى ثبت إليه وأقبلت عليه, فذقت حلاوة التوبة وبردها ولذاتها؟ ومن الذي ذكرك سواه بمحبته حتى هاجت من قلبك لواعجها, وتوجّهت نحوه سبحانه ركائبها, وعمَر قلبك بمحبته بعد طول الخراب, وآنسك بقربه بعد طول الوحشة والاغتراب؟ ومن تقرب إليك أولًا حتى تقربت إليه, ثم أثابك على هذا التقرب تقربًا آخر, فصار التقرب منك محفوفًا بتقربين منه تعالى, تقرّبٌ قبله وتقرب بعده, والحب منك محفوفًا بحبين منه, حب قبله وحب بعده, والذكر منك محفوفا بذكرين ذكر قبله وذكر بعده؟

فلولا سابق ذكره إياك لم يكن من ذلك كله شيء, ولا وصل إلى قلبك ذرة مما وصل إليه من معرفته وتوحيده ومحبته وخوفه ورجائه والتوكل عليه والإنابة إليه والتقرب إليه. فهذه كلّها آثارُ ذكرِه لك.



ثم إنه سبحانه ذَكَرَكَ بنعمه المترادفة المتواصلة بعدد الأنفاس, فله عليك في كل طرفة عين ونفس نِعَمٌ عديدة, ذكرك بها قبل وجودك, وتعرّف بها إليك, وتحبّب بها إليك, مع غناه التام عنك وعن كل شيء, وإنما ذلك مجرد إحسانه وفضله وجوده, إذ هو الجواد المحسنُ لذَاتِه, لا لمعاوضة, ولا لطلب جزاء منك, ولا لحاجة دعته إلى ذلك, كيف وهو الغني الحميد؟

فإذا وصل إليك أدنى نعمة منه فاعلم أنه ذكَرك بها, فلتعظُمْ عندك لذكره لك بها, فإنه ما حَقَرَكَ مَن ذَكَرَكَ بإحسانه, وابتدأك بمعروفه, وتحبّب إليك بنعمته, هذا كله مع غناه عنك.

فإذا شهد العبدُ ذكرَ ربه تعالى له, ووصل شاهدُه إلى قلبه؛ شغله ذلك عما سواه, وحصل لقلبه به غنى عالٍ لا يشبهه شيء. وهذا كما يحصل للمملوك الذي لا يزال أستاذه وسيده يذكُرُه ولا ينساه, فهو يحصل له - بشعوره بذكر أستاذه له - غنًى زائد على إنعام سيده عليه وعطاياه السنية له, فهذا هو غنى ذكرِ الله للعبد.

وقد قال صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى: "من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي, ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم" فهذا ذكرٌ ثانٍ بعد ذكر العبد لربه غير الذكر الأول الذي ذكره به حتى

جعله ذاكرًا, وشعورُ العبد بكلا الذكرين يوجب له غنًى زائدًا على إنعام ربه عليه وعطاياه له.

والمقصودُ: أن شعور العبد وشهوده لذكر الله له يغني قلبَه ويسدّ فاقته, وهذا بخلاف من نسوا الله فنسيهم, فإن الفقر من كل خير حاصلٌ لهم, وما يظنون أنه حاصل لهم من الغنى فهو من أكبر أسباب فقرهم.

وجميع ما يبدو للقلوب من صفات الرب سبحانه فإن العبد يستغني بها بقدر حظّه وقسمه من معرفتها وقيامه بعبوديتها. فمن شهد مشهد علوّ الله على خلقه, وفوقيّته لعباده, واستواءه على عرشه, كما أخبر به أعرَفُ الخلق وأعلمهم به الصادق المصدوق, وتعبّد بمقتضى هذه الصفة, بحيث يصير لقلبه صَمَدٌ يعرج القلب إليه, مناجيًا له, مطرقًا, واقفًا بين يديه وقوف العبد الذليل بين يدي الملك العزيز, فيشعر بأن كَلِمَه وعَمَله صاعد إليه, معروض عليه بين خاصته وأوليائه؛ فيستحيي أن يصعد إليه من كَلِمِهِ ما يخزيه ويفضحه هناك.

ويشهد نزول الأمر والمراسيم الإلهية إلى أقطار العوالم كل وقت بأنواع التدبير والتصرف من الإماتة والإحياء والتولية والعزل والخفض والرفع والعطاء والمنع وكشف البلاء وإرساله وتقلب الدول ومداولة الأيام بين الناس, إلى غير ذلك من التصرفات في المملكة التي لا يتصرف فيها سواه, فمراسمه نافذةٌ



فيها كما يشاء, (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) فمن أعطَى هذا المشهد حقّه معرفة وعبودية؛ استغنى به.

وكذلك من شهدَ مشهد العلم المحيط الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السموات ولا في قرار البحار ولا تحت أطباق الجبال, بل أحاط بذلك علمه كله علماً تفصيليًّا, ثم تعبّد بمقتضى هذا الشهود من حراسة خواطره وإرادته وجميع أحواله وعزماته وجوارحه؛ عَلِمَ أن حركاته الظاهرة والباطنة وخواطره وإراداته وجميع أحواله ظاهرة مكشوفة لديه, علانية له بادية, لا يخفى عليه منها شيء.

وكذلك إذا أشعر قلبه صفةَ سمعه سبحانه لأصوات عباده على اختلافها وجهرها وخفائها, سواء عنده من أسرَّ القول ومن جهر به, لا يشغله جهرٌ من جهر عن سمعه لصوت من أسرَّ, ولا يشغله سمعٌ عن سمع, ولا تغلّطه الأصوات على كثرتها واختلافها واجتماعها, بل هي عنده كلها كصوت واحد, كما أن خلق الخلق جميعهم وبعثهم عنده بمنزلة نفس واحدة.

وكذلك إذا شهد معنى اسمه البصير جل جلاله, الذي يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في حندس الظلماء, ويرى تفاصيل خلق الذرّة

الصغيرة ومخّها وعروقها ولحمها وحركتها, ويرى مدّ البعوضة جناحها في ظلمة الليل.

وأعطى هذا المشهد حقه من العبودية, فحرس حركاته وسكناته, وتيقن أنها بمرأى منه سبحانه, ومشاهدةٍ لا يغيب عنه منها شيء.

وكذلك إذا شهد مشهد القيّومية الجامع لصفات الأفعال, وأنه قائم على كل شيء, وقائم على كل نفس, وأنه بكمال قيوميته لا ينام, ولا ينبغي له أن ينام, يخفض القسط ويرفعه, يُرفع إليه عمل الليل قبل النهار, وعمل النهار قبل الليل, لا تأخذه سنة ولا نوم, ولا يضل ولا ينسى. وهذا المشهد من أرفع مشاهد العابدين, وهو مشهد الربوبية.

وأعلى منه مشهد الإلهية الذي هو مشهد الرسل وأتباعهم الحنفاء, وهو شهادة أن لا إله إلا هو, وأن إلهية ما سواه باطل ومحال كما أن ربوبية ما سواه كذلك, فلا أحدَ سواه يستحق أن يُؤله ويُعبد ويُصلّى له ويُسجَد, ويستحق نهاية الحب مع نهاية الذل لكمال أسمائه وصفاته وأفعاله, فهو المُطاع وحده على الحقيقة, والمألوه وحده, وله الحكم وحده. فكل عبوديةٍ لغيره باطلةٌ وعناءٌ وضلال, وكل محبة لغيره عذاب لصاحبها, وكل غنى لغيره فقر وفاقة, وكل عز بغيره ذل وصغار, وكل تكثّرٍ بغيره قلة وذلّة. فكما استحال





أن يكون للخلق ربٌّ غيره؛ فكذلك استحال أن يكون لهم إله غيره, فهو الذي انتهت إليه الرغبات, وتوجّهت نحوه الطلبات.

فمشهد الألوهية هو مشهد الحنفاء, وهو مشهدٌ جامع للأسماء والصفات, وحظ العباد منه بحسب حظهم من معرفة الأسماء والصفات.

فهذا المشهد تجتمع فيه المشاهد كلها, وكل مشهد سواه فإنما هو مشهد لصفة من صفاته, فمن اتّسع قلبه لمشهد الإلهية, وقام بحقه من التعبد الذي هو كمال الحب بكمال الذل والتعظيم والقيام بوظائف العبودية, فقد تم له غناه بالإله الحق, وصار من أغنى العباد.

فيا لَه من غنًى ما أعظم خطره, وأجلَّ قدره, تضاءلت دونه الممالكُ فما دونها, وصارت بالنسبة إليه كالظل من الحامل له, والطيف الموافي في المنام الذي يأتي به حديث النفس, ويطرده الانتباهُ من النوم.

واعلم أن أعلى درجات الغنى بالرب سبحانه الفوزُ بوجوده, والفرحُ كلُّ الفرح به، وهذا الغنى هو أعلى درجاتِ الغنى.

٣-١١-١٤٣٧



(إذ نادى ربه نداءً خفياًّ)

هل الأولى في دعاء الله تعالى أن يجهر أو يسرّ، ولماذا قرن الله تعالى الذكر بالخِيفة والدعاء بالخُفية؟

أجاب عن هذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى فقال: "قول الله تعالى: ﴿ ادعوا ربكم تضرعا وخُفية ﴾ يتناول نوعي الدعاء، لكنه ظاهر في دعاء المسألة متضمن دعاء العبادة، ولهذا أمر بإخفائه وإسراره.

قال الحسن: بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفًا، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت. أي ما كانت إلا همسًا بينهم وبين ربهم عز وجل؛ وذلك أن الله عز وجل يقول: ﴿ ادعوا ربكم تضرعا وخفية ﴾ وأنه ذكر عبدًا صالحًا ورضي بفعله فقال: ﴿ إذ نادى ربه نداء خفياًّ ﴾.

وفي إخفاء الدعاء فوائد عديدة:

أحدها: أنه أعظم إيمانًا؛ لأن صاحبه يعلم أن الله يسمع الدعاء الخفي.



ثانيها: أنه أعظم في الأدب والتعظيم، لأن الملوك لا تُرفع الأصوات عندهم، ومن رفع صوته لديهم مقتوه، ولله المثل الأعلى.

فإذا كان يسمع الدعاء الخفي فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفض الصوت به.

ثالثها: أنه أبلغ في التضرع والخشوع الذي هو روح الدعاء ولبه ومقصوده. فإن الخاشع الذليل إنما يسأل مسألة مسكين ذليل، قد انكسر قلبه وذلت جوارحه وخشع صوته؛ حتى إنه ليكاد تبلغ ذلته وسكينته وضراعته إلى أن ينكسر لسانه فلا يطاوعه بالنطق. وقلبُه يسأل طالبًا مبتهلًا، ولسانُه لشدة ذلته ساكتًا. وهذه الحال لا تأتي مع رفع الصوت بالدعاء أصلًا.

رابعها: أنه أبلغ في الإخلاص.

خامسها: أنه أبلغ في جمعية القلب على الذلة في الدعاء، فإن رفع الصوت يفرّقه، فكلما خفض صوته كان أبلغ في تجريد همته وقصده للمدعو سبحانه.

سادسها: - وهو من النكت البديعة جدًّا - أنه دال على قرب صاحبه للقريب، لا مسألةَ نداءِ البعيد للبعيد؛ ولهذا أثنى الله على عبده زكريا بقوله





عز وجل: { إذ نادى ربه نداء خفيا } فلما استحضر القلب قرب الله عز وجل وأنه أقرب إليه من كل قريب أخفى دعاءه ما أمكنه.

وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى المعنى بعينه بقوله في الحديث الصحيح لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير وهم معه في السفر فقال: "أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا، إن الذي تدعونه أقربُ إلى أحدكم من عنق راحلته".

وقد قال تعالى: { وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان } وهذا القرب من الداعي هو قرب خاصٌّ ليس قربًا عامًّا من كل أحد، فهو قريب من داعيه وقريب من عابديه، وأقربُ ما يكون العبد من ربه وهو ساجد. وقوله تعالى: { ادعوا ربكم تضرعا وخُفية } فيه الإرشاد والإعلام بهذا القرب.

سابعها: أنه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال، فإن اللسان لا يملّ، والجوارح لا تتعب، بخلاف ما إذا رفع صوته فإنه قد يملّ اللسان وتضعف قواه. وهذا نظير من يقرأ ويكرر فإذا رفع صوته فإنه لا يطول له؛ بخلاف من خفض صوته.



ثامنها: أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوشات، فإن الداعي إذا أخفى دعاءه لم يدرِ به أحدٌ فلا يحصل على هذا تشويشٌ ولا غيرُه، وإذا جهر به فَرَطَتْ له الأرواح البشرية ولا بد، ومانَعَتْه وعارضته، ولو لم يكن إلا أنَّ تعلَّقها به يفرّق عليه همته؛ فيضعف أثر الدعاء. ومن له تجربة يعرف هذا، فإذا أسر الدعاء أمن هذه المفسدة.

تاسعها: أن أعظم النعمةِ الإقبالُ والتعبد، ولكل نعمةِ حاسد على قدرها دقّت أو جلّت، ولا نعمةَ أعظمَ من هذه النعمة، فإن أنفُسَ الحاسدين متعلقةٌ بها، وليس للمحسود أسلمَ من إخفاء نعمته عن الحاسد.

وقد قال يعقوب ليوسف عليهما السلام: { لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا } الآية. وكم من صاحب قلبٍ وجمعيةٍ وحالٍ مع الله تعالى قد تحدّث بها وأخبر بها فسلبه إياها الأغيارُ؛ ولهذا يوصي العارفون والشيوخ بحفظ السر مع الله تعالى، ولا يطلعُ عليه أحدٌ.

والقومُ أعظم شيئًا كتمانًا لأحوالهم مع الله عز وجل وما وهب الله من محبته والأنسِ به وجمعيةِ القلب، ولا سيما فعله للمبتدئ السالك، فإذا تمكن أحدهم وقويَ وثبّت أصولَ تلك الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء في قلبه - بحيث لا يخشى عليه من العواصف فإنه إذا أبدى حالَه



مع الله تعالى ليُقتدى به ويؤتَمَّ به - لم يبال. وهذا باب عظيم النفع إنما يعرفه أهله.

وإذا كان الدعاء المأمور بإخفائه يتضمن دعاء الطلب والثناء والمحبة والإقبالِ على الله تعالى فهو من عظيم الكنوز التي هي أحق بالإخفاء عن أعين الحاسدين وهذه فائدة شريفة نافعة.

عاشرها: أن الدعاءَ هو ذكرٌ للمدعوِّ سبحانه وتعالى، متضمنٌ للطلب والثناء عليه بأوصافه وأسمائه، فهو ذكر وزيادة، كما أن الذكرَ سُمِّيَ دعاءً لتضمنه للطلب، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أفضل الدعاء الحمد لله" فسمَّى الحمدَ لله دعاءً وهو ثناء محض؛ لأن الحمدَ متضمنٌ الحبَّ والثناء، والحبُّ أعلى أنواع الطلب؛ فالحامد طالبٌ للمحبوب فهو أحق أن يُسمَّى داعياً من السائل الطالب؛ فنفس الحمد والثناء متضمن لأعظم الطلب فهو دعاء حقيقة، بل أحق أن يسمى دعاء من غيره من أنواع الطلب الذي هو دونه.

والمقصود أن كلَّ واحد من الدعاء والذكر يتضمن الآخر ويدخل فيه وقد قال تعالى : { واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة } فأمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يذكره في نفسه.



قال مجاهد وابن جريج: أُمروا أن يذكروه في الصدور بالتضرع والاستكانة دون رفع الصوت والصياح. وتأمل كيف قال في آية الذكر: { واذكر ربك } الآية. وفي آية الدعاء: { ادعوا ربكم تضرعًا وخُفية } فذكر التضرعَ فيهما معًا وهو التذلل والتمسكن والانكسار، وهو روح الذكر والدعاء.

وخَصَّ الدعاء بالخُفية لما ذكرنا من الحكم وغيرها، وخص الذكر بالخِيفة لحاجة الذاكر إلى الخوف، فإن الذكر يستلزم المحبة ويثمرها؛ ولا بد لمن أكثر من ذكر الله أن يثمر له ذلك محبته، والمحبةُ ما لم تقترن بالخوف فإنها لا تنفع صاحبها بل تضرُّه؛ لأنها توجب التوانيَ والانبساط، وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أن استغنوا بها عن الواجبات، وسبب هذا عدمُ اقتران الخوف من الله بحبه وإرادته؛ ولهذا قال بعض السلف: من عبدَ الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن.

والمقصود أن تجريدَ الحب والذكر عن الخوف يوقع في هذه المعاطب، فإذا اقترن بالخوف جَمَعَهُ على الطريق ورده إليه، كالخائف الذي معه سوط يضرب به مطيته؛ لئلا تخرج عن الطريق. والرجاءُ حادٍ يحدوها يطلب لها



السير، والحبُّ قائدُها وزمامها الذي يشوِّقها، فإذا لم يكن للمطية سوطٌ ولا عصا يردها إذا حادت عن الطريق خرجت عن الطريق وظلت عنه.

فما حُفظت حدودُ الله ومحارمُه ووصل الواصلون إليه بمثل خوفه ورجائه ومحبته، فمتى خلا القلب من هذه الثلاث فسد فسادًا لا يُرجى صلاحه أبدًا، ومتى ضعف فيه شيء من هذه ضعف إيمانه بحسَبه.

فتأمل أسرارَ القرآن وحكمتَه في اقتران الخِيفة بالذكر والخُفية بالدعاء مع دلالته على اقتران الخُفية بالدعاء والخِيفة بالذكر أيضًا، وذكرِ الطمع الذي هو الرجاء في آية الدعاء؛ لأن الدعاء مبنيٌّ عليه، فإن الداعي ما لم يطمع في سؤاله ومطلوبه لم تتحرك نفسه لطلبه؛ إذ طلبُ ما لا طمعَ له فيه ممتنعٌ، وذكرُ الخوفِ في آية الذكر لشدة حاجة الخائف إليه.

فذكر في كل آيةٍ ما هو اللائق بها من الخوف والطمع، فتبارك من أنزل كلامه شفاءً لما في الصدور". (١)

١٤٣٧/١٠/٢٥

....

(١) مجموع الفتاوى ١٥ (١٥ -٢٢) مختصرًا.



الأُنْسُ باللهِ تعالى

إن كان في الدنيا جنةٌ فهي جنةُ الأُنْسِ بالله تعالى، وحلاوةُ قربه، ولذةُ مناجاته، وعلى هذه الثمرة كانت قلوب السابقين تغتذي، وهي ما عُبِّر عنها بحلاوة الإيمان.

أن الإقبالَ على الله تعالى، والإنابةَ إليه، والرضى به وعنه، وامتلاءَ القلب من محبته، واللَّهجَ بذكره، والفرحَ والسرورَ بمعرفته، ودوام ذكره، والسكون إليه، والطمأنينة إليه، ثوابٌ عاجل، وجَنَّةٌ حاضرة، فهو جنة الدنيا، والنعيم الذي لا يشبهه نعيم، وهو قرّة عين المحبين، وعيشٌ لا نسبة لعيش الملوك إليه البتة.

وإنما تقرّ أعينُ الناسِ على حسَب قرةِ أعينهم بالله عز وجل؛ فمن قرَّت عينه بالله قَرَّت به كلُّ عين، ومن لم تَقَرَّ عينه بالله تقطّعت نفسه على الدنيا حسرات.

ألا إن للأنسِ بالله ثمارًا حلوة، وينابيعَ عذبة، يتذوقها المؤمن بلسان قلبه، ويُشبعُ بها بطنَ روحه، فلا كانت الدنيا إذا لم يكن أُنسٌ بالله تعالى.





قال أويسٌ القَرَني رحمه الله: ما كنت أرى أن أحدًا يعرف ربه فيأنسَ بغيره. وقال بعض السلف: مساكينُ أهلُ الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا ألذَّ ما فيها، قيل: ما ألذُّ ما فيها؟ قال: الأنسُ بالله، والتلذذُ بخطابه والوقوف بين يديه. وقيل: الأُنسُ بالله نورٌ ساطعٌ، والأنس بالناس غمّ واقع.

إن حلاوة الأنس بالله لا تحصل إلا بالاشتغالِ بذكره ودوامِ عبادته، والبعدِ عن القواطع والشواغلِ التي تُقسّي القلب وتحول بينه وبين التفكر في آلاء الله، والتذكرِ لنعمائه، وقد أخبر النبي ﷺ أن للإيمان حلاوةً وطعمًا كما في قوله: «ثلاث من كُنَّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكرهُ أن يُقذف في النار». وقال ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولاً ونبيًا».

وأخبر أن عينَه تقرُّ بالعبادة ويرتاحُ بها بدنُه فقال عليه الصلاة والسلام: «وجُعلت قرة عيني في الصلاة» وقال: «أرحنا يا بلال بالصلاة». فرسول الله صلوات الله وسلامه عليه يجدُ في الصلاة لذةَ قلبه وسرورَه وابتهاجَه وغايةَ فرحه وراحةَ بدنه، فهو في الصلاة ينقطع عن الخلائق ويُقبل بقلبه

وقالبه على ربه، ويلتذ بذكره ومناجاته، ويتقلّب بنعيم جميل في أنواع العبادات من حال إلى حال، من روضة قرآن لبستان صلاة لحلاوة مناجاة إلى غير ذلك، يجد في كلٍّ منها الأُنس بالعبادة.

فمن وسائل تحصيل الأنس بالله تعالى الذكرُ الدائم، ورطوبةُ اللسان بذلك، ولَهَجُهُ لربه بدعاء الثناء والمسألة، وصرفُ طاقات الجوارح في مراضي ربه الكريم الوهاب، بالصلاة بعد الصلاة، وبالقرآنِ تلاوة وتدبرًا، وبالصدقة، وبالصيام، وبما أطاق من الباقيات الصالحات، وتحصيل العلم النافع والعمل به. فوَلاية الله مهرُها عسفُ النفوس على مراضيه.

وما من رجلٍ حسنت صلاته إلا واستأنس به كلُّ شيء، والرجلُ يكون نائمًا فيحركُهُ من نومه لطفٌ من ربه فيقوم للصلاة منتبهًا من غير تنبيه من الخلائق.

فيا عبد الله: إذا رُمت الأنسَ بالله تعالى والإحساس بقربه ولطفه فصلّ صلاة خاشعة، وأطل سجودك، فكلما أطلته فتحت عليك من الألطاف والنعم ما تود معها ألا ترفع رأسك، خاصة إذا صليت تلك الصلاة وأنت مستعدٌ لها بقلبك وقالبك. والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا به.



هذا وأعظمُ طُرُقِ تحصيلِ الأنسِ بالله تعالى هو حسنُ المعتقدِ أولاً ودوامُ الذكر ثانيًا، وأعظمُ الذكر القرآنُ تلاوة وسماعًا وتدبرًا، ثم الأذكار المادحة لله تعالى كالتهليل والتسبيح والتحميد ونحوها، ثم الأدعية والأوراد.

ومن أسباب حصوله كذلك: تعظيمُ قدرِ الصلاة، حتى تكونَ صلاةُ المرء كصلاة المقربين، فتكونُ رَوْحُه وريحانه، ويجتمع للعبد فيها ما لا يجتمع فيما سواها من العبادات. فإذا سجى الليل ودجى، خلا العابد الصالح بوليه وربه وسيده يناجيه ويضرع إليه، وقد يستثقل التهجدّ في بداية أمره ثم يكونُ عينُ سعادته، كما قيل: إن قيام الليل من أثقل شيء على النفس، ولاسيما بعد النوم، وإنما يصير خفيفًا بالاعتياد والمداومة والصبرِ على المشقة والمجاهدةِ في أول الأمر، ثم بعد ذلك ينفتحُ بابُ الأنسِ بالله تعالى وحلاوةِ المناجاة له، ولذة الخلوة به عز وجل، وعند ذلك لا يشبع الإنسان من القيام فضلاً عن أن يستثقله أو يكسلَ عنه، كما وقع ذلك للصالحين من عباد الله حتى قال قائلهم: إن كان أهل الجنة في مثل ما نحن فيه بالليل إنهم لفي عيشٍ طيّب. وقال آخر: منذ أربعين سنة ما غمّني إلا طلوع الفجر، وقال آخر: أهل الليل في ليلهم ألذّ من أهل اللهو في لهوهم.



وإنما يُصدّق بهذه الأمور من في قلبه حياة، وأما ميت القلب فيوحشك، فاستأنِسْ بغَيبته ما أمكنك، فإنه لا يوحشك إلا حضوره عندك، فإذا ابتليت به فأعطه ظاهرك، وترحّل عنه بقلبك وفارقه بسرّك، ولا تشتغل به عما هو أولى بك.

واعلم أن الحسرة كلَّ الحسرة الاشتغالُ بمن لا يُجدي عليك الاشتغال به إلا فوت نصيبك وحظّك من الله عز وجل، وانقطاعك عنه، وضياع وقتك عليك، وشتات قلبك عليك، وضعف عزيمتك، وتفرّق همك.

ألا وإن من أوسع أبواب الدخول للأنس بالله تعالى: سماعَ القرآن بيقين وتدبر وتلذذ.

وقد ذكر الإمامُ ابنُ القيم رحمه الله أنَّ للسماع أمرًا عجيبًا في راحة الروح، وقد يكون المسموع شديد التأثير في القلب ولا يشعر به القلب لاشتغاله بغيره، فإذا حصل له نوع تجرّد ورياضة ظهرت قوته، وكلّما تجرّدت الروح والقلب وانقطعتا عن علائق البدن كان حظهما من ذلك السماع أوفر، وتأثرهما به أقوى وتأمل برهان ذلك في الصيام والاعتكاف.

فإن كان المسموعُ معنىً شريفًا بصوت لذيذ؛ حصل للقلب حظُّه ونصيبه من إدراك المعنى، وابتهج به أتم ابتهاج على حسب إدراكه له، وللروح حظُّها ونصيبُها من لذة الصوت ونغمته وحسنه، فابتهجت به، فتتضاعفُ اللذة، ويتمُّ الابتهاج، ويحصل الارتياح، حتى ربما فاض على البدن والجوارح، وعلى الجليس.

وهذا لا يحصل على الكمال في هذا العالم إلا عند سماع كلام الله؛ فإذا تجردت الروح وكانت مستعدة، وباشر القلب روح المعنى، وأقبل بكليته على المسموع، فألقى السمع وهو شهيد، وساعده طيبُ صوت القارئ، كاد القلب يُفارق هذا العالم، ويلج عالمًا آخر، ويجد له لذة وحالة لا يعهدها في شيء غيره البتة، وذلك رقيقةٌ من حال أهل الجنة، فيا له من غذاء ما أصلحه وأنفعه!

وهل أعظمُ من الأنس بصحبة القرآن الكريم وهي الصحبة التي تدخلك باب الملك سبحانه، فعن أنس بن مالك ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله أهلينَ من الناس» قالوا: يا رسول الله من هم؟ قال: «هم أهل القرآن أهل الله وخاصته» وعلى مقدار تحقيق مقومات أهل القرآن الكريم تلاوة وتدبرًا وتأدبًا وتعلمًا وتعليمًا وعملاً يكون مقدار دخول العبد في أهلية الله وخاصته.



قال مالك بن دينار: من لم يأنس بمحادثة الله عن محادثة المخلوقين، فقد قلّ عملُه وعمي قلبُه وضيّع عمره.

واعلم أن الأنس بالله تعالى ذخيرةُ المؤمن عند احتدام الصعاب عليه واعتراك المحن لديه، وتأمل سير الأنبياء والمرسلين والمصلحين، ومن تيكَ المحن الشديدةَ محنةُ شيخ الإسلام ابنِ تيمية رحمه الله تعالى حينما تحزّبَ أعداؤه عليه، من علماءِ السوء وأمراءِ السوء في مصر والشام حتى حبس السنين الطويلة ومات في سجنه وهو في أتمّ سرور وأبهجَ حبور!

قال الغياني في محنته في مصر: فلما صلينا المغرب والوالي يريد إرساله لجهة هلاكٍ، بقيَ يدعو بدعاء الكرب، فأنزل الله عليه من النور والبهاء والحال شيئًا عظيمًا، وأشرتُ إلى المحبوسين لينظروا ذلك، كأن وجهَهُ شمعٌ يجلوه مثلُ العروس، حتى إذا راق الليلُ جاء نائبُ الوالي فقال: باسم الله. فبقوا يودّعونه ويبكون.. وركب على باب الحبس فقال له إنسان: يا سيدي هذا مقام الصبر. فقال: بل هذا مقام الحمد والشكر، والله إنه نازلٌ على قلبي من الفرح والسرور شيءٌ لو قُسِمَ على أهل الشامِ ومصرَ لفضُلَ منهم. ولو أن معي في هذا الموضع ذهبًا وأنفقتُه ما أدّيت عُشْرَ هذه النعمة التي أنا فيها!



وقال ابنُ القيم رحمهما الله: سمعت شيخنا شيخَ الإسلام ابنَ تيمية قدّس الله روحَه ونوّر ضريحه يقول: إن في الدنيا جنةً من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

وقال لي مرة: ما يصنعُ أعدائي بي؟ أنا جنّتي وبستاني في صدري، أين رحت فهي معي لا تفارقني، أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة.

وكان في حبسه في القلعة يقول: لو بذلتُ ملءَ هذه القلعة ذهبًا ما عدل عندي شكر هذه النعمة. أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير. وكان يقول في سجوده وهو محبوس: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، ما شاء الله أي يكثرُ من الإلحاح على الله تعالى بهذا الدعاء الجامع.

وقال مرة: المحبوسُ من حُبس قلبه عن ربّه، والمأسورُ من أسره هواه. ولما دخل إلى القلعة، وصار داخل سورها نظر إليه وتلا: (فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب).

واعلم أنه لا يمنعُ الأنسُ بالله وحلاوةُ مناجاته من مخالطة الناس في الخير والإحسان، فأعظمُ الناس أُنسًا بالله تعالى هو نبينا محمد ﷺ، مع ذلك فلم



يمنعه ذلك من مخالطة الناس واستصلاحهم والإحسان إليهم، بل قال: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم».

ومن وسائل تحقيقِ الأنسِ بالله تعالى: التوبةُ النصوح وإكثارُ الصالحات وتذكرُ الآخرة، فيا مشغولاً بتلفيق ماله عن تحقيق أعماله، مَنْ خَطَر ذكرُ الرحيل بباله قنع بالبُلَغ ولم يُباله. لابد والله من العبور إلى منزل القبور، يَسفي عليك الصَّبا والدَّبور، وأنت تحت الأرض تبور، آهٍ من طول الثبور بعد طيب الحبور.

قال يحيى بنُ معاذ: إذا أحب القلب الخلوة، أوصله حبُّ الخلوة إلى الأنسِ بالله، ومن أَنِسَ بالله استوحش من غيره.

قلت: ولا شكَّ أن الخلوةَ والعزلة مما يُعين على السير الصحيح؛ لذلك شُرِع الله للمؤمن عزلةٌ كلَّ ليلةٍ يناجي فيها ربه في قيام الليل، بل وفي الصلوات الخمس حين ينعزل بروحه مناجياً ربه في صلواته، ثم شَرِع الله له في كل سنة عشرة أيام يعتكف فيها منعزلاً عن الخلائق متعلقًا بربه لَهِجًا بذكره مُلِظًا بدعائه، مُلِحًّا باستغاثته واسترحامه واستغفاره واستلطافه.

ولا يزال العبد في حاجة لمثل هذه حتى يُحصّلَ الأنسَ بربه تعالى فيزهد عما سواه. كما قال ابن القيم: إن في القلب وحشةً لا يذهبها إلا الأنسُ بالله، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته، وفيه فاقة - وهي غاية الفقر - لا يُذهبها إلا صدقُ اللجوء إليه، ولو أُعطي الدنيا وما فيها لم تذهبْ تلك الفاقةُ أبدًا.

أما العزلة التامة عن الخلق فهي ليست من الإسلام في شيء إلا في أزمنةِ الفتن، وعند خوف المرء على دينه أو نفسه أو أهله، فرهبانيةُ الإسلام هي الجهاد في سبيل الله، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: أوصني، فقال: «أوصيك بتقوى الله فإنه رأسُ كل شيء، وعليك بالجهاد فإنه رهبانيةُ الإسلام، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن؛ فإنه روحك في السماء وذكرك في الأرض».

أما من انفرد عن الخلق بالكلية وانحاز إلى قُلَلِ الجبال وآثر التوحشَ عن الخلق لطلب الأنس بالله عز وجل دون سببٍ آخرَ مُلجئ فقد سلك هديًا ليس بهدي النبي ﷺ، بل هو هدي الرهبان الذين ابتدعوا الرهبانية في دين المسيح عليه السلام (ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم) وخيرُ الهديِ هديُ رسول الله ﷺ.

ومن سبلِ الأنسِ بالله تعالى الإحسانُ إلى الخلق، ولو لم يكن إلا ما يُجازى به المحسن من انشراح صدره، وانفساح قلبه، وسروره، ولذته بمعاملة ربه عز وجل، وطاعته، وذكره، ونعيم روحه بمحبته وذكره، وفرحه بربه سبحانه لكفاه فكيف والأمر أكبر من ذلك إذ هو سببٌ لتحصيلِ وَلاية الله تعالى ومحبته لعبده، (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان). وبالله وحده التوفيق ومنه المنّة وله الحمد وعليه كل الثناء.

١٤٣٧/١٠/١٦



الشوق إلى الله تعالى

الجنة دار المحبين، وأمنية المشتاقين، وموعد المؤمنين.

اشتاقت قلوب الصالحين إليها للقاء ربهم فيها، وقد وعدهم الكريم سبحانه: (من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت) نعم آت فهل استعددت له؟ (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا).

الشوق هو تَوَقان النفس إلى الشيء، فكلما أحبّت تحصيلَه كلما ازداد شوقُها إليه. والشوق قد يكون لمتع الحس وقد يكون للروح، وقد يكون لهما معًا، وأعلى الشوق هو الشوقُ إلى لقاء الله تعالى. ومن دعاء النبي ﷺ: «وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك، من غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلّة».

وكلما كان الشيء أحب، كانت اللذة بنيله أعظم، كما رُوي عن الحسن البصري أنه قال: لو علم العابدون بأنهم لا يرون ربهم في الآخرة لذابت نفوسهم في الدنيا شوقًا إليه.

وقال ابن القيم رحمه الله: "ومن منازل: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ منزلة الشوق. قال الله تعال: (من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت) وفي هذا تعزية للمشتاقين، وتسلية لهم، أي أنا أعلم أنّ من كان يرجو لقائي فهو مشتاق إلي، فقد أجَّلْتُ له أجلاً يكون عن قريب، فإنه آتٍ لا محالة، وكل آت قريب. وفيه لطيفة أخرى، وهي تعليل المشتاقين برجاء اللقاء.

لولا التعلُّلُ بالرجاء لقُطِّعَتْ　　نفْسُ المحب صبابةً وتشوّقًا

ولقد يكاد يذوب منه قلبهُ　　مما يقاسي حسرةً وتحرُّقًا

حتى إذا رَوْحُ الرجاءِ أصابه　　سَكَنَ الحريقُ إذا تعلَّلَ باللقا

ولقد كان النبي ﷺ دائمَ الشوقِ إلى لقاء الله. والشوقُ أثر من آثار المحبة، وحكم من أحكامها، فإنه سَفَرُ القلب إلى المحبوب في كل حال.

وللشوق علامات، قال أبو عثمان: علامته حب الموت، مع الراحة والعافية، كحال يوسف لما أُلقي في الجُبّ لم يقل «توفني»، ولما أُدخل السجن لم يقل «توفني»، ولما تمَّ له الأمر والأمن والنعمة قال: «توفني مسلمًا».

والشوقُ إلى الله عز وجل لا ينافي الشوقَ إلى الجنة، فإن أطيب ما في الجنة قربُه تعالى، ورؤيتُه وسماع كلامه ورضاه.

وقد يقوى الشوق ويتجرد عن الصبر فيسمّى قلقًا، وقد يكره خلطة الخلق لما في ذلك من التنافر بين حاله وخلطتهم، وحدثني بعض أقارب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قال: كان في بداية أمره يخرج أحيانًا إلى الصحراء يخلو عن الناس، لقوّة ما يَرِدُ عليه، فتبعتُهُ يومًا فلما أصحر تنفّس الصعداء، ثم جعل يتمثل بقول الشاعر:

وأخرجُ من بين البيوت لعلَّني … أُحَدِّثُ عنك النفس بالسرِّ خاليًا

وصاحب هذا الحال إن لم يردّه الله سبحانه إلى الخلق بتثبيت وقوّة، وإلا فإنه لا صبر له على مخالطتهم، وربما التذّ بالموت لرجاء اللقاء بربه كما يلتذ المسافر بتذكر قدومه على أهله وأحبابه.

وليس عند القلوبِ السليمة والأرواحِ الطيبة والعقول الزاكية أحلى ولا ألذَّ ولا أطيبَ ولا أسرَّ ولا أنعم من محبّته والأنسِ به والشوقِ إلى لقائه.

والحلاوةُ التي يجدها المؤمن في قلبه بذلك فوق كل حلاوة، والنعيم الذي يحصل له بذلك أتمّ من كل نعيم، واللذة التي تناله أعلى من كل لذّة، كما أخبر بعضهم عن حاله بقوله: إنه ليمرّ بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا، إنهم لفي عيشٍ طيّب. وقال آخر: إنه ليمر بالقلب أوقات

يهتز فيها طربًا بأنسه بالله وحبه له. وقال آخر: مساكين أهل الغفلة! خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها. وقال آخر: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه، لجالدونا عليه بالسيوف.

وَوَجْدُ هذه الأمور وذوقُها هو بحسب قوة المحبة وضعفها، وبحَسَب إدراك جمال المحبوب والقرب منه، وكلما كانت المحبة أكمل وإدراك المحبوب أتمَّ، والقرب منه أوفرَ؛ كانت الحلاوة واللذة والسرور والنعيم أقوى.

فمن كان بالله سبحانه وأسمائه وصفاته أعرف، وفيه أرغب، وله أحب، وإليه أقرب، وجد من هذه الحلاوة في قلبه ما لا يمكن التعبير عنه، ولا يُعرف بالذوق والوجد، ومتى ذاق القلب ذلك لم يمكنه أن يقدّم عليه حبًّا لغيره، ولا أُنسًا به، وكلما ازداد حبًا؛ ازداد عبودية وذلاً وخضوعًا ورقًّا له، وحريّة عن رق غيره.

فالقلب لا يفلح ولا يصلح ولا يتنعم ولا يبتهج ولا يلتذ ولا يطمئن ولا يسكن، إلا بعبادة ربه، وحبه والإنابة إليه، ولو حصل له جميعَ ما يلتذ به من المخلوقات، لم يطمئنَّ إليها، ولم يسكنْ إليها، بل لا تزيده إلا فاقةً وقلقًا، حتى يظفرَ بما خُلق له وهُيّئ له، من كون اللهِ وحدَه نهايةَ مرادِه، وغايةَ مطالبه، فإن فيه فقرًا ذاتيًا إلى ربه وإلهه من حيث هو معبودُه، ومحبوبه

وإلهه ومطلوبه، كما أن فيه فقرًا ذاتيًا إليه من حيث هو ربُّه وخالقه ورازقه ومدبّره، وكلّما تمكّنت محبة الله من القلب وقويت فيه؛ خرج منه تألُّهُهُ لما سواه، وعبوديته له:

فأصبحَ حُرًّا عِزَّةً وصيانةً   على وجهه أنوارُه وضياءُهُ

وما من مؤمن إلا وفي قلبه محبةٌ لله تعالى وطمأنينة بذكره، وتنعّم بمعرفته، ولذة وسرور بذكره، وشوق إلى لقائه، وأنسٌ بقربه، وإن لم يُحسّ به، لاشتغال قلبه بغيره، وانصرافِه إلى ما هو مشغولٌ به، فوجودُ الشيء غيرُ الإحساسِ والشعورِ به، وقوة ذلك وضعفه وزيادته ونقصه، هو بحسب قوة الإيمان وضعفه، وزيادته ونقصانه.

والعبد في حال معصيته واشتغاله عنه بشهوته، تكون تلك اللذة والحلاوة الإيمانية مستترةً عنه متواريةً، أو ناقصة، أو ذاهبة، فإنها لو كانت موجودةً كاملة لما قدّم عليها لذّة وشهوة، لا نسبة بينها وبينها بوجهٍ ما، بل هي أدنى من حبةِ خردل بالنسبة إلى الدنيا وما فيها. ولهذا قال النبي ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن» لهذا تجد العبدَ إذا كان مخلصًا لله

منيبًا مطمئنًا بذكره مشتاقًا إلى لقائه؛ قلبه منصرفًا عن هذه المحرمات، لا يلتفت إليها، ولا يعوّل عليها.

وقيل: الشوقُ أعلى الدرجات وأعلى المقامات، فإذا بلغها الإنسان استبطأ الموتَ، شوقًا إلى ربه، ورجاءً للقائه والنظرِ إليه".

وقال عبد الرحمن السعدي رحمه الله في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلَها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل..﴾: "هذه حالةُ المُنفقين أهلُ النفقات الكثيرة والقليلة كلّ على حسب حاله، وكل يُنَّمى له ما أنفق أتم تنمية وأكملها، والمُنَمّي لها هو الذي أرحم بك من نفسك، الذي يريد مصلحتك حيث لا تريدها.

فيالِله لو قدّر وجودُ بستان في هذه الدار بهذه الصفة لأسرعت إليه الهمم، وتزاحم عليه كل أحد، ولحصل الاقتتال عنده، مع انقضاء هذه الدار وفنائها وكثرة آفاتها وشدة نصبها وعنائها، وهذا الثواب الذي ذكره الله كأن المؤمنَ ينظرُ إليه بعين بصيرة الإيمان، دائمٌ مستمر، فيه أنواع المسرات والفرحات، ومع هذا تجد النفوسَ عنه راقدة، والعزائم عن طلبه خامدة،

أترى ذلك زهدًا في الآخرة ونعيمِها، أم ضعفَ إيمان بوعد الله ورجاء ثوابه؟!

وإلا فلو تيقّن العبد ذلك حق اليقين، وباشر الإيمانُ به بشاشةَ قلبه؛ لانبعثت من قلبه مزعجات الشوق إليه، وتوجهت هِمَمُ عزائمه إليه، وطوعت نفسه له بكثرة النفقات رجاء المثوبات ولهذا قال تعالى: ﴿والله بما تعملون بصير﴾ فيعلمُ عملَ كلِّ عامل، ومصدَرَ ذلك العمل، فيجازيه عليه أتمّ الجزاء".

ومن نفيس كلام ابن الجوزي رحمه الله: "انتبه لنفسك يا من كلما تحرّك تعرقل، فيك جوهرية السباق، ولكن تحتاج إلى رائض، قلبُك محبوسٌ في سجن طبعك، مقيّد بقيود جهلك، فإن ترنَّمَ حادٍ تنفَّسَ مشتاقٌ إلى الوطن، فالبس لَأْمَةَ عزمك، وسر بجند جدك، لعلك تُخلِّص هذا المسلمَ من أيدي الفراعنة!

لك الحديثُ يا معرضُ، أنت المراد يا غافل، يا مُسْتلذًّا بَرْدَ العيش تذكّر حُرْقة الفرقة، يا من يُسْلِمُهُ موكَلان إلى موكَلين، ما لانبساطك وجهٌ، إنما تُملي عليهما رسالةً إلى ربك، وما أراكَ تَمَلُّ قُبْحَ ما تُملي!

أين الذي نصبوا الآخرة بين أعينهم فَنَصَبوا، وندَبوا أنفسهم لمحو السيئات ونَدَبوا.

كان ثابت البُناني يستوحش لفقد التعبُّد بعد موته فيقول: يا رب إن كنتَ أذنت لأحدٍ أن يُصلي في قبره فائذَنْ لي. وكان يزيد الرَّقاشي يقول في بكائه: يا يزيدُ من يبكي بعدك عنك؟ من يترضّى ربَّك لك؟

لما علم المحبّون أن الموت يقطع التعبدات كرهوه لتدوم العبادة.

كانوا يحبّون أماكن الذكر ومواطن الخلوة، والمؤمن أَلُوفٌ للمعاهد".

إن أعظمَ مشوّق لله والدار الآخرة هو تدبرُ القرآنِ العظيم؛ ففيه وصفُ الجليلِ الجميل سبحانه، وذكرُ آلائه ونِعَمِه وآياته، وهو الـمَعينُ الثرُّ لزيادة الإيمان واستقرار اليقين وانشراح الصدر وسعادة القلب وهناء الحياة والممات، ومن داوم على قراءته وتدبره وتفهّمه والعمل به فلا تسل عن سعادته وفلاحه في الدنيا والآخرة. والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به.

والشوق للقاء الله عز وجل مِنّة من الله تعالى يمنحها الأبرار من عباده، فحسن الظن الراسخ لا يكون إلا بعلم بالله قرنه عمل صالح قدمه بين يديه قربانًا إليه.

وكان من آخر الدعوات التي لهج بهن والدي رحمه الله وهو على فراش موته: اللهم قد اشتقت للقائك - يرددها عشية الجمعة -.

وتأمل تشويق الحبيب صلوات الله وسلامه عليه للجنة دار السلام، واحْدُ بقلبك إليها لعلك أن تكون من الفائزين بها غدًا، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة مئةُ درجة أعدّها للمجاهدين في سبيله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض. فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة، ومنه تفجّر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن» رواه البخاري.

وله عن أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن أهل الجنة يتراءون أهل الغُرَفِ فوقهم كما تتراءون الكوكبَ الدُّرِّيَّ الغابر في الأُفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم» قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغُها غيرهم! قال: «بلى، والذي نفسي بيده، رجالٌ آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين».

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة غُرَفًا يُرَى ظاهرُها من باطنها، وباطنُها من ظاهرها، أعدّها الله لمن أطعم الطعام وأدام الصيام وصلّى بالليل والناس نيام»، أخرجه الطبراني وأحمد.

وعن أبي موسى رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن للمؤمن في الجنة لخيمةً من لؤلؤة واحدة مجوّفة، طولها في السماء ستون ميلاً، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم فلا يَرى بعضُهم بعضًا» متفق عليه.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أول زُمْرَةٍ تدخلُ الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد نجم في السماء إضاءةً، ثم هم بعد ذلك منازلُ، لا يتغوطون، ولا يبولون، ولا يمتخطون، ولا يبصقون، أمشاطُهم الذهب، ومجامِرُهم الأُلُوَّة، ورشْحُهُم المسك، أخلاقُهم على خلق رجل واحد، على طول أبيهم آدم؛ ستون ذراعًا»، وفي رواية: «لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلب رجل واحد، يسبّحون الله بكرة وعشيًّا» وفي رواية: «وأزواجهم الحور العين».

وعن أنسٍ رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لقاب قوسِ أحدِكم أو موضع قدمٍ في الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولو أن امرأة من نساء الجنة اطّلعت إلى الأرض

لأضاءت ما بينهما، ولملأت ما بينهما ريحًا، ولنصيفُها (يعني الخمار) خيرٌ من الدنيا وما فيها» رواه البخاري.

وعن أنس ﵁ أن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة لسُوقًا يأتونها كل جمعة، فتهبُّ ريح الشَّمال فتحثو في وجوههم وثيابهم فيزدادون حسنًا وجمالاً» رواه مسلم. وفي الصحيحين عن أبي هريرة ﵁ أن النبي ﷺ قال: «قال الله عز وجل: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأتْ ولا أُذُنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، واقرءوا إن شئتم: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾».

وعن صهيب ﵁ أن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى منادٍ: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يثقّل موازيننا، ويبيّض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويزحزحنا من النار؟ قال: فيكشفُ الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئًا أحب إليهم من النظر إليه، ولا لأقرَّ لأعينهم منه» رواه مسلم.

وله من حديث أبي سعيد الخدري ﵁ أن الله يقول لأهل الجنة: «أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا».

اللهم ارزقنا الخلد في جنانك، وأحِلَّ علينا فيها رضوانك، وارزقنا لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك، من غير ضراءَ مضرَّة، ولا فتنة مضلة..آمين إله الحق. اللهم صل وسلم وبارك على محمد وآله وصحبه.

١٠|١٠|١٤٣٧







موقف المسلم من حاسديه وشانئيه

الحمد لله الذي لا أوَّل لوجوده، ولا آخر لجوده، لا إله إلا هو، وصلى الله على خير مبعوث بشرائعه وحدوده، وعلى الصحابة وأزواجه وجنوده، وسلَّم تسليمًا كثيرًا. أما بعد: فإن السعيد من ولد آدم هو من اتقى الله تعالى حق التقوى، وتحلى بسلامة الصدر وطهارة القلب، فالفائز عند الله غدًا هو من سلم صدره اليوم.

أخي المؤمن: إياك والحسد! فإنه آكل الحسنات، وموبِقُ إبليسَ في أسحق الدركات، فاغسل قلبك من حوبات الذنوب وطهر صدرك من نجاسات الأحقاد والشحناء والحسد والبغضاء. واعلم أن من توكل على ربه وفوض إليه أمره أوشك أن يصل بإذنه ورحمته.

ومن ابتلي بخوفٍ من حسد فعليه بالتالي: قال ابن القيم رحمه الله: "ويندفع شر الحاسد عن المحسود بعشرةِ أسباب:





أحدها: التعوذُ بالله تعالى من شره، واللجوء والتحصن به، واللجوء إليه، والله تعالى سميع لاستعاذته عليم بما يستعيذ منه، والسمع هنا المراد به سمع الإجابة، لا السمع العام، فهو مثل قوله سمع الله لمن حمده.

السبب الثاني: تقوى الله وحفظُه عند أمره ونهيه، فمن اتقى الله تولى اللهُ حفظَه ولم يكله إلى غيره، قال تعالى: (وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا) وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عباس: "احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك" رواه الترمذي بسند صحيح. فمن حفظ الله حفظه الله ووجده أمامه أينما توجه، ومن كان الله حافظه وأمامه فمّن يخاف وممن يحذر؟

السبب الثالث: الصبر على عدوه، وألا يقاتله ولا يشكوه ولا يحدّث نفسه بأذاه أصلًا، فما نُصِر على حاسده وعدوّه بمثل الصبر عليه والتوكل على الله، ولا يستطل تأخيره وبغيَه، فإنه كلما بغى عليه كان بغيه جندًا وقوة للمبغيِّ عليه المحسود، يقاتل به الباغي نفسه وهو لا يشعر، فبغيه سهام يرميها من نفسه.

ولو رأي المبغي عليه ذلك لسرّه بغيه عليه، ولكن لضعف بصيرته لا يرى إلا صورة البغي دون آخره ومآله، وقد قال تعالى: (ومن عاقب بمثل ما



عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله) فإذا كان الله قد ضمن له النصر مع أنه قد استوفى حقه أولًا، فكيف بمن لم يستوف شيئًا من حقه، بل بُغي عليه وهو صابر؟! وما من الذنوب ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعة الرحم، وقد سبقت سنة الله أنه لو بغى جبل على جبل جعل الباغي منهما دكًّا.

السبب الرابع: التوكلُ على الله (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) والتوكل من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم، وهو من أقوى الأسباب في ذلك، فإن الله حسبه أي كافية ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه، ولا يضره إلا أذى لا بد منه كالحر والبرد والجوع والعطش، وأما أن يضره بما يبلغ منه مراده فلا يكون أبدًا.

وفرق بين الأذى الذي هو في الظاهر إيذاء له وهو في الحقيقة إحسان إليه وإضرار بنفسه، وبين الضرر الذي يتشفّى به منه.

قال بعض السلف: جعل الله تعالى لكل عمل جزاءً من جنسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده، فقال: (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) ولم يقل: نؤته كذا وكذا من الأجر كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه، فلو توكل العبد على

الله تعالى حق توكله وكادته السماوات والأرض ومن فيهن لجعل له مخرجًا من ذلك وكفاه ونصره.

والتوكل من أجل مقامات العارفين وكلما علا مقام العبد كانت حاجاته إلى التوكل أعظم وأشد، وعلى قدر إيمان العبد يكون توكله.

السبب الخامس: فراغُ القلب من الاشتغال به والفكر فيه، وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له، فلا يلتفت إليه ولا يخافه ولا يملأ قلبه بالفكر فيه.

وهذا من أنفع الأدوية وأقوى الأسباب المعينة على اندفاع شره، فإن هذا بمنزلة من يطلبه عدوُّه ليمسكه ويؤذيه فلم يتعرض له ولا تماسك هو وإياه، بل انعزل عنه فلم يقدر عليه عدوه، فإذا خطر بباله بادر إلى محو ذلك الخاطر والاشتغال بما هو أنفع له وأولى به؛ بقي الحاسد الباغي يأكل بعضه بعضًا، فإن الحسد كالنار فإذا لم تجد ما تأكله أكل بعضها بعضًا.

وهذا باب عظيم النفع لا يُلَقّاه إلا أصحابُ النفوس الشريفة والهمم العالية، والكيّس الفطن بذلك يذوق حلاوته وطيبه ونعيمه، لأنه يرى أن من أعظم عذاب القلب والروح اشتغاله بعدوّه وتعلّق روحه به، ولا يرى شيئًا



ألم لروحه من ذلك، ولا يصدق بهذا إلا النفوس المطمئنة اللينة، التي رضيت بوكالة الله لها، وعلمت أن نصره لها خير من انتصارها هي لنفسها، فوثقت بالله وسكنت إليه واطمأنت به، وعلمت أن ضمانَه حق ووعده صدق، وأنه لا أوفى بعهده من الله ولا أصدقَ منه قيلًا، فعلمت أن نصره لها أقوى وأثبتُ وأدومُ وأعظم فائدة من نصرها هي لنفسها أو نصر مخلوق مثلها لها. ولا يقوى على هذا إلا بالسبب السادس.

السبب السادس: وهو الإقبال على الله والإخلاص له وجعل محبته ومرضاته والإنابة إليه في محل خواطر نفسه وأمانيها، فتدب فيها دبيب الخواطر شيئًا فشيئًا حتى يقهرَها ويغمرها ويذهبها بالكلية فتبقى خواطره وهواجسه وأمانيه كلها في محابّ الرب والتقرب إليه وتملقه وترّضيه واستعطافه وذكره كما يذكر المحب التام المحبة لمحبوبه المحسن إليه الذي قد امتلأت جوانحه من حبه، فما أعظم سعادة من دخل هذا الحصن، لقد آوى إلى حصن لا خوف على من تحصّن به، ولا ضيعة على من آوى إليه، ولا مطمع للعدو في الدنو إليه منه، وذلك (فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم)



السبب السابع: تجريد التوبة إلى الله من الذنوب التي سلطت عليه أعداءه، فإن الله تعالى يقول: (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) وقال لخير الخلق وهم أصحاب نبيه دونه: (أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم) فما سلط على العبد من يؤذيه إلا بذنب يعلمه أو لا يعلمه، وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف ما يعلمه منها، وما ينساه مما علمه وعمله أضعاف ما يذكره!

وفي الدعاء المشهور: "اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لم لا أعلم" صححه الألباني، فما يحتاج العبدُ إلى الاستغفار منه مما لا يعلمُه أضعافَ أضعافِ ما يعلمُه، فما سُلّط عليه مؤذ إلا بذنب.

ولقي بعض السلف رجل فأغلظ له ونال منه فقال له: قف حتى أدخلَ البيت ثم أخرجَ إليك، فدخل فسجد لله وتضرع إليه وتاب وأناب إلى ربه ثم خرج إليه فقال له: ما صنعت؟ فقال: تبت إلى الله من الذنب الذي سلطك به عليّ.

وليس في الوجود شر إلا الذنوب وموجباتها، فإذا عُوفي من الذنوب عوفي من موجباتها، فليس للعبد إذا بُغي عليه وأوذي وتَسَلّط عليه خصومُه شيء أنفع له من التوبة النصوح.





وعلامةُ سعادته أن يعكس فكرَه ونظره على نفسه وذنوبِه وعيوبه فيشتغلَ بها وبإصلاحها، وبالتوبة منها، فلا يبقى فيه فراغ لتدبّر ما نزل به، بل يتولى هو التوبةَ وإصلاحَ عيوبِه، واللهُ يتولى نصرته وحفظه والدفع عنه ولا بد.

فما أسعده من عبد، وما أبركها من نازلة نزلت به، وما أحسن أثرها عليه، ولكن التوفيقَ والرشد بيد الله، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، فما كلُّ أحد يوفق لهذا لا معرفة به ولا إرادة له ولا قدرة عليه ولا حول ولا قوة إلا بالله.

السبب الثامن من أسباب السلامة من كيد الحاسدين: الصدقةُ والإحسان ما أمكنه، فإن لذلك تأثيرًا عجيبًا في دفع البلاء ودفع العين وشر الحاسد، ولو لم يكن في هذا إلا تجارب الأمم قديمًا وحديثًا لكفى به، فما يكاد العين والحسد والأذى يتسلط على محسن متصدق، وإن أصابه شيء من ذلك كان معاملًا فيه باللطف والمعونة والتأييد، وكانت له فيه العاقبة الحميدة.

فالمحسن المتصدق في خفارة إحسانه وصدقته، عليه من الله جُنّة واقية وحصن حصين، وبالجملة فالشكر حارس النعمة من كل ما يكون سببًا لزوالها.

والحاسد والعائن لا يفتر ولا يني ولا يبرد قلبه حتى تزول النعمة عن المحسود، فحينئذ يبرد أنينه وتنطفيء ناره - لا أطفأها الله - فما حرَس العبدُ نعمةَ الله تعالى عليه بمثل شكرها، ولا عرّضها للزوال بمثل العمل فيها بمعاصي الله وهو كفران النعمة، وهو بابٌ إلى كفران المنعم.

فالمحسن المتصدق يستخدم جندًا وعسكرًا يقاتلون عنه وهو نائم على فراشه، فمن لم يكن له جند ولا عسكر وله عدو فإنه يوشك أن يظفر به عدوه وإن تأخرت مدة الظفر والله المستعان.

السبب التاسع: وهو من أصعب الأسباب على النفس وأشقّها عليها ولا يوفق له إلا من عظُم حظُّه من الله؛ وهو إطفاء نار الحاسد والباغي والمؤذي بالإحسان إليه. فكلما ازداد أذى وشرًّا وبغيًا وحسدًا ازددت إليه إحسانًا وله نصيحة وعليه شفقة، وما أظنك تصدّق بأن هذا يكون، فضلًا عن أن تتعاطاه، فاسمع الآن قوله عز وجل: (ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم وأما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم) وقال: (أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرأون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون)



وتأمل حال النبي الذي حكى عنه نبينا صلى الله عليه وسلم أنه ضربه قومه حتى أدموه فجعل يسلت الدم عنه ويقول: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون" متفق عليه، كيف جمع في هذه الكلمات أربعَ مقامات من الإحسان قابل بها إساءتهم العظيمة إليه: أحدُها عفوُه عنهم، والثاني استغفارُه لهم، الثالث اعتذاره عنهم بأنهم لا يعلمون، الرابع استعطافه لهم بإضافتهم إليه فقال: (اغفر لقومي) كما يقول الرجل لمن يشفع عنده فيمن يتصل به: هذا ولدي، هذا غلامي، هذا صاحبي فهبه لي.

واسمع الآن ما الذي يسهل هذا على النفس ويطيبه إليها وينعمها به:

اعلم أن لك ذنوبًا بينك وبين الله تخافُ عواقبَها وترجوه أن يعفوَ عنها ويغفرَها لك ويهبَها لك، ومع هذا لا يقتصر على مجرد العفو والمسامحة حتى ينعم عليك ويكرمك ويجلب إليك من المنافع والإحسان فوق ما تؤمله، فإذا كنت ترجو هذا من ربك أن يقابل به إساءتك فما أولاك وأجدرَك أن تعاملَ به خلقه وتقابل به إساءتهم ليعاملك الله هذه المعاملة، فإن الجزاء من جنس العمل، فكما تعمل مع الناس في إساءتهم في حقك يفعل الله معك في ذنوبك وإساءتك جزاء وفاقًا، فانتقم بعد ذلك أو اعف وأحسن أو اترك فكما تدين تدان، وكما تفعل مع عباده يفعل معك.



فمن تصوّر هذا المعنى وشغل به فكره هان عليه الإحسان إلى ما أساء إليه هذا مع ما يحصل له بذلك من نصر الله ومعيّته الخاصة كما قال النبي للذي شكى إليه قرابته وأنه يحسن إليهم وهم يسيئون إليه فقال: "لا يزال معك من الله ظهيرٌ ما دمت على ذلك" رواه مسلم.

هذا مع ما يتعجلَه من ثناء الناس عليه ويصيرون كلهم معه على خصمه، فإنه كل من سمع أنه محسن إلى ذلك الغير وهو مسيء إليه وجد قلبه ودعاءه وهمته مع المحسن على المسيء، وذلك أمر فطري فطر الله عباده فهو بهذا الإحسان قد استخدم عسكرًا لا يعرفهم ولا يعرفونه ولا يريدون منه إقطاعًا ولا شكرًا.

وفي الجملة ففي هذا المقام من الفوائد ما يزيد على مئة منفعة للعبد عاجلةً وآجلة.

السبب العاشر: وهو الجامع لذلك كله وعليه مدار هذه الأسباب وهو تجريدُ التوحيد والترحّلُ بالفكر في الأسباب إلى المسبب العزيز الحكيم.

والعلم بأن هذه آلاتٌ بمنزلة حركات الرياح وهي بيد محركها وفاطرها وبارئها، ولا تضرّ ولا تنفع إلا بإذنه، فهو الذي يحسن عبده بها وهو الذي



يصرفها عنه وحده لا أحد سواه، قال تعالى: (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله)

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: "واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك" فإذا جرد العبدُ التوحيدَ فقد خرج من قلبه خوفُ ما سواه، وكان عدوّه أهونَ عليه من أن يخافَه مع الله تعالى، بل يُفردُ الله بالمخافة وقد أمنه منه وخرج من قلبه اهتمامه به واشتغاله به وفكره فيه، وتجرد لله محبة وخشية وإنابة وتوكلًا واشتغالًا به عن غيره، فيرى أن إعماله فكره في أمر عدوه وخوفه منه واشتغاله به من نقص توحيده". (١)

٢١/ ٧/ ١٤٣٧

....

(١) بدائع الفوائد (٢ / ٤٦٣ - ٤٦٨) باختصار.





الاعتصام بالله تعالى

الاعتصام بالله عصمة من الهلكة، ووقاية من الخلل، وأمان من الخذلان، وسلامة من عثرات الطريق.

وجوهر الاعتصام: صدق الاعتماد وتجريد التعلق وتمام الثقة ورسوخ اليقين. فمن اعتصم بماله قلّ، ومن اعتصم بعقله ضلّ، ومن اعتصم بجاهه ذلّ، ومن اعتصم بالله عز وجل لا قلّ ولا ضل ولا ذل، بل إلى ذرى المُنى يقينًا قد وصل.

ذلك أن الاعتصام بالله هو ركن التوفيق، فالمرء في كل أطواره وأزمانه متردد بين جلب الخير وثباته ونمائه، أو دفع الضر أو رفعه، ليس له حول وطول على الحقيقة البتة، إنما غاية جهده اتخاذ الأسباب المأمور بها من لدن المسبِّب الخالق البارئ، فهو لا شيء إلا بمعونة إلهه وسيده ومولاه.

وهذه الأسباب لا تستقل بحدوث تأثيراتها بل لا بد من صرف الموانع، ولا يكون شيء من ذلك إلا بمشيئة رب العالمين، فعاد الأمر طرًّا لمن بيده



مقاليد الأمور وتصاريف الأشياء، فمن رام التوفيق فليلذ بذلك الركن، وليعتصم بمن لا يأتي بالخير ولا يدفع الشر سواه.

والمعتصم بالله حقًّا في تحصيل إيمانه فغايته الجليلة ليس وراءها مرمى، كيف لا، وهو بالله يسمع وبه يبصر وبه يبطش وبه يمشي؟ فلا يقوم لقوته قوة، ولا يتخلف عن معيته توفيق.

ومتى أحسن العبد الاعتصام بربه انتظمت له سائر أعماله وتيسرت له وانشرح صدره بها فإن الله شكور حميد.





سبعان ضاريان

قلب المؤمن المسافر لربه والدار الآخرة يعترضه سبعان ضاريان، سبع الغضب وسبع الشهوة، والسعيد من وقاه ربه غائلتاهما، فالغضب يُلجم بالحلم وتذكّر مآل كاظمي الغيظ، والشهوة تلجم بالإيمان وتذكّر من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، ومن حرّك قلبه عندهما بتدبر قوله ربه: (أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون) أوشك أن يفلح بإذن الله.



سلامةُ الصدر

إن سلامة الصدر خلق شريف يتحلى به أهل النفوس السامية والرغائب العظيمة في فلاح الدار الآخرة، وكان السلف يحفظون لسالم الصدر هذه الخصلة ويحمدونه عليها.

قال اياس بن معاوية: كان أفضلهم عندهم أسلمهم صدورًا وأقلهم غيبة.

أما سلامة الصدر: فهي نقاء النفس من خَبَث الأخلاق الغضبية التي تكدّر صفاء الروح من الغل والحقد والحسد وما أشبهها فقلبه طاهر من كل ما يشينه تجاه ربه وسليم تجاه الناس فلا يحمل عليهم لأجل دنيا.

فالمؤمن يغضب لله ويكره لله ويقوم لله لا لدنيا مهما استدارت به خطوبها ومظالمها وزينتها.

وسلامة الصدر منحة من الله تعالى ومحض فضل من لدنه يختص به من أراد توفيقه من خاصة عباده، فالقلبُ قُلَّبٌ مالم يعصمه مولاه والصدر ضيّق ما لم يفسحه الله، والهم ملازم ما لم يرفعه الله.



إن سالم الصدر على عباد الله يعيش بين الناس وجنته في صدره وبستانه في قلبه وسعادته وسكينته في روحه، ينظر إليهم بعيني قلبه السليم وصدره الناصح الناصع الواسع فلا يرى شيئًا من نكدهم عليه يستحق ذلك المقابل فينقلب إليهم سليم الصدر حسن الظن محبًّا لهم كل خير يطيقه مسديًا لهم كل فائدة يسطِيعها لعلمه أنه لم يُخلق لحمل هموم دنيا وغموم فانية.

إنه فقط يحمل هم آخرته ويسعى لتحصيل رضى مولاه، فإن صادفه ظلم له أو أذى لم يتكدّر تكدّر الهلوعين ولم تضق نفسه بأمر هو عند الناس عظيم وعند الأتقياء تافه. فما كل ما راجت عند الناس عظمته عظيمًا وما كل ما تهالك الناس على تحصيله يستحق ولا كل ما حمل الناس هم إزاحته واجتنابه حقيق بذلك، فالميزان هو ميزان الآخرة، والمعوّل على رضوان الرحمن.

وتأمل سلامة صدر علي رضي الله عنه وحسن ظنه بالله وعمق فقهه ورسوخ علمه، فعن أبي حبيبة مولى طلحة قال: دخلت على علي رضى الله عنه مع عمران بن طلحة بعد ما فرغ من أصحاب الجمل قال: فرحّب به وأدناه وقال: إني لأرجو أن يجعلني الله وأباك من الذين قال الله عز وجل: (ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين) فقال: يا ابن أخ كيف



فلانة؟ كيف فلانة؟ قال: وسأله عن أمهات أولاد أبيه قال: ثم قال: لم نقبض أرضيكم هذه السنين إلا مخافة أن ينتهبها الناس. يا فلان انطلق معه إلى ابن قرظة مُرهُ فليعطه غلته هذه السنين ويدفع إليه أرضه.

قال: فقال رجلان جالسان ناحية أحدهما الحارث الأعور: الله أعدل من ذلك أن نقتلهم ويكونوا إخواننا في الجنة. قال: قوما أبعدَ أرضٍ الله وأسحقها، فمن هو إذا لم أكن أنا وطلحة؟! يا ابن أخي إذا كانت لك حاجة فأتنا.

وعن ابن بريدة الأسلمي قال: شتم رجل ابن عباس فقال ابن عباس: إنك لتشتمني وفيّ ثلاث خصال: إني لآتي على الآية من كتاب الله عز وجل فلوددت أن جميع الناس يعلمون منها ما أعلم منها، وإني لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدل في حكمه فأفرح به ولعلي لا أقاضي إليه أبدًا، وإني لأسمع بالغيث قد أصاب البلد من بلاد المسلمين فأفرح ومالي به من سائمة.

وعن زيد بن أسلم أنه دخل على أبي دجانة وهو مريض وكان وجهه يتهلل فقيل له: ما لوجهك يتهلل؟ فقال: ما من عملي شيء أوثق عندي من اثنتين، أما إحداهما: فكنت لا أتكلم فيما لا يعنيني، وأما الأخرى: فكان قلبي للمسلمين سليمًا. رجب/١٤٣٧



أحسن إسلامك تفزْ بالمضاعفة لحسناتك

لقد جاءت الأحاديث بفضل من حسن إسلامه وأنه تضاعف حسناته وتكفر سيئاته، والظاهر أن كثرة المضاعفة تكون بحسب حسن الإسلام، وهذا معنى شريف جدير بالتأمل والتدبّر والترغّب، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا أحسن أحدكم إسلامه فكل حسنة يعملها تكتب بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، وكل سيئة تكتب بمثلها حتى يلقى الله عز وجل" رواه مسلم.



ظلامُ الظلمِ

إذا كانت البهائم موعودات بالعدالة فما بالك بالبشر؟!

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لتؤدنّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء". رواه مسلم والجلحاء: التي لا قرن لها.

والظالم مأخوذ تالف مهما استطالت به أمنيته أو امتد ببغيه حبل غروره فعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله ليملي للظالم، فإذا أخذه لم يفلته"، ثم قرأ: { وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد } متفق عليه.



المراءُ

المراء داء الفضلاء، فحتى أهل العلم والفضل لم يسلموا من وضر تلك الإحنةِ النفسانية - ومرجعها الحسد - فترى في ردود بعضهم على بعض - مع أهميتها - انتصار ظاهر للنفس وهضم قبيح لحق أخيه وإشاعة لعيبه الذي لا علاقة له بما رُدَّ عليه فيه، وتَزَيّد وتكبّر ورتعُ عرضٍ حرام. ولو راجع الفقيه نفسه لرأى أنه منتصر لهواه لا لهداه، والله الحافظ الهادي المستعان.

ومن أكثر ما يفرّق بين الإخوان المماراة، فيقول الأول شيئًا فيخالفه صاحبه، فيدلي كلًّا بحجج تدعم مذهبه ورأيه، ثم يتعصب له وترتفع الأصوات، ثم يتحول محور الحديث لنقد ذات الشخص لا لقوله ورأيه، ثم تُستحضر المواقف البعيدة والقريبة، مع تلوينها بسوء الظنون وإظهارها بأقسى الألفاظ وأوحش التشبيهات، فتكون النهاية المؤسفة الفرقة والقطيعة والتسبب في عدم رفع الأعمال مع حرمان بركة الاجتماع ورحمته.



قال مالك: المراء يقسي القلوب ويورث الضغائن. وقال الآجري: عند الحكماء أن المراء أكثره يغير قلوب الإخوان ويورث التفرقة والوحشة بعد الأنس.

وأعظم من هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم: "أنا زعيم ببيت في رَبَض الجنَّة لمن ترك المِراء وإن كان مُحِقّا، وببيت في وَسَط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وببيت في أعلى الجنة لمن حَسنَ خُلُقَهُ". والمراء: هو الجدال. والربض: هو ما حول المدينة من العمارة ونحوها.







التعصب لغير الحق

التعصب لغير الحق آفة سوداء في ثوب المؤمن، وهي تابعة للهوى، ودالة على ضعف التسليم لله ووهن الإسلام في القلب، فالإسلام عقد على الاستسلام لله واتباع دينه جملة وتفصيلًا، وفي الساعة التي يولّي المرء ظهره للحق معنقًا في طِوَل باطله فقد أطلق بعض ما عقَده من شعب الإيمان، وبحسب إطلاقه وحنثه وخُلفِه يكون بعده وخذلانه وخيبته.






حبُّ الرئاسة

حب الرئاسة من فروع حب الدنيا، وهو آخر ما يسقط من رؤوس الصدّيقين، فترى الرجل من أزهد الناس في المال والمتاع حتى إذا هزهزه منصب أو رئاسة تهالك على تحصيله ونسي ما كان يوعظ به، والله المستعان.

ولحبها علامات: قال شيخ الإسلام: "وطالب الرئاسة - ولو بالباطل - ترضيه الكلمة التي فيها تعظيمه وإن كانت باطلا، وتغضبه الكلمة التي فيها ذمه وإن كانت حقا.

والمؤمن ترضيه كلمة الحق له وعليه، وتغضبه كلمة الباطل له وعليه؛ لأن الله تعالى يحب الحق والصدق والعدل ويبغض الكذب والظلم".







المزاح

المزاح لا بأس به على الندرة أو في المرّة تلو المرّة، بحيث لا يكون طبعًا معتادًا، ولا يكون كذبًا ولا مشتملًا على محرم ولا أذى، وقد كان صلى الله عليه وسلم يفاكه أصحابه ويداعبهم ويمازحهم لكنه لا يقول إلا حقًّا وصدقًا وبإدخال السرور والفرح بلا أذية.

أما إن طغى المزاح على المرء بحيث لا يكاد يخلو مجلسه من دعابات وفكاهات حتى يعرف بها فليس هذا بجيد، ويزيد الأمر إن استمرأ إضحاك الناس على الناس فهناك تُبذر بذور الضغائن السامة للإخوّة والماحقة للألفة والاجتماع، وكم من كلمة أراد بها صاحبها المفاكهة والممازحة نتجت حربًا وقتلًا، والعاقل من اتعظ بغيره.

وبالجملة فالمزاح لا بد أن يكون بقدر، وأن تحفظ له آدابه وأوقاته وأشخاصه، فليس كل وقت يصلح له ولا كل شخص يتقّبله ولا كل حال يكون مناسبًا له. وبالله التوفيق.

اتقوا الظُّلْم

واعجبًا للظالم كيف يهتني بنوم وهو يعلم نصر الله للمظلوم.

تنامُ عينُك والمظلوم منتبه يدعو عليك وعينُ الله لم تنمِ

كيف يطيب له نَفَسٌ وهو يسمع قول الجبار جل جلاله: (وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما)

أَمَا وَاللَّهِ إِنَّ الظُّلْمَ شُؤْمٌ وَمَا زَالَ الْمُسِيءُ هُوَ الظَّلُومُ

إِلَى دَيَّانِ يَوْمِ الدِّينِ نَمْضِي وَعِنْدَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ الْخُصُومُ

سَتَعْلَمُ فِي الْمَعَادِ إِذَا الْتَقَيْنَا غَدًا عِنْدَ الْمَلِيكِ مَنْ الظَّلُومُ

الظلم ظلمة في الدنيا وظلمات في الآخرة..

روى أحمد بسند صحيح أن النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ مِنْ أَخِيهِ، مِنْ عِرْضِهِ أَوْ مَالِهِ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ يُؤْخَذَ حِينَ لَا يَكُونُ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ، أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ، أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَجُعِلَتْ عَلَيْهِ"

لا تستعجل عقوبةَ الظالم فهي محيطة به. روى الشيخان أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: ((إن الله ليملي للظالم ، فإذا أخذه لم يفلته)) ، ثم قرأ : { وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد } [هود : ١٠٢]

كَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إلَى بَعْضِ عُمَّالِهِ : أَمَّا بَعْدُ فَإِذَا مَكَّنَك اللَّهُ الْقُدْرَةَ مِنْ ظُلْمِ الْعِبَادِ فَاذْكُرْ قُدْرَةَ اللَّهِ عَلَيْك ، وَاعْلَمْ أَنَّك لَا تَفْعَلُ بِهِمْ أَمْرًا مِنْ الظُّلْمِ إلَّا كَانَ زَائِلًا عَنْهُمْ - أيْ بِمَوْتِهِمْ - بَاقِيًا عَلَيْك -أَيْ عَارُهُ وَنَارُهُ فِي الْآخِرَةِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ آخِذٌ لِلْمَظْلُومِ حَقَّهُ مِنْ الظَّالِمِ، وَإِيَّاكَ إيَّاكَ أَنْ تَظْلِمَ مَنْ لَا يَنْتَصِرُ عَلَيْك إلَّا بِاَللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. { وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ } .

فكيف رأيت الحقّ قرّ قراره   وكيف رأيت الظلم آلت عواقبه

وتذكر حديث المفلس واعلم أن ميزان الآخرة منضبط على معيار واحد يميّز العدل من الظلم (الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ

سَرِيعُ الْحِسَابِ) غافر ١٧، عدل ينجي ويسعد، وظلم في الجحيم يركس { وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ }

ان معول الظلم ليهدم جبال الحسنات، وكلما اشتدت المظلمة اشتد الهدم.

ياصاح: ليت الحلالَ سلِم، فكيف الحرام؟ كان لبّان يخلُط اللبن بالماء، فجاء سيل فأهلك الغنم، فجعل يبكي ويقول: اجتمعت تلك القطراتُ فصارت سيلا. ولسان الجزاء يناديه " يداك أوكتا وفوك نفخ " .

كم بكت في تنعّمِ الظالِمِ عينُ أرملة، واحترقت كبد يتيم؟ (وَلَتَعلَمُنّ نَبَأَهُ بَعدَ حين) واعجبا من الظّلمةِ كيف ينسون طي الأيام سالف الجبابرة، وما بلغوا معشار ما أوتوا، أما شاهدوا مآلهم؟ (فكُلاً أَخَذنا بِذَنبِهِ) أما رحلوا بالندم؟ (فَما بَكَت عَلَيهِم السَماءُ والأرض).

ويحك، لا تحتقر دعاء المظلوم، فشَرار نار قلبه محمول بريح دعائه إلى سقف بيت الظالم، نباله تصيب، وبوعد الله لا تخيب. (وعزتي وجلالي لأَنصُرَنّكَ وَلَو بعدَ حين).

ويامن ظُلمت: اصْبِرْ عَلَى الظُّلْمِ وَلَا تَنْتَصِرْ، فَالظُّلْمُ مَرْدُودٌ عَلَى الظَّالِمِ، وَكِلْ إِلَى اللَّهِ ظَلُومًا فَمَا رَبِّي عَنْ الظَّالِمِ بِالنَّائِمِ.. وَمَا يَدٌ إِلَّا يَدُ اللَّهِ فَوْقَهَا.

شتان من بات وقلوب العباد عند ربها تدعوا له وتثني عليه، وبين من دموعهم ترفَع شكايتها بالدعاء عليه! وفي الصحيحين: "واتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ فَإِنَّها لَيْسَ بيْنَها وَبَيْنَ اللهِ حِجابٌ"

ربما تنام وعشرات الدعوات ترفع لك، من فقير أعنته، أو جائعٍ أطعمته، أو حزين أسعدته، أو مكروب نفست عنه.. وعند الله في ذاك الجزاءُ.

حُرمةُ الدماء المعصومة

الحمد لله وبعد: فقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم الناسَ من فتن آخر الزمان، وأمر المسلم بالاعتصام بحبل الله ودينه، وعدم الانسياق خلف الأهواء والفتن، فقال صلى الله عليه وسلم: " وإنَّ أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها. وسيُصيبُ آخرها بلاءٌ وأمورٌ تنكرونها، وتجيءُ فتنةٌ فيُرقّقُ بعضها بعضًا.. فمن أحبَّ أن يزحزحَ عن النارِ ويدخلَ الجنةَ، فلتأتِه منيَّتُه وهو يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ، وليأتِ إلى الناسِ الذي يحبُّ أن يُؤْتَى إليهِ " رواه مسلم.

ألا إن أعظم ذنب بعد الشرك بالله تعالى هو قتل النفس الحرام. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ [الإسراء: ٣٣].

وعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قالَ في حَجَّةِ الوداعِ: "هذا يومٌ حرامٌ وبلَدٌ حَرامٌ، فدماؤكم وأموالُكم وأعراضُكم عليكم حرامٌ مثلُ هذا اليومِ وهذا البلدِ إلى يومِ تلقونَه وحتَّى دَفعةٌ دَفَعها مسلِمٌ مسلِمًا يريدُ بها سوءًا، وسأخبرُكم مَنِ المسلمُ؛ من سلمَ النَّاسُ من لسانِه ويدِه،

والمؤمنُ من أمِنهُ النَّاسُ على أموالِهم وأنفسِهم، والمهاجرُ من هجرَ الخطايا والذُّنوبِ والمجاهدُ من جاهدَ نفسَهُ في طاعةِ اللَّهِ تعالى" رواه البزار بسند صحيح.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يزال المؤمن في فُسحةٍ من دينه ما لم يُصِب دمًا حرامًا»، أخرجه البخاري.

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: "إن من ورَطَات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها: سفك الدم الحرام بغير حِلِّه"، أخرجه البخاري.

بل قد حرَّم الله مجرد الإشارةَ إلى مسلمٍ بسلاحٍ أو حديدة، سواءٌ كان جادًّا أو مازِحًا، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وسلم: «لا يُشِر أحدُكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزِعُ في يده فيقع في حُفرةٍ من النار»، متفق عليه. وفي روايةٍ لمسلم: قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم: «من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنُه حتى ينزِع، وإن كان أخاه لأبيه وأمه».

إن القتل بغير حقٍّ جريمةٌ مُزلزِلة، وخطيئةٌ مُروِّعة، سواءٌ كان المقتول من أهل المِلَّة، أم كان من أهل العهد والذِّمَّة؛ فعن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لَزوال الدنيا أهونُ على الله من قتل مؤمنٍ بغير حقٍّ»، أخرجه ابن ماجه.

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من قتل مُعاهَدًا لم يَرَحْ رائحةَ الجنة، وإن رِيحها يوجد من مسيرة أربعين عامًا» أخرجه البخاري. وعند النسائي: «من قتل قتيلاً من أهل الذِّمَّة لم يجِد ريح الجنة».

والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا به.

١٤٣٧/٣/٢٠

إنّها.. سبعُ نعمٍ كبار!

تركوا التفّكر في أمور فلاحهم فكأنهم بجمودهم أصنامُ

العاقل الحازم الرشيد، المريدُ لنفسه الخلاصَ ثم الفلاحَ وحسنَ العاقبة لا بد له من وقفات يخلو بها مع نفسه، يتأمل وإياها مننَ ربه وآلاءَ معبوده..

وجّه الله عبادة للتدبر في آياته: (أفلا يتدبرون القرآن) وأرشدهم للتفكر في الخليقة: (ويتفكرون في خلق السماوات والأرض) والنهاية: (ربنا ما خلقت هذا باطلًا سبحانك فقنا عذاب النار) وقال حكيم الصحابةِ أبو الدرداء رضي الله عنه: تفكر ساعةٍ خيرٌ من قيام ليلة..

يا لَله! كم تحتَ هذه الكلمة من كنوزِ علمٍ وذخائرِ حكمة!

ألم تعلم أنك منغمسٌ حتى شعرِ رأسك في نعمٍ لا تستطيع إحصاءها.. مع هذا فأنت مأمورٌ بشكرها، ولكن من رحمة ربك بك أن جعل وجوبَ الشكرِ على قدر وُسعك وطاقتك، والأمر يسير بحمد الله.

قف الآن هنيهاتٍ متذكّرًا بعض نعم الحميد الكريم الوهاب عليك.. فالله يحب المتحدثين بنعمه، المتفكرين في آلائه.

ثَمّ سبعُ نعمٍ كبار..

أَولاها: نعمةُ الخلق.

إنها نعمةٌ مدهشةٌ عجيبة، فأحضر عقلك بين يديك وعد بذاكرتك لأبعدِ ما تستطيع، يومًا بعد يومٍ، وشهرًا بعد شهر، وسنةً بعد سنة حتى تقفَ عند عتبةٍ زمانيّة، لا تستطيع بذاكرتك اختراقَ حاجِزِها ولا كشفَ سِترِها..

مِن ذلك المكانِ الزمانيِّ.. اقفز بمُخيلتك إلى ما قبلَ خلقِك!

هناك في ذلك العالم السحيق لا تجدُ نفسك، قد وُجِدَ الكونُ وأنت غيرُ موجود..

ليس لك ذرّةُ وجود فيه.. لا جسدًا ولا روحًا.. ليس هناك منك أيها الفاني سوى العدم! مرّت أزمانٌ وأزمان وأحداثٌ في هذا الكون وأنت غيرُ موجودٍ فيه.. لا إله إلا الله. (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورًا).

بعد ذلك خلقك ربُّكَ ، وفطرك وبرأك، وسوّاك وأوجدك ولم تكُ شيئًا.. فاحمد الله واشكره على نعمة خلقِكَ، فهي خيرٌ للصالحين، وأكثرُ البشر عن شكرها.. غافلون.

ثانيةُ النعم: نعمةُ الاصطفاء الإنساني.

لمّا خلقك ربُّكَ.. اختارك لتكون مخلوقًا مُمَيّزًا فاضلًا كريمًا.. "ولقد كرّمنا بني آدم"

وتأمل ضدَّ ذلك، ما ذا لو أن اللهَ قد خلقك شجرةً تُرعى وتُقطعُ وتُرمى للنار، أو خلَقَكَ صخرةً، تَهوِي وتُكسَر، أو قطرة ماء في بحرٍ، أو ذرّةَ هواء، أو حيوانًا بهيمًا، أو طيرًا حائرًا، أو حشرة تائهة..!

اصطفاك الله من جميع أجناس مخلوقاته لتكون بشرًا مُمَيّزًا كريمًا، تستحقُّ رضاهُ وحبّه، وكرامتَه وجنته.. إن شكرته وأطعته.

ثالثةُ النعم: نعمةُ الإسلام.

وهي أعظم النعم بإطلاق، ومهما تصوّرتَ قدْرَ هذه النعمةِ فلن تطيق قدْرها، ويكفيك أن ترى شؤمَ الكفر وظلْمةَ الضلال، وبشاعة المآل، وسوء العاقبة والمُنقلب.

ألم تعلم أن نسبةَ دخولِ البشرِ للجنة هي واحد من كل ألف! اللهم سلّم سلّم..

في صحيح البخاري عن أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه قال: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ: "يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا آدَمُ، يَقُولُ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا



وَسَعْدَيْكَ، فَيُنَادِي بِصَوْتٍ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ. قَالَ: يَا رَبِّ، وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ. فَحِينَئِذٍ تَضَعُ الْحَامِلُ حَمْلَهَا وَيَشِيبُ الْوَلِيدُ (وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)

إن أكثر بني آدم لن يعودوا لمسكنهم الأول الذي أخرجوا منه وهو الجنة: (ولقد صدّق عليهم إبليس ظنّه فاتبعوه إلا فريقًا من المؤمنين) فهل أنت منهم؟!

سيغضبُ اللهُ في ذلك اليومِ غضباً لم يغضب قبله مثلَه، ولن يغضبْ بعده مثلَه.. فما ذا أعددت لغضبه من صالح العمل..

رابعةُ النعم: نعمةُ الاصطفاءِ المحمديّ.

وأبشر ببشرى الله لك، فقد جعلك من خير أمة أُخرجت للناس، وخصّك بأن تكون من أتباع النبي الخاتَمِ الكامِل.. فاسْعَدْ الآن وابتهج. فأنت من الأمة المرحومة، فلهذه الأمةِ من المزايا والخصائصِ ما ليس لغيرها، من مضاعفةِ الأجورِ والحسنات، والتجاوُزِ عن الخطايا والسيئات، ورحمةِ الله

لها ورفع الدرجات، كرامةً لسيدها نبيّ الرحمة والهدى صلوات الله وسلامه وبركاته عليه..

ولكلّ نبي دعوةٌ مستجابة فاستعجلَ كلُّ نبيٍّ دعوته، لكن نبيّك ادّخرها لك شفاعة عند ربك يوم القيامة.. فكن من أهل الإخلاص والاتّباع تنلْها بإذن ربك..

وما حملت من ناقةٍ فوق رحْلِها أبرَّ وأوفى ذمةً من محمدِ

ولا طلعت شمس النهار على امرئ تقيٍّ نقيٍّ كالنبي محمدِ

ولا لاحت الجوزاءُ شرقًا ومغربًا بأطيبَ من طيبِ النبي محمد

ولولا أن الله أرسله صلى الله عليه وسلم وبارك ووفّقه لكنت أنت ووالديكَ وكلَّ من تحب من حطبِ جهنم، لكن الله استنقذكم به من عَمَاية الضلالة لنور الإسلام والايمان، فاحمد الله على ذلك، واسأله المزيد من فضله، وألحَّ عليه، ألحَّ عليه بأن يُثبّتكَ على الحق حتى تلقاهُ وهو راض عنك.

إنك إنسان محظوظٌ متميزٌ بكونك من أتباع هذا النبي المُمَيَّز. فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أما ترضون أن تكونوا رُبُع أهل الجنة، فكبّر الناس. فقال: أما ترضون أن تكونوا ثُلُثَ أهل



الجنة، فكبّر الناس. فقال: أما ترضون أن تكونوا شطْرَ أهل الجنة" ثم وجدنا الله قد زاده على ما رجا من ذلك، فجعل أمته ثلثي أهل الجنة. رواه البخاري. وثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أهلُ الجنة يومَ القيامة عشرون ومائةُ صفٍّ، أنتم منهم ثمانون صفًّا"

ومن رحمته صلى الله عليه وسلم بأمته أنه كان يتلو قولَ الله تعالى في إبراهيمَ عليه السلامُ: "رب إنَّهُنَّ أضْلَلْن كثيراً من الناس فَمَن تَبِعني فإنَّه مِنِّي ومَن عصاني فإنك غفورٌ رحيم" وقولَ عيسى عليه السلامُ: "إن تعذِّبهُم فإنَّهم عبادُك وإن تغفر لهم فإنك أنتَ العزيزُ الحكيم" فرفع يديه قائلاً:" اللهم أمتي أمتي" وبكى، فقال الله عز وجل - وهو أعلم -:"يا جبريل اذهب إلى محمد فسلْه: "ما يبكيك؟" فاتاه جبريل فسأله، فأخبره النبيُّ صلى الله عليه وسلم، فقال الله تعالى: "يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له: "إنا سنرضيك في أمتك ولن نسوؤك" متفق عليه. "ولسوف يعطيك ربك فترضى". عليك بتأمل سيرته صلى الله عليه وسلم، وما فيها من أحواله وأوصافه وأخباره. واعلم أنّك كلّما استوعبت سيرتَه كلّما ازددت به شغفًا.. وحبًّا.. وشوقًا..

إنه يُحبّك ويشتاقُ لك، فهل لك مهجةٌ تُطيقُ الصدودَ يا صاح!

تسلَّى الناسُ بالدنيا وإنّا　　　لعمرُ الله بَعْدَك ما سَلَيْنا



والذي نفسي بيده لِو استغرقتَ عُمُرَكَ في الصلاةِ والسلامِ عليه ما أدّيتَ مِعشارَ حقّهِ عليك، مع ذلك فأكثر من الصلاةِ والسلامِ عليه ما اسطعت. ولقد أوصاك وبشّرك بقوله "إن أولاكم بي يوم القيامة أكثرُكم علي صلاة"

تكادُ حين تناجيكم ضمائرُنا يَقضي علينا الأسى لولا تأسِّينا

إن كان قد عزَّ في الدنيا اللقاءُ ففي مواقفِ الحشرِ نلقاكم ويكفينا

خامسةُ النعم: نعمةُ الهدايةِ للسنة.

إذ جعلك الله من أهل السنة والجماعة، لا من أهل الفُرقة والبدعة، هل هناك أجملُ.. من أن تبيتَ على مُعتقدِ رسول الله صلى الله عليه وسلمَ وصحابته الأبرار..

إن معتقدَ أهلِ السنة موافق للفطرة مريحٌ للنفس مبهجٌ للروح مغذٍّ للعقل، فليس فيه خرافةٌ ولا دجلٌ ولا شعوذةٌ، ولا تعقيدٌ ولا قرمطةٌ ولا سفسطةٌ.. بل هو الزُّلالُ الصافي للوحي، والخلاصةُ النقيةُ للرسالة.. والمهيَعُ السهلُ المُنيرُ للجنَّة، فاستمسك به.. وافرح به.. واثبت عليه.. يا رعاك الله.

سادسةُ النعم: نعمةُ الصلاح والاستقامة.

فما كُلُّ من عرف الحق عمل به، ولا كلُّ من عَلِمَ الهدى اهتدى، ولا كلُّ من اهتدى ثبت.. فافرح بصلاحِك واستقامتك وورَعِك وعفافِك، واسأل ربَّك المزيدَ من فضلِه.. ورحمتِه.. وتوبتِه.. وغفرانه.

سابعةُ النعم: النعمُ المتعلقة بالصحة والعافية في العقل والبدن والرزق.

تفكّر في نعمة العقلِ والإدراك وما فيه من الآلاء والمِنح، وفي الجسدِ وما فيه من العجائب والحِكَم، تأملِ القلبَ ونبضَه، والدمَ وجريانَه، والعظمَ وإحكامَه، والعَصَب ودقّتَه، والنَّفَسَ وراحتَه، والبصرَ ومُتعتَه، والسمع وضرورتَه.

أبحِرْ بخشوعٍ في تأملِ نِعَمِ الروح والعقل والجسد.. واهتف بقلبك: آمنتُ بك يا ربي.. حَنانيك خُذ بيدي..

اسبح في بحر التأمّل.. لنعم الكريم عليك، واحمده حمْد من عَرَف وخضَعَ وخشَع.. وامتلأ فؤادُه بالمحبّة والشكر والامتنان.. للوهاب الكريم الرحمن (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)

والآن: قد عرفتَ.. فالزم. وانتشِ بهذه النّعم، واغتبط وافرح بها، ولا فَرَح كالفَرَج بالله، لا فرح كالفرح بالله، ولا أُنسَ كالأنسِ بالله.. واشكرهُ

وَسْلهُ المزيد، فقد وعدك إن كنت من الشاكرين.. فقد وعدك إن كنتَ.. من الشاكرين.

وصلى الله وسلم وبارك على محمد عدد أنفاسِ أهلِ الجنة.

١٠| ١| ١٤٤٧



وصيةُ حبيبٍ

صح عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- أَخَذَ بِيَدِهِ وَقَالَ « يَا مُعَاذُ وَاللَّهِ إِنِّى لأُحِبُّكَ وَاللَّهِ إِنِّى لأُحِبُّكَ ». ثم قَالَ « أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لاَ تَدَعَنَّ فِى دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ أن تقُول اللَّهُمَّ أَعِنِّى عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ ». والحديث مسلسل بالوصية

ألا ما أعظمه من موصٍ وما أشرفها من وصية. حقيق بكل مؤمن أن يحفظها ويلزمها.

قال شيخ الإسلام: تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤالُ العونِ على مرضاته، ثم رأيتُه في الفاتحة في: "إياك نعبد وإياك نستعين" فالعون على الطاعة هو جماع الخير.

وقال عنه ابن القيم: كان يقول في سجوده وهو محبوس اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ما شاء الله -أي يلحُّ على الله بها ويكررها- وقال لي مرة: المحبوس من حُبس قلبه عن ربه تعالى، والمأسورُ من أسره هواه.





فرطّب قلبك ولسانك بهذا الدعاء الجامع وخاصة في صلاتك في السجود وقبل السلام.

إن مبنى الدين على قاعدتين: الذكرِ والشكر، قال تعالى: "فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون" وليس المراد بالذكر مجردُ الذكر باللسان بل بالقلب والجوارح، فالدين كله ذكر. وأما الشكر فهو القيام بطاعته والتقربُ اليه بأنواع محابه ظاهرا وباطنا.

وهذان الأمران هما جماع الدين، فذكره مستلزمٌ لمعرفته، وشكرُه متضمن لطاعته، وهذان هما الغايةُ التي خَلَق لأجلها الجنّ والإنس والسموات والأرض، ووضع لأجلها الثواب والعقاب وأنزل الكتب وأرسل الرسل. فحق الله أن يذكرَ فلا يُنسى ويشكرُ فلا يُكفر، وهو سبحانه ذاكرٌ لمن ذكره شاكرٌ لمن شكره. والذكرُ رأس الشكر، وإذا ذكر العبد نعمة الله تعالى عليه هاج من قلبه هائج الشكر، فالذكر والشكر جماع السعادة والفلاح.

وبالجملة فأنفعُ الدعاء طلبُ العون على مرضات الله، وأفضلُ المواهب إسعافُه بهذا المطلوب، وجميعُ الأدعية المأثورة مدارُها على هذا، وعلى دفعِ ما يضادّه، وعلى تكميله وتيسير أسبابه. وصلى الله وسلم وبارك على محمد وآله وصحبه.



شأن الرَّحِم

كان النضرُ بنُ الحارث العبدري شديدَ العداوة للإسلام فقتله رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد بدر فرثته أخته قُتَيلة، ومما قالته:

يا راكبًا إن الأثيل مظِنّة　　　من صبح خامسةٍ وأنت موفقُ

أَمُحَمَّدٌ يَا خَيْرَ ضَنْءٍ كَرِيمَةٍ　　　فِي قومها، والفحل فحلٌ مُعرِقُ

مَا كَانَ ضرَّكَ لَوْ مَنَنْتَ وَربَّمَا　　　مَنَّ الفتَى، وهُوَ المَغيظُ المُحَنَقُ

فالنضْرُ أقربُ مَنْ أَسْرتَ قَرَابَةً　　　وَأَحقُّهُم إن كان عِتقٌ يُعتقُ

ظَلتْ سُيُوفُ بني أَبِيهِ تنوشُهُ　　　لله أَرحَام هُنَاكَ تُشَقَّقُ

قالوا: فرقَّ لها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دَمعت عيناهُ، وقال: " يا أبا بكر لو سمعتُ شعرها ما قتلتُ أخاها" أي لقبل شفاعتها فيه. نعم فلا يهتز لصدق المشاعر سوى معادنِ الأحرار، وسيدهُم رسول الله صلى الله عليه وسلم.



هناك في داخل النفس الإنسانية ثمّ رغبةٌ في الخصوصية، وتأمل نفسك لو جلست في مكان عام، ثم جلس بقربك شخص لا تعرفه حتى كاد أن يلزقَ بك، فما ستحسّ به هو رغبتُك في الابتعاد عنه قليلًا لتتنفس الخصوصية.

وبما أن الإنسان لا مفرّ له من خُلطة البشر والاحتكاكِ بهم فمن الطبيعي أن يكون بينه وبين بعضهم نفرة ومشاحنة وربما قطيعة، لذلك شدّد الله الأمر في كتابه بوصل ما أمر به أن يوصل كحفظِ حق الجار وصلة الرحم ونحوِ ذلك.

ومن نفيس وصايا زينِ العابدين رحمه الله تعالى: يا بني لا تصحبنَّ قاطعَ رحم فإني وجدته ملعوناً في كتاب الله تعالى في ثلاثة مواضع. "فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله"

ولكلِّ من كانت بينه وبين رحمه قطيعة: تذكّر ليالي الجُمع.. قال رسول الهدى صلى الله عليه وسلم: " إن أعمالَ بني آدمَ تُعرضُ كلَّ خميسٍ ليلةَ الجمعة، فلا يقبلُ عملُ قاطع رحم " رواه أحمد بسند جيد. لذا فانتبه ألّا تكون قاطعًا فتُقطع! فمن وصل وُصِلَ ومن قطعَ قُطع، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "خَلَقَ اللَّهُ الخَلْقَ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهُم قَامَتْ الرَّحِمُ فَأَخَذَتْ بِحَقْوِ الرَّحْمَنِ، فقَالَ: مَهْ؟ قَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنْ الْقَطِيعَةِ. قَالَ: أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ

وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟ قَالَتْ: بَلَى يَا رَبِّ. قَالَ. فَذَاكِ" متفق عليه. وفي البخاري: "لا يدخلُ الجنةَ قاطعُ رحمٍ" وفي الصحيحين في حديث الصراط: "وترسل الأمانةُ والرحمُ فتقومان جَنْبَتَي الصراط يميناً وشمالاً".

أُخيّ: ألا تريدُ عمرًا طويلًا ورزقًا دارًّا؟ إن وصلُكَ لِرحمك مُؤدٍّ لذاك: "من أحب أن يُبسط له في رزقه ويُنسأ له في أثره فليصل رحمه" متفق عليه.

فإن قلتَ: كيف أصلُ رحمي وهم لا يستحقون؟ بل ولا سلامة منهم إلا بالبعد عنهم! قلتُ: بل الوصلُ يسير والأمر هيّنٌ بحمد الله، ولكن بشرط أن تفهم سرَّ سهولته، ألا وهو يقينُك أنكَ تتعاملُ مع الله لا معهم، وأنك تنتظر الأجر والرضى منه لا منهم، وتذكّر حديثين:

في البخاري: "لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ وَلَكِنْ الْوَاصِلُ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا" وفي مسلم أن رجلا قال: «يا رسولَ الله، إن لي قرابةً أصلِهُم ويقطعوني، وأُحْسِن إليهم ويُسيئُون إليَّ، وأحلُم عنهم ويجهلون عليَّ؟ قال: لئن كنتَ كما قلتَ فكأنما تُسِفُّهُم الملَّ، -وهو الرمادُ الحار- ولن يزالُ معك من الله ظهيرٌ عليهم ما دُمتَ على ذلك». فهل تريد أجمل من هذا.



أخي: اجعل صلةَ أرحامك من صلبِ اهتماماتك وأولوياتك، واجعل لها نفيس وقتك، والأمر يسهُل بالتعوّد.

وتذكّر أن الجنة تريد منك مهراً من الصالحات أم هل تريدُها مجّانًا؟!



(وقل رب ارحمهما)

قال صلى الله عليه وسلم عن أويسٍ القَرَني: "له والدة هو بها برٌّ، لو أقسم على الله لأبره" فبرُّه بأمه جعله مستجاب الدعوة.

وبرُّ الوالدين من أعظم أسباب الغفران.. قال الإمام أحمد: بِرُّ الوالدين كفارةٌ للكبائر.

وفي المسند أنَّ رجلاً أتى النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسولَ الله، إني أصبتُ ذنباً عظيماً،

-أي من الكبائر- فهل لي من توبة؟ قالَ: "هل لك مِنْ أمٍّ؟" قالَ: لا، قالَ: "فهل لك من خالةٍ؟" قال: نعم، قال: "فبِرَّها" قلتُ: لأن الخالة هي بقيّة الأم.

وقال رجل لعمر: قتلتُ نفساً- وهو اعظم ذنب بعد الشرك - قال: أمُّك حية؟ قال: لا، قال: فأبوك؟ قال: نعم، قال: فبِرَّه وأحسن إليه. ثم قال عمر: لو كانت أمُّه حيَّةً فبرَّها وأحسن إليها، رجوتُ أنْ لا تَطعَمهُ النارُ أبداً. وعن ابن عباس بمعناه أيضاً.

ألم تعلم أن برّ والديك أحبّ إلى الله من الجهاد، فِفِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّهُ أنه قَالَ: "قُلْت لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إلَى اللَّهِ؟ قَالَ: "الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا" قُلْت: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: "بِرُّ الْوَالِدَيْنِ" قُلْت: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: "الْجِهَادُ".

وفي حديث آخر لم يذكرِ الوالدين فقال العلماء لأنه لَيْسَ لِكُلِّ أَحَدٍ وَالِدَانِ.

فاحمد الله الذي أعطاك ما حرم منه غيرك.

ألا ما أعظم حقَّ الوالدين. ويكفي أن الله تعالى قد قَرِنَ حَقَّهما بحقِّه: (أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ) "ومن أدرك أبويه أو أحدَهما فلم يدخلاهُ الجنةَ فمات فدخل النار فأبعده الله قل: آمين فقلت: آمين"

وَلِمُسْلِمٍ: أَقْبَلَ رَجُلٌ إلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ أُبَايِعُك عَلَى الْهِجْرَةِ وَالْجِهَادِ لِيَبْتَغِيَ الْأَجْرَ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى، قَالَ: "فَهَلْ مِنْ وَالِدَيْك أَحَدٌ حَيٌّ"؟ قَالَ: نَعَم بَلْ كِلَاهُمَا حَيٌّ. قَالَ: "فَتَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنْ اللَّهِ"؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: "فَارْجِعْ إلَى وَالِدَيْك فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمَا". الله أكبر ولله الحمد. وقال: لَا يَجْزِي وَلَدٌ وَالِدَهُ إلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ".

وعند أحمدَ بسند صحيح أن رجلًا قال: إني جئت لأبايعُك وتركتُ أبويّ يبكيان قال: "فارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتَهما"

والعجب أنّ لهما حقًّا وإن كانا مشركين فكيف بالمؤمنَين الحنيفَين. يالَله ألهذا الحدّ وصل أمرُ البِرّ.

وتأمّل فقه مُحَّمَدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ في قوله: بِتُّ أَغْمِزُ رِجْلَيْ أُمّي، وَبَاتَ عَمِّي يُصَلِّي لَيْلَتَهُ، فَمَا سَرَّنِي لَيْلَتَهُ بِلَيْلَتِي. وقيل للحسن: إني أتعلم القرأن، وإن أمي تنتظرني بالعشاء، قال الحسن: "عشاء مع أمك تُقِرُّ به عينَها، أحب إلي من حجة تحجها تطوعاً".

ولمن رحل والده: ادعُ له واستغفر له وصِل أصحابه.. مرّ رجل من الأعراب بابن عمر فسلّم عليه عبدُ الله، وحملَه على حمار كان يركبُه، وأعطاه عمامة كانت على رأسه. فسُئل فقال: إن أبا هذا كان وُدًّا لعمر بن الخطاب، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن أبرَّ البرِ صلةُ الولدِ أهلَ وُدِّ أبيه" رواه مسلم.

فبرهما باب للجنة وعقوقُهما حفرةٌ إلى النار قال صلى الله عليه وسلم: "ملعونٌ من عقَّ والديه" رواه أحمد.



ولمن ثقُل عليه البر أقولُ: تَطْلُبُ الْجَنَّةَ بِزَعْمِك وَهِيَ تَحْتَ أَقْدَامِ أُمِّك، حَمَلَتْك فِي بَطْنِهَا تِسْعَةَ أَشْهُرٍ كَأَنَّهَا تِسْعُ حِجَجٍ، وَكَابَدَتْ عِنْدَ وَضْعِك مَا يُذِيبُ الْمُهَجَ، وَأَرْضَعَتْك مِنْ ثَدْيِهَا لَبَنًا، وَأَطَارَتْ لِأَجْلِك وَسَنًا، وَغَسَلَتْ بِيَمِينِهَا عَنْك الْأَذَى وَآثَرَتْك عَلَى نَفْسِهَا بِالْغِذَاءِ، وَلَوْ خُيِّرَتْ بَيْنَ حَيَاتِك وَمَوْتِهَا لَآثَرَتْ حَيَاتَك بِأَعْلَى صَوْتِهَا.

هَذَا وَكَمْ عَامَلْتهَا بِسُوءِ الْخُلُقِ مِرَارًا فَدَعَتْ لَك بِالتَّوْفِيقِ سِرًّا وَجِهَارًا، فَلَمَّا احْتَاجَتْ عِنْدَ الْكِبَرِ إلَيْك جَعَلْتهَا مِنْ أَهْوَنِ الْأَشْيَاءِ عَلَيْك، وَقَدَّمْت عَلَيْهَا أَهْلَك وَأَوْلَادَك فِي الْإِحْسَانِ وَقَابَلْت أَيَادِيهَا بِالنِّسْيَانِ، وَصَعُبَ لَدَيْك أَمْرُهَا وَهُوَ يَسِيرٌ، وَطَالَ عَلَيْك عُمُرُهَا وَهُوَ قَصِيرٌ، وَهَجَرْتهَا وَمَا لَهَا سِوَاك نَصِيرٌ.

ألا تخشَ أن تُعَاقَبُ فِي دُنْيَاك بِعُقُوقِ البنات وَالْبَنِينَ وَتخزى فِي أُخْرَاك بِالْبُعْدِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، يا هذا تذكر الوعيد (ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

لِأُمِّك حَقٌّ لَوْ عَلِمْت كَبِيرُ ... كَثِيرُك يَا هَذَا لَدَيْهِ يَسِيرُ

فَكَمْ لَيْلَةٍ بَاتَتْ بِثِقَلِك تَشْتَكِي ... لَهَا مِنْ جَوَاهَا أَنَّةٌ وَزَفِيرُ

وَفِي الْوَضْعِ لَوْ تَدْرِي عَلَيْهَا مَشَقَّةٌ ... فَمِنْ غُصَصٍ مِنْهَا الْفُؤَادُ يَطِيرُ

فآهٍ لِذِي عَقْلٍ وَيتَّبعُ الْهَوَى وَآهٍ لِأَعْمَى الْقَلْبِ وَهُوَ بَصِيرُ

فَدُونَك فَارْغَبْ فِي عَمِيمِ دُعَائِهَا فَأَنْتَ لِمَا تَدْعُو إِلَيْهِ فَقِيرُ

لا تجعل أمَّك مستودعًا لأحزانك، فأخبرها بما يسرّك لا ما ساءك فحزنها عليك أضعافُ أضعافِ حزنِك على نفسك.. فارحمها رحمك الله.

واعلم أن بر الوالدين ليس في طاعتهما فقط، بل البر الحقيقي هو فنُّ إدخالِ السرور عليهما بأي شيء كان.

وتذكّر أن غيرك قد حُرم من نعيم لقياهما، بموت أو غربة أو غيرها وودّ لو دفع سنة من عمره بالجلوس معهما ساعة من ليل أو نهار. فاعرف - يا رعاك الله - قدر نعمة الله عليك بوالديك.

وإني موصيك ببرِّهما برًّا خاصًّا لا يسبِقُكَ إليه سابق ولا يلحَقُكَ فيه لاحق.. دلّلهما وأظهر لهما بصدق حبِّك وشوقَك ولهفتك.. ولتكن بَهجة لقلبيهما وسرورًا وسعادة وأمنًا وكفاية.

لا تحزنهما بالانشغال عنهما بجوال أو غيره. أشركهما في كل دعوة صالحة، بل خصَّهما دونَك بدعَوات، ولا تنس في كل سجود أن تضرع لربك: رب ارحمهما كما ربّياني صغيرًا.

وثق أنك مهما فعلت وأحببت فلن تستطيعَ أن تصل لمستوى حبهما لك.. فحب الوالد لولده هو من النوع الذي لا يقاس ولا يوزن لأنه لا حدّ له.

وسيأتيك يومٌ لن يبق من والديك سوى الذكريات، فافعل اليوم ما تريد أن تتذكّره غدًا.

وإذا أردت أن تعرف قدر الوالدين فاسأل من فقدهما!





الابتلاءُ بالأسقامِ

الحمد لله حمدًا يليق بجميل فضله وعميم جوده وسابغ إحسانه، والصلاة والسلام والبركة على خيرته من خلقه ومصطفاه من عباده وخليله وكليمه نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان، أما بعد:

فليس للمؤمنِ مندوحةٌ عن التّفقُّه في سنن الابتلاء، وأنّ الله تعالى إذا أحب قومًا ابتلاهم، وأنّ أمرَ المؤمن كلَّه خير، فالحكيم سبحانه يبتلي عباده حتى يستخلص خُلاصتهم لخُلاصة كرامته. ولقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إنّ عِظَم الجزاء مع عظم البلاء، وإنّ الله تعالى إذا أحبّ قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط". وهذا صريح في حصول الابتلاء لمن أحبه الله تعالى. وكم من عبوديةٍ يحبها الله غرسها وأصلحها في قلب عبده بسبب مصيبة في دنياه. وحسبُكَ داءً أن تَصِحّ وتَسْلما.

وعن أبي يحيى صهيب بن سنان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد

إلا للمؤمن؛ إن أصابته سرّاءُ شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرّاءُ صبر فكان خيرًا له". فعليك براحلتَي الشكر والصبر -باركك الله تعالى-.

إن الحياةُ كلُها ابتلاء لقياس صلاحية الإنسان لسكنى الجنة أم لا، فالجنة هي لأحباب الله المؤمنين الصادقين الصابرين، فإذا ضعف أحدهم بخطيئة في دار الامتحان، ابتلاه ربه بتكديرٍ يرفأُ شقّ ثوبِ إيمانه، وبمصيبةٍ ترفعُ درجته، وتكفّر خطيئته، وتُنَبِّه قلبَه من غفلته. ففي كل عثرة في حياتك، ومنعطفٍ من عمرك، وخيبةِ أملٍ فيمن حولك؛ اهتف بنفسك: هذا ابتلاءٌ من ربك: (لننظر كيف تعملون) فتأملها جيدًا، فإن في طيّ المحنِ مِنحًا، وأتونُ الكَيْرِ يفْرُزُ صِدقَ اللجينِ من زيف النحاس، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

وكل أمرٍ قرّبك من ربك فهو خير، وكما قيل: يا بن آدم لقد بورك لك في حاجة أكثرت فيها من قرع باب سيدك. فتفاءل بالله وأحسن الظن به، واعلم أنه أشدّ من المصيبة انتظارها. وكثيرًا ما تكون النهايةُ عبارةً عن بداية جديدة، فالمتفائلُ يجعلها دَرَجًا لمجده، والمتشائم يُصيِّرُها قبرًا لهِمّته. ومن أجمل ما كتبه ابن القيم رحمه الله عبارة تستحق الوقوف الطويل في محراب تأملها: "يا بن آدم، كلٌّ يريدك لنفسه، إلا الله، فإنه يريدك لنفسك".

وكم لله من لُطْفٍ خفيّ يَدِقّ خَفَاهُ عَنْ فَهْمِ الذَّكِيّ

وَكَمْ يُسْرٍ أَتَى مِنْ بَعْدِ عُسْرٍ فَفَرَّجَ كُرْبَةَ القَلْبِ الشَّجِيّ

وكم أمرٍ تساءُ به صباحًا وَتَأْتِيكَ المَسَرَّةُ بالعَشِيّ

إذا ضاقت بك الأحوال يومًا فَثِقْ بالواحِدِ الفَرْدِ العَلِيّ

ومن أنواع الابتلاء الأمراض والأسقام التي يقدرها الله على من رحم من عباده، فالمريضُ المؤمنُ المدنف، ساكنُ النفس، لاهجٌ بحمد ربه بإنعامه عليه بهذا البلاء! ولكنّ غير الواثقين بربهم لا يعلمون حقائق كنوز الرضى وذخائرَ الثقة. إنه يقرأ في منشور فلاحه وصفًا للمرضيّ عنهم: (العابدون الحامدون السائحون) ويتدبر قول ربه: (والله يحب الصابرين) فتهفو نفسه الواثقة لمزيد من اليقين حتى يكون الخبر كالمعاينة. وكم من مريض أو مكروب أو مضرور يفتح الله له بابًا لمناجاته والأنس به حال كربه ومرضه، حتى إذا زال كَرْبُه، فَقَدَ معه كثيرًا من موارد ذلك الأنس والسرور والمناجاة.

والمؤمن يرى الأمراض نعمًا لا عذابًا، هو لا يطلبُها بل يسألُ ربّه العافية، لكن إن نزلت به صبر ورضي وشكر. فأسقامُ الجسد على ثلاثة أنحاء:



فمنها العارض ومن أعظمه الحُمّى -أمُّ مِلْدَمٍ -فهي تدخل كل عضو وتفورُ في كل مفصل، فهي كفارة طيّبة للخطيئات.

الثاني: أمراضٌ ملازمة تحل معه وترتحل، لا تفارقه في فراشه ولا طعامه ولا لذته ولا عبادته كالسكّر والضغط والعاهة ونحو ذلك من الأسقام التي يسمُّونها: الدائمة، فهي نِعْمَ الصَّاحبُ والرفيقُ في الطريق للآخرة، فالجسدُ يتأقلمُ ويتعايش معها على طول السنين، فلا يتأذى بها كشِدَة العارض النازل، مع ذلك فهي تنظّفُ صحيفته وتُنقّيها على مرّ الأيام من الذنوب، حتى إذا وافى العبدُ ربَّه إذْ الكثيرُ من خطاياه قد زالت بسبب تلك الأسقام في دنياه.

والثالث: الأسقام المُفضيةُ للوفاة بإذن الله تعالى، فمنها ما هو شهادةٌ لصاحبها، ومنها دون ذلك، وكلها خير ونعمة لمن احتسب الأجر ورضي بالله ربًّا مدبِرًا، وحمدَهُ على كل حال، وشكره على كل فضل. وبالجملة: فالمؤمن يعلم أنّ المصيبة كفارة للسيئات ورفعة للدرجات، ولا يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة. وقال إبراهيم المقري وقد رفسته بغلته فكسرت رجله: "لولا مصائب الدنيا؛ قدمنا على الله مفاليس".



والمرضُ لا يُقرّبُ الأجلَ، ولا الصحةُ تدفعُهُ، إنما هي أسبابٌ مجرّدة، أما المُسَبِّبُ الخلّاقُ الذي يُنزل الداء ويرفعُهُ ويُحيي ويُميت فهو الله وحده، فالمؤمن يبذل السبب وقلبه معلّق بالله تعالى. حتى من أصيب بمرض خطير كالسرطان فهو بين إحدى الحسنيين؛ شفاء أو شهادة بإذن الله، لأنّه إن لم يدخل فيه بالنص كالطاعون والمبطون ومريض ذات الجنب؛ فهو داخل بالمعنى للعلل التي ذكرها العلماء في توصيفهم لأمراض الشهادة.

ومن رحمة الله بعبده أن تأتيه رسلُ ربه كالأمراض الخطيرة، فتُلمحُ له بقرب رحيله إليه، فيستعد للقاء الله ويشتاق بتوبة وعمل، ويتخفّف من كدر الدنيا لراحة الآخرة، وينفض عن ظهره أوزار الخطايا ومظالم العباد، إنما الفاجعة بموت الفجأة للمفرطين الغافلين، والله المستعان.

إن المؤمن يفرح بالله ويرضى بقضائه، وإن السعيدَ من ولد آدم هو من كان عظيمَ الإيمان راسخَ اليقين رخيَّ البال بالقناعة، وهي الحياة الطيبة، والمؤمن ينتظر من الله أجر صبره وحمده، فعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا صلى بالناس، يخرُّ رجالٌ من قامتهم في الصلاة من الخَصاصة -أي من الجوع، وهم أصحاب الصفة - حتى يقول الأعراب: هؤلاء مجانين. فإذا صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف

إليهم، فقال: "لو تعلمون ما لكم عند الله تعالى، لأحببتم أن تزدادوا فاقة وحاجة". رواه الترمذي وصححه.

والله تبارك وتعالى يبتلي أولياءه حتى إذا ضاقت أمورهم فرّجها برحمته، وإن تعسّرت أحوالهم يسّرها بفضله، وإن أظلمت نفوسهم نوّرها بهُداه، وإن انقطعت سُبُلُهم وصلها بإحسانه، فهو طبيب عباده يبتليهم ليرفع درجتهم ويطهّرهم، وفرجه لهم عند حاجتهم أقرب إليهم من رمش عيونهم، فليس مع الله ضيعة. وغمسةٌ في الجنة تُنسي شقاء الدنيا كله!

يا صاحب الهم إن الهم منفرج   أبشر بخير فإن الفارج الله

وإذا بُليت فثق بالله وارض به   إن الذي يكشف البلوى هو الله

والله ما لك غير الله من أحد   فحسبك الله في كل لك الله

فالبلاء إن نزل معه الصبر والرضا فهو رحمة ونعمة، فإن قابله بجزع وتسخّطٍ فهو عذاب إلى عذاب. فكلُّ مصيبة ليست في الدين فهي نعمة في الحقيقة.

وأولياء الله مهما اشتدت بهم البلايا فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، وبالجملة؛ فالمبتلى في دنياه إن رُزِق الثقة فلا عليه ما يفوتُه من الحطام، ولْيعلم



أنّ الفرج أقرب له من مارِنِ أنفه، وكفى بالإيمان حظًّا، "ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون بالنبي إلى رحالكم".

فاشدُد يديك بحبل الله معتصمًا فإنّه الركن إن خانتك أركانُ

وليس على المؤمن أن يتمنى البلاء، بل عليه أن يسألَ الله العافية، فإن نزل بلاء صَبَرَ ورضيَ وحمد وشكر، فهو متوكل على ربه وراضٍ عنه قبل وقوع البلاء وأثنائه وبعد زواله، لا تزيده الابتلاءاتُ إلا يقينًا، ولا المصيباتُ إلا صبرًا، ولا المسرات إلا شكرًا وزُهدًا، وهو على الدوام يسأل ربَّه عونَهُ وتوفيقه وحفظه، والله لا يخلف وعده بإجابة من دعاه. وفي دعائكَ ربّك: لا تنس: اليقين.

وليس كلّ من ظنّ بنفسه الصبر والرضى وقت السعة والرخاء يكون كذلك وقت الضيق والشدة، فالنيّة قُلّبٌ، والعزائم تنفسخ، والعقل يعزُب، والعزيمة تخور، والنفس تضعف، إن لم يكن الله تعالى معه بلطفه وحفظه. فاستودِعْ نفسَك ومن تحبّ من لا تضيع لديه الودائع، وذلك الله وحده.

ولمّا بثّ الله الخلائق اختار لك هذا الزمان وهذا المكان ليكونا محل الابتلاء الإلهي لك، فكن خيرَ ذاكرٍ صابر حامد شاكر تائب مستغفر. واعلم أنّ

للمؤمن بحرٌ لا تكدره مصائب الزمان، إنه بحر الرضى بالله تعالى، فاغمِسْ كلَّ همّ لك في بحر الرضى بالله، حينها تنطفئ نيران المصيبة ببرد السلام. فليس مرادُهُ أن يُعذِّب، ولكن يَبتلي ليُهَذِّب.

دعِ المقاديرَ تجري في أعَنّتِها ... ولا تبيتنّ إلا خالي البالِ

ما بين غمضةِ عينٍ وانتباهتها ... يغيّر الله من حالٍ إلى حالِ

واعلم أنّ قدرَك إنْ لم تذهب إليه، جاء إليك. فكن لله، وبالله، ومع الله، وإلى الله؛ فهو الغاية وما سواه هباء، وهو الباقي وما سواه فناء، وهو الحقُّ وما سواهُ باطل، قال سبحانه: (وأن إلى ربك المنتهى) وقال: (وأن إلى ربك الرجعى) فمهما سلكتَ من دروب الحياة خيرًا أو شرًّا، سرورًا أو حزنًا، صحة أو سقمًا، شوقًا أو خوفًا؛ فإليه وحدهُ المنتهى.

وبعد؛ فاتق الله يا عبد الله، واحمد الله تعالى واشكره كثيرًا على أن فضّلك على غيرك تفضيلًا بالعلم به والفرح به والأنس به في وقتٍ ترى فيه من يفرّ من الله حال شدته وكربته، فلا يفزع للصلاة والدعاء، بل لسفر أو لهو أو مسكر (ألا بذكر الله تطمئن القلوب).

ويامن ابتلاك الله بسقم في جسدك عليك بالتالي:

أولًا: الرضى بمُرّ القضاء، فمن آمن بالله ربًّا، رضي بمقاديره عليه، وتيقّنَ أنّه يتقلّب في قدرته وحكمته ورحمته ولطفه، وأنّه منتظر للفرجِ في الدنيا وللأجر في الآخرة.

ثانيًا: الإلحاحُ على الله تعالى في الدعاء، فهو من أنزل الداءَ وهو وحده القادر على رفعه. قال تعالى: (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله). والتوحيد والتوكّل والدعاء هي أعظم علاج بإذن الله، قال ربنا: (وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) أي كافيه عما سواه.

ثالثًا: الرقيةُ الشرعية بالقرآن وبما صح من أدعية رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد قال الله تعالى عن القرآن: (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعا من خشية الله) فكيف بلحم ودم وروح. واعلم أن القرآن شفاءٌ لكل مرض بلا استثناء: جسديًّا كالحمى والسرطان أو روحيًّا كالعين والسحر. ولكن لا بد أن تتيقّن من أنّ القرآن شفاء، لا أن تأخذه على سبيل التجربة، والله تعالى قد قال في كتابه: (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) فقد وصفه بالشفاء المُوجِب للعافية بإذن الله، ولم يصفه بالدواء الذي قد ينفع وقد لا ينفع، فالقرآن كله شفاء، وبعضُ آياته أبلغُ في الشفاء كالفاتحةِ وآيةِ الكرسي والمعوِّذات.



والأفضلُ والأكمل أن يرقيَ المريضُ نفسَه فهي أبلغ وأقوى وأخلص. ومن صفات السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بلا حساب أنهم "لا يسترقون". أي لا يطلبون الرقية من غيرهم بل يرقون أنفسهم.

رابعًا: على المؤمن أن يأخذ بأسباب الشفاء من الأدوية المباحة، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد قال: "عباد الله تداووا ولا تداووا بحرام).

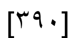
وفي الأمراض الوبائية ينبغي اتخاذ الأسباب التي أمر بها الشرع، فمن كان في البلد المطعون فلا يخرج منه فرارا منه، ومن كان خارجَه فلا يدخله، مع التوكل التام على الله تعالى في كل الأمور.

ولا بد للمؤمن في كل أمره من حراسة كنز إيمانه ويقينه وتعلقه بربه تبارك وتعالى، والدنيا بلا إيمان خراب بلقع، مهما تعطّفت ملذاتها، واشمخرّ ترفها، أما الإيمان فهو السبيل الوحيدُ الموصل لطيب العيش وسكينة الأبد وسعادة الخلود. وتذكّر أن الذنوب جراحات، ورب جرح وقع في مقتل. وإنّ الدنيا بطمعها وشدتها فانية نافدة، أما الذي عند الله من أجرٍ ورضوانٍ وجنة وكذلك من نار وعذاب؛ فهو الباقي الذي لا نفاد له، (ما عندكم ينفد وما عند الله باق).

تَفنى اللَذاذَةُ مِمَّن نالَ صَفوَتَها   مِنَ الحَرام وَيبقى الإثم وَالعارُ

تُبقي عواقِبُ سُوءٍ في مَغَبَّتِها   لا خَيرَ في لَذة مِن بَعدِها النارُ







الوسطيةُ دينُ المسلمين

الحمد لله وبعد: قال الله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا﴾ أي عدولاً خياراً, لأنهم الشهداء على الأمم, بل هم شهداء نوح عليه السلام حينما يكذّبه غدًا قومُه بنفيهم تبليغه رسالة ربه, ورسولهم صلى الله عليه وسلم شاهد عليهم. فهم موصوفون بالوسط بمعنى الخيار العدول, فكذلك نهجهم بين الغلاة والجفاة, فهم في موضوع الربوبية وسط بين الملاحدة النفاة, وبين الحلولية والاتحادية, وفي الأنبياء بين مكذبيهم ومؤلهيهم, هكذا اضطرد منهجهم في العقيدة والأحكام والتعاملات, والأخلاق والسلوك, فإذا رأيت طرفي نقيض فثَمّ حق في الوسط, يمثّله أهله من صادقي الاتّباع.

قال تقي الدين رحمه الله في رسالته الجامعة المانعة (الواسطية) واصفاً منهج أهل السنة والجماعة: «هم الوسط في فرق الأمة كما أن الأمة هي الوسط في الأمم, فهم الوسط في باب صفات الله تعالى بين أهل التعطيل الجهمية وأهل التمثيل المشبهة, وهم وسط في باب أفعال الله تعالى بين القدرية





والجبرية, وفي باب وعيد الله بين المرجئة والوعيدية من القدرية وغيرهم, وفي باب أسماء الإيمان والدين بين الحرورية والمعتزلة وبين المرجئة والجهمية وفي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الروافض والخوارج».

فردود الأفعال غالبًا لا تتّسم بالانضباط والموضوعية, بل يسوقها الانفعال ويقودها الغضب, فلا تتوقف في رد ما تراه باطلاً عند منطقة الحقّ, بل تتجاوزها إلى الطرف الآخر المخالف, وكلا طرفي قصد الأمور ذميم, وعلى سبيل المثال لما خرجت الوعيدية (الخوارج والمعتزلة) قابلتهم الوعدية (المرجئة), وكذا الجبرية ضد القدرية (النفاة), والتعطيل في مقابل التمثيل, والنصب مقابل الرفض, والغلو (المعاصر) في التكفير مقابل الإرجاء (المعاصر), والافتئات ضد السلطان مقابل التهالك عليه.. وهكذا.

هذا وإن أول نزاع في الإسلام كان قد وقع في مسألة الوعد والوعيد. وقد اشتمل الوحي بشقيه القرآن الكريم والسنة النبوية, على نصوص الوعد والوعيد, وأهل التوفيق والسعادة هم أهل السنة والجماعة الذين أعملوها جميعاً ولم يكذبوا بشيء منها, (كلٌّ من عند ربنا).

ومن تطبيقاتهم العملية لهذا المنهج السلفي المستقيم لتحقيق الوسطية والخيرية حديث الإمام الزهري رحمه الله؛ فقد حدّث الزهري بحديث الرجل الذي



أوصى بنيه بأن يحرقوه بالنار بعد موته ويذرّوا رماده.. الحديث متفق علي صحته, ثم أردفه بحديث المرأة التي دخلت النار في هرة.. الذي رواه مسلم, ثم قال رحمه الله مبيناً سبب روايته للحديثين في مجلس واحد: «لئلا يتكل رجل, ولا ييأس رجل». قال الإمام النووي رحمه الله معلقاً: معناه؛ لمّا ذكر الحديث الأول, وما فيه من سعة الرحمة وعظم الرجاء, فضمّ إليه حديث الهرّة الذي فيه من التخويف ضد ذلك؛ ليجتمع الخوف والرجاء.. وهكذا معظم آيات القرآن العزيز يجتمع فيها الخوف والرجاء.

هذا وإن ومن أشد ما جوبهت به الدعوة السلفية رميها بالتكفير بإطلاق, من قبل المرجئة أو ممن تأثر بهم, والمتتبع لتدوينات كثير من منتسبة السنة يفزع لرواج هذه الشبهة عليهم, وهذا من غربة العلم الأصيل والله المستعان, قال الشيخ سليمان بن سحمان رحمه الله:

ونبرأ من دين الخوارج إذ غلوا   بتكفيرهم بالذنب كل موحد

وظنوه ديناً من سفاهة رأيهم   وتشديدهم في الدين أي تشدد

ومن كل دين خالف الحق والهدى   وليس على نهج النبي محمد

وحينما قيل للشيخ حمد بن ناصر بن معمر رحمه الله: إنكم تكفرون الناس بالمعاصي, قال: «ليس هذا من قولنا بل هذا قول الخوارج الذين يكفرون بالذنوب, ولم نكفر أحداً بعمل المعاصي, بل نكفر من فعل المكفرات كالشرك بالله أن يعبد معه غيره...»

فباب التكفير غليظ, كما أن باب الإرجاء سرب مهلك, فالمكفرات محددة في الشرع, ولها ضوابط وشروط وموانع, فلا نتوقف عن تكفير من قام كفره وبلغته الحجة الرسالية, كما لا نخوض التكفير بلا ضابط ولا علم, وكل ذلك بدلائل الشريعة لا بالهوى والتعصب.

ملاك القول: أن كل عمل فلشيطان منه حظان لا يبالي بأيهما فاز, إما تخذيل عن طاعة فيقع العبد في التقصير, أو تنطع فيها فيركب قلائص الغلو. وكلا طرفي قصد الأمور ذميم.

ومضة: أحيانًا نظن أننا ننصر قضية ما ونعلي شأنها، بينما نحن في الحقيقة نظلمها ونحط منها! وذلك بعرضها بشكل ضعيف مع تسطيح الردود على ما يورد عليها.

٦/ ١٠/ ١٤٣٥



يا معاذ.. ليكن أول ما تدعوهم إليه أن يوحدوا الله

الحمد لله وبعد: فتوحيد رب العالمين, وإله السماوات ولأرضين, هو تحقيق للشهادتين, وهو أعظم التكاليف بإطلاق, كما قيل: أمرٌ هذا شأنه؛ حقيق أن تُثنى عليه الخناصر, ويُعضّ عليه بالنواجذ, ويقبض فيه على الجمر, ولا يؤخذ بأطراف الأنامل, ولا يؤخذ على فضلة, بل يجعل هو المطلب الأعظم وما سواه إنما يُطلب على الفضلة. ومن لطف الله ورحمته أن جعل حروف لا إله إلا الله كلها لسانية ليس منها حرف شفهي, كي يسهل نطقها على المحتضر, «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة» رواه أبو داود وعند الشيخين مرفوعاً: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها».

والتوحيد هو حقيقة الإسلام الذي جاء به نبينا صلوات الله وسلامه عليه, قال الإمام المجدد في الأصول الثلاثة: «...وهذا دينه, لا خير إلا دل الأمة عليه، ولا شر إلّا حذرها منه، والخير الذي دلها عليه؛ التوحيد، وجميع ما يحبه الله ويرضاه. والشر الذي حذرها منه؛ الشرك وجميع ما يكره الله ويأباه».



وكلمة التوحيد قامت بها السماوات والأرض, وخُلق من أجلها الخلق, ونصبت من أجلها الموازين, وقام لأجلها سوق الجنة والنار, وأسست بها الملة, وجردت لأجلها سيوف الملة.

قال الشيخ حمد بن عتيق في إبطال التنديد: «توحيد الألوهية أول واجب على المكلف, وقد أفصح القرآن فيه كل الإفصاح, وأبدى فيه وأعاد, وضرب لذلك الأمثال, وفيه وقعت الخصومة بين الرسل وأتباعهم» وبوّب الإمام المجدد في كتاب التوحيد (باب من حقق التوحيد دخل الجنة بلا حساب ولا عذاب) وفي حاشية الشيخ عبد الرحمن بن قاسم على ذلك الباب: «تحقيق التوحيد قدر زائد على ماهية التوحيد, وتحقيقه من وجهين؛ واجب ومندوب؛ فالواجب تخليصه من شوائب الشرك والبدع والمعاصي, فالشرك ينافيه بالكلية, والبدع تنافي كماله الواجب, والمعاصي تقدح فيه وتنقص ثوابه. والمندوب هو تحقيق المقربين الذين تركوا مالا بأس فيه حذراً مما فيه بأس, وحقيقته انجذاب الروح إلى الله فلا يكون في قلبه شيء لغيره».



وتأمل كيف كان التهليل – وهو شعار التوحيد - من أعظم مكفرات الذنوب, قال شيخ الإسلام: «التهليل يمحو أصول الشرك, والاستغفار يمحو فروعه».

والدعوة إلى التوحيد هي مهمة المرسلين وأتباعهم, ومن أجلها حصل الافتراق العظيم بين الرسل وأقوامهم المكذبين. قال عليه الصلاة والسلام: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً» رواه مسلم. وقال لعلي رضي الله عنه لما بعثه إلى خيبر: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم» متفق على صحته.

وشريعة الإسلام شديدة في التوحيد, سمحة في الأحكام, كما جمعهما حديث: «بعثت بالحنيفية السمحة» رواه أحمد. (حنيفية) أي: في العقيدة ففيها التشديد, فقد قال للذي قال: ما شاء الله وشئت: «أجعلتني لله نداً» رواه أحمد والنسائي. (السمحة) أي في التشريع «صلّ قائماً فإن لم تستطع فقاعداً...» رواه البخاري.

وفي الدعوة إلى التوحيد قال الحسن البصري بعدما قرأ هذه الآية: «هذا حبيب الله, هذا ولي الله, هذا صفوة الله, هذا خيرة الله, هذا أحب أهل



الأرض إلى الله, أجاب الله في دعوته, ودعا الناس إلى ما أجاب فيه من دعوته, وعمل صالحاً في إجابته». رواه عبد الرزاق عن معمر.

ولمّا اتهم بعض الناس إمام الدعوة بأنه طالب دنيا أجابهم بكتّاب وضح فيه التوحيد وضده, ثم قال: ولو كنتم تعلمون حقيقة ما دعوتكم إليه لكنت أغلى عندكم من آبائكم وأمهاتكم وأبنائكم, ولكنكم قوم لا تعقلون!

وشرطا الدعوة؛ الإخلاص والمتابعة. وصفات الداعي؛ الفقه؛ ليعلّم على بصيرة, والرفق؛ وهو أقرب الطرق لنيل المقصود, والحلم؛ للصبر على الأذى في طريق الأنبياء وأتباع الأنبياء. وشرط التمكين للأمة إنما هو التوحيد ﴿يعبدونني لا يشركون بي شيئًا﴾

وضده الشرك, وهو أظلم الظلم, وأقبح الذنوب ﴿إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾

واعلم أن تهوين شأن الشرك الأكبر في غاية الخطورة, فلو أن رجلاً يقوم الليل, ويصوم النهار, ويحج كل عام, ويعتمر كل شهر, ويتصدق بكل ماله, ويجتهد في أعمال البر, ثم وقع في شرك أكبر؛ كدعاء الموتى, والاستغاثة بهم, ونحو ذلك, وقد قامت عليه الحجة الرسالية, فعمله حابط, وجهده خائب,



وسعيه مردود, عياذاً بالله تعالى: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورًا﴾ فالشرك الأكبر إذا طرأ على الإيمان فإنّه ينقضه بتمامه, كما الحدث في الطهارة يبطلها.

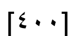
وليس العمل بنافع مالم يسلم من نواقضه, وأعظمها الردة عن دين الله, لذلك لمّا احتج بعضهم على شيخ الإسلام إبّان دخول التتر الشام بأن التتر مسلمون ويشهدون شهادة التوحيد! رد عليهم الشيخ بأنهم نقضوا ذلك, وقال: إن رأيتموني في ذلك الجانب ـ أي صف التتار ـ وعلى رأسي مصحف منشور فاقتلوني.

فمسألة البراءة من المشركين عظيمة الخطر, جليلة القدر, عزيزة المطلب, وأعظم الناصحين للأمة هم من يغرسون أصول التوحيد وتوابعه فيها, ويهدمون الشرك وفروعه, ويحاربونه بالحجة والبيان والسيف والسنان, فإذا استقام توحيد الأمة انتظمت لها بقية الأمور, وساغ الخلاف والاجتهاد فيما دونه مما يعذر فيه المقلدون. لذلك لما أشار بعض تلاميذ شيخ الإسلام عليه أن يصنّف في الفقه ـ أي العمليّات ـ فيما نقله البزار, أجاب بأن أحكام الفقه أمرها قريب, وإذا قلد المرء أحد الأئمة فيه فلا حرج عليه, ولكني رأيت أصول الدين قد تنازعها الناس.

فعلى الناصح الحازم أن يعتصم بالعروة الوثقى والحبل المتين, وأن يوقن أنه لا يستقل عن توفيق ربه طرفة عين, فلو وكله الله إلى نفسه ضاع وهلك, والتوحيد أشد الأشياء نزاهة وحساسية, فأقل شوب يجرحه ويشوه صفاءه, وهو ضياء ونور في القلب, يشع على النفس طمأنينة وعلى المستقبل أمنًا وفلاحًا.

ومضة: قال واعظ الإسلام عبد الرحمن بن الجوزي: «وحّد زيد بن عمرو وما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم, وكفر ابن أُبيّ وقد صلّى القبلتين! فيا من هو من عسكر الرسول! أيحسن منك كل يوم هزيمة؟!

ومن أراد من العمّال أن ينظر قدره عند السلطان فلينظر ماذا يوليه, فيا أقدام الصبر احملي فقد بقي القليل, ويا أيها الراكب قد علمت أين المنزل فاحد لها تسر».



(لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ)

الحمد لله وبعد: فالأنعام سورة عظيمة من القرآن العظيم, وجُلُّها في ترسيخ المعتقد الحنيف وبيان صفات الجليل الجميل سبحانه, وقد اشتملت من القوارع والزواجر ما فيه كفاية للمؤمنين, روى الطبراني رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "نزلت سورة الأنعام بمكة ليلًا جملة واحدة, حولها سبعون ألف ملك يجأرون بالتسبيح" حسّنه ابن حجر. ومن قرأ صدرها بتدبر لم يملك قلبه إلا أن يخفق رَهَبًا وإجلالًا ومحبة ورجاءً لله رب العالمين.

وقد بين الله في هذه السورة الجامعة سنة كونية جعلها ناموسًا للبشرية بعامّة, وهي تكشف البُعد القِيَمي لفضيلة الشكر مع توضيح عاقبة ضده من المحق والسحق بعد الإمهال والاستدراج, وأن الرزايا الدنيوية هي في حقيقتِها تنبيهات للمؤمن كي يقشع عن قلبه غبار المعصية وقَتَرَ الخطيئة ويرجع لطمأنينة الطاعة وسكينة الإيمان, قال تبارك وتعالى: (ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون) كم نحن بحاجة ملحة لمثل هذه الجرعات الإيمانية التي تحقن في قلب المؤمن حب التوبة





وعدم الركون للزائلة والاعتبار بمن غبر والاعتصام بالله تعالى والضراعة إليه والانكسار بين يديه. فما أقرب العبد من رحمة ربه إذا ألقى لربه مقاليد أموره وتبرأ من الحول والطول إلا به وابتهل إليه ابتهال المضطر الملهوف, واعترف بذنبه وخضع وخشع.

البأساء هي الفقر وضيق العيش, أما الضراء فهي الأسقام والآلام, والتضرع هو الدعاء الملحّ مع الافتقار والانكسار, وتلك المحن عتاب لطيف لتثوب الأمم لربها عن معصيته, فابتلاهم بالشدة ليضرعوا إليه فلما لم يفعلوا ابتلاهم بالنعم, وهذا من المكر بهم, وهذا الاعتبار للفرد وللجماعة, ثم قال الله تعالى: (فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون) وهنا إغراء وتوبيخ, أي فهلّا إذ ابتليناهم وامتحنّاهم بذلك عادوا إلينا بالتوبة والندم والاعتراف؟! ولكن الحاصل أنّهم أصروا على تنكّب محجّة التوابين وبدلًا من توبتهم ازدادوا جرمًا وكفرًا فعوقبوا بالرّان والقسوة على قلوبهم, وأبعد القلوب عن الله هو القلب القاسي, ومن لم تلينه مواعظ القرآن وتغير الأحوال فلينتظر الملّين الأعظم بنار تلظّى, عياذًا بوجه الله تعالى.



وإن من أشد العقوبات على الذنب أن يُبتلى المذنب بذنب آخر فتجتمع عليه حتى تقسّي قلبه وتوبق مثواه! ويزيّن الشيطان عملَه السيّء حتى إذا وافاه غدًا وحقّت الحقائق وذابت الشهوات وانقشعت غيوم الغفلات تبرأ منه!

ثم قال الله تعالى: (فلما نسوا ما ذكّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) أي فلمّا تركوا الحق خلفهم وأعرضوا ابتلوا بفتح الدنيا ولذتها الزائفة ولحظتها الزائلة, فأصاب سكرُ الغفلة قلوبهم في مقتل, وفرحوا بسحابة صيف مارّة, وتباشروا بلعنةٍ في لباس نعمة! فأتاهم العذاب بغتة فاصطلم نعيمهم وسحق دنياهم, وألحقهم بنار الأبد فما أشقاهم! والمُبْلِسُ هو الآيس من كل خير, وأشد العذاب ما كان بغتة. فعلى الناصح لنفسه أن يسيء الظن بنفسه ويحسن الظن بربه. قال قتادة رحمه الله: بغتَ القومَ أمرُ اللهِ, وما أخذ الله قطُّ قومًا إلا عند سلوتهم ونعمتهم وغِرَّتهم, فلا تغترّوا بالله. وقال الحسن رحمه الله: من وُسّع عليه فلم ير أنّه يُمكر به فلا رأي له. وقال إسماعيل بن أبي رافع رحمه الله: من الأمن من مكر الله إقامة العبد على الذنب يتمنى على الله المغفرة.



وقد ثنّى الله هذه الموعظة في سورتي الأعراف والمؤمنون قرعًا لقلب كل ناصحٍ لنفسه مريدٍ سعادتها لأبدِ الأبد, ففي سورة المؤمنون قال سبحانه: (ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) وفي الأعراف: (وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضّرّعون) فلم يضرعوا لربهم فأمهلهم وأملى لهم, ثم استدرجهم بإدرار الأرزاق عليهم ورفع بلاء الدنيا عنهم فقال: (ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا) أي كثر عديدهم وزاد نفرهم وانبسط نعيمهم فطغوا ولم يخضعوا وكفروا ولم يشكروا (وقالوا قد مسّ آباءنا الضراء والسراء) أي هذا فعل الأيام وما نحن إلا كغيرنا ممن سبق, فكانت سنة الله أمامهم ومن فوقهم فغدوا كأمس الدابر فجأة: (فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون)

ثم قال سبحانه بعد تحذير الناس من عذابه بياتًا أو ضحى: (أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) أشهد أنهم خاسرون كل الخسار, عياذًا بالله من مكرِه, وفي المسند بسند حسّنه الأرنؤوط أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وبارك قال: (إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج) وقال الحسن: المؤمن يعمل بالطاعات وهو



مشفق وجلٌ، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن. اللهم عفوك وغفرانك ورحمتك.

وبعد: فهلّا نظر كل منا لنفسه ونقدها نقد بصير، واستعان بالله في هدايتها لتكون مطمئنة للحق علمًا وعملًا، ساعية لبحبوحة الجنة وفردوسها الأعلى، فالجنة تريد عملًا لا كسلًا وجِدًّا لا لعبًا، وهي يسيرة على من يسرها الله له، وليس بين ولي الله وبينها إلّا أن تخرج الروح من الجسد، مالم تحبس في كبيرة أو دَيْنٍ. وكل نعيم دونها غرور، وكل ساعة في رياضها سرور، (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة).

وخيرًا نفعل لأنفسنا إن أصغينا إلى مواعظ القرآن، فالحياة تنحسر عنا شيئًا فشيئًا حتى يحين رحيلنا الأخير، اللهم اجعله لجنات النعيم.

ومضة: هل رأيت وجه الموت بحادث أو مرض ونحوه ثم توارى عنك؟ اعلم أنها رسالة من الدار الآخرة وبرقية من البرزخ فاجعلها منك على ذُكرٍ وللحميد شاكرًا حامدًا محبًّا.

٢٠ رمضان ١٤٣٥



رقيقةُ المجاهدين

لابن القيم رحمه الله تعالى

الحمد لله معزِّ من أطاعه وناصرِه, ومذلِّ من عصاه وخاذِلِه, جعل الجلال والجمال هالةً على رايات المجاهدين, والصلاة والسلام والبركة على من بعثه الله هاديًا مجاهدًا مبشّرًا نذيرًا, أما بعد:

فما بال أقوم يرومون إبطال ذروة سنام الإسلام بذريعة إسقاط مدّعِي الجهاد, فيهدم الأصل التالد لشجرة الجهاد بحجة كسر عودٍ دخيل عليها, ويغلق باب القتال في سبيل الله عامّة بشبهة سدّ الطريق على غلاته الذين أخذتهم صولته وحماسته ومعمعان لهيبه عن حسن متابعة إمام المجاهدين الذي لا يقبل الله جهادًا إلا ما كان على شرعته وسنته, ولا يدخل أحدٌ من أمته على الله إلا من بابه وحسن التأسّي به, فالقتال في سبيل الله عبادة, وشرطا قبول العبادة الإخلاص والمتابعة, والحماسة مالم تُضبط بالوحي فهي وبال.



يا قوم: متى كان الناس معيارا للشريعة؟! ومتى كانت حروبنا ضد الخوارج مانعة من قتال الكفرة؟!

الجهاد باق إلى قيام الساعة بنا أو بغيرنا " وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم" وفريضة الوقت هي إقامته وبيان حدوده وضوابطه وأحكامه لا هدمه وإبطاله.

والخوارج باقون, ومن لف لفهم من البغاة والظلمة وقطاع الطرق ومتصيدة الأخطاء باقون كذلك, والعبرة ليست بديموتهم في ميدان الابتلاء, بل في المصلحين لما انثلم من بناء الجهاد والمجددين لما اندرس من معالمه ونافخو روح الحماسة الإيمانية في صدور أهله, فما تركه قوم إلا ذلوا وأُديل عليهم وأُبدلوا.

وكما يُقاتل الكافر المحارب بأمر الشريعة؛ فكذلك يقاتل الخارجي المارق, فهم شرّ قتلى تحت أديم السماء, فهم مبدّلةٌ متهوّكة غلاة. قال الإمام أحمد رحمه الله: صح الحديث في الخوارج من عشرة أوجه وقد رواها مسلم في صحيحه وروى البخاري منها ثلاثة أوجه حديث علي وأبي سعيد الخدري وسهل بن حنيف, وفي السنن والمسانيد طرق أخر متعددة. وقد قال صلى الله عليه وسلم في صفتهم (يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم



وقراءته مع قراءتهم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية. أينما لقيتموهم فاقتلوهم; فإن في قتلهم أجرا عند الله لمن قتلهم يوم القيامة; لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد).

هذا وإن الحرب العوان معهم أو مع من أُمرنا بحربهم ليست شرًّا محضا وإن احترق بِأُتُونها الأبرياء, بل هي كَيرُ امتحانٍ لمعادن الرجال, ومعيار دقيق لصدقهم مع ربهم "الم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين" وفي حديث صاحب السهم لما خر شهيدًا وقد أصابه السهم في ذات المكان الذي رغبه: "صدق الله فصدقه الله" رواه النسائي بسند صحيح في قصة شريفة.

وروى الإمام أحمد بسند صحيح حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده لا شريك له, وجعل رزقي تحت ظل رمحي, وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري, ومن تشبه بقوم فهو منهم" ومن فروعه الرباط في سبيل الله, ويكفيه أن أجره مستمر بازدياد وهو في قبره, فعن سلمان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "رباط يوم وليلة



خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات فيه جرى عليه عمله الذي كان يعمل, وأجري عليه رزقه, وأمن من الفتان" رواه مسلم, وعن سهل بن سعد رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها" متفق عليه.

ألا ما أصدق وأعطر آهات الراغبين في الانتظام في سفر الخالدين من الذين أنعم الله عليهم.

لئن قرّب الأبرارُ في العيد أنعُماً   وَضَحَّوْا لمولاهم بعيراً فَمَا ليا؟

فيا ربِّ فاقبلها قرابينَ راحتي   فئاماً من الكفار أضحتْ بَوَاليا

أيا مبتغي الفردوس عجّل بصارمٍ   وكن صادق الإقبال عند التلاقيا

فإن تحيَ عشت العز في كل لحظةٍ   وإن كانت الأخرى ستلقى المراقيا

فأسأل ربّي أن تكونَ منيّتي   بعيداً عن الأوطان للشّرك غازيا

فخذ من دمائي يا سميعاً لدعوتي   فما أطيب الآلام إن كنت راضيا

لئن عَزّ ديني واستبيحت جوارحي   فأين مقام العزّ إلا مقاميا؟



إن الحديث عن الجهاد والنصر والاستشهاد لَيسعدُ النفسَ المؤمنة ويهزّها طربًا وأُنسًا, ومن قرأ القرآن والسنة رأى أن الجهاد بأنواعه محورٌ هامّ يقوم عليه ساق الإيمان بالله وبكريم موعوده. وقد تكلّم العلماء كثيرًا فضائله وبيان منزلته وتفاصيل أحكامه, وذهب جمع إلى أنه أشرف النوافل بإطلاق, ومهما كثر عديد القُربِ فيبقى منها لذروة السنام ذروة السنام!

ومن أمثل ما رأت عيني صحائف خطتها يراعة ابن القيم رحمه في زاد المعاد في كلامه عما بعد الهجرة وتدرج الشريعة في فريضة الجهاد, ويكأنما يصهل بها في محتدم الطعان ويهتف بها لمن رام نعيم الجنان.

قال الإمام ابن القيم في الزاد (٦٣-٨٠) - بتصرف واختصار -:

فلما استقر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، وأيده الله بنصره بعباده المؤمنين الأنصار، وألف بين قلوبهم بعد العداوة والإحن التي كانت بينهم، فمنعته أنصار الله وكتيبة الإسلام من الأسود والأحمر، وبذلوا نفوسهم دونه، وقدموا محبته على محبة الآباء والأبناء والأزواج، وكان أولى بهم من أنفسهم، رمتهم العرب واليهود عن قوس واحدة، وشمروا لهم عن ساق العداوة والمحاربة، وصاحوا بهم من كل جانب، والله سبحانه يأمرهم بالصبر والعفو والصفح حتى قويت الشوكة, واشتد الجناح، فأذن لهم حينئذ في



القتال، ولم يفرضه عليهم، فقال تعالى: (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير) [الحج : ٣٩] .

ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقال: (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم) [البقرة : ١٩٠] .

ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة، وكان محرما، ثم مأذونا به، ثم مأمورا به لمن بدأهم بالقتال، ثم مأمورا به لجميع المشركين، إما فرض عين على أحد القولين، أو فرض كفاية على المشهور.

والتحقيق أن جنس الجهاد فرض عين إما بالقلب، وإما باللسان، وإما بالمال، وإما باليد، فعلى كل مسلم أن يجاهد بنوع من هذه الأنواع.

أما الجهاد بالنفس ففرض كفاية، وأما الجهاد بالمال ففي وجوبه قولان: والصحيح وجوبه؛ لأن الأمر بالجهاد به وبالنفس في القرآن سواء، كما قال تعالى: (انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) [التوبة : ٤١] وعلق النجاة من النار به ومغفرة الذنب ودخول الجنة فقال: (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم



وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم) [الصف : ١٠] وأخبر أنهم إن فعلوا ذلك أعطاهم ما يحبون من النصر والفتح القريب، فقال: (وأخرى تحبونها) [الصف : ١٣] أي: ولكم خصلة أخرى تحبونها في الجهاد، وهي: (نصر من الله وفتح قريب) وأخبر سبحانه أنه: (اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) [التوبة : ١١١] وأعاضهم عليها الجنة، وأن هذا العقد والوعد قد أودعه أفضل كتبه المنزلة من السماء، وهي التوراة والإنجيل والقرآن، ثم أكد ذلك بإعلامهم أنه لا أحد أوفى بعهده منه تبارك وتعالى، ثم أكد ذلك بأن أمرهم بأن يستبشروا ببيعهم الذي عاقدوه عليه، ثم أعلمهم أن ذلك هو الفوز العظيم.

فليتأمل العاقد مع ربه عقد هذا التبايع، ما أعظم خطره وأجله، فإن الله عز وجل هو المشتري، والثمن جنات النعيم والفوز برضاه، والتمتع برؤيته هناك. والذي جرى على يده هذا العقد أشرف رسله وأكرمهم عليه من الملائكة والبشر. وإن سلعة هذا شأنها لقد هيئت لأمر عظيم وخطب جسيم:

قد هيئوك لأمر لو فطنت له   فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل



مهر المحبة والجنة بذل النفس والمال لمالكهما الذي اشتراهما من المؤمنين، فما للجبان المعرض المفلس وسوم هذه السلعة، بالله ما هزلت فيستامها المفلسون، ولا كسدت فيبيعها بالنسيئة المعسرون، لقد أقيمت للعرض في سوق من يريد، فلم يرض ربها لها بثمن دون بذل النفوس، فتأخر البطالون، وقام المحبون ينتظرون أيهم يصلح أن يكون نفسه الثمن، فدارت السلعة بينهم ووقعت في يد: (أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين) [المائدة : ٥٤].

لما كثر المدعون للمحبة طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى، فلو يعطى الناس بدعواهم لادعى الخلي حُرقَة الشجي، فتنوع المدعون في الشهود، فقيل: لا تثبت هذه الدعوى إلا ببينة (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) [آل عمران : ٣١] فتأخر الخلق كلهم، وثبت أتباع الرسول في أفعاله وأقواله وهديه وأخلاقه، فطولبوا بعدالة البينة، وقيل: لا تقبل العدالة إلا بتزكية (يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) [المائدة : ٥٤] فتأخر أكثر المدعين للمحبة، وقام المجاهدون فقيل لهم: إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم, فسلموا ما وقع عليه العقد فإن (الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) وعقد التبايع يوجب التسليم من



الجانبين، فلما رأى التجار عظمة المشتري وقدر الثمن وجلالة قدر من جرى عقد التبايع على يديه ومقدار الكتاب الذي أثبت فيه هذا العقد عرفوا أن للسلعة قدرًا وشأنا ليس لغيرها من السلع، فرأوا من الخسران البين والغبن الفاحش أن يبيعوها بثمن بخس دراهم معدودة تذهب لذتها وشهوتها وتبقى تبعتها وحسرتها، فإن فاعل ذلك معدود في جملة السفهاء، فعقدوا مع المشتري بيعة الرضوان رضى واختيارا من غير ثبوت خيار، وقالوا: والله لا نقيلك ولا نستقيلك، فلما تم العقد وسلموا المبيع قيل لهم: قد صارت أنفسكم وأموالكم لنا، والآن فقد رددناها عليكم أوفر ما كانت وأضعاف أموالكم معها (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) [آل عمران : ١٦٩] لم نبتع منكم نفوسكم وأموالكم طلبا للربح عليكم، بل ليظهر أثر الجود والكرم في قبول المعيب والإعطاء عليه أجل الأثمان، ثم جمعنا لكم بين الثمن والمثمن.

وتأمل قصة جابر بن عبد الله رضي الله عنهما, وقد اشترى منه صلى الله عليه وسلم بعيره، ثم وفاه الثمن وزاده، ورد عليه البعير، وكان أبوه قد قتل مع النبي صلى الله عليه وسلم في وقعة أحد، فذكّره بهذا الفعل حال أبيه مع الله، وأخبره (أن الله أحياه ، وكلمه كفاحا ، وقال : يا عبدي تَمَنَّ عليَّ)



فسبحان من عظم جوده وكرمه أن يحيط به علم الخلائق، فقد أعطى السلعة، وأعطى الثمن، ووفق لتكميل العقد، وقبل المبيع على عيبه، وأعاض عليه أجلّ الأثمان، واشترى عبده من نفسه بماله، وجمع له بين الثمن والمثمن، وأثنى عليه ومدحه بهذا العقد، وهو سبحانه الذي وفقه له وشاءه منه.

فحيهلا إن كنت ذا همة فقد ... حدا بك حادي الشوق فاطو المراحلا

وقل لمنادي حبهم ورضاهم ... إذا ما دعا لبيك ألفا كواملا

ولا تنظر الأطلال من دونهم فإن ... نظرت إلى الأطلال عدن حوائلا

ولا تنتظر بالسير رفقة قاعد ... ودعه فإن الشوق يكفيك حاملا

وخذ منهم زادا إليهم وسر على ... طريق الهدى والحب تصبح واصلا

وأحي بذكراهم سُرَاكَ إذا دنت ... ركابك فالذكرى تعيدك عاملا

وإما تخافن الكلال فقل لها ... أمامك ورد الوصل فابغي المناهلا

وخذ قبسا من نورهم ثم سر به ... فنورهم يهديك ليس المشاعلا

وحي على وادي الأراك فقل به ... عساك تراهم ثم إن كنت قائلا

وإلا ففي نعمان عندي معرف الـ ... أحبة فاطلبهم إذا كنت سائلا



وإلا ففي جمع بليلته فإن　　تفت فمنى يا ويح من كان غافلا

وحي على جنات عدن فإنها　　منازلك الأولى بها كنت نازلا

ولكن سباك الكاشحون لأجل ذا　　وقفت على الأطلال تبكي المنازلا

وحي على يوم المزيد بجنة الـ　　خلود فجد بالنفس إن كنت باذلا

فدعها رسوما دارسات فما بها　　مقيل وجاوزها فليست منازلا

رسوما عفت ينتابها الخلق كم بها　　قتيل وكم فيها لذا الخلق قاتلا

وخذ يمنة عنها على المنهج الذي　　عليه سرى وفد الأحبة آهلا

وقل ساعدي يا نفس بالصبر ساعة　　فعند اللقا ذا الكد يصبح زائلا

فما هي إلا ساعة ثم تنقضي　　ويصبح ذو الأحزان فرحان جاذلا

لقد حرك الداعي إلى الله وإلى دار السلام النفوس الأبية، والهمم العالية، وأسمع منادي الإيمان من كانت له أذن واعية، وأسمع الله من كان حيا، فهزه السماع إلى منازل الأبرار، وحدا به في طريق سيره، فما حطت به رحاله إلا بدار القرار فقال: (انتدب الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا إيمان بي وتصديق برسلي أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة أو أدخله

الجنة، ولولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية، ولوددت أني أقتل في سبيل الله, ثم أحيا ثم أقتل, ثم أحيا ثم أقتل).

وقال: (مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد في سبيل الله، وتوكل الله للمجاهد في سبيله بأن يتوفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه سالما مع أجر أو غنيمة).

وقال فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى: (أيما عبد من عبادي خرج مجاهدا في سبيلي ابتغاء مرضاتي، ضمنت له أن أرجعه إن أرجعته بما أصاب من أجر أو غنيمة، وإن قبضته أن أغفر له وأرحمه وأدخله الجنة)

وقال: (من قاتل في سبيل الله من رجل مسلم فواق ناقة، وجبت له الجنة). وقال: إن في الجنة مئة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة).

وقال لأبي سعيد: (من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا، وجبت له الجنة) فعجب لها أبو سعيد فقال: أعِدها علي يا رسول الله، ففعل، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وأخرى يرفع الله بها العبد مئة درجة في الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض) قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: (الجهاد في سبيل الله).

وقال: (من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار) وقال: (لا يجتمع شح وإيمان في قلب رجل واحد، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في وجه عبد).

وقال: (مقام أحدكم في سبيل الله خير من عبادة أحدكم في أهله ستين سنة، أما تحبون أن يغفر الله لكم وتدخلون الجنة؟ جاهدوا في سبيل الله، من قاتل في سبيل الله فواق ناقة، وجبت له الجنة).

وقال لرجل حرس المسلمين ليلة في سفرهم من أولها إلى الصباح على ظهر فرسه لم ينزل إلا لصلاة أو قضاء حاجة: (قد أوجبت فلا عليك ألا تعمل بعدها) وقال: (من بلغ بسهم في سبيل الله ، فله درجة في الجنة).



وقال: (إن الله يدخل بالسهم الواحد الجنة: صانعه يحتسب في صنعته الخير، والممد به، والرامي به. وارموا واركبوا، وأن ترموا أحب إلي من أن تركبوا، وكل شيء يلهو به الرجل فباطل إلا رميه بقوسه، أو تأديبه فرسه، وملاعبته امرأته، ومن علمه الله الرمي فتركه رغبة عنه، فنعمة كفرها) رواه أحمد وأهل السنن وعند ابن ماجه (من تعلم الرمي ثم تركه ، فقد عصاني) وقال: (من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه، مات على شعبة من نفاق) وذكر أبو داود عنه: (من لم يغز، أو يجهز غازيا، أو يخلف غازيا في أهله بخير، أصابه الله بقارعة قبل يوم القيامة).

وقال: (إذا ضن الناس بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعينة، واتبعوا أذناب البقر، وتركوا الجهاد في سبيل الله، أنزل الله بهم بلاء، فلم يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم)

وقال تعالى: (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) [البقرة : ١٩٥] ، وفسر أبو أيوب الأنصاري الإلقاء باليد إلى التهلكة بترك الجهاد، وصح عنه صلى الله عليه وسلم: (إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف). وصح عنه : (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، فهو في سبيل الله) وصح عنه : (أن من جاهد يبتغي عرض الدنيا ، فلا أجر له) وصح عنه أنه قال لعبد الله



بن عمرو: (إن قاتلت صابرا محتسبا، بعثك الله صابرا محتسبا، وإن قاتلت مرائيا مكاثرا، بعثك الله مرائيا مكاثرا، يا عبد الله بن عمرو على أي وجه قاتلت أو قتلت، بعثك الله على تلك الحال).

اللهم يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام نسألك الشهادة في سبيلك مقبلين غير مدبرين, ومخلصين غير مخلطين, ومستنّين غير مبدلين, إله الحق آمين, وصل اللهم وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

١/ شعبان/ ١٤٣٥





قبسات من الحنيف العفيف

(١/ ٢)

كتاب الله مورد نقي للعلم ومنهل فياض للإيمان, ومتى يمّمْتَ وجهك بصفاء عقل ونقاء نفس لعمود نوره؛ تدفّقت في روحك معاني الجلال والجمال والكمال لهذا الكلام الرباني الإلهي.

ومهما عبَّ الأولون من معين هدايته فلن يُنضبوه, وكم ترك الأولون للآخرين من هداياته وعلومه وعجائبه! إنه كتاب الله وكفى!

وسنقف هنيهات على شاطئ بحر النبي الكريم ابن الكرام يوسف عليه السلام, ورشفات تدبريّة من سحّ غيث سُورته وسيرته.

"إذ قال يوسف" اسم جميل, وحروفه رقيقه, وجرسه عذب, ومعناه في العبرانية (الله يعطي/ عطاء الله) لقد هذّب الإسلام أسماء العرب, فما كانوا يسمُّون بنيهم بأسماء الأنبياء إلا على سبيل الندرة, وكانوا يعبّدون أسماء أبنائهم لغير الله, كما كانوا يسمّون بالمكروهات والمستبشعات, فجاء الإسلام فهذب ذلك كلّه, فأمر بألا يُعبّد الاسم إلا لله وحده, وأغرى بذلك على



سبيل الابتداء، فأحبُّ الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن... وبأسماء الأنبياء ثم أجِلَّةِ الصحابة... وغيّر الأسماء المكروهة, وأوصى بمراعاة معاني الأسماء.. فحسنت حينئذ أسماء العرب.

"ويتم نعمته عليك" تنبأ له بالنبوّة, وهذا من وحي الله له. أما متى أوحي إليه فلعله حينما كان في الجبّ, وهو الأظهر لقوله سبحانه: "وأوحينا إليه لتنبأنهم بأمرهم هذا" أو أن زمان الوحي قد تأخر حتى: "ولما بلغ أشده آتيناه حكمًا وعلمًا" فيكون هذا توقيت إيتائه الحكم والعلم والنبوة, أما الجبّ فلعله كان إلهامًا خاصًّا, أي أنه أخصّ من إلهام أم موسى "وأوحينا إلى أم موسى" والنحل "وأوحى ربك الى النحل"

"إن ربك حكيم عليم" تربية الصبي على التعلق بربه تعالى منذ نعومة أظفاره, وهذا منهاج الأنبياء في التربية فإحسان التعلق بالله هو معدن الفلاح بحذافيره، منه بدأ الإسلام وإليه يعود الإيمان وعليه قام الإحسان.

"وشروه بثمن بخس" ومن كان يتصوّر أن بضاعته نبي كريم يوحى إليه؟!

"أو نتخذه ولدًا كذلك ومكنّا ليوسف في الأرض" إما أنه انتقال زماني, أو هو التمهيد لتحمّل أعباء الوزارة, فقد تربى على يد خازن أرض النيل الذي

جعله كابنه تمهيدًا لوزراته المُرتقبة خلف سجف الغيب, لذلك ذكرها هنا فقال: "كذلك مكنّا ليوسف في الأرض" وإنما هي التهيئة للتمكين, وإذا أراد الله أمرًا هيّأ له أسبابه.

ومن فروع تلك السنة الربانية في سورة يوسف أيضًا أن امرأة العزيز قد أنطقها الله باكرًا إذ اعترفت أمام لداتها ومنافساتها ببراءة يوسف, بل والمبالغة في وصف صيانته وعفافه: "فاستعصم" حتى إذا استدعاهن الملك بعد سنين قائلًا: "ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه" أُسقط في يدها ولم يك بدّ من اعترافها أمام الملك, لأن النساء سيشين بما فاهت به أمامهن خوفًا من بطش الملك الذي توعدهنّ جميعًا بهيبة مقامه وإن تخلفت حروف مقاله.

ومن فروعها كذلك أن الفتى الذي أنجاه الله من السجن, ونسي وصية يوسف له, ذكّره الله ذلك بالرؤيا العجيبة للملك التي أعجزت المعبرين, وهذافي القرآن كثير.

"إن كان قميصه قدّ من قبل" حسن ابتداء لقوّة الحِجَاج, فبدأ بذكر الأمر الباطل ليسقط ومن ثمّ ينفرد الحق بالوضوحوالمنعة.



"استغفري لذنبك" أمرها بالاستغفار "إنا لنراها في ضلال مبين" شهادة النسوة بذم الخنا "ملك كريم" إيمان بالملائكة, بل والقوم يؤمنون بأصل الربوبية "إن الله لا يهدي كيد الخائنين" فأصول الأخلاق ومجمل الغيبيات كانت موجودة حتى مع كفرهم وشركهم, ولعلّ هذا من آثار انبياء سبقوا "ومنهم من لم نقصص عليك" وكم في نفوس الأمم من بقايا أنوار النبوات التي لم يكد يبق لها الشرك والجهل باقية!

"إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها" بذل الأسباب اتقاء العين. وفي هذا إشارة إلى أن عمله هذا قد تسبّب في نُجْع مقصوده, مع أن الأمر كله بيد الله, "ما كان يغني عنهم من الله من شيء"

"ارجعوا إلى أبيكم" وَحَشَتْهُ معصيته لأبيه في أخيه, فنأى باسم أبيه الشريف أن ينسب إليه نفسه المقصّرة, فهو كبيرهم عقلًا وخلقًا وربّما سنًّا, ولعلّه القائل أوّلًا: "لا تقتلوا يوسف" لكن غلبته كثرتهم وضعفه. أما يوسف الصدّيق فقال متلذّذًا بالقرب الشعوري: "أبي"

"يا أسفى على يوسف" الشجى يبعث الشجى, ولما تفاقم الأمر أيقن الفرج, فقال محسنًا الظن فيمن لا يأتي الخير إلا من قبله أن يأتيه بثلاثتهم: "عسى الله أن يأتيني بهم جميعًا" والرزايا إذا توالت تولّت.

"إني لأجد ريح يوسف" لعله شمّه بروحه, وقد شمّ ابن النضر ريح الجنة ولمّا يمُت, وللأرواح شأن أيُّما شأن!

"فارتدّ بصيرًا" ولم يقل مبصرًا, مبالغة في الإبصار, وإيماء إلى مدح بصيرته التي تحققت بحسن ظنه بربه الكريم الرحيم.

"يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا" حسنُ تلطّف, فقد استعطفوه أولًا بندائه باللفظ المحبَّبِ المذيب لصمِّ الجلاميد. "يا أبانا" ثم طلبوا منه أن يستغفر لهم الله, وفي هذا توبة لله وأوبةٌ لعهده, وتعظيم لجنابه, ولعلمهم أن أباهم النبيّ الكريم يحبّ توبتهم لله واستغفاره لذنبهم قَبْلَ اعتذارِهم له, حتى وإن أبكوه أربعين سنة حتى ابيضّت عيناه من الحزن والكظْم. لذاك قالوا: "استغفر لنا" ولم يقولوا: اعف عنا.

ثم استكانوا معترفين بالذنب, فسمّوا أعمالهم ذنوبًا, ومن أعظمها غدرهم بيوسف. ثم اعترفوا بخطئهم العمد فقالوا: "إنا كنا خاطئين" ولم يقولوا: مخطئين. وهذا عينُ ما قالوه ليوسف لما فاجأهم بتعرّف نفسه إليهم فقالوا حينها: "تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين" فاستفادوا منه العفو المباشر عنهم لمّا أسندوا نعمته ونصره لله وحده, إذ الأنبياء لا ينتصرون لأنفسهم قط بل لله فقط, ولا يحبون حمد ذواتهم بل حمد الحميد المجيد.

....يتبع

ومضة: سيأتيك يوم لن تجد من والديك سوى الذكريات, فاصنع الآن ما تريد تذكّره غدًا.

صحيفة الاقتصادية



قبسات من الحنيف العفيف

(٢/٢)

الحمد لله وبعد: فلا زلنا نقتبس من ضياء سورة الكريم ابن الكريم عليهما السلام..

التفات بديع إذ قال: "ورفع أبويه على العرش".. ثم التفت بخطابه "رب قد آتيتني من الملك" وقبل المُلْكِ ابتدأ يوسف عزيزًا "اجعلني على خزائن الأرض" أي وزيرًا للمال وتصريفه وتدبير المعايش, وقد يكون الحال قد انتهى به لملك مصر, بدليل تحدثه بنعمة الله عليه بإيتائه الملك, والعرب لا تطلق الملك على الوزارة, كذلك رفع أبويه على العرش, والعرب لا تطلق العرش إلا على سرير الملك. وهذا ظاهر القرآن.

"وخروا له سجّدا" ظاهره أن يعقوب سجد معهم لابنه على سبيل التحية. فهذا نبيّ قد سجد لغير الله إذ كانت مباحة حينها, والملائكة سجدت لآدم بأمر الله, ولكن في زمان الأمّة الخاتمة انتقل السجود من كونه تحية فصار عبادة محضة, صرفُها لغير الله شرك وتنديد, فمنعُها ليس من باب سدّ الذريعة





للتعظيم, بل لأنها قد صارت هيكل التعظيم نفسه, كما في آية الحجر: "فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين" وما في صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد". وهذا من محاسن هذا الدين القويم, ومن منن المنان الكريم على هذه الأمة المرحومة, فكم في السجود من متع أرواح تسافر خلاله لفردوس الدنيا بالأنس بمعبودها ومألوهها, وأمان لها من مزعجات الزمان, فلله الحمد كما ينبغي له.

"وقد أحسن بي" تحدثًا بنعم الله فهو النبي الشكور, وتأمل التعدية بالباء الملاصقة فهي هنا أبلغ من إليّ.

"وعلمتني من تأويل الأحاديث" فيه شرف علم التعبير, فقد شكر هذا النبي الكريم ربه وحمده عليه في معرض ذلك الثناء البليغ العظيم. ومن طرق تحصيله وتحصيل الفراسة تحقيق التوحيد فقد علل تعبيره الرؤى بتحقيقه التوحيد إذ قال للفتيان في السجن: "ذلكما مما علمني ربي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله"

"توفني مسلمًا" فقلوب الصديقين معلّقة بالخواتيم.





"وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون" فيه التحذير البليغ لمعاشر الموحدين الحنفاء, فحتى وإن كان الدخول أوليًّا للمشركين شركًا أكبر؛ فهذا لا يمنع أن تتناول بعض أهل التوحيد الذين لوّثوا نزاهته بشركيّات لم تخرجهم منه لكنّها أغضت من رونقه وبهائه وأظلمت من نوره وإشراقه وأنزلت من علوّه وسموه, وذلك الشرك الأصغر كيسير الرياء, والحلف بغير الله, وقول ما شاء الله وشئت, ولولا الله وفلان ونحو ذلك, وليت شعري كم سيكون وزن خطيئة التشريك في الميزان يوم العرض الأكبر؟! وقد كان من هدي الصحابة أنهم يستشهدون بنصوص الشرك على الأمرين.

"وسبحان الله وما أنا من المشركين" خطيئة الشرك من أعظم المسبة لله تعالى, لذلك ذكر بمعيّته التسبيح وهو المبالغة في التنزيه والتقديس, ومن ذلك ما رواه أبو داود بسند حسن أن الأعرابي لما قال: نستشفع بالله عليك غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسبّح وكرر التسبيح, لأن جناب التعظيم لله قد مُسَّ, فناسب أن يسبح الله تعالى. وتعظيم الله تعالى هو ركيزة الإيمان ومعقد الديانة, لذلك كان من أعظم الأسماء الحسنى (العظيم). وقد تكرر هذا الاسم الشريف في القرآن بضعًا وثلاثين مرة, كذلك في الأدعية



النبوية, ومنها دعاء الكرب. والعظمة إزار الجبّار جل جلاله وتقدّست صفاته وأسماؤه, كما في الحديث الرباني في الصحيح.

"حتى إذا استيئس الرسل" ذكرها في سورة الفرج بعد الكرب, فَمَن هذا المتفائل الذي يتصوّر أن يوسف بعد الجب والرقّ والسجن سينتهي به الحال للحرية والوزارة والملك, وأعظمها النبوة, يا لَهذا الفرج الرباني والنعم السابغة!

كذا تفريج همومٍ وكشف غمومٍ يعقوب عليه السلام برجوع فلذات كبده, وتأكيده على علمه بالله تعالى في موضعين:

الأول حينما عوتب ولِيمَ على بكائه تلك السنين على يوسف فأخبرهم أنّه يعلم من الله مالا يعلمون, أي من صفات كماله ورحمته وفَرَجه حتى كأنه يرى المستقبل عيانًا, فبصيرته قد عبرت بإيمانه ما لم يبلغه غيره, إنها النبوّة يا صاح.

فالأنبياء هم أعظم الناس تحقيقًا لدرجة الإحسان, وتكميل مراتب الإيمان, وهم من عبدوا الله كأنهم يرونه حقًّا.

ثم قالها مرّةً اخرى لما ارتدّ بصره إليه, وذكّرهم بسالف قوله الصابر الراضي الهادئ في تيك الليالي القاسية, وقت ثقل المصيبة التي تنوء بها



الرواسي. فهل أعظم من فقد ابن سيكون نبيّ؟! "وأعلم من الله ما لا تعلمون" ألم تر أن ربه قد قلّدهُ مديحة: "وإنه لذو علم لما علّمناه"

هذا وقد تردّد كثيرًا في السورة ذكر العلم, والمراد العلم بالله وبدينه, كذلك العلم بعاقبة الأمور, وهو من فروع حسن الظن بالله تعالى.

"فنجّي من نشاء" مناسبة لثناء يوسف: "إن ربي لطيف لما يشاء" فما ثمّ إلا محض رحمة الله وفضله أو الهلكة والشقوة.

"ولكن تصديق الذي بين يديه" لما بشرت الكتب والرسل السابقة بالقرآن كان نزوله عينُ تصديقها, فنزوله هو تأويل بشاراتهم, وكما قال يوسف لما خرّوا له سجدا: "هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقّا" فكذلك إنزال القران على محمد صلى الله عليه وسلم هو حقيقةُ تصديقِ البشارات السابقة وإثبات صدقها.

ومضة: كم في هذا البيت من سلوى وراحةٍ وقوتٍ لمن استطال الطريق:

إذا طاب منك الودُّ يا غاية المنى ... فكل الذي فوق التراب ترابُ

صحيفة الاقتصادية

٢٤/رجب/١٤٣٥





معشر الدعاة: تواصوا بالحق والصبر

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أما بعد:

فلا بد للداعي إلى الله تعالى من وسيلة توصل علمه إلى الناس, وأياً تكن هذه الوسيلة فهي لا تكاد أن تخرج في الغالب عن وعظ أو حوار أو إنكار أو مدارسة أو تعليم أو مكاتبة ونحو ذلك, وقد اكتنف ذاك السبيل النبوي بعض من لا دربة له ولا سابق خبرة ولا كفاية علمٍ فغبّشوا بعض مسالكه على غيرهم ودفعًا لغلوائهم هذه مشاركة ببعض المهمات التي كتبتها لنفسي المقصرة ولإخوتي سائلًا ربي التوفيق والهدى والسداد.

فمن المهمات بين الإخوة في المحاورة والمدارسة: تجريد النية للعليم الخبير سبحانه, وتصفيتها من شوائب الرياء وعوالق السمعة وحبائل التصدّر وغوائل الظهور, وقاني الله وإياك ذلك, وجعلنا من المخلِصين المخلَصين, فكل شيء لغير وجه الله يضمحل, وقد كان الإمام النووي رحمه الله تعالى يكتب ويحرّر المطوّلات حتى إذا كلَّ ألقى القلم وهو يتمثل:

لئن كان هذا الدمع يجرى صبابة   على غير ليلى فهو دمع مضيّع



وقد قيل: تخليص الأعمال مما يفسدها أشد على العاملين من طول الاجتهاد. نعم فمن رأى إخلاصه فإخلاصه محتاج لإخلاص!

ومن المهمات: مراعاة المتابعة للسنّة, ومن لوازم المتابعة الرفق-إلا في حالات خاصة كالمعاند المستكبر- ومراعاة أحوال المخاطبين, والتدرج, قالت عائشة رضي الله عنها: "إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام, ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر؛ لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا, ولو نزل: لا تزنوا؛ لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا". قال ابن حجر في الفتح "أشارت إلى الحكمة الإلهية في ترتيب التنزيل، وأن أول ما نزل من القرآن الدعاء إلى التوحيد، والتبشير للمؤمن والمطيع بالجنة، وللكافر والعاصي بالنار، فلما اطمأنت النفوس على ذلك أنزلت الأحكام، ولهذا قالت: ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر؛ لقالوا: لا ندعها؛ وذلك لما طبعت عليه النفوس من النفرة عن ترك المألوف".

ومن ذلك ما جرى للإمام المجدد محمد بن عبدالوهاب في ابتداء دعوته فإنه إذا سمع المشركين يدعون زيد بن الخطاب, قال: الله خير من زيد, تمريناً

لهم على نفي الشرك بلين الكلام نظراً إلى المصلحة وعدم النفرة. ذكره عنه المجدد الثاني عبد الرحمن بن حسن رحمهما الله.

ومن المهمات: بين الإخوة تحرير محل النزاع قبل الخوض فيه, وتحرير معاني الكلم قبل إلقائها في خضم التدافع, وفي الردود تحريرُ محل النزاع وتحديد محور النقاش ونقطة البحث وعدم الخروج عنها إلا بعد إنهائها, والإشارة لذلك, دفعاً لخلط الفهم عند القارئ أو السامع, وفائدة ذلك أن لا يتشعّب الحديث في شجون لا علاقة لها بصلب النقاش.

هذا وتحرير معاني الألفاظ والمصطلحات عند أهل الفن الداخل تحت مظلته النقاش يختصر الكثير, قال شيخ الإسلام: "فاللفظ المشتبه المجمل إذا خص في الاستدلال وقع فيه الضلال والإضلال وقد قيل: إن أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء".

ومن المهمات: إحسان الظن بأخيك, وحمل كلامه على أحسن محامله, فإن لم تجد فقل: لعل له عذراً لا أعلمه.

تأنّ ولا تعجل بلومك صاحباً لعلّ له عذراً وأنت تلومُ



ومن المهمات؛ الفرح بالحق حيث كان, ولو ممن تدارسه والحذر من آكل الحسنات الحسد, فافرح بالحق ولو جاءك على صفة المناظرة, فالمُدارسة والمناقشة من طرق التحصيل والتثبيت للعلم لمن أصلح الله حالهم. والرحمة بالخلق سيما المؤمنين, ومن محاكّ الصدور الفرح بالحق من فيّ الخصم, وهذا من خلق السادات, وعادات السادات سادات العادات, وممن اشتهروا بذلك الإمام الشافعي رحمه الله تعالى.

ومن المهمات: الحلم والصفح وقول الحُسنِ واختيار رقيق اللفظ وليّن العبارات "وقولوا للناس حسناً" "وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم" قال ابن الجوزي رحمه الله: "إذا خرجت من فيّ عدوك لفظة سفه, فلا تلحقها بمثلها تلقحها, فنسل الخصام مذموم".

ومن المهمات: تذكر زوال الدنيا وأن كل شيء هالك إلا وجهه, سبحانه وبحمده, وان الأجل أقرب مما نتصوّر:

وأبرح ما يكون الشوق يوماً   إذا دنت الديار من الديار

وقد كان إمام السنة أحمد كثيراً مايتمثل بـ:

وما هي إلا ساعة ثم ساعة   ويوم إلى يوم وشهر إلى شهر



مطايا يقربن الجديد إلى البلى ويدنين أشلاء الصحيح إلى القبر

ومن المهمات: الهرب الصادق واللجأ والاعتصام من موجبات غضب الله تعالى, كالشرك والبدع والذنوب, كما قال عنها ابن القيم: "فهذا منذر بسيل عذاب قد انعقد غمامه, ومؤذن بليل بلاء قد ادلهم ظلامه, فاعزلوا عن هذا طريق هذا السيل بتوبة نصوح ما دامت التوبة ممكنة وبابها مفتوح".

ومن المهمات: الصبر على طريق الهدى والحق, وإن كنت وحدك فإبراهيم الخليل عليه السلام كان أمة وحدة, وإذا عظم المطلوب قل المساعد, واصبر هنيهة فعن قريب تنقضي, فمن استطال السفر ضعف مسيره.

ومن المهمات: رد الخلاف إلى الله (لكتابه) ولرسوله (لسنته). قال شيخ الإسلام: "وهكذا مسائل النزاع التي تنازع فيها الأمة في الأصول والفروع, إذا لم تُردّ إلى الله و الرسول لم يتبين فيها الحق, بل يصير فيها المتنازعون على غير بيّنة من أمرهم, فإن رحمهم الله أقرّ بعضهم بعضاً ولم يبغ بعضهم على بعض, كما كان الصحابة في خلافة عمر و عثمان يتنازعون في بعض مسائل الاجتهاد فيقرّ بعضهم بعضاً ولا يعتدي عليه, وإن لم يُرحموا وقع بينهم الاختلاف المذموم, فبغى بعضهم على بعض إمّا بالقول مثل

تكفيره وتفسيقه, وإما بالفعل مثل حبسه وضربه وقتله, وهذه حال أهل البدع و الظلم".

ومن المهمات: مراقبة الله تعالى في التعامل مع المخالف مهما كان حاله, قال شيخ الإسلام: "ما جزيت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه "إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون" وقال تعالى: "وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط".

ويشتموا فترى الألوان مسفرة   لا صفح ذل ولكن صفح أحلام

ومن المهمات: تعلّم أصول المدارسة والحوار والمناظرة؛ ومن ذلك حسن الاستماع, ومن لم يحسن الاستماع لم يحسن القول, والإيجاز, وحسن الإيجاز: أن لا تبطئ ولا تخطئ, وترك التكرار إلا لحاجة, فتكراره إلى أن يفهمه من يفهمه يكون قد مله من فهمه, وخير الكلام ما لم يحتج بعده لكلام, وخير الكلام ما قلّ ودلّ ولم يطل فيمل, ويكفي من القلادة ما أحاط بالعنق, ويكفي متين القول عن حواشيه, ومنها: عدم الاغترار بكثرة الحجج إن لم يكن لها حقيقة.

إن كان في العيّ آفات مقدرة   ففي البلاغة آفات تساويها



تكلم رجل عند معاوية رضي الله عنه فهذر -أي: خلط وتكلم بما لا ينبغي- ثم قال: أأسكت يا أمير المؤمنين؟ فقال: وهل تكلمت؟! وقال أحدهم: رأيت عورات الناس بين أرجلهم, وعورة فلان بين فكيه.

رأيت اللسان على أهله إذا ساسه الجهل ليثاً مغيراً

ومنها: ترك ما يموت بتركه من الباطل, قال حاتم الطائي: إذا كان الشيء يكفيكه الترك؛ فاتركه. وبعض الرد وتكراره يحيي الشبه في النفوس, التي ربما همدت ونُسيت بترك طَرْقها.

ومنها: الأناة والهدوء, حتى ينتهي مقال أخيك سواء شفاها أو كتابة, فضيق العطن والعجلة ليست من سيما أهل العلم, وتكلّم بعلم, أو اسكت بحلم.

ومنها: ترك الظن الباطل, وهو العريّ عن برهانه, كما قيل: ثبت العرش ثم انقش.

ومن المهمات: أن يعلم أن كلامه المكتوب والمسموع والمشاهد معدود من عمله, ومحفوظ في سجلات الكرام الكاتبين, ومنها: أن يعمل بقوله قدر طاقته, قال زبيد اليامي: اسكتتني كلمة ابن مسعود عشرين سنة: من كان كلامه لا يوافق عمله فإنما يوبخ نفسه.



ومنها: أن يقول الحق لا تأخذه فيه لومة لائم, ولمّا تكلم جلساء معاوية رضي الله عنه والأحنف ساكت, فقال معاوية: يا أبا بحر, مالك لا تتكلم؟ فقال: أخافكم إن صدقت, وأخاف الله إن كذبت. وقد قال الأول: إذا لم تقل الحق فلا تقل الباطل. وكلّ كلمة لها من الله طالبٌ فمعتق أوموبق. "ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت" وجماع ذلك: "ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد".

ومنها: ألا يعتقد ثم يستدل, حتى لا يزيغ البصر فتتبعه البصيرة. والذنوب كلها شؤم "فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم".

ومنها: أن لا يُبدي ولا يبدأ في الإسلام رأياً ليس له فيه إمام, بل يتبع ولا يبتدع فقد كفي.

ومن المهمات: أن يحرّر كلامه قبل نقله, وأن يكون عنده ميزان وبصيرة بالمقولات التي بين يديه, حتى لا يكون إمّعةً, قال رجل لعلي: أترى أننا نظن أنك على الحق وفلاناً على باطل؟ فقال علي: "ويحك يا فلان! الحق لا يعرف بالرجال, اعرف الحق تعرف أهله" وانظر جواب الشيخ أبا بطين رحمه الله لما سئل: لو كان هذا حقاً ما خفي على فلان...".



ولا للاصطفاف على غير علم, والتخندق على غير حلم, والنصر الأعمى بلا حكمة, بل لابد من النضج الخلقي والعلمي.

ومنها: اللين في الخطاب, والحكمة في الموعظة, والسهولة في الأسلوب, والتعريض دون التصريح عند الحاجة, فإن لم ينجع فبما بال أقوام, وآخر العلاج الكي. "فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك". والعامة تقول: الكلام الليّن يغلب الحق البيّن.

ومنها: اعتبار اختلاف الرأي لا يفسد الود فيما يسوغ فيه الخلاف, وهذا حال السلف الصالح. ومما يلحق بذلك؛ أن لا يشترط قبول الطرف المقابل لرأيه واجتهاده, بل يكفيه أن يستمع له ويفهمه, والحوار الهادف المنضبط هو من قبيل تدارس العلم، ومن أسباب نمائه وتثبيته ونشره, فهو مأجور من هذه الحيثّية.

ومنها: أن لا يردّ البدعة بأختها, بل بالسنة. قيل لإمام دار الهجرة مالك رحمه الله تعالى: الرجل يأمر بالسنة؟. قال: نعم. قيل: أيجادل عنها؟ قال: لا. ونبيّنا صلوات الله وسلامه عليه زعيم بيت في ربض الجنّة لمن ترك المراء وإن كان محقاً.

ومنها: الحذر من أن تأخذه العزة بالإثم, قال ابن مسعود رضي الله عنه: من قيل له: اتق الله, فقال: انشغل بنفسك, فقد أخذته العزّة بالإثم, وما أقلّ من يسلم من ذلك في مضائق المناظرات. ومن توابع تيك المنقبة؛ اعتبار الرجوع عن الخطأ فضيلة -عملياً- وعدم التردد في ذلك, وأن يتحلّى بالفروسية في مُسايفة الكلم ومُثاقَفَةِ الخُطب, وأن التواضع للحق, وكسر نخوة النفس, خير في العقبى والأولى من الإعناق في باطل مشوب بتأويل.

وملاك القول أن من علامات التوفيق ألا تفرح بعجاج الجدل ونقع المراء.

وبالجملة؛ فمِن حُسنِ سياسة الناس في التعليم والمدارسة والمناظرات والمحاورات لين الجانب وبسط الوجه وبشاشة العبارات وإرادة الخير للمقابل ظاهراً وباطناً, وهناك خيط رفيع بين الحوار "المدارسة" وبين المراء "المهاترة" وإرادة العلو في الأرض, وهي مذمومة ولو كانت بحق, ناهيك عن كونها بالباطل!

فإن كانت المدارسة هكذا وإلا فلتكسر الأقلام ولتمزق الصحائف، فكل حزب بما لديهم فرحون، قد تلبّس الشيطان أفئدتهم فأوحى إليها زخرف القول غروراً، فتناولت العزة بالإثم أناملهم فكرعت في الكبر, وخاضت في الباطل.

جعلنا الله جميعاً طلاب حق, وأخذ بأيدينا وهدانا سبيل المنعم عليهم، وأبعدنا عن موارد الغضب ومواطن الضلال، آمين.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون, وسلام على المرسلين, والحمد لله رب العالمين, وصلى الله وسلم وبارك على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

صحيفة آفاق نيوز



الثقة بالله عمود نور المصلحين

يا صاحبي: هل تساءلت يومًا عن لحظ صبر بعض الدعاة، أو تساقط بعض الصالحين، أو انتكاسات بعض العُبّاد؟

كذلك هل تعجّبت يومًا من عظيم ثبات المصلحين، ورسوخ يقين بعض الأخيار؟

أرعني ذهنك قليلًا رعاك الله بتوفيقه:

اعلم أن الثقة بالله هي السلك الناظم لأمور التديّن بعامّة, وهي الجدار الحافظ بإذن الله لقلب المؤمن من قواصف الشبهات وعواصف الشهوات, فهي الميدان الذي يجري فيه فؤاد المؤمن ويستن بطِوَلِه في أنحائه, ويستظلّ متنعمًا في أفيائه. إن الثقة بالله هي سفينة نجاة المتقين, وحبل وصول المقربين, وسلاح الصابرين في دار الابتلاء والامتحان.

إن الثقة بالله هي حصن السابقين, ومنتجع العابدين, ومهيع السالكين, وهي مزيجٌ من قول القلب وعمله, ولها علاقة بأقوال وأعمال القلب الأخرى فهي ثمرة العلم بالله, ومن ثمارها حسن الظن والتوكل و بردُهَا باليقين.





إذا كان الإيمان تصديقٌ خاصٌّ وإقرار، فالثقة بالله هي أصله وصلبه, فعلى أساسها يقوم بنيانه, وكل آيةِ إيمانٍ مهما تصرّفتْ فهي متضمنة للثقة بالله سبحانه. ولقد آل أمر المنافق لأن يكون أرذل العالمين وشر ولد آدم أجمعين لخيانته وكذبه في الثقة بربّه ولقائه ووعده! "وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون"

ولقد تدبّرتُ آي القرآن فرأيت أن منها آيات هي مثل قُلَلِ الجبال للمسافر في تخوم السهول والحزون!

إنها آيات لها قرعُها الشديد لانتباه التالي والسامع, ففيها إيقاظ وتنبيه وإرشاد لِقبلة التوجّه القلبي, مع بلسم سكينة لا يصفه الواصفون, ووقودٌ تام لمحرّك مركبة المهاجر لربه, وزاد وافٍ لمن حمل همّ إصلاح نفسه وأمته, فهي شاطئ أمان العُبّاد والدّعاة والعلماء والمربين..وليس لمؤمن ولا مؤمنة غنية عن فقهها علماً وعملاً.

وكم من عامّيٍّ لا يُؤبهُ له مدفوع بالأبواب يقف أمام عواصف فتن الدنيا وقواصف رغائبها بثبات يبزّ به الجبال الرواسي! بينما يقع حامل أسفار العلوم تحت جناح أهونِ فتنة! فأين ياتُراه الخلل؟!

مرجع ذلك: أن العلم النافع هو العلم بالله قبل العلم بشرعه, وإن اجتمعا في قلب فواهًا! لذا فلم يكن الحبر الحكيم ابن مسعود رضي الله عنه مبالغًا حينما قال فيما رواه أحمد في الزهد: ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم الخشية. وأولى بنا قول ربنا: "إنما يخشى الله من عباده العلماء"

فإن مررت على تلك الآيات فردِّدْها وتدبرها وتفكّر فيها, ففيها نداء لروحك, وخطاب لفؤادك, وطوق نجاة لمصيرك, ومنشور فلاح لنشرك ومعادك.

تولاك مولاك في أولاك وعقباك.



أهل القرآن هم أولى الناس بالجهاد في سبيل الله

ألا وإن لأهل القرآن في مواطن الجهاد ما ليس لغيرهم من عظيم البلاء والنية والصبر والصدق. واعتبر ذلك بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس في حنين لما انكشف المسلمون أن ينادي: يا أصحاب سورة البقرة. فحملة القرآن قد تغذّت قلوبهم على التنزيل وارتوت من الذكر الحكيم. وقد صاح بها ثابت بن قيس في اليمامة لما انكشف المسلمون فنادى: يا أصحاب سورة البقرة, قال رجل من طيء: والله ما معي منها آيةٌ, وإنما يريد ثابتٌ يا أهل القرآن.

وقد ذكرَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه يومًا وقعة اليمامة, ومن قُتل فيها من المهاجرين والأنصار وحملة كتاب الله فقال: أَلَحَّتْ السيوف على أهل السوابق من المهاجرين والأنصار, ولم نجدِ المُعَوَّلَ يومئذ إلا عليهم, خافوا على الإسلام أن يُكسرَ بابُه فيُدخَلَ منه أن ظهر مسيلمة ـأي خافوا تبديل الدين بظهور مسيلمة الكذاب ـ فمنعَ الله الإسلام بهم, حتى قتل عدوّه, وأظهر كلمته, وقدموا يرحمهم الله على ما يُسرُّون به من ثواب جهادهم مَنْ كَذَبَ



على الله وعلى رسوله, ورجع عن الإسلام بعد الإقرار به, وجعل منادي المسلمين -يعني يوم اليمامة- ينادي: يا أهل القرآن, فيجيبون المنادي فُرادَى ومثنى, فاستحرّ بهم القتل. فرحمَ الله تلك الوجوه, لولا ما استدركَ خليفةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم من جَمْع القرآن؛ لخِفْتُ أن لا يلتقي المسلمون وعدوَّهم في موضع إلا استحرّ القتل بأهل القرآن.

قلت: وشهادة ذلك أن المسلمين في اليمامة لما انكشفوا بسبب اختلاط الأعراب بالمهاجرين والأنصار فيفرّون فيستحر القتل في أهل السابقة من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم, حتى غلبت حنيفة على الرِّحَالِ, فجعل زيد بن الخطاب رضي الله عنه ينادي وكانت عنده راية خالد: أما الرِّحال فلا رحال, وأما الرجال فلا رجال, اللهم إني أعتذر إليك من فرار أصحابي, وأبرأ إليك مما جاء به مسيلمة ومحكم بن طفيل, وجعل يشتدُّ بالرَّاية يتقدَّمُ بها في نحر العدو, ثم ضارب بسيفه حتى قُتِل رضي الله عنه, فلما قُتل وقعت الراية, فأخذها سالم مولى أبي حذيفة, فقال المسلمون: يا سالم, إنا نخاف أن نُؤتى من قِبَلِكَ! فقال: بئس حامل القرآن أنا إن أتيتم من قبلي. -وتأمل ذكره لحمل القرآن لا غير-. ونادت الأنصار ثابت بن قيس وهو يحمل رايتهم: الزمها, فإنما مِلاكُ القوم الراية. ثمّ إن سالمًا تقدّم في نحر الكفرة براية

المهاجرين, ثم حفر لرجليه حتى بلغ أنصاف ساقيه, وحفر ثابت بن قيس لنفسه مثل ذلك, ثم لزما رايتيهما, وكان الناس يتفرّقون في كل وجه منهزمين, -قبل أن تخلُص الرايات لقومها- وإن سالمًا وثابتًا لقائمان برايتيهما, حتى قُتِلَ سالمٌ, وقتل أبو حذيفة مولاه عليهما رضوان الله تعالى, فوُجِدَ رأسُ أبي حذيفة عند رجلي سالم, ورأسُ سالمٍ عند رجلي أبي حذيفة لقُرْب مصرع كل واحد منهما من صاحبه, وثباتهما مع شدة القتل.







اقبل البُشرى أيها التالي كتّاب ربك

فقد قال سبحانه في سورة فاطر ـوتدبر هذا الموضع جيدًا ففيه زاد أيّما زاد, وتلمّح تلك التجارة الرابحةـ: "إن الذين يتلون كتّاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرًّا وعلانية يرجون تجارة لن تبور . ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور . والذي أوحينا إليك من الكتّاب هو الحق مصدقا لما بين يديه إنه بعباده لخبير بصير . ثم أورثنا الكتّاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير . جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير . وقالوا الحمد الله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور . الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب" فهل بقيت بقية لمعتبر ومدّكر وبائع لهواه بفلاح الأبد بعد هذا؟!

بل إن الدين كلَّه مبني على وعدِ غيبٍ لم نره حِسًّا, وهنا يكون محكّ الإيمان وبرهان التصديق ودليل التسليم, وعلى قدر الثقة بالله تعالى, بوجوده



وبربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وأفعاله تكون الثقة به وبوعده, ومن هنا افترقت الخليقة, فأطيبُهم من يثق الثقة المطلقة التي لم تتزعزع ولم تضطرب مهما عصفت بها زلازل الخطوب وبلايا الفتن والرزايا وهذا مقام المرسلين, ثم الأمثل فالأمثل من الصالحين.

وتدبّر كلّ قصص الأنبياء بلا مثنوية؛ تجد أن عنوان الثقة بالله وبوعده موجود باضطراد في تضاعيف أحداث القصص, ولو تأملت السلك الناظم والخيط الجامع لقصص الصالحين من المرسلين فمن دونهم لرأيت أن الذي ينتظم ذلك هو الثقة بوعد الله ولقائه, وتأمل المعنى المتردّد على ألسنة رسل الله في حِجاجهم لأقوامهم قد اتفقوا على إشهاره: "وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين" ثقةً به واستغناء, "قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله" ولقد تكرر هذا المعنى الغني العزيز وتصرّف في القرآن كثيرًا, مما يدل على أنه من أعظم موارد معاني بناء الثقة في قلوب الصالحين والمصلحين.

وتأمّل تكرار الوعد الإلهي ووصفه بالحق في كثير من آيات الكتاب العزيز, كما في قول الحق تبارك وتعالى: "وعد الله حقًا ومن أصدق من الله قيلا" وقوله: "ألا إن وعد الله حق ولكن أكثر الناس لا يعلمون" وقوله جل في



علاه: "فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون" وقوله: "وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق" وقوله: "يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنّكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور" وقريب منه مع مسارٍ خطابي بطراز مختلف, وله وقع خاص جدًّا: "قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب . قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد" وكيف لا يوثق بالله وحده وهو القائل: "وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليمًا قديرًا"؟!

ثم تدبر آية يونس وكرر فيها نظر قلبك وافرح بالله وافرح بفضله وافرح برحمته: "يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين . قل بفضل الله و برحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون"

وقبل الرحيل قف طويلًا مع آيتي سورة العنكبوت وحرّك بهما قلبك شوقًا لله وثقة به وشكرًا له على إنزال القرآن العظيم لك, وتأمل صدرك ما الذي حوى؟!: "بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون" وقوله: "أولم يكفهم أنا أنزلنا إليك الكتاب يتلى عليهم إن في

ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون" بلى وعزتك يا ربنا, ومن لم يكن له في كتابك وسنة رسولك غُنية فلا أغنيتَه.





من أخبار الواثقين برب العالمين

من ثقة الإمام عبد العزيز ابن باز رحمه الله تعالى فيما ذكر أحد مرافقيه قال: كنا في اجتماع دوري في المساء فجاء أحد العاملين في مكتب الشيخ وهمس في أذنه يبلغه رسالة عاجلة ملهوفة من بضعة دعاة في دولة أفريقية قد صدر ضدهم حكم بالإعدام شنقًا عند فجر ذلك اليوم, فتكدّر الشيخ جدّا ثم طلب مهاتفة الملك فهد يرحمه الله فتمنّع مسئولو الاتصالات الملكية بحجة عدم مناسبة الوقت للملك لأنه وقت راحته, فألح الشيخ وقال: صلوني به وأيقظوه إن كان نائمًا وإلا ذهبت إليه بنفسي, فالأمر لا يحتمل التأخير. فوصلوه به فكلّمه وعظّم حرمة دم الدعاة ووجوب نصرتهم وتحتّم تدخل الملك بنفسه فورًا عند رئيس ذلك البلد فوعد الملك خيرًا, ثم أغلق الهاتف والشيخ مشتغل بدعاء الله تعالى والضراعة إليه في فكاكهم وكشف كربتهم, وتكرار أدعية الكرب, فما هي إلا لحظات حتى هاتفه الملك بنفسه يبشره بإنجاء الله تعالى لأولئك الدعاة, فشكره الشيخ ودعا له بخير, ثم رفع يديه وهو يردد: "ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون" فلا إله إلا الله ما أعظمها من ثقة بالله ويقين وحسن ظن بمعيّته سبحانه.



وذكر أحد مرافقي الشيخ عن أحد طلبة العلم فيما يذكر عن نفسه أنه دخل على الشيخ في إنكار منكرات متهمًا الحكومة بالتقصير في إنكارها, فأغلظ للشيخ القول, والشيخ يتلطف في الخطاب ويلين له الجواب ويعده بالكتابة للمسؤولين, ثم قام الشيخ ومشى, فلمّا أدبر قال ذلك الرجل كلمة وندم عليها فقال: أم أنك يا شيخ تخاف الحكّام؟

قال: فلمّا خرجت الكلمة من فمي وعلمت أني جرحت الشيخ أُسقط في يدي فخفضت رأسي فوقف الشيخ وقال: يا فلان, خمسة من الملوك عاصرتهم ولم أضيع حق الله فيهم, ولم أداهنهم ولم أخشهم بحمد الله, والمصلح الهادي هو الله.

وحينما زار الملك خالد رحمه الله العلامة المفسر الفقيه الزاهد محمد العثيمين في منزله الطيني المتواضع قال له: اطلب ما تشاء يا شيخ محمد. ولعلك تأذن لنا بتجديد بيتك. فقال الشيخ: أما لنفسي فلا, فلي بيت أبنيه في الصالحية -يقصد قبره- فإن كان من أمرك ولابد فجَدِّد جامع ابن سِعدي ـوقد كان الشيخ محمد يؤم المصلين فيه حتى موته رحمه اللهـ وابنِ للطلاب المنقطعين لطلب العلم سكنًا يكون كالرباط لهم. فنظر الملك لأحد مرافقيه ممن كانوا يُغمزون فقال: إيهٍ يا فلان, هؤلاء هم مشايخ الآخرة!

إن الثقة بالله هي اتكاء إلى جدار عظيم, واستنادٌ إلى ركن شديد, والسعيد من جاوز بثقته طباق السماوات ووصل بها بين عالمي الغيب والشهادة, فصار يرى بحسن ظنه وعظيم ثقته بوعد ربه ما لا يراه المتزعزعون.





من وسائل الثبات للمحتسبين والدعاة

من الأسباب الجوهرية، وهي نابعة من الثقة بوعد الله: المحاسبة الجادة للنفس, ففي الدنيا دخان وغينٌ يحيط بالقلب، ولا تكاد النفوس تسلم منه, فتقع في غفلة وركون إلى الخسار وإخلاد إلى الأرض, فإن وفق الله عبده للمحاسبة استيقظ ونفض عن بصيرته وقلبه غبار الغفلة وقتار الظُّلمة.

ولقد تكلم أبو محمد ابن حزم الأندلسي رحمه الله في مداواة النفوس عن تغلّبه بعد مجاهدة شديدة على طباعه السيئة من الحقد والشهوة وغيرهما حتى ترقّى بها للطمأنينة والسكينة, فالأمر في متناول من وفقه الله, وإنما الحلم بالتحلم "والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا"

وفي الوقت الذي يُنتظر فيه من الدعاة المجاهدة لإدراك الكمالات؛ نجد بعض الدعاة لا يزال يجاهد نفسه ضد الموبقات كالزنا والخمر والربا! فضلًا عن بقية الكبائر والذنوب التي اصبحت كالعادات له, كالغيبة والنميمة غير المقصودة والكذب مازحًا وجادًّا, إلى شراسة الخلق والصَّلَفِ وتنفير عباد الله من دين الله, وإدخال الغم والحزن عليهم, وسوء ظنه بالمؤمنين, مع علمه



بعيوبه واعترافه إلا أن السنين لم تزده في تيك الأخلاق الرذيلة إلا إيغالًا! فاين الثقة بالله وبوعده وبلقائه؟! ومتى يأتي اليوم الذي تطمئن فيه نفسه فتطبع على أخلاق المؤمنين وتدور بطبعها فيه فتكون من النفوس المطمئنة؟!

فيا صاحبي: إن طال زمانك وأنت تراوح المجاهدة دون تقدّم في مستوى إيمانك؛ فراجع مساقيَ قلبك, فلعل هناك دَغَل شهوةٍ خاطئة في حاجة لعصفٍ وتهذيب, أو شبهةٍ ردّتْ عنك بركة العلم والذكر والإيمان!

إن المؤمن إذا تدبر قول العظيم سبحانه: "إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد" لتهون في عينه الدنيا وما عليها, فأجلُ المعاد قريب, وهذي الدنيا القريبة الزائلة بمعالمها الفانية لن تلبث إلا أن تكون كسراب بقيعة، بل كطيف خيال أو كحلم منام, فتذهب مشقة الطاعة والمجاهدة ويبقى الأجر مبذولًا من خزائن الحميد الشكور.



القتال في سبيل الله جزء من الجهاد في سبيله

الحمد لله وبعد: فإنّ القتال في سبيل الله جزءٌ من الجهاد في سبيله، فالجهاد أعمّ، قال جل وعز: (وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم) وقال جل ذكره: (فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغال فسوف نؤتيه أجرًا عظيمًا) وقال سبحانه وبحمده: (فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرّض المؤمنين عسى الله أن يكفّ بأس الذين كفروا والله أشدّ بأسًا وأشدّ تنكيلًا).

وفي القرآن المجيد ثلاثة ألفاظٍ يحسُنُ التفريق بينها للخلط في فهمها عند بعض الناس؛ القتال والجهاد والشهادة:

فالأول: القتال، وهذا لا يكون إلا في سبيل الله، فمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، دون من قاتل حميّة أو شجاعة أو ليُرى مكانه أو للمغنم أو غير ذلك من حُطَامِهَا.

والثاني: الجهاد، وهو مطلقٌ ومُقيّد، فلفظ الجهاد إذا أطلق فالمراد به قتال الكفار بالنفس والمال لإعلاء كلمة الله، ولا ينصرف إلى غير القتال إلا



بقرينة، قال تعالى: (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله) وقال تعالى: (انفروا خفافًا وثقالًا وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) وقال سبحانه: (لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون) فالجهاد هنا هو القتال في سبيل الله، وهو الأصل عند ذكر الجهاد، أما غيره كجهاد النفس والدعوة ونحو ذلك فيدخل تبعًا أو مقيّدًا، فاستفراغُ الجُهْدِ لإعلاء كلمة الله ونصر دينه وهداية خلقه جهادٌ كما قال سبحانه: (وجاهدهم به جهادًا كبيرًا).

والثالث: الشهادة، وهي مطلقةٌ ومقيدة، فالمطلقة: هي ما استشهد صاحبها في القتال في سبيل الله تعالى، فهذا هو الأصل في الشهداء، أما المُقيّدة فهي: ما سُمي صاحِبُها شهيدًا في الشريعة، تفضّلًا من الله وتطوُّلًا على هذه الأمة المرحومة تكثيرًا لشهدائها.

وبينهما فرق كبير، فالمقيّدة بضعةُ أنواع كالغريق والحريق وصاحب الهدم وصاحب ذات الجنب ـداء في البطنـ والمبطون ـأي مات بداء البطنـ والمطعون ـبالطاعونـ والقتيل ظُلمًا ـعند بعض أهل العلم لذكر عمر وعثمان



بالشهادة، وليس بظاهر فشهادتهم لأنهم في سبيل الله وليس لمطلق المظلوميّة_ وغير ذلك مما سُمّي صاحبُه شهيدًا، فكل هؤلاء لهم مسمّى الشهداء في الدنيا والآخرة، فواحِدُهُم شهيدٌ، له مطلق الشهادة دون الشهادة المطلقة، وهي دون الثانية بكثير، فهؤلاء شهداء، لكن لا يُقال لهم شهداء في سبيل الله إلا إن كان ذلك ونحوه بسبب جهادهم في سبيله، كما في الحديث الصحيح عن نبيّنا صلى الله عليه وسلم قال: "ما تقولون في الشهيد فيكم؟" قالوا: القتل في سبيل الله. قال: "إن شهداء أمتي إذن لقليل. من قُتِلَ في سبيل الله فهو شهيد، و من مات في سبيل الله فهو شهيد، والمبطون شهيد، والمطعون شهيد، والغرق شهيد" (صحيح الجامع: ٥٦٠٢) وقال صلى الله عليه وسلم: "الشهادةُ سبعٌ سوى القتل في سبيل الله: المقتولُ في سبيل الله شهيد، والمطعون شهيد، والغريق شهيد، وصاحب ذات الجنب شهيد، والمبطون شهيد، و صاحب الحريق شهيد، والذي يموت تحت الهدم شهيد، والمرأة تموت بجمعٍ شهيدة" _والجمع هو النفاس_ رواه أحمد وغيره من حديث جابر بن عتيك وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٧٣٩) . فهؤلاء إنما وهبهم الله منزلة الشهادة فضلًا منه ورحمة دون قتال منهم في سبيله، فهم



شهداءً إما لموتهم دفاعًا عن أنفسهم أو عرضهم أو مالهم، أو لميتةٍ شديدة أحلّت بهم رحمة الله تعالى كالطاعون والهدم والغرق ونحو ذلك.

أمّا الشهادة المطلقة -وهي الكمال- فهي منصرفةٌ للشهيد قتيلًا في سبيل الله تعالى، صابرًا محتسبًا مُقبلاً غيرَ مُدبرٍ، ويكون قتالُه لتكون كلمةُ الله هي العليا، فصاحبها هو الذي حاز مرتبةَ الشهادة الكاملة بخصالها السّتِّ، مع الحياة البرزخية الحقيقية، مع جَعْلِ روحه في حواصل الطير الخضر في جنات النعيم. وهذه المرتبة هي غاية آمال المقرّبين بعد مرتبة الصّدِّيقيّة نسأل الله الكريم من واسع فضله وعميم كرمه وجزيل هباته وعظيم إحسانه، إنه الحي القيوم ذو الجلال والإكرام.



لنملأ قلوبنا بالثقة بالله وبوعده ولقائه

هلا تدبرنا قول الله جل وعز: "فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون" نعم فالله حق ووعده حق, فلا يستخفنك أيها المؤمن ويزعزع ثقتك في مولاك أقوام مالهم في الآخرة من خلاق!

وتأمل قول العلي الكبير سبحانه: "ذلك بأن الله هو الحق" فكل ما سواه مما يُتعلّق به باطل, وكل ما يوثق به دونه ضعيف زائل.

وتدبر قوله جل في عُلاه: "من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت" فلا إله إلا الله! كم في هذا الوعد الصادق الكريم من تثبيتٍ لعزائم المحبين, ورَوحٍ لأفئدةِ الموحّدين، وربطٍ على قلوب المجاهدين بألسنتهم وأيديهم. إنها الثقة التي تثمر أعجب الثمار, وأحلى النتائج, وأبهى النهايات, وأسمى الغايات:

فالمجاهد يقبل بمهجته في أتون كبد الوغى رابطَ الجأش ثقةً بموعود ربه. "فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون"

إذا فارقوا دنياهمُ فارقوا العنا وصارُوا إلى موعودِ مَا في المصاحفِ





المنفق أمواله في مراضي ربه واثقٌ بموعوده، ولا يريد من الخلق جزاء ولا شكورًا, فلا ينتظر منهم حتى كلمة جزاك الله خيرًا, أو شكرًا! لأنه صدره مليء بالثقة بما عند ربه وبصدق وعده, دعْها فمعها حذاءها وسقاءها. "من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت"

المريض المدنف ساكن النفس لاهج بحمد ربه بإنعامه عليه بهذا البلاء! ولكن غير الواثقين لا يعلمون حقائق كنوز الرضى وذخائر الثقة! إنه يقرأ في منشور فلاحه وصفًا للمرضيِّ عنهم: "العابدون الحامدون السائحون" ويتدبر قول ربه: "والله يحب الصابرون" فتهفو نفسه الواثقة لمزيد من اليقين حتى يكون الخبر كالمعاينة!

الفقير يكدح بيده قد اكتفى بقوت يومه وليلته له ولمن يعول، بلا استشرافٍ قلقٍ لمستقبل مظلمٍ! ثقةً أن مَن خلقهم هو من تكفل برزقهم, وهو يعلم أن مِن أفضل العبادة انتظار الفرج "وفي السماء رزقكم وما توعدون"

الداعي إلى الله والمربي والمحتسب يقابل جيوش الهموم وكتائب الصعاب والغموم بابتسام وصبر ورضى, مهما تكالبت عليه العوائق وتحالفت على كبحه المنغصات - رغَبًا ورَهَبًا وتعجيزًا - لأنه واثق بصدق وعد ربه, أنه لا يضيع

أجر من أحسن عملًا, كيف وهذا العمل هو وظيفة المرسلين! "ومن أحسن قولًا ممن دعا إلى الله"

الشاب القابض على دينه، المستمسك بعروة ملّته، يلتفت يمنةً ويسرةً في أسراب المتساقطين في حبائل الشهوات وهياكل المنقلبين لحضيض الخطيئات فيهزّ رأسه متعجّبًا من سرعة تقلب القلوب، ويضع يده على فؤاده سائلًا ربه مزيدًا من لطفه، وتثبيتًا من لدنه، فيمشي واثقًا لا تسع روحه الدنيا شوقًا للقيا ربه، وفرحًا بالعلم بإلهه، "قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون"

الوالد المشفق يزرع ذريته في أرض أمهم الخصبة، ويسقيهم بأدعيته المباركة وإرشاده الصادق وقدوته الحسنة, ويعلم أن أبناءه وبناته هم مشروع حياته الأعظم, فيجعل لتحصيل هدايتهم وصلاحهم واستقامتهم أفضل أوقاته وأثمن ممتلكاته وأوفى جهده, واثقًا بأن المربي الحق والهادي الحق والحافظ الحق هو الله الحق, فجثمانه في إصلاح أجسادهم وروحُه معلّقة بالحافظ الهادي، استمطارًا لإصلاح فلذات كبده ومُهَجِ حياته, بزادٍ لا ينضب من الثقة بوعد الله وحكمته. فهو لَهِجٌ مُلِظٌّ بدعوة الحي الذي لا يموت والقيوم الذي لا ينام: "ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين"





المظلوم يتلوّى شِلْوُهُ مِن مرّارةِ قهْرِ الظالم, وحرارة سياط مقارِعِهِ النفسية والجسدية, لكن قلبه واثق بموعود ربه ونصره للمظلومين, ومهما طالت دولةُ ظالمِهِ وجولةُ قاهِرِهِ ففوقه جبارُ السماوات والأرضين الذي يُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته, فلا تزال عين المظلوم باردةً قرّى إذ موعد المحكمة الإلهية لِظَالمه بالمرصاد, وخيرٌ للمظلوم لو أُخّر نكال ظالمه للآخرة! فما أقصر ليل الظالمين! "ولا تحسبن الله غافلًا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار" إله الحق جنّبنا ظلم أنفسنا بشرك فما دونه وظلم عبادك يا ذا الجلال والإكرام.

وبالجملة؛ فالمبتلى في دنياه إن رزق الثقة فلا عليه ما يفوته من الحطام, وليعلم أن الفرج أقرب له من مارِنِ أنفه، وكفى بالإيمان حظًّا "أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتعودون برسول الله إلى رحالكم؟!"

يا صاحب الهمِّ إنَّ الهم منفرجٌ أبشِر بخيرٍ فإنَّ الفارج اللهُ

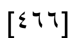
اليأس يقطع أحياناً بصاحبه لا تيأسنَّ فإنَّ الكافي اللهُ

الله يُحدِث بعد العسر ميسرة لا تجزعنَّ فإن القاسم اللهُ

إذا بُليت فثِقْ بالله وارضَ به إنَّ الذي يكشف البلوى هو اللهُ

والله ما لكَ غير الله من أحدٍ فحسبُك الله في كلٍ لك اللهُ





صبرًا.. يا أهل الحُسْبَةِ!

الحمد لله الحق المبين, والصلاة والسلام على خاتم المرسلين, أما بعد:

فأتفهَّمُ النقد المنصف لأداء جهاز الهيئات كأي نقدٍ لأجهزة الدولة الأخرى، فحيث وجد البشر فثمّ أخطاء, ولا عصمة لغير الأنبياء. ولكن أن تكون الخصومة بفجور؛ سواء كان باختلاق الأقلام المسمومة لحوادث لا حقيقة لها, أو بزيادة تفاصيل تحرفُ فهم المتلقّي, أو ببتر حقائق كانت مكمّلةً لمشهد الحُكم، أو باستباق أحكام القضاء ونشر عرائض الاتهام بما فيها من حق أو زور؛ فما هذا من النَّصَفِ في شيء! "ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعًا هو السميع العليم"

لِمَ كلّ هذا الاستيفاز لصناعة الوهم الإعلامي وشيطنة المصلحين عبر ضخّ المقالات والتقارير والتصريحات التي ظاهرها بعين من يمكر الله بهم خفضٌ للمصلحين، وباطنها ومآلها خيرٌ عميم, وتلك سنة الله في الرسل وأتباعهم مع مخالفيهم. "يبتلون, ثم تكون لهم العاقبة"





عند العقلاء: التقويم غير التشفّي, والبناء ضدّ الهدم؛ لذا فالتركيز على أخطاء منسوبي الهيئة مع العمى المتعمّد عن بواقع غيرها - مع أنها في نفس مسار الخطأ - بل ضحايا أخطاء القطاعات الأخرى أكثر وأخطر, وهل من حاجة لدليلٍ في رائعة النهار؟!

وإنّ من أَسَفِّ قالاتِهم السيئة وطرائقِهم الباغية: الاتهام والتضخيم قبل التثبت, والنظر بعين واحدة حقود, حتى إذا ثبتت براءة ليوث الحسبة؛ اكتفوا - إن فعلوا - بذكر خبر جانبي صغير عن براءتهم, لا يوازي معشار ما استبقوه من فجور الخصومات, بعدما رسموا في خلفيّة المُتلقّي نمطيةً رسمها إعلامُهم! وعند الله تجتمع الخصوم! وكيدهم لا يغيّر من ناصع الحق شيئًا, فالمحتسبون لسان حالهم: الفاضل من عُدَّتْ سقطاته, ومحاربوهم قد نجّسوا الأَبحُر في خفة الطير وأحلام السِّباع, كأنما وصفهم من قال:

مساوئُ لو قُسِمنَ على الغَوَاني لما أُمْهِرنَ إلا بالطلاق!

فهل من المروءات والشيم أن تَنشرَ ما قيل في خصمك مع تكميمك لقلمه عن إبداء دفاعه عن نفسه؟ أين الفروسية والنبل؟! ثم أين من يقف وراء ذلك المشروع الهادم, ومن المستفيد؟! "وربك أعلم بالمفسدين" وهل يراد للمحتسب أن تكون هيبته في صدور الفجرة سليبةً كصِنوِهِ المعلم؟! كفى



فسادًا وإفسادًا! ولكن: "ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين. ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون"

ألا تعجبون من طبيعة عُبَّاد الرذيلة: فلكل جهازٍ أمنيٍّ خصوم ومبغضون؛ فحرس الحدود يخشاهم ويبغضهم مهربو المخدرات والممنوعات, والشُرَطُ يخشاهم ويكرههم السراق واللصوص.. أما أُسُود الهيئة فيخشاهم لصوص الأعراض وفجرة حدود الله. فتأمل الحالين وتلمّح الطريقين "وكذلك جعلنا لكل نبي عدوّا من المجرمين وكفى بربك هاديًا ونصيرًا".

وفي وقتنا العصيب الذي انتشر فيه وباء الخطايا كنا نأمل للهيئة بوزارة مستقلة ذات سيادة وكفاءة, ثم يأتينا مِنْ خُدُجِ الكتّاب من يطلب إلغائها أو ضمها للشرطة! يا لَله, أي حرب هذه؟!

ولكل من صَعدَ مدارج السموّ والعلوّ عبر أخذه بحبل الخيرية "الاحتساب" كما قال ربنا سبحانه: "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله" نقول:

أبشر واثبت ولا يستخفنّك ثناء مادحٍ, ولا يستفزنّك خَطَلُ قادحٍ, فمنهاج النبوّة واضح, وطريق أتباع المرسلين هو الابتلاء في ذات الله, والضربة التي



لا تكسر ظهرك إنّما تزيده قوّة, وتذكّر أن مراتب الإنكار على حَسَبِ المصلحة الشرعية والطاقة البشرية, وتدبّر أهميّة العلم قبل الإنكار, والرفق في أثنائه, والحلم والصبر بعده, ولا تنسَ حُسْنَ العبادة, وصلاحَ القلب, وصدق الضراعة, والتعلّق بربك وحسن الظن به وعظيم الثقة بوعده ولقائه, والقنوتَ القنوتَ ورأسُه الصلاة الطويلة الخاشعة فهي جَنَّةُ المحتسبين وجُنَّتُهُم: "يا بني أقم الصلاة وأْمُرْ بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور" فتأمل سكينة وقوّة المحتسب وهو بين صلاة وصبر "واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة" إي وربي, ففي جوف صلاتك الخاشعة ستفوز بألطاف وفتوح لا يطيقها المِداد! وغدًا: "ومن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة"

واعلم أنَّ أولَ ما يُكافأُ به المحتسبُ المخلصُ المتّبعُ؛ زيادةٌ في إيمانه يذوق حلاوته بلسان قلبه, "إنا لا نضيع أجر المصلحين" فهم ورثةُ المرسلين في أطْرِ الخلق على حسن العبودية للخالق؟! وإذا كان الصبر رأس الإيمان؛ فأعظم مراتبه صبر العبادة والتّعبيد.

لقد جعل الله الدنيا مُنَغَّصَةً لتتّعِظَ النفوسُ المطمئنة لوعد ربها في الآخرة الباقية, ببصائرَ ترى الدنيا الفانية ممرًّا ومعبرًا, إذ خُذِلَ المتهالكُ على الحطام



الفاني.. وتأمل: "وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون . أفمن وعدناه وعدًا حسنًا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين"؟!

لقد جعل الله بعض الشريعة على خلاف أهوية النفوس, ليمِيز المؤمن المستسلم لأمر ربه من المرتاب المتوثب المتفلّت، والناس بينهما, فمستقلٌّ ومستكثر.

وفي أزمنة الغربة تُضاعفُ أجورُ المصلحين بحسَبِ وجود الأعوان على الحق, فلئن تنكّر لك الخلق فأكْرِمْ بمن هو في معيّة الخلاق! ويأتي على الناس زمانٌ القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر, ولربَّما ترقَّى بالأجر حتى يُكرمَ بأجر خمسين صحابي! فضلًا من الله ونعمة.

هذا, ولمُنتسبةِ أثارةِ علمٍ ومشيَخة ممن رام تعطيل أو إضعاف فريضة الاحتساب بتأويلٍ أو تمحُّلٍ، فباع أخراه بدنيا غيره: نعظه بموعظة علام الغيوب: "قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون" "واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين" وهي أشدُّ آية على العلماء! وكيف بالملح إن حلّت به الغِيَرُ؟!

تدبّروا القرآن واكسروا به أقفال القلوب: "فخلف من بعدهم خلفٌ ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون . والذين يُمَسِّكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين"

سأل ربيعة الرأي الإمام مالك: من سِفْلة الناس؟ فقال: من أفسد دينه، قال: فمن سفلة السفلة؟ قال: من أصلح دنيا غيره بإفساد دينه! فاللهم غفرًا.

ومن لطف الله بأهل الحسبة أن يقيّض لهم من يدفع عنهم الأذى والسوء -كما نراه عيانًا من اجتماع قلوب وألسُن المؤمنين على نصرهم والدعاء لهم - بل قد يدفع الله عنهم الكيد والأذى بمحض اللطف الرباني بدون سبب ظاهر "إن الله يدافع عن الذين آمنوا" لذلك فأقرب ما يكون المحتسب من معية ربّه إذا انقطعت علائق قلبه عن الخلق وتعلّقت بالثقة وحسن الظن بالخلاق العظيم "فالله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين"

وكذلك فحين ترى تَنَكُّرًا لأهل الاحتساب ممن يُظن فيهم حسن المدافعة وحزم الموعظة للظالمين، فاعلم أن هناك مَنْ خذله الله ورفع عنه توفيقه قبل أن يرفع الممكور به جاهه وسلطانه عن مدافعة المبطلين! والموفقُ من قام



في حراسة أديان الناس وأعراضهم دون كيد الشيطان وحزبه, فالأول من هذا الركب الإيماني "أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم الغالبون" والآخر المخذول من "أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون" وأهل الإيمان مدحهم ربهم في القرآن بأنهم: "يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر" بينما ذم أهل النفاق بأنهم: "يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف"

الاحتساب ليس كغيره من فرائض الدين وشعب الإيمان فله مكانه الخاص العالي بينها, فهو فرع عن الجهاد في سبيل الله الذي هو ذروة السنام, لذا فقد عدّ بعض أهل العلم هذه الشعيرة الجليلة الركن السادس للإسلام لأنه لا يقوم إلا بها, فهي حصن الملّة, وهي الفريضة الغائبة بين كثير من الناس, فهل من مدّكر؟!

وإن المؤمن ليوجل قلبه ويخاف كلما سمع آية المائدة: "واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة" وهو يرى الشرك والبدع والربا والمظالم والتغريب والمجاهرة بالمعاصي, ويعلم من داخلة نفسه أنه لم يقم لله في دفعها حق القيام! ولو اجتمع المصلحون لكان خيرًا لهم, ولقد حاول الشياطين ولم يزالوا في السعي بين الأخيار بالتحريش والحسد والحظوظ الفانية! وقد قال سفيان

الثوري رحمه الله: «إذا أمرت بالمعروف شددت ظهر أخيك, وإذا نهيت عن المنكر أرغمت أنف المنافق» وكان بعض السلف إذا رأى منكراً ولم يطق تغييره بال الدم من الغضب لله والحزن مما رأى. فهل يا تُرى نُمَتَّع حتى نرى أمثال أبي ذرّ وطاووس وابن جبير؟!

شاهد المقال: أن أوامر الله وحدوده لا بد أن يكون لها من البشر من يضيق بها ذرعًا ولا يطيق الإلزام بها، فنفسه الأمارة نزاعة دومًا لحضيض الخطايا ودنس المعاصي, فإن جاءها من يأخذ بيدها للطهارة والطيب؛ ضاقت واستوفزت ثم حاربته وفجرت, ولا يقرّ لها قرارٌ وهي ترى المصلحين يَهْدُونها ولو بالسلاسل, وبعض خبيثات النفوس على مذهب الهالكين: "أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون"

ومن الأهمية بمكان: أن يكون لدى عموم الناس ثقة مطلقة بأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صِمَامُ أمان من العذاب العام والخاص، فهي سفينة النجاة كما مثل بها النبي صلى الله عليه وسلم. وفي الصحيحين من حديث زينب رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم, إذا كَثُرَ الخبَث». ومما أُثِرَ عن عمر بن عبد العزيز

رحمه الله قولُه: «كان يُقال: إن الله لا يعذب العامة بذنب الخاصَّة ولكن إذا عُمِل المنكر جهاراً استحقوا العقوبة كلهم»

والجبار جل جلاله لم يعذر في هذا الأمر أحدًا فالتكليف به عام كلٌّ بحسَب طاقته وقوته وحاله, كما ثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله: "من رأى منكم منكرًا فليغيّره.. الحديث" رواه مسلم من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

ولما ذكر الله عذابه البئيس ونكاله العظيم بعصاة أهل السبت أثنى على المحتسبين المنكرين ولم يذكر نجاة الساكتين فاحذر يا من تظن أنه قد وسعك السكوت فالتبعة لا تسقط على المستطيع مادام المنكر فاشيًا, فتدبر - يا رعاك مولاك - قول الكبير المتعال: "وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قومًا الله مهلكهم أو معذبهم عذابًا شديدًا قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون" فالذي دعاهم للإنكار خشيتهم على أنفسهم من عذاب الله أولًا, ثم شفقتهم ورحمتهم بمن ركب المنكر من عذاب الجبار جل جلاله, فما لأحد بغضب العظيم من طاقة, ثم كانت نهاية المشهد المروّع لأولئك كما وصفه سبحانه وبحمده بقوله الأجل: "فلمّا نسوا ما ذكّروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء



وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون . فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين"

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ترجمان القرآن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم ثلاث فرق: فرقة العصاة، وفرقة الناهين وفرقة القائلين: "لم تعظون" فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم! فأصبح الذين نهوا ذات غداة في مجالسهم يتفقدون الناس لا يرونهم، وقد باتوا من ليلتهم، وغلقوا عليهم دورهم، فجعلوا يقولون إن للناس لشأناً فانظروا ما شأنهم؟ فاطلعوا في دورهم، فإذا القوم قد مسخوا يعرفون الرجل بعينه، وإنه لقرد، والمرأة بعينها وإنها لقردة. عياذًا بربنا من موجبات سخطه وموردات مقته! وفي رواية لهم عنه قال: نجا الناهون وهلك الفاعلون، ولا أدري ما صنع بالساكتين. وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، عنه قال: والله لأن أكون علمت أن القوم الذين قالوا: "لم تعظون قومًا" نجوا مع الذين نهوا عن السوء أحبّ إلي من حمر النعم، ولكن أخاف أن تكون العقوبة نزلت بهم جميعاً. وعن تلميذه عكرمة أنه راجعه في نجاتهم, والله أعلم. معشر المحتسبين: ما أجمل أن نبثَّ رُوحَ التفاؤل ورَوحَ الفرَجِ, وحسن الظن بالله وبوعده ولقائه, وحسن العاقبة, ثم حسن الظن بعباده, والمؤمن مأمور بحسن العمل وغير مكلَّف

بإدراك ثمرته في دنياه, فالثمرة العظمى رضا رب العالمين, فمن أدركها فلا عليه ما فاته مِما سواها, والله المستعان.

وقبل الرحيل تدبّر آية يونس: "واتّبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين".

فاصلة: لقد أحسن من قال: أسعدُ الناس رجلٌ موسّدٌ في قبره يردّد: ربّ أقم الساعة, ربّ أقم الساعة.





الذكر الذكر يا أمة الذكر

روى الإمام مسلمٌ في صحيحه عن أبي وائل شقيق بن سلمة الأسدي قال: "غَدَوْنا عَلَى عَبدِ الله بن مَسْعود رضي الله عنه يَوْماً بَعْدَ مَا صَلَّينَا الغَدَاةَ، فسلّمنا بالباب، فأُذِن لنا، قال: فَمَكَثْنَا بالباب هُنيَّةً, قال: فخرجت الجارية فقالت: أَلاَ تَدْخُلُونَ فدخلنا، فإذا هو جالسٌ يُسبّح، فقال: ما منعكم أن تدخلوا وقد أُذِن لكم فقلنا: لا، إلاَّ أنَّا ظننَّا أنَّ بعضَ أهل البيت نائمٌ، قال: ظَنَنْتُم بآل ابن أمِّ عَبدٍ غَفْلَةً, قال: ثمَّ أَقبل يُسبّح حتى إذا ظنَّ أنَّ الشمسَ قد طلعت، قال: يا جارية: انظري هل طلعت قال: فنظرت فإذا هي لَم تَطلُع، فأقبل يُسبّح، حتى إذا ظنَّ أنَّ الشمسَ قد طلعت قال: يا جارية: انظري هل طلعت قال: فنظرت فإذا هي قد طلعت، قال: الحمد لله الذي أقالنا يومنا هذا، ولم يُهلكنا بذنوبنا" (مسلم (١/٥٦٤)

وقال ابن القيم رحمه الله: حضرتُ شيخَ الإسلام ابنَ تيمية مرَّةً صلّى الفجرَ، ثم جلس يذكرُ اللهَ تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفتَ إليَّ وقال: هذه غدوتِي، ولو لَم أتغذَّ هذا الغِذاءَ سقطت قوَّتِي، أو كلاماً قريباً من



هذا". وقال لي مرة: لا أترك الذكر إلا بنية إجمام نفسي وإراحتها لأستعد بتلك الراحة لذكر آخر أو كلاما هذا معناه. الوابل الصيب - (١ / ٦٣)

ولقد ثبت في السُّنّة أنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم دعا اللهَ أن يُبارك لأمَّتِه في بكرة النهار، فعن صخر بن وَداعة الغامديِّ رضي الله عنه: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "اللَّهمَّ بارِك لأمَّتِي في بكورِها " وكان إذا بعث سريَّةً أو جيشاً بعثهم أوَّلَ النهار. وكان صخرٌ رضي الله عنه تاجراً، فكان يبعثُ تجارتَه من أوَّلِ النهار، فأثرى وكثُر مالُه. (سنن أبي داود (٢٦٠٦)، وسنن الترمذي (١٢١٢)

قلت: هذه بركة في الدنيا فكيف بالبركة في الدين وعمارة القلب بالإيمان والجوارح بالإسلام؟!

وقد قيل: يومُك مثل جملك إن أمسكتَ أوَّلَه تبِعَك آخرُه. وأعظم الذكر هو تلاوة كلام الله تعالى, ومن جعل شِرّةَ ونفاسة وقته للقرآن رأى البركة في سائر أموره.

وقد ذكر أهل العلم والدعوة من أمثلة ذلك ما لا يحصيه كتاب, وعلى قدر اشتغاله بالتلاوة والتدبر يكون الأثر المبارك في سائر قوله وعمله ونيّته وأثره في الناس.

قال إبراهيم المقدسي موصياً من أراد الرحلة لطلب العلم: أكثر من قراءة القرآن ولا تتركه؛ فإنه يتيسر لك الذي تطلبه على قدر ما تقرأ.





من أسباب عمارة القلب بالإيمان وبالثقة برب العالمين

طولُ القنوت والعبادة, وإنك لتعجب من حال بعض الدعاة إذا رأيته قد أنفق من عمره سنين عددًا, ثم ترى حظَّه من قيام الليل ثلاث ركعات, أما التهجد فلا وجود له إلا في رمضان! ثم تراه يشتكي قسوة قلبه وضعف إرادته وصعوبة كبح نفسه التي لا زالت مراوحة بين الأمارة واللوامة, أما المطمئنة فلا يحس لها بساكن!

أين طول القيام حتى يراوح بين قدميه, ويلتذ بصفهما لربه في جوف الليل الأوسط والآخر؟!

أين ترديد الآي أثناء التهجد والتدبر فيها والتفكر في مراميها والتسبيح عندها والتحميد والاستغفار والتأثر.. والحياة بها؟!

أين طول السجود والبكاء والضراعة والانكسار, وذوق اللحظات اللذيذة لروحه التي هي كما قيل: من أمتع لذائذ الأنفس في هذا الوجود؟!

وكما قال الإمام أحمد متأوهًا لمن نام عن تهجده من تلاميذه: يا عجبًا لطالب علم لا يقوم الليل! فنقول كذلك: يا عجبًا لداعية لا يقومه!



ثم أين الصدقة العظيمة الخفيّة التي يحس بانفساح صدره لها, وقد أخذها من حِلّها وأنفقها في مرضاة ربه حتى لا تعلم شماله ما أنفقته يمينه؟!

ثم أين صيام الهواجر, ومكابدة الجوع والظمأ للشكور سبحانه في يوم بعيدِ ما بين الطرفين, شديد حرّه حتى تذوب شهوة النفس في ذيّاك الأصيل من آصال الملك العلّام؟!

كذلك أين الذكر الطويل المأثور المتدبر في الأوقات الفاضلة بقلب حاضر منتبه لما يجري على لسانه من ذكر ربه بديمومة عمريّة تكون لروحه وجبة غذائية لا غنى لها عنها مهما اختلجت مشاغله واشتبكت قواطعه.

الذنوب جراحات ورب جرح وقع في مقتل!

إزالة وَضَرِ الخطيئة وأثرِ العصيان يحتاج لوقت طويل وليس كما يُظن أن التوبة تعيد القلب كما كان، فالقلب وهو وعاء الإيمان قد خُدش أو طُعن بحسب نوعِ وقدر الخطيئة، فبعض الخطايا يحتاج ترميم إيمان القلب بعدها لزمن طويل..

ومعنى التوبة تجب ما قبلها: أي يمحى الإثم من الصحيفة، ولكن هذا لا يعني بقاء القساوة والظلمة في القلب وقتًا قد يمتد العمر كله..

فاحذر الخطيئة مهما صغرت، وسارع للإقلاع عنها قبل أن تطول جذورها في قلبك، فكلما طالت جذورها صعب اقتلاعها بالتوبة أولًا، ثم صعب التخلص من آثارها السيئة آخرًا حتى بعد رحيلها.

وقد يوفق العبد لتوبة خاصة عظيمة تبني القلب بناءً كليًا جديدًا كأنه لم يقارف معصية قط! كحال كثير من الصحابة وعظيم إيمانهم الذي لن يلحق به من بعدهم، وكتوفيق الله لبعض التائبين الذين حفر الندم في قلوبهم أخاديد عميقة، وأجرى من عيونهم جداول غزيرة.. وهم يتمنّون بصدق

لعظيم ندمهم أنهم لم يخلقوا حتى لا يزلّوا تلك الزلة التي كوت قلوبهم وأحرقت وجوههم حياء من ذي الجلال والإكرام سبحانه، ولكن من يوفق لمثل هذا؟!

لولا الابتلاء لارتبنا الطريق!

الحمد لله وبعد: فعلى قدر إيمانك ويقينك بالقرآن يكون انتفاعك به, وعلى قدر تسليمك وانقيادك لهداياته يكون فلاحك في الدارين. ذلك أن القرآن العظيم حق مطلق لا مرية في حرف منه, فحروفه ومعانيه هي من لدن حكيم خبير, قد حَفِظَهُ من تكلّم به, وكَتَبَ أن السلامة والعافية مع من دار مع أمره مهما حَرَنَتِ نفسه, ووقف معه مهما جمحت, "فمن اتّبع هداي فلا يضل ولا يشقى" لا يضل في الدنيا, ولا يشقى في الآخرة.

في هذا الزمان المتلاطمة أمواج فتنه, أضحى الحليم حيرانًا, والشجاع جبانًا, والعليم جاهلًا.. إلا من رحم ربي, لقد كان لزامًا على كل حازمٍ مراجعة سجلات عمره, ومنهج حياته فالفرصة يتيمة, والمهلة لا تحتمل العَوْد والرُّجعى!

لقد خلقنا الله ليبتلينا ويبتلي بنا, "الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملًا" فالأمر حاسم جدًّا كما قال سبحانه: "ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم" إذن فالمسألة مسألة فتنة وابتلاء,

فحقيقة الابتلاء هي الفتنة التي تبلو حقيقة معدن المرء أَمِنْ ذهب قلبُهُ فيفلح, أم من نحاس فيخسر نفسه؟!

يا صاحبي! الأمرُ أقرب مما نتصوّر, وخَطْبُ نفوسنا أجلُّ من أن يوصف, والعلاج كلّه بين أيدينا فهل من معتبرٍ مِدَّكرٍ!

لقد وصف الله تعالى كتابه الكريم بالشفاء والهدى والبيان والرحمة, فهو الشفاء التام لكل الأدواء, وبخاصة ما كان متعلقًا بالأرواح والأفكار والتصوّرات, فضلًا عن الأجساد "يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربّكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين"

هَهُنَا أحدى عشرة آية من صدر سورة العنكبوت, وددت لو أن كل مؤمن يتلوها في هذا الزمان مرارًا, ويكررها ويحفظها ويجعل معانيها نصب عينيه, ويا حبذا ترديدها من لدن الأئمة في الصلوات, ففي القلوب حاجة لمثلها, إذ وصفت الداء كما هو, وعرّت زيف الشبهة والشهوة, وأقامت عمود الضياء الهادي من الضلالة العاصم من الغواية, حتى عاد الأمر جليًّا واضحًا لا تحجبة سوى أهوية النفوس الخاسرة!

دعونا يا محبين نقف قليلًا مع شيء من هداياتها:

قال سبحانه: "ألم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا ءامنا وهم لا يفتنون" فمن آمن فلا بد له من الفتنةِ حتى يُثبِتَ صدقُه, لذا فلا بد له من علمٍ بالحق يدفع به عن قلبه الشبهات, وإيمانٍ راسخ يذودُ عنه معاصي الشهوات, لذلك أَتْبَعَ سبحانه ذلك بقوله: "ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين" أي يظهر علمُه في عالم الشهادة, وإلا فهو علّام الغيوب. "أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون" أي لن يفوتونا.

"من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم" الله أكبر! فيا أيها المحب: هذا ربك قد قطع لك الوعد, فتزيّن له بالصالحات تلقه راضياً "ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغنى عن العالمين" فالله ليس في حاجة أحد بل العبد هو المضطر إلى مَدَدِ ربه وقبوله وتوفيقه, ودينُ الله منصور, ولكن السعيد من وُفِّقَ لمعيه أنصاره. قال الحسن: إن الرجل ليجاهد وما ضرب يومًا من الدهر بسيف.

"والذين ءامنوا وعملوا الصالحات لنكفّرنّ عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون" أي بأحسن أعمالهم وهي الطاعات, ومنه برّ الوالدين حتى وإن أَمَرَا بأعظم خطيئة! فكيف بالمؤمِنَين؟! فقال سبحانه: "ووصينا

الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون" مع هذا فقد بشّره ووعده بأن يجعله في زمرة المفلحين يوم القيامة, وليس مع والديه المشركَين, فكيف إذا كانا من المؤمنين؟! فقال: "والذين ءامنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين"

ثم ذكر سبحانه حال بعض المخذولين ممن لم يدخل الإيمان بشاشة أفئدتهم, إنما هو الرياء والنفاق فقال سبحانه: "ومن الناس من يقول ءامنا بالله فإذآ أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين" بلى وعزة ربنا, كما قال تعالى: "أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور . وحُصِّلَ ما في الصدور" ففتش قلبك الآن يا صاحبي قبل أن يُحَصَّل ما فيه. ثم ختمها العزيز سبحانه بقوله الجليل: "وليعلمن الله الذين ءامنوا وليعلمن المنافقين" فالفتن العامة والخاصة تفرز الناس لفسطاطين, وفي الحديث الصحيح عند أحمد وغيره: "أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقّة ابتلي

على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة".

فاصلة: قال بعض السالفين: لو كانت الدنيا ذهباً يفنى والآخرة خزفاً يبقى؛ لكان على الحازم العاقل إيثار الخزف الباقي على الذهب الفاني, كيف والدنيا خزفاً يفنى والآخرة ذهباً يبقى!

صحيفة الاقتصادية

٣٠/ ١٠/ ١٤٣٤

(وإن تطيعوه تهتدوا)

الحمد لله وبعد: لقد ذكر أهل السير أمثلة ناطقة ببركة طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم, وشؤم مخالفته, منها ما حدّث به جابرُ بن عبد الله رضي الله عنهما قال:

كنت رفيق عبد الله بن رواحة في غزوة المريسيع، فأقبلنا حتى انتهينا إلى وادي العقيق في وسَط الليل, فإذا الناس نازلون للمبيت. قلنا: فأين رسولُ الله صلى الله عليه وسلم؟ قالوا: في مُقدّم الناس قد نام. فقال لي عبد الله بنُ رواحة: يا جابر, هل لك بنا في التقدّم والدخول على أهلنا؟ فقلت: يا أبا محمد, لا أحب أن أخالف الناس, لا أرى أحدًا تقدّم. قال ابن رواحة: والله ما نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تقدُّمٍ. قال جابر: أما أنا فلست ببارح -وفي هذا بركة الحزم وعدم التقدم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم-. قال: فودّعني وانطلق إلى المدينة، فأنظرُ إليه على ظهر الطريق ليس معه أحد، فطرق أهله بلحارثَ بنَ الخزرج، فإذا مصباحٌ في وسَط بيته, وإذا مع امرأته إنسان طويل -أي نائمٌ قريبٌ منها- فظنّ أنه

رجل, وسُقِطَ في يديه, وندم على تقدمه. وجعل يقول: الشيطانُ مع الغِرِّ! فاقتحم البيتَ رافعًا سيفه قد جرّده من غمده يريد أن يضربهما. ثم فكّر وادّكر -وفي هذا فضيلةُ التأني والتثبت-, فغمزَ امرأته برجله, فاستيقظت فصاحت وهي توسن -من الوسن وهو النعاس, أي قامت من نومها فجأة- فقال: أنا عبد الله, فمن هذا؟ قالت: فلانة ماشِطتي، سمعنا بمقدمكم فدعوتُها تمشِطُني فباتت عندي!

فبات, فلمّا أصبح خرج معترضًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم, فلقيه ببئر أبي عتبة, ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم يسير بين أبي بكر وبشير بن سعد, فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بشير فقال: "يا أبا النعمان" فقال: لبيك . قال: "إن وجه عبد الله ليخبرك أنه قد كره طروقَ أهله" -وفيه عظيمُ فراسةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم- فلما انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خَبَرُكَ يا ابن رواحة؟" فأخبره كيف كان تقدَّمَ, وما كان من ذلك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تطرقوا النساء ليلًا" قال جابر: فكان ذلك أولُ ما نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال جابر -وتأمل حكمته-: فلم أر مثلَ العسكر ولزومه والجماعة, لقد أقبلنا من خيبر، وكنا مررنا على وادي القُرى

فانتهينا إلى الجُرُفِ ـموضعٌ قرب المدينةـ ليلًا، فنادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تطرقوا النساء ليلًا, قال جابر: فانطلق رجلان فعصيا رسول الله صلى الله عليه وسلم, فرأيا جميعًا ما يكرهان! . المغازي: (١ / ٤٤١ـ٤٤٢)

نعم, فالله تبارك وتعالى يقول :"وإن تطيعوه تهتدوا" فالهدى بحذافيره والسعادةُ بتفاصيلها في اتباعه وطاعته, والشؤم والشر في مخالفته, وتأمّلوا عقوبة جيش المسلمين بكسرهم في معركة أحد بسبب عصيان الرماة, ولربّما أُديلَ على الجيش بعصيان بعضه.

ومن رام الفلاح فليتعلّق بأهداب متابعة أهدى الناس, وأعلمهم وأنصحهم وأتقاهم, أنه محمد بن عبد الله, عبدُ الله ورسولُه وخيرتُه من خلقه. وأفضلُ الخلق على الإطلاق. وهو رسول الله إلى الناس كافة، وإلى جميع الثقلين الجنِّ والإنس. وهو أفضل الرسل، وخاتمُ النبيين لا نبي بعده، قد شرح الله له صدره، ورفع له ذكره، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره، وهو صاحب المقام المحمود الذي قال الله تعالى فيه: "عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا" أي المقامَ الذي يقيمُه الله فيه للشفاعة للناس يوم القيامة

ليريحهم ربهم من شدة الموقف، وهو مقام خاص به صلى الله عليه وسلم دون غيره من النبيين، وهو أخشى الخلق لله وأتقاهم له وأعلمهم به.

وقد كرّر الله الأمر بطاعة الرسول واتّباعه في نحو أربعين موضعًا من القرآن، فالنفوسُ أحوجُ إلى معرفة ما جاء به واتّباعه منها إلى الطعام والشراب، فإن الطعام والشراب إذا فات الحصول عليهما حصل الموت في الدنيا، وطاعة الرسول واتباعه إذا فاتا حصل العذاب والشقاء الدائم.

ومن اتّباعه وإجلاله تعظيمُ سنته صلى الله عليه وسلم, واعتقادُ وجوب العمل بها, والذبّ عنها, لأنها وحي من الله تعالى. كما قال تعالى: "وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى" فلا يجوز التشكيكُ فيها, ولا التقليل من شأنها بالحال أو المقال. وقد كثر في هذا الزمان تطاولُ الجهالِ على سنة الرسول صلى الله عليه وسلم, بل واستطالَ استهزاءُ السفهاءِ بها، وهذا من غربة الإسلام, والله المستعان, "ولو شاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض".

أن المثل البشري الأعلى لكل موفّق هو رسول الله صلى الله عليه وسلم, إذ جعل الله له الكمال البشري في أجلى صوره, فيستحيل أن يُوجَدَ في سجلّه أدنى نقيصة أو أقل وأخبر سبحانه وتعالى أن فيه القدوةَ الحسنة لأمته،

فقال تعالى: "لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا" قال ابن كثير رحمه الله: هذه الآية الكريمة أصلٌ كبير في التأسِّي برسول الله صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله وأحواله.

١٤٣٤/٩/٢

"وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيْدًا"

بينَ الأحزابِ, وشَقْحَب, ومَلَاحِدَةِ الزَّمَانِ!

الحمد لله معزّ من أطاعه ومذلّ من عصاه, هو أهل التقوى وأهل المغفرة, أقسَم بالعاديات الموريات المغيرات تعظيمًا لشأن القتال لإعلاء كلمته, وجَعَلَ الجهاد في سبيله ذروة سنام دينه, وكتب الذل على من رضي بالدُّونِ دون سُبُحُاتِ العُلَى من ذُرَى معالِي مراضِيه وسياحة أوليائه, بالقتال لإعلاء كلمته وإعزاز دينه وهداية خليقته وإغاضة أعدائه. وأشهد أن لا إله إلا الله, جعل أرواح الشهداء عنده في حواصل طير خضر, تسرح في أنهار الجنة حيث شاءت, ثم تأوي إلى قناديل تحت العرش, فيقول لهم عز وجل: ما تريدون؟ فيقولون: ما نريد شيئا، ويقولها ثلاثا، إلا أن نرد إلى الدنيا فنقتل. حديث صحيحٌ رواه الطيالسي والترمذي. وصلى الله وسلم وبارك على الضحوك القتال, نبي الرحمة والملحمة, من أُنزلت عليه سُوَرُ القتال والأحزاب والأنفال والتوبة. جاهد في الله حق جهاده بجَنَانِه ولِسانه وسِنانه, بيقين وثبات وشجاعة وصدق ونصح, فأكمل كلّ مراتب الجهاد في

سبيل ربّه, وأتمَّ كلّ شعب الإيمان بلا مثنوية, فلا كان ولا يكون في الخليقة مثله في عبوديته لربه تبارك وتعالى. أما بعد:

فقد قال الله تبارك وتعالى: :ونزّلنا عليك الكتاب تبيانًا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين" (النحل: ٨٩) وقال سبحانه وبحمده: "إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها" (الزمر: ٤١) وقال تعالى جَدُّهُ: "وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين" (الإسراء: ٨٢) وقال جل شأنه: "يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين , قل بفضل الله وبرحمته فليفرحوا هو خير مما يجمعون" (يونس: ٥٧_٥٨) وقال تقدّس اسمه: "أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون" (العنكبوت: ٥١) ففي القرآن العظيم كل الهدى, وعلى قدر القرب من الهداية يكون التوفيق والرشاد.

وقال جل وعز: "وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم" وقال جل ذكره: "فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغال فسوف نؤتيه أجرًا عظيمًا" وقال سبحانه وبحمده: "فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرّض المؤمنين عسى

الله أن يكفّ بأس الذين كفروا والله أشدّ بأسًا وأشدّ تنكيلًا" وقد ذكرت نصوص الوحي ثلاثة ألفاظٍ يحسُنُ التفريق بينها للخلط في فهمها عند الناس؛ القتال والجهاد والشهادة:

فالأول: القتال, وهذا لا يكون إلا في سبيل الله, فمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله, دون من قاتل حميّة أو شجاعة أو ليُرى مكانه أو للمغنم أو غير ذلك من حُطَامِهَا.

والثاني: الجهاد, وهو عامٌّ وخاصٌّ, فالعامّ هو استفراغُ الجُهْدِ لإعلاء كلمة الله ونصر دينه وهداية خلقه كما قال سبحانه: "وجاهدهم به جهادًا كبيرًا" وقال سبحانه: "يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم" أما الخاص منه فهو الجهاد في سبيل الله في ميادين الوغى, وذلك يكون بالنفس والمال كما قال سبحانه: "انفروا خفافًا وثقالًا وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون" وقال سبحانه: "لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون"

والثالث: الشهادة, وهي مطلقةٌ ومقيدة, فالمطلقة: هي ما سُمي صاحِبُها شهيدًا في الشريعة, تفضّلًا من الله وتطوّلًا على هذه الأمة المرحومة تكثيرًا لشهدائها, والمُقيّدة: هي ما استشهد صاحبها في القتال في سبيل الله.

وبينهما فرق كبير, فالمُطلقةُ بضعةُ أنواع كالغريق والحريق وصاحب الهدم وصاحب ذات الجنب ـداء في البطن ـ والمبطون ـأي مات بداء البطن ـ والمطعون ـبالطاعون ـ والقتيل ظُلمًا ـعند بعض أهل العلم لذكر عمر وعثمان بالشهادة, وعندي أن شهادتهم لأنهم في سبيل الله وليس لمطلق المظلومية ـ وغير ذلك مما سُمّي صاحبُه شهيدًا, فكل هؤلاء لهم مسمّى الشهداء في الدنيا والآخرة, فواحِدُهُم شهيدٌ, له مطلق الشهادة وهي دون الثانية بكثير, فهؤلاء شهداء, لكن لا يُقال لهم شهداء في سبيل الله, إلا إن كان ذلك ونحوه بسبب جهادهم في سبيله, كما في الحديث الصحيح عن نبيّنا صلى الله عليه وسلم قال: "ما تقولون في الشهيد فيكم؟" قالوا : القتل في سبيل الله, قال: "إن شهداء أمتي إذن لقليل, من قُتِلَ في سبيل الله فهو شهيد, و من مات في سبيل الله فهو شهيد, والمبطون شهيد, والمطعون شهيد, والغرق شهيد" (صحيح الجامع: ٥٦٠٢) وقال صلى الله عليه وسلم: "الشهادةُ سبعٌ سوى القتل في سبيل الله: المقتولُ في سبيل الله شهيد, والمطعون شهيد, والغريق

شهيد, وصاحب ذات الجنب شهيد, والمبطون شهيد, و صاحب الحريق شهيد, والذي يموت تحت الهدم شهيد, والمرأة تموت بجمعٍ شهيدة" ـوالجمع هو النفاسـ رواه أحمد وغيره من حديث جابر بن عتيك وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٧٣٩) . فهؤلاء إنما وهبهم الله منزلة الشهادة فضلاً منه ورحمة دون قتال منهم في سبيله, فهم شهداء إما لموتهم دفاعًا عن أنفسهم أو عرضهم أو مالهم, أو لمصبية حلّت بهم رحمة الله, كالطاعون والهدم والغرق ونحو ذلك.

أمّا الشهادة المطلقة ـوهي الكمالـ فهي منصرفةٌ للشهيد قتيلًا في سبيل الله, صابرًا محتسباً مقبلاً غيرَ مُدبرٍ, ويكون قتالُه لتكون كلمةُ الله هي العليا, فصاحبها هو الذي حاز مرتبة الشهادة الكاملة بخصالها السّتِّ, مع الحياة البرزخية الحقيقية, مع جعل روحه في حواصل الطير الخضر في جنات النعيم. وهذه المرتبة هي غاية آمال المقرّبين بعد مرتبة الصّدّيقيّة نسأل الله الكريم من واسع فضله وعميم كرمه وجزيل هباته وعظيم إحسانه, إنه الحي القيوم ذو الجلال والإكرام.

ألا وإن لأهل القرآن في مواطن الجهاد ما ليس لغيرهم من عظيم البلاء والنية والصبر والصدق. واعتبر ذلك بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم

العباس في حنين لما انكشف المسلمون أن ينادي: يا أصحاب سورة البقرة. فحملة القرآن قد تغذّت قلوبهم على التنزيل وارتوت من الذكر الحكيم. وقد صاح بها ثابت بن قيس في اليمامة لما انكشف المسلمون فنادى: يا أصحاب سورة البقرة, قال رجل من طيء: والله ما معي منها آيةٌ, وإنما يريد ثابتٌ يا أهل القرآن.

وقد ذكرَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه يومًا وقعة اليمامة, ومن قُتل فيها من المهاجرين والأنصار وحملة كتاب الله فقال: أَلَحَّتْ السيوف على أهل السوابق من المهاجرين والأنصار, ولم نجدِ المُعَوَّلَ يومئذ إلا عليهم, خافوا على الإسلام أن يُكسرَ بابُه فيُدخَلَ منه أن ظهر مسيلمة -أي خافوا تبديل الدين بظهور مسيلمة الكذاب- فمنعَ الله الإسلام بهم, حتى قتل عدوّه, وأظهر كلمته, وقدموا يرحمهم الله على ما يُسرُّون به من ثواب جهادهم مَنْ كَذَبَ على الله وعلى رسوله, ورجع عن الإسلام بعد الإقرار به, وجعل منادي المسلمين -يعني يوم اليمامة- ينادي: يا أهل القرآن, فيجيبون المنادي فُرادَى ومثنى, فاستحرّ بهم القتل. فرحمَ الله تلك الوجوه, لولا ما استدركَ خليفةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم من جَمْع القرآن؛ لخِفْتُ أن لا يلتقي المسلمون وعدوَّهم في موضع إلا استحرّ القتل بأهل القرآن.

قلت: وشهادة ذلك أن المسلمين في اليمامة انكشفوا بسبب اختلاط الأعراب بالمهاجرين والأنصار فيفرّون فيستحر القتل في أهل السابقة من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم, حتى غلبت حنيفة على الرِّحَالِ, فجعل زيد بن الخطاب رضي الله عنه ينادي وكانت عنده راية خالد: أما الرِّحال فلا رحال, وأما الرجال فلا رجال, اللهم إني أعتذر إليك من فرار أصحابي, وأبرأ إليك مما جاء به مسيلمة ومحكم بن طفيل, وجعل يشتدُّ بالرَّاية يتقدَّمُ بها في نحر العدو, ثم ضارب بسيفه حتى قُتِل رضي الله عنه, فلما قُتل وقعت الراية, فأخذها سالم مولى أبي حذيفة, فقال المسلمون: يا سالم, إنا نخاف أن نُؤتى من قِبَلِكَ! فقال: بئس حامل القرآن أنا إن أتيتم من قبلي. ـوتأمل ذكره لحمل القرآن لا غيرـ. ونادت الأنصار ثابت بن قيس وهو يحمل رايتهم: الزمها, فإنما مِلاكُ القوم الراية. ثمّ إن سالمًا تقدّم في نحر الكفرة براية المهاجرين, ثم حفر لرجليه حتى بلغ أنصاف ساقيه, وحفر ثابت بن قيس لنفسه مثل ذلك, ثم لزما رايتيهما, وكان الناس يتفرّقون في كل وجه منهزمين, ـقبل أن تخلُص الرايات لقومهاـ وإن سالمًا وثابتًا لقائمان برايتيهما, حتى قُتِلَ سالمٌ, وقتل أبو حذيفة مولاه عليهما رضوان الله تعالى, فوُجِدَ رأسُ

أبي حذيفة عند رجلي سالم, ورأسُ سالمٍ عند رجلي أبي حذيفة لقُرْب مصرع كل واحد منهما من صاحبه, وثباتهما مع شدة القتل.

وتأمل حرص هؤلاء على الشهادة, إذ كان أبو بكرٍ قد دعا زيد بن الخطاب ليولّيه إمرة الجيش فقال: يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم, قد كنت أرجو أن أرزق الشهادة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم, فلم أرزقها, وأنا أرجو أن أرزقها في هذا الوجه, وإن أمير الجيش لا ينبغي أن يباشر القتال بنفسه, فدعا أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة, فعرض عليه ذلك فقال مثل ما قال زيد, فدعا سالمًا مولى أبي حذيفة ليستعمله فأبى عليه, فدعا أبو بكر خالد بن الوليد فأمّره على الناس, وكان خالد للمسلمين فتحًا رضي الله عنه.

وعن أبي سعيد الخدري قال: قُتلت الأنصار في مواطن أربعة سبعين, سبعين: يوم أحد سبعين, ويوم بئر معونة سبعين, ويوم اليمامة سبعين, ويوم جسر أبي عبيد سبعين. ألا ما أصبرهم وأصدقهم رضي الله عنهم.

قال شريك الفزاري: لما التقينا والقوم ـأي بني حنيفةـ صَبَرَ الفريقان صبرًا لم أر مثله قطّ, ما تزول الأقدامُ فتُرَى! واختلفت السيوف بينهم,

وجعل يُقبل أهل السوابق والنّيّات, فيتقدّمون فيُقتلون حتى فنوا, وذَلَقَتْ فينا سيوفهم طويلًا.

وتأمل حسن بلاء وصدق حامل القرآن عبّاد بن بشرٍ الأنصاري رضي الله عنه, قال ضمرة سعيد المازني وذكر ردّة بني حنيفة: لم يلق المسلمون عدوا أشد لهم نكاية منهم, لقوهم بالموت النّاقع, وبالسيوف قد أصلتوها, قبل النبل وقبل الرماح! وقد صَبَرَ المسلمون لهم, فكان المعوّل يومئذ على أهل السوابق, ونادى عبَّادُ بن بشرٍ يومئذٍ وهو يَضرب بالسيف قد قُطِّعَ من الجراح, وما هو إلا كالنمر الجريح, فيلقى رجلًا من بني حنيفة كأنه جمل صَئُول فقال: هَلُمَّ يا أخا الخزرج, أتحسب قتالنا مثل من لاقيت؟! فيعمد له عبّادٌ, ويبدره الحنفي ويضربه ضربة بالسيف فانكسر سيفه ولم يصنع شيئًا, وضربه عباد فقطع رجليه وجاوزه وتركه ينوء على ركبتيه, فناداه: يا ابن الأكارم اجهز عليّ, فكرّ عليه عبّادٌ فضرب عنقه, ثم قام آخر في ذلك المقام فاختلفا ضربات وتجاوَلَا, وعبّادٌ على ذلك كثير الجراح, فضربه عباد ضربة أبدى سحره وقال خذها وأنا ابن وقش, ثم جاوزه يَفْرِي في بني حنيفة ضربًا فريًّا, فكان يقال: قتل عبّادٌ يومئذ من بني حنيفة بالسيف أكثر من عشرين رجلًا, وأكثَرَ فيهم الجراح حتى إن حنيفة لتذكرُ عبّاد بن بشر, فإذا

رأت الجراح بالرجل منهم تقول: هذا ضرب مُجَرِّبِ القومِ عبّاد بن بشر.

وقال رافع بن خديج الأنصاري رضي الله عنه: شهدنا اليمامة, فكنّا تسعين من النبيت -قلت وهم من بني عبد الأشهل من الأوس- فلاقينا عدوًّا صُبُرًا لوقع السلاح, وجماعة الناس أربعة آلاف, وحنيفة مثل ذلك أو نحوه, فلما التقينا أذنَ اللهُ للسيوف فينا وفيهم, فجعلتِ السيوفُ تختلي هام الرجال وأكفهم, وجراحًا لم أر جراحًا قط أبعد غورًا منها فينا وفيهم, إني لأنظر إلى عباد بن بشر قد ضرب بسيفه حتى انحنى كأنه مِنْجَل, فيقيمه على ركبته! فيعرضُ له رجلٌ من بني حنيفة, فلما اختلفا ضربات, ضربه عبَّادُ بن بشر على العاتق مستمكنًا, فوالله لرأيت سَحْرَه باديًا -أي رِئته- ومضى عنه عبّاد, ومررت بالحنفيّ وبه رمق فأجهزت عليه, وأنظر بَعْدُ إلى عبَّاد وقد اختلفت السيوف عليه, وهو يُبضع بها ويُبعج بطنُه فوقع, وما أعلم به مصحًّا, وكانوا حنقوا عليه لأنه أكثر القتل فيهم, قال: وحرضت على قتلته فناديت أصحابنا من النبيت, فقمنا عليه وقتلنا قتلته, فرأيتهم حوله مقتّلين فقلت: بعدًا لكم. (الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم والثلاثة الخلفاء: (٣ / ٥٥).

ولقد أنزل الله سبحانه سورة الأحزاب مُجليةً لِأوجهِ حِكمٍ باهرة غزيرة, إذ وصف سبحانه حال المؤمنين باختلاف درجاتِ إيمانهم ويقينهم وتوكّلِهم وتسليمهم, وبيّن آثار رحمته بهدايتهم وتثبيتهم ونصرهم, وزلزلةِ أعدائِه أعدائِهم, وهزيمتِهم وخذلانهم.

ولا تزال الأمة مرميّة عن قوس واحدة من جموع الكفرة باليوم الآخر, مهما اختلفت مشاربهم وتنوّعت طرائقهم, من منافقة وملاحدة وأهل أوثان وأهل كتاب, فمن أفغانستان إلى العراق والشام ومالي وغيرها, في سلسلةٍ لن تنتهي إلا بالملاحم الكبار, "والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون".

فتلك معركة الأحزاب, وتلكَ معركة شَقْحَبٍ ثمَّ اليوم بتسلُّطِ جموعِ الأحزاب الباطنية والصليبية والملاحدة والمشركة والمنافقة ... كلُّهم على استئصال روح الإسلام المجاهد لإعلاء كلمة الله, ويأبى الله!

ومن ذلك ما جرى للمؤمنين في القرن الثامن من تسلّط التتار على ديار الإسلام في كرّتهم الثانية, وحربهم لدين المرسلين, وقتالهم أهل ملة محمد وإبراهيم عليهما الصلوات والتسليم. وكان في ذلك الزمان والمكان شيخ للإسلام شهير, ومحبّ للرحمن كبير, ذاكُمْ هو العلَمُ العلّامة والبحر الفهّامة,

من جمع الله له بين العلمِ والعملِ, والجهادِ لله وبالله وفي الله بالنفس واللسان والقلم, أبو العبّاس أحمد بن عبد الحليم ابن عبد السلام ابن تيمية الحراني النُّميري, جمعنا الرحمن به ووالدينا والمؤمنين في جنات النعيم. وصدق ابن الزَّمْلكاني إذْ قال:

ماذا يقول الواصفونَ له　　وصفاتُهُ جَلَّتْ عن الحَصْرِ

هو حُجَّةٌ لله قاهرةٌ　　هو بيننا أُعجوبةُ العَصْرِ

هو آية في الخلق ظاهرةٌ　　أنوارهُها أربتْ على الفجرِ

وابن تيمية هو بطل شقحب وكسروان بلا مدافع, بشهادة الصناديد البواسل الذين شهدوا تلك الغزاة الرهيبة. ولازالت الثانية _أعني كسروان وهي جبال الباطنيّة النصيريّة الذين سمّتهم فرنسا زورًا العلويين_ في الذاكرة النُّصيريِّة الثأرية الحقود, إذْ ثَلَّ الله بشيخ الإسلام وبمن معه من جند الحقِّ عروش الملاحدة النصيرية, وأنزلوهم من صياصيهم الكسروانية, والزموهم ظواهر الملة المحمدية, بحمد ربِّنا ربِّ البرية.

ولشيخ الإسلام رحمه الله رسالة كتبها بعد وقعة شَقْحَب العظيمة ضد المغول في الشام, التي أبلى فيها المؤمنون بلاء حسنًا, وكان لابن تيمية فيها

مواقف جليلة, من اليقين والشجاعة والثبات وحسن الظن بالله, وحسن تثبيت المؤمنين وتذكيرهم بالله, وحثّهم على إحسان الظن بالله, وتحذيرهم من ظن السوء به تعالى وتقدّس, وقد شبّهها رحمه الله تعالى بغزوة الأحزاب وما فيها من عبرٍ للموحدين, وآياتٍ لله رب العالمين, حريّ بالمجاهدين في سبيل في زماننا أن يطّلعوا عليها, وينهلوا من معين عِلْمها الثرّ وحِكَمِها العالية, فقد جمع الله لهذا الإمام من العلم والفقه والعبادة والنصح والتجربة ما لا يجاريه أحد من عصره إلى عصرنا بشهادة الأكابر الأفذاذ.

كما أن له رحمه الله موقف جليل مشهور مع قازان (غازان) وذلك عندما زحف جيش غازان التتري من وسط آسيا وإيران نحو حلب, والتقى جيش غازان بجيش الناصر في وادي سلمية يوم ٢٧ ربيع الأول سنة ٦٩٩ للهجرة, وبعد معركة عنيفة هُزم جيش الناصر, وانهزم الجند وأمراؤهم, ونزح أعيان دمشق إلى مصر يتبعون سير الناصر حتى خلت دمشق من حاكم أو أمير! لكن شيخ الإسلام بقى صامداً مع عامة الناس واجتمع مع كبارهم, واتفق معهم على تسيير الأمور, وأن يذهب هو بنفسه على رأس وفد من الشام لمقابلة غازان, فقابله في بلده النبك -بين دمشق وحمص-

ودارت بينهما مناقشة شديدة, ووعظ فيها ابن تيمية وقرّع وعنّف غازان على ظلمه العباد, ونكثه للعهود.

وقال شيخ الإسلام لغازان ـوكان هناك ترجمان يترجم كلام الشيخـ: أنت تزعم أنك مسلم, ومعك قاض وإمام, وشيخ ومؤذنون على ما بلغنا, فغزوتنا وبلغت بلادنا على ماذا؟ وأبوك وجدك كانا كافرين, وما غزوا بلاد الإسلام بعد أن عاهدونا, وأنت عاهدت فغدرت, وقلتَ فما وفيت!

وجرت لابن تيمية مع غازان أمور قام بها ابن تيمية كلّها لله تعالى متجرّدًا للحق لا تأخذه فيه لومةُ لائم ـولا نزكيه على اللهـ وقال الحق ولم يخش إلا الله عز وجل. ثم قرّب غازانُ إلى الوفد طعاماً فأكلوا إلا ابن تيمية, فقيل له: ألا تأكل؟ فقال: كيف آكل من طعامكم, وكلُّه مما نهبتم من أغنام الناس, وطبختموه مما قطعتم من أشجار الناس؟!

وغازان مصغٍ لما يقول, شاخصٌ إليه لا يُعرض عنه, وبسبب ما أوقع الله في قلبه من الهيبة والإعجاب بالشيخ سأل: من هذا الشيخ؟ إني لم أر مثله أثبت قلباً منه, ولا أوقع من حديثه في قلبي, ولا رأيتني أعظم انقياداً لأحد منه! فأُخبر بحاله, وما هو عليه من العلم والعمل.

ثم طلب منه غازان الدعاءَ, فدعا الشيخ قائلًا: اللهم إن كان عبدك هذا إنما يُقاتل لتكون كلمتك هي العليا, وليكون الدين كلّه لك؛ فأنصره وأيّده, وملّكه البلاد والعباد, وإن كان قد قام رياءً وُسمعة, وطلباً للدنيا, ولتكون كلمته هي العليا, وليذلّ الإسلام وأهله؛ فاخذُلْهُ, وزلزله, ودمّره, واقطع دابره! وغازان يُؤمّن على دعائه, ويرفع يديه!

قال الشيخ الصالح الناسك الفقيه أبو عبد الله محمد البالسي: فجعلنا نجمعُ ثيابنا خوفًا من أن تتلوّث من دم ابن تيمية إذا أمرَ بقتله, فلما خرجنا من عنده, قال كبير القضاة وغيره ممن كان معه: كِدْتَ أن تُهلكنا وتهلك نفسك, والله لا نصحبك من هنا. فقال : وإني لا أصحبكم. فانطلقوا عصبة, وتأخّر هو في خاصة نفسه ومعه جماعة من أصحابه, فتسامعت به الخواتين والأمراء أصحاب غازان فأتوه يتبرّكون بدعائه, وهو سائر إلى دمشق, ووالله ما وصل إلى دمشق إلا في نحو ثلاثمئة فارس في ركابه, وكنت أنا من جملة من كان معه, وأما أولئك الذين أبوا أن يصحبوه, فخرج عليهم جماعة من التتار فشلّحوهم - أي سلبوهم ثيابهم وما معهم .

قال البالسي ـوكان ابن تيمية يحبهـ: وجرت له مع قازان وقطلوشاه وبولاي أمور ونوب، قام ابن تيمية فيها كلها لله، وقال الحق ولم يخش إلا الله عز وجل. البداية والنهاية (١٤ / ١٠١ـ١٠٤).

وقال العلّامة أحمد بن يحيى العُمَري في مسالك الأبصار في ممالك الأمصار, في ذكره لبعض مواقف ومناقب شيخ الإسلام: وحكي من شجاعته في مواقف الحرب نوبة شَقْحَب ونوبة كسروان ـقلت: والأولى ضد التتار, والثانية ضد الباطنية وبخاصة النصيريةـ ما لم يُسمع إلا عن صناديد الرجال, وأبطالِ اللقاء, وأحلاسِ الحرب, تارةً يُباشِرُ القتال, وتارةً يحرِّضُ عليه.

وركب البريد إلى مهنا بن عيسى ـشيخ العربـ واستحضره إلى الجهاد, وركب بعدها إلى السلطان واستنفره, وواجه بالكلام الغليظ أمراءه وعسكره ـقلت: ومما قاله للسلطان وأمرائه: إن لم يكن لكم حاجة في أرض الشام في زمن الحرب, فسنضعُ لهم من يقوم عليهم غيركم في أيام السلم (ولمّا قال له السلطان فيما بعد ـبعد علماء السوءـ: إنهم يقولون إنك طامع في الرئاسة والملك! فأجابه بكل عزة وغنى بالله تعالى: إن ملكك وملك المغول لا يساوي عندي فِلسين! فابتسم السلطان لعلمه بزهده وورعه وعلمه ودينه)ـ

ولمّا جاء السلطان إلى شقحب لاقاه إلى قرن الحرّة, وجعل يشجّعه ويُثبته _قلت: فقال له السلطان كُنْ معنا, فقال: بل تحت راية أهل الشام فالسنة أن يكون كل مقاتل تحت راية قومه_ فلما رأى السلطان كثرة التتار قال: يا لَخالد بن الوليد! فقال له: لا تقل هذا, وقل: يا الله, واستغث بالله ربك, ووحّده وحدَهُ تُنصر, وقل: يا مالك يوم الدين, إيّاك نعبد وإياك نستعين. _قلت: وذكرني هذا ما روي عن خالد بن الوليد رضي الله عنه أنه لما صاف جيش طليحة في حروب الردّة وحمل جيش طليحة على المسلمين حتى صار في ميمنة المسلمين كسرة صاح رجلٌ من طيء بخالد: يا خالد, عليك سلمى وأجأ, فصاح فيه خالد مجيبًا: بل إلى الله الملجأ, وضرّس خالدٌ في القتال, فجعل يُقحِم فرسه وأصحابه يقولون له: الله الله! فإنك أمير القوم, ولا ينبغي لك أن تقدم. فيقول: والله إني لأعرف ما تقولون, ولكني والله ما رأيتني أصبر, وأخاف هزيمة المسلمين, وقاتل بسيفين حتى قطعهما, حتى تراد الناس بعد هزيمة كثيرهم, فحمل المسلمون على المرتدين فاقتلعوهم وأنزل الله نصره على عباده. قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: نظرتُ إلى راية طليحة يومئذٍ حمراء, يحملها رجل منهم لا يزول بها فِتْرًا, فنظرت إلى خالد وقد أتاه فحملَ عليه فقتله, فكانت هزيمتهم, فنظرتُ إلى الراية

تطؤها الإبل والخيل والرجال حتى تقطعت. وعنه قال: يرحم الله خالد بن الوليد, لقد كان له غناء وجرأة, ولقد رأيته يوم طليحة يباشر الحرب بنفسه حتى ليم في ذلك, ولقد رأيته يوم اليمامة يقاتل أشد القتال, إن كان مكانه ليتّقي حتى يطلع إلينا منبهرا! فلله در صحابة رسول صلى الله عليه وسلم, وبخاصة المهاجرين والأنصار, ولله هُمْ مِن كُماةٍ بَواسِلَ, قد اعتَجَرُوا البأسَ تحت عجاجِ قصف الرماح وقطع السيوف, لهم في جمرةِ الوَغَى تكبيرٌ وتهليلُ, تجولُ بهم المُغيراتُ ضربًا على هامة كلّ ظلومٍ كفّارِ_ ثم ما زال يُقبلُ تارة على الخليفة_ أمير المؤمنين الخليفة العباسي أبو الربيع سليمان المستكفي بالله_ وتارة على السلطان _ أي السلطان المملوكي الملك الناصر_ ويُهدّئهما, ويربط جأشهما, حتى جاء نصرُ الله والفتحُ. وحُكي أنه قال للسلطان: اثبُتْ, فأنت منصورٌ, فقال له بعض الأمراء: قل إن شاء الله تعالى, فقال: إن شاء الله تحقيقًا لا تعليقًا, فكان كما قال. مسالك الأبصار, للعُمري (٣٠٢_٣٠٣) وملخص وقعة شقحب باختصار عن البداية والنهاية للحافظ العماد ابن كثير (١٤ / ٢٧_٣٢):

لما قدم التتر الشام, قدمت لحربهم مع الشاميين طائفة كبيرة من جيش المصريين, فيهم الأمير ركن الدين بيبرس، والأمير حسام الدين لاجين،

والأمير سيف الدين كراي، ثم قدمت بعدهم طائفة أخرى. فقويت القلوب, واطمأن كثير من الناس، ولكن كان الناس في خوف عظيم في بلاد حلب وحماة وحمص وتلك النواحي وتقهقر الجيش الحلبي والحموي إلى حمص، ثم خافوا أن يدهمهم التتر, فجاؤوا فنزلوا المرج يوم الأحد خامس شعبان، ووصل التتار إلى حمص وبعلبك وعاثوا في تلك الأراضي فسادًا، وقلق الناس قلقًا عظيمًا، وخافوا خوفا شديدا، واختبط البلد لتأخر قدوم السلطان ببقية الجيش.

وقال الناس: لا طاقة لجيش الشام مع هؤلاء المصريين بلقاء التتار لكثرتهم، وإنما سبيلُهم أن يتأخروا عنهم مرحلة مرحلة، وتحدّث الناس بالأراجيف, فاجتمع الأمراء يوم الأحد المذكور بالميدان, وتحالفوا على لقاء العدو، وشجّعوا أنفسهم، ونودي بالبلد: أن لا يرحل أحد منه، فسكن الناس, وجلس القضاة بالجامع, وحلّفوا جماعة من الفقهاء والعامة على القتال، وتوجه الشيخ تقي الدين بن تيمية إلى العسكر الواصل من حماة, فاجتمع بهم في القطيعة, فأعلمهم بما تحالف عليه الأمراء والناس من لقاء العدو، فأجابوا إلى ذلك وحلفوا معهم، وكان الشيخ تقي الدين بن تيمية يحلف للأمراء والناس: إنكم في هذه الكرّة منصورون، فيقول له الأمراء: قل إن شاء الله،

فيقول: إن شاء الله تحقيقًا لا تعليقًا. وكان يتأول في ذلك أشياء من كتاب الله منها قوله تعالى: " ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بُغي عليه لينصرنه الله" [الحج:٦٠].

وقد تكلم الناس في كيفية قتال هؤلاء التتر, من أي قبيل هو؟ فإنهم يُظهرون الإسلام وليسوا بغاة على الإمام، فإنهم لم يكونوا في طاعته في وقتٍ ثم خالفوه؟

فقال الشيخ تقي الدين: هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على علي ومعاوية، ورأوا أنهم أحقّ بالأمر منهما، وهؤلاء يزعمون أنهم أحق بإقامة الحق من المسلمين، ويعيبون على المسلمين ما هم متلبسون به من المعاصي والظلم، وهم متلبسون بما هو أعظم منه بأضعاف مضاعفة، فتفطّن العلماء والناس لذلك، وكان يقول للناس: إذا رأيتموني من ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتلوني، فتشجّع الناس في قتال التتار, وقويت قلوبهم ونيّاتهم ولله الحمد.

ولما كان يوم الرابع والعشرين من شعبان خرجت العساكر الشامية فخيمت على الجسورة من ناحية الكسوة، ومعهم القضاة، فصار الناس فيهم فريقين؛ فريق يقولون إنما ساروا ليختاروا موضعا للقتال, فإن المرج فيه مياه

كثيرة فلا يستطيعون معها القتال، وقال فريق: إنما ساروا لتلك الجهة ليهربوا وليلحقوا بالسلطان!

فلما كانت ليلة الخميس ساروا إلى ناحية الكسوة, فقويت ظنون الناس في هربهم، وقد وصلت التتار إلى قارة، و قيل إنهم وصلوا إلى القطيعة ـقلت: لعلّها: القطيفةـ فانزعج الناس لذلك شديدًا, ولم يبق حول القرى والحواضر أحد، وامتلات القلعة والبلد, وازدحمت المنازل والطرقات، واضطرب الناس, وخرج الشيخ تقي الدين بن تيمية صبيحة يوم الخميس من الشهر المذكور من باب النصر بمشقة كبيرة، وصحبته جماعة ليشهد القتال بنفسه ومن معه، فظنّوا إنما خرج هاربًا, فحصل اللوم من بعض الناس وقالوا: أنت منعتنا من الجَفَل وها أنت هارب من البلد؟! فلم يرد عليهم. وبقي البلد ليس فيه حاكم، وجلس اللصوص والحرافيش فيه وفي بساتين الناس يخربون وينتهبون ما قدروا عليه، ويقطعون المشمش قبل أوانه والباقلاء والقمح وسائر الخضراوات، وحيل بين الناس وبين خبر الجيش، وانقطعت الطرق إلى الكسوة, وظهرت الوحشة على البلد والحواضر، وليس للناس شغل غير الصعود إلى المآذن ينظرون يمينًا وشمالًا، وإلى ناحية الكسوة, فتارة يقولون: رأينا غبرةً فيخافون أن تكون من التتر، ويتعجبون

من الجيش مع كثرتهم وجودة عدتهم وعددهم، أين ذهبوا؟ فلا يدرون ما فعل الله بهم، فانقطعت الآمال, وألح الناس في الدعاء والابتهال, وفي الصلوات وفي كل حال، وذلك يوم الخميس التاسع والعشرين من شعبان.

وكان الناس في خوف ورعب لا يعبّر عنه، لكن كان الفرج من ذلك قريبًا، ولكن أكثرهم لا يفلحون، كما جاء في حديث أبي رزين عند ابن ماجه " عجب ربك من قنوط عباده وقرب غِيَرِهَ ينظر إليكم أزلين قنطين فيظلّ يضحك يعلم أن فرجكم قريب ".

فلما كان آخر هذا اليوم وصل الأمير فخر الدين إياس المرقبي أحد أمراء دمشق، فبشّر الناس بخير، هو أن السلطان قد وصل, وقت اجتمعت العساكر المصرية والشامية، وقد أرسلني أكشف هل طرق البلد أحد من التتر، فوجد الأمر كما يحب لم يطرقها أحد منهم، وذلك أن التتار عرجوا من دمشق إلى ناحية العساكر المصرية، ولم يشتغلوا بالبلد، وقد قالوا: إن غلبنا فإن البلد لنا، وإن غلبنا فلا حاجة لنا به، ونودي بالبلد في تطييب الخواطر، وأن السلطان قد وصل، فاطمأن الناس وسكنت قلوبهم، وأثبت الشهر ليلة الجمعة القاضي تقي الدين الحنبلي، فإن السماء كانت مغيمة, فعلقت القناديل, وصليت التراويح, واستبشر الناس بشهر رمضان وبركته،

وأصبح الناس يوم الجمعة في همّ شديد وخوف أكيد، لأنهم لا يعلمون ما خبر الناس.

فبينما هم كذلك إذ جاء الأمير سيف الدين العادلي فاجتمع بنائب القلعة ثم عاد سريعًا إلى العسكر، ولم يدر أحد ما أخبر به، ووقع الناس في الأراجيف والخوض.

أما عن صفة وقعة شقحب: ـ وهي قرية في الشمال الغربي من جبل غباغب من أعمال حوران من نواحي دمشق ـ فقد أصبح الناس يوم السبت على ما كانوا عليه من الخوف وضيق الأمر، فرأوا من المآذن سوادًا وغبرة من ناحية العسكر والعدو، فغلب على الظنون أن الوقعة في هذا اليوم، فابتهلوا إلى الله عز وجل بالدعاء في المساجد والبلد، وطلع النساء والصغار على الأسطحة, وكشفوا رؤوسهم, وضجّ البلد ضجةً عظيمة، ووقع في ذلك الوقت مطرٌ عظيم غزير، ثم سكن الناس، فلما كان بعد الظهر قُرئت بطاقة بالجامع تتضمن أن في الساعة الثانية من نهار السبت هذا اجتمعت الجيوش الشامية والمصرية مع السلطان في مرج الصفر، وفيها طلب الدعاء من الناس والأمر بحفظ القلعة. والتحرّز على الأسوار, فدعا الناس في المآذن والبلد، وانقضى النهار وكان يومًا مزعجًا هائلًا. وأصبح الناس يوم الأحد يتحدثون

بكسر التتر، وخرج الناس إلى ناحية الكسوة فرجعوا ومعهم شيء من المكاسب، ومعهم رؤوس من رؤوس التتر، وصارت كسرة التتار تقوى وتتزايد قليلًا قليلًا حتى اتّضحت جملة. ولكن الناس لما عندهم من شدّة الخوف وكثرة التتر لا يصدقون. فلما كان بعد الظهر قُرئ كتّاب السلطان إلى متولي القلعة يخبر فيه باجتماع الجيش ظهر يوم السبت بشقحب وبالكسوة، ثم جاءت بطاقة بعد العصر من نائب السلطان جمال الدين آقوش الأفرم إلى نائب القلعة مضمونها: أن الوقعة كانت من العصر يوم السبت إلى الساعة الثانية من يوم الأحد، وأن السيف كان يعمل في رقاب التتر ليلًا ونهارًا, وأنهم هربوا وفروا واعتصموا بالجبال والتلال، وأنه لم يسلم منهم إلا القليل، فأمسى الناس وقد استقرت خواطرهم وتباشروا لهذا الفتح العظيم والنصر المبارك، ودقت البشائر بالقلعة من أول النهار المذكور، ونودي بعد الظهر بإخراج الجفال من القلعة لأجل نزول السلطان بها، وشرعوا في الخروج.

وفي يوم الاثنين رابع الشهر رجع الناس من الكسوة إلى دمشق فبشروا الناس بالنصر. وفيه دخل الشيخ تقي الدين بن تيمية البلد ومعه أصحابه من الجهاد، ففرح الناس به ودعوا له وهنّأوه بما يسّر الله على يديه من الخير،

وذلك أنه ندبه العسكر الشامي أن يسير إلى السلطان يستحثه على السير إلى دمشق, فسار إليه فحثه على المجيء إلى دمشق بعد أن كاد يرجع إلى مصر، فجاء هو وإياه جميعا فسأله السلطان أن يقف معه في معركة القتال، فقال له الشيخ: السنة أن يقف الرجل تحت راية قومه، ونحن من جيش الشام لا نقف إلا معهم. وحرض السلطان على القتال وبشره بالنصر, وجعل يحلف بالله الذي لا إله إلا هو إنكم منصورون عليهم في هذه المرة، فيقول له الأمراء: قل إن شاء الله، فيقول إن شاء الله تحقيقًا لا تعليقًا.

وأفتى الناسَ بالفطر مدة قتالهم وأفطر هو أيضًا، وكان يدور على الأجناد والأمراء فيأكل من شيء معه في يده, ليعلمهم أن إفطارهم ليتقووا على القتال أفضل فيأكل الناس، وكان يتأول في الشاميين قوله صلى الله عليه وسلم "إنكم ملاقوا العدو غدًا، والفطر أقوى لكم " فعزم عليهم في الفطر عام الفتح كما في حديث أبي سعيد الخدري عند الترمذي.

وكان الخليفة أبو الربيع سليمان في صحبة السلطان، ولما اصطفت العساكر والتحم القتال ثبت السلطان ثباتًا عظيمًا، وأمر بجواده فقيّد حتى لا يهرب، وبايع الله تعالى في ذلك الموقف، وجرت خطوب عظيمة، وقتل جماعة من سادات الأمراء يومئذ، منهم الأمير حسام الدين لاجين الرومي أستاذ دار

السلطان، وثمانية من الأمراء المتقدمين معه, وصلاح الدين بن الملك السعيد الكامل, وخلق من كبار الأمراء، ثم نزل النصر على المسلمين قريب العصر يومئذ، واستظهر المسلمون عليهم, ولله الحمد والمنة.

فلما جاء الليل لجأ التتر إلى اقتحام التلول والجبال والآكام، فأحاط بهم المسلمون يحرسونهم من الهرب، ويرمونهم عن قوس واحدة إلى وقت الفجر، فقتلوا منهم ما لا يعلم عدده إلا الله عز وجل، وجعلوا يجيئون بهم في الحبال فتضرب أعناقهم, ثم كانوا يتساقطون في الأودية والمهالك، ثم بعد ذلك غرق منهم جماعة في الفرات بسبب الظلام، وكشف الله بذلك عن المسلمين غمة عظيمة شديدة، ولله الحمد والمنة.

وقال الحافظ محمد بن عبد الهادي المقدسي في العقود الدريّة في ذكر بعض مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية:

وفي أول شهر رمضان من سنة اثنتين وسبعمائة كانت وقعة شقحب المشهورة, وحصل للناس شدة عظيمة, وظهر فيها من كرامات الشيخ, وإجابة دعائه, وعظيم جهاده, وقوة إيمانه, وشدة نصحه للإسلام, وفرط شجاعته, ونهاية كرمه, وغير ذلك من صفاته ما يفوق النعت, ويتجاوز الوصف.

قال: ثم ساق الله سبحانه جيش الإسلام العرمرم المصري صحبة أمير المؤمنين والسلطان الملك الناصر, ووُلاة الأمر, وزعماء الجيش, وعظماء المملكة, والأمراء المصريين عن آخرهم, بجيوش الإسلام سوقًا حثيثًا للقاء التتار المخذولين, فاجتمع الشيخ المذكور -أي ابن تيمية- بالخليفة والسلطان وأرباب الحل والعقد وأعيان الأمراء عن آخرهم, وكلُّهم بمَرْجِ الصّفر, قِبْلِيّ دمشق المحروسة, وبينهم وبين التتار أقل من مقدار ثلاث ساعات مسافة. ودار بين الشيخ وبينهم ما دار بينه وبين الشاميين -أي من التذكير, والتثبيت, وحسن الظن بنصر الله, وتعليق القلوب بالله دون سواه- واتفق له من اجتماعهم ما لم يتفق لأحد قبله من أبناء جنسه, حيث اجتمعوا بجملتهم في مكان واحد, في يوم واحد على أمر جامع لهم وله, مهمّ عظيم يحتاجون فيه إلى سماع كلامه هذا توفيق عظيم كان من الله تعالى له لم يتفق لمثله.

ثم ساق شهادة لأحد أمراء الأجناد عن شجاعة الشيخ وبأسه عند قتال الكفار فقال: ولقد أخبرني أمير من أمراء الشاميين, ذو دين متين, وصدق لهجة, معروف في الدولة قال:

قال لي الشيخ يوم اللقاء, ونحن بمرج الصفر, وقد تراءى الجمعان: يا فلان, أوقفني موقف الموت!

قال: فسقتُهُ إلى مقابلة العدوِّ، وهم مُنحدرون كالسيل, تلوحُ أسلحتهم من تحت الغبار المنعقدِ عليهم. ثم قلت له: يا سيدي هذا موقف الموت! وهذا العدو قد أقبل تحت هذه الغبرة المنعقدة, فدونك وما تريد.

قال: فرفع طرْفَهُ إلى السماء, وأشخص بصره, وحرّك شفتيه طويلًا, ثمَّ انبعث وأقدم على القتال. وأمّا أنا فخُيِّلَ إليَّ أنه دعا عليهم, وأن دعاءه استجيب منه في تلك الساعة. قال: ثم حال القتال بيننا والالتحام, وما عدت رأيته, حتى فتح الله ونصر, وانحاز التتار إلى جبل صغير عصموا نفوسهم به من سيوف المسلمين تلك الساعة, وكان آخر النهار.

قال: وإذا أنا بالشيخ وأخيه يصيحان بأعلى صوتيهما تحريضًا على القتال, وتخويفًا للناس من الفرار. فقلت: يا سيدي لك البشارة بالنصر, فإنّه قد فَتح الله ونَصَرَ وهاهم التتار محصورون بهذا السفح, وفي غد إن شاء الله تعالى يؤخذون عن آخرهم. قال: فحمد الله تعالى, وأثنى عليه بما هو أهله, ودعا لي في ذلك الموطن دعاء وجدت بركته في ذلك الوقت وبعده.

قَالَ رحمه الله تعالى في بيان العبر والدروس من تلك الغزاة, واستعرض أحداثها على ضوء أحداث غزوة الأحزاب بنور سورة الأحزاب, مع انتظام الغزاتين في سنن الله الكونيّة والشرعية, وهذا شأن أهل العلم والإيمان, وأن على المؤمن إحسان الظن بربّه, وأن عليه أن يحذر من ظن السوء باختصار واقتصار من مجموع الفتاوى (٢٨ / ٤٢٤_٤٦٧) وهو بطوله مذكور في العقود الدرية لابن عبد الهادي (١٧٣_٢٢٤):

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى من يصل إليه من المؤمنين والمسلمين: سلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ فإنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو, وهو للحمد أهل, وهو على كل شيء قدير, ونسأله أن يصلي على صفوته من خليقته وخيرته من بريته محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما. أما بعد:

فقد صدق الله وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده "ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا" والله تعالى يحقق لنا التمام بقوله : "وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون

وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديرا" (الأحزاب: ٢٦_٢٧).

فإن هذه الفتنة التي ابتلي بها المسلمون مع هذا العدو المفسد الخارج عن شريعة الإسلام: قد جرى فيها شبيه بما جرى للمسلمين مع عدوهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في المغازي التي أنزل الله فيها كتبه وابتلى بها نبيه والمؤمنين, مما هو أسوة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا إلى يوم القيامة, فإن نصوص الكتاب والسنة اللذين هما دعوة محمد صلى الله عليه وسلم يتناولان عموم الخلق بالعموم اللفظي والمعنوي أو بالعموم المعنوي. وعهود الله في كتابه وسنة رسوله تنال آخر هذه الأمة كما نالت أولها. وإنما قص الله علينا قصص من قبلنا من الأمم لتكون عبرة لنا. فنشبه حالنا بحالهم ونقيس أواخر الأمم بأوائلها. فيكون للمؤمن من المتأخرين شبه بما كان للمؤمن من المتقدمين. ويكون للكافر والمنافق من المتأخرين شبه بما كان للكافر والمنافق من المتقدمين كما قال تعالى لما قص قصة يوسف مفصلة وأجمل قصص الأنبياء, ثم قال : "لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى" (يوسف: ١١١) أي هذه القصص المذكورة في الكتاب ليست بمنزلة ما يفترى من القصص المكذوبة,

كنحو ما يذكر في الحروب من السير المكذوبة. وقال تعالى لما ذكر قصة فرعون: "فأخذه الله نكال الآخرة والأولى . إن في ذلك لعبرة لمن يخشى" (النازعات: ٢٥_٢٦) وقال في سيرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مع أعدائه ببدر وغيرها: "قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار" (آل عمران: ١٣) وقال تعالى في محاصرته لبني النضير: "هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار" (الحشر: ٢)

فأمرنا أن نعتبر بأحوال المتقدمين علينا من هذه الأمة وممن قبلها من الأمم. وذكر في غير موضع: أن سنته في ذلك سنة مطردة وعادته مستمرة, فقال تعالى: "لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا . ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا . سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا" (الأحزاب: ٦٠_ ٦٢) وقال تعالى: "ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار

ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا . سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا" (الفتح: ٢٢_٢٣) وأخبر سبحانه أن دأب الكافرين من المستأخرين كدأب الكافرين من المستقدمين.

فينبغي للعقلاء أن يعتبروا بسنة الله وأيامه في عباده. ودأب الأمم وعاداتهم لا سيما في مثل هذه الحادثة العظيمة التي طبق الخافقين خبرها, واستطار في جميع ديار الإسلام شررها, وأطلع فيها النفاق ناصية رأسه, وكشر فيها الكفر عن أنيابه وأضراسه, وكاد فيه عمود الكتّاب أن يجتث ويخترم. وحبل الإيمان أن ينقطع ويصطلم. _أي يستأصل_ وعقر دار المؤمنين أن يحل بها البوار. وأن يزول هذا الدين باستيلاء الفجرة التتار! وظن المنافقون والذين في قلوبهم مرض أن ما وعدهم الله ورسوله إلا غرورا. وأن لن ينقلب حزب الله ورسوله إلى أهليهم أبدا وزين ذلك في قلوبهم وظنوا ظن السوء وكانوا قوما بورا.

ونزلت فتنة تركت الحليم فيها حيران, وأنزلت الرجل الصاحي منزلة السكران, وتركت الرجل اللبيب لكثرة الوسواس ليس بالنائم ولا اليقظان, وتناكرت فيها قلوب المعارف والإخوان, حتى بقي للرجل بنفسه شغل عن أن يغيث اللهفان! وميز الله فيها أهل البصائر والإيقان من الذين في قلوبهم

مرض أو نفاق وضعف إيمان. ورفع بها أقواما إلى الدرجات العالية, كما خفض بها أقواما إلى المنازل الهاوية, وكفر بها عن آخرين أعمالهم الخاطئة. وحدث من أنواع البلوى ما جعلها قيامة مختصرة من القيامة الكبرى. فإن الناس تفرقوا فيها ما بين شقي وسعيد كما يتفرقون كذلك في اليوم الموعود. وفر الرجل فيها من أخيه وأمه وأبيه؛ إذ كان لكل امرئ منهم شأن يغنيه. وكان من الناس من أقصى همته النجاة بنفسه لا يلوي على ماله ولا ولده ولا عرسه. كما أن منهم من فيه قوة على تخليص الأهل والمال. وآخر فيه زيادة معونة لمن هو منه ببال. وآخر منزلته منزلة الشفيع المطاع. وهم درجات عند الله في المنفعة والدفاع. ولم تنفع المنفعة الخالصة من الشكوى إلا الإيمان والعمل الصالح والبر والتقوى. وبليت فيها السرائر. وظهرت الخبايا التي كانت تكنها الضمائر. وتبين أن البهرج من الأقوال والأعمال يخون صاحبه أحوج ما كان إليه في المآل. وذم سادته وكبراءه من أطاعهم فأضلوه السبيلا.

كما حمد ربه من صدق في إيمانه فاتخذ مع الرسول سبيلا. وبان صدق ما جاءت به الآثار النبوية من الأخبار بما يكون. وواطأتها قلوب الذين هم في هذه الأمة محدثون, كما تواطأت عليه المبشرات التي أريها المؤمنون.

وتبين فيها الطائفة المنصورة الظاهرة على الدين, الذين لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم إلى يوم القيامة. حيث تحزبت الناس ثلاثة أحزاب: حزب مجتهد في نصر الدين, وآخر خاذل له, وآخر خارج عن شريعة الإسلام. وانقسم الناس ما بين مأجور ومعذور. وآخر قد غره بالله الغرور. وكان هذا الامتحان تمييزا من الله وتقسيما "ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفورا رحيما" (الأحزاب: ٢٤)

ووجه الاعتبار في هذه الحادثة العظيمة: أن الله تعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله, وشرع له الجهاد, إباحة له أولا, ثم إيجابا له ثانيا لما هاجر إلى المدينة وصار له فيها أنصار ينصرون الله ورسوله, فغزا بنفسه صلى الله عليه وسلم مدة مقامه بدار الهجرة وهو نحو عشر سنين: بضعا وعشرين غزوة. أولها غزوة بدر, وآخرها غزوة تبوك. أنزل الله في أول مغازيه سورة الأنفال, وفي آخرها سورة براءة, وجمع بينهما في المصحف؛ لتشابه أول الأمر وآخره. كما قال أمير المؤمنين عثمان لما سئل عن القران بين السورتين من غير فصل بالبسملة. وكان القتال منها في تسع غزوات, فأول غزوات القتال: بدر وآخرها حنين

والطائف. وأنزل الله فيها ملائكته, كما أخبر به القرآن, ولهذا صار الناس يجمعون بينهما في القول وإن تباعد ما بين الغزوتين مكانا وزمانا؛ فإن بدرا كانت في رمضان في السنة الثانية من الهجرة ما بين المدينة ومكة شامي مكة, وغزوة حنين في آخر شوال من السنة الثامنة. وحنين واد قريب من الطائف شرقي مكة. ثم قسم النبي صلى الله عليه وسلم غنائمها بالجعرانة, واعتمر من الجعرانة. ثم حاصر الطائف فلم يقاتله أهل الطائف زحفا وصفوفا, وإنما قاتلوه من وراء جدار. فآخر غزوة كان فيها القتال زحفا واصطفافا هي غزوة حنين. وكانت غزوة بدر أول غزوة ظهر فيها المسلمون على صناديد الكفار. وقتل الله أشرافهم وأسر رءوسهم مع قلة المسلمين وضعفهم؛ فإنهم كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر, ليس معهم إلا فرسان, وكان يعتقب الاثنان والثلاثة على البعير الواحد. وكان عدوهم بقدرهم أكثر من ثلاث مرات في قوة وعدة وهيئة وخيلاء. فلما كان من العام المقبل غزا الكفار المدينة وفيها النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه. فخرج إليهم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في نحو من ربع الكفار, وتركوا عيالهم بالمدينة, لم ينقلوهم إلى موضع آخر. وكانت أولا الكرة للمسلمين عليهم, ثم صارت

للكفار. فانهزم عامة عسكر المسلمين إلا نفرا قليلا حول النبي صلى الله عليه وسلم, منهم من قتل ومنهم من جرح.

وحرصوا على قتل النبي صلى الله عليه وسلم! حتى كسروا رباعيته, وشجوا جبينه, وهشموا البيضة على رأسه. وأنزل الله فيها شطرا من سورة آل عمران من قوله : "وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال" (آل عمران: ١٢١) وقال فيها: "إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم" (آل عمران: ١٥٥) وقال فيها: "ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين" (آل عمران: ١٥٢) وقال فيها: "أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير" (آل عمران: ١٦٥) وكان الشيطان قد نعق في الناس: أن محمدا قد قتل, فنهم من تزلزل لذلك فهرب. ومنهم من ثبت فقاتل. فقال الله تعالى: "وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات

أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين" (آل عمران: ١٤٤)

وكان هذا مثل حال المسلمين لما انكسروا في العام الماضي. وكانت هزيمة المسلمين في العام الماضي بذنوب ظاهرة وخطايا واضحة؛ من فساد النيات, والفخر, والخيلاء, والظلم, والفواحش, والإعراض عن حكم الكتاب والسنة, وعن المحافظة على فرائض الله, والبغي على كثير من المسلمين الذين بأرض الجزيرة والروم. وكان عدوهم في أول الأمر راضيا منهم بالموادعة والمسالمة شارعا في الدخول في الإسلام, وكان مبتدئا في الإيمان والأمان, وكانوا هم قد أعرضوا عن كثير من أحكام الإيمان.

فكان من حكمة الله ورحمته بالمؤمنين أن ابتلاهم بما ابتلاهم به ليمحص الله الذين آمنوا, وينيبوا إلى ربهم, وليظهر من عدوهم ما ظهر منه من البغي والمكر والنكث والخروج عن شرائع الإسلام, فيقوم بهم ما يستوجبون به النصر, وبعدوهم ما يستوجب به الانتقام. فقد كان في نفوس كثير من مقاتلة المسلمين ورعيتهم من الشر الكبير, ما لو يقترن به ظفر بعدوهم - الذي هو على الحال المذكورة - لأوجب لهم ذلك من فساد الدين والدنيا ما لا يوصف. كما أن نصر الله للمسلمين يوم بدر كان رحمة ونعمة, وهزيمتهم

يوم أحد كان نعمة ورحمة على المؤمنين؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا, وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن, إن أصابته سراء فشكر الله كان خيرا له, وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرا له" رواه مسلم (٢٩٩٩) من حديث صهيب رضي الله عنه بنحوه.

فلما كانت حادثة المسلمين عام أول شبيهة بأحد. وكان بعد أحد بأكثر من سنة - وقيل بسنتين - قد ابتلي المسلمون عام الخندق. كذلك في هذا العام ابتلي المؤمنون بعدوهم كنحو ما ابتلي المسلمون مع النبي صلى الله عليه وسلم عام الخندق, وهي غزوة الأحزاب التي أنزل الله فيها سورة الأحزاب, وهي سورة تضمنت ذكر هذه الغزاة التي نصر الله فيها عبده صلى الله عليه وسلم, وأعز فيها جنده المؤمنين, وهزم الأحزاب - الذين تحزبوا عليه - وحده بغير قتال ؛ بل بثبات المؤمنين بإزاء عدوهم.

ذكر فيها خصائص رسول الله صلى الله عليه وسلم وحقوقه وحرمته وحرمة أهل بيته, لما كان هو القلب الذي نصره الله فيها بغير قتال. كما كان ذلك في غزوتنا هذه سواء. وظهر فيها سر تأييد الدين كما ظهر في غزوة الخندق. وانقسم الناس فيها كانقسامهم عام الخندق.

وكما أنه صلى الله عليه وسلم كان يعلم بعض المنافقين ولا يعلم بعضهم كما بينه قوله تعالى: "وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم" (التوبة: ١٠١) كذلك خلفاؤه بعده وورثته, قد يعلمون بعض المنافقين ولا يعلمون بعضهم.

وهؤلاء المنافقون في هذه الأوقات لكثير منهم ميل إلى دولة هؤلاء التتار؛ لكونهم لا يلزمونهم شريعة الإسلام؛ بل يتركونهم وما هم عليه.

وأما النفاق الأصغر: فهو النفاق في الأعمال ونحوها, ومن هذا الباب: الإعراض عن الجهاد, فإنه من خصال المنافقين. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من مات ولم يغز, ولم يحدث نفسه بالغزو؛ مات على شعبة من نفاق" ـرواه مسلم (١٩١٠) قلت: وقال ابن باز رحمه الله تعالى في شرح هذا الحديث: أي أن على المؤمن أن يحدث نفسه بالجهاد في سبيل الله, وأنه إن قام الجهاد فلن يتخلف ويقعد, ونحو ذلكـ وقد أنزل الله " سورة براءة, التي تسمى الفاضحة؛ لأنها فضحت المنافقين. أخرجاه في الصحيحين (١٧) عن ابن عباس قال: هي الفاضحة؛ ما زالت تنزل (ومنهم, ومنهم) حتى ظنوا أن لا يبقى أحد إلا ذكر فيها. وعن المقداد بن الأسود قال: هي سورة البحوث؛ لأنها بحثت عن سرائر المنافقين. . وعن قتادة قال: هي المثيرة؛

لأنها أثارت مخازي المنافقين. وعن ابن عباس قال: هي المبعثرة. والبعثرة والإثارة متقاربان. وعن ابن عمر: أنها المقشقشة؛ لأنها تبرئ من مرض النفاق, يقال: تقشقش المريض إذا برأ. قال الأصمعي: وكان يقال لسورتي الإخلاص: المقشقشتان؛ لأنهما يبرئان من النفاق (١٨).

وهذه السورة نزلت في آخر مغازي النبي صلى الله عليه وسلم غزوة تبوك, عام تسع من الهجرة, وقد عز الإسلام وظهر. فكشف الله فيها أحوال المنافقين, ووصفهم فيها بالجبن وترك الجهاد. ووصفهم بالبخل عن النفقة في سبيل الله والشح على المال. وهذان داءان عظيمان الجبن والبخل. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "شر ما في المرء: شح هالع, وجبن خالع" حديث صحيح ـ رواه أحمد (٨٠١٠) وغيره ـ لهذا قد يكونان من الكبائر الموجبة للنار كما دل عليه قوله: "ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة" (آل عمران: ١٨٠) وقال تعالى: "ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير" (الأنفال: ١٦)

وأما وصفهم بالجبن والفزع فقال تعالى: "ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون . لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا

إليه وهم يجمحون" (التوبة: ٥٦_٥٧) فأخبر سبحانه أنهم وإن حلفوا إنهم من المؤمنين فما هم منهم؛ ولكن يفزعون من العدو. فـ "لو يجدون ملجأ" يلجئون إليه من المعاقل والحصون التي يفر إليها من يترك الجهاد أو "مغارات" لولوا عن الجهاد "وهم يجمحون" أي يسرعون إسراعا لا يردهم شيء, كالفرس الجموح الذي إذا حمل لا يرده اللجام. وهذا وصف منطبق على أقوام كثيرين في حادثتنا وفيما قبلها من الحوادث وبعدها.

وكذلك قال في سورة محمد صلى الله عليه وسلم: "فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم" أي فبعدا لهم "طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم" (محمد: ٢٠_٢١) وقال تعالى: "لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين . إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون" (التوبة: ٤٤_٤٥) فهذا إخبار من الله بأن المؤمن لا يستأذن الرسول في ترك الجهاد، وإنما يستأذنه الذي لا يؤمن فكيف بالتارك من غير استئذان؟! ومن تدبر القرآن وجد نظائر هذا متضافرة على هذا المعنى. وقال في وصفهم بالشح: "وما منعهم أن تقبل

منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون" (التوبة: ٥٤) فهذه حال من أنفق كارها, فكيف بمن ترك النفقة رأسا؟!

وقال سبحانه: "والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله" فهذا يندرج فيه من كنز المال عن النفقة الواجبة في سبيل الله . والجهاد أحق الأعمال باسم سبيل الله سواء كان ملكا أو مقدما أو غنيا أو غير ذلك. وإذا دخل في هذا ما كنز من المال الموروث والمكسوب فما كنز من الأموال المشتركة التي يستحقها عموم الأمة ويستحقها مصالحهم أولى وأحرى.

فإذا تبين بعض معنى المؤمن والمنافق, فإذا قرأ الإنسان سورة الأحزاب, وعرف من المنقولات في الحديث والتفسير والفقه والمغازي كيف كانت صفة الواقعة التي نزل بها القرآن ثم اعتبر هذه الحادثة بتلك وجد مصداق ما ذكرنا. وأن الناس انقسموا في هذه الحادثة إلى الأقسام الثلاثة كما انقسموا في تلك. وتبين له كثير من المتشابهات.

افتتح الله السورة بقوله: "يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين" (الأحزاب: ١) وذكر في أثنائها قوله: "وبشر المؤمنين بأن لهم

من الله فضلا كبيرا . ولا تطع الكافرين والمنافقين" (الأحزاب: ٤٧_٤٨) ثم قال: "واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا . وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا" (الأحزاب: ٢_٣) فأمره باتباع ما أوحى إليه من الكتاب والحكمة - التي هي سنته - وبأن يتوكل على الله . فبالأولى يحقق قوله: "إياك نعبد" وبالثانية يحقق قوله: "وإياك نستعين" (الفاتحة: ٤) ومثل ذلك قوله: "فاعبده وتوكل عليه" (هود: ١٢٣) وقوله: "عليه توكلت وإليه أنيب" (هود: ٨٨)

وهذا وإن كان مأمورا به في جميع الدين؛ فإن ذلك في الجهاد أوكد؛ لأنه يحتاج إلى أن يجاهد الكفار والمنافقين؛ وذلك لا يتم إلا بتأييد قوي من الله؛ ولهذا كان الجهاد سنام العمل, وانتظم سنام جميع الأحوال الشريفة.

ففيه سنام المحبة كما في قوله: "فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم" (المائدة: ٥٤)

وفيه سنام التوكل, وسنام الصبر؛ فإن المجاهد أحوج الناس إلى الصبر والتوكل؛ ولهذا قال تعالى: "والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم

في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ، الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون" (النحل: ٤١_٤٢) وقال: "قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين" (الأعراف: ١٢٨)

ولهذا كان الجهاد موجبا للهداية التي هي محيطة بأبواب العلم, كما دل عليه قوله تعالى: "والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا"(العنكبوت: ٦٩) فجعل لمن جاهد فيه هدايته جميع سبله تعالى, ولهذا قال الإمامان عبد الله بن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما: إذا اختلف الناس في شيء فانظروا ماذا عليه أهل الثغر فإن الحق معهم؛ لأن الله يقول: "والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا" (العنكبوت: ٦٩)

وفي الجهاد أيضا: حقيقة الزهد في الحياة الدنيا وفي الدار الدنيا. وفيه أيضا: حقيقة الإخلاص. فإن الكلام فيمن جاهد في سبيل الله, لا في سبيل الرياسة, ولا في سبيل المال, ولا في سبيل الحمية, وهذا لا يكون إلا لمن قاتل ليكون الدين كله لله, ولتكون كلمة الله هي العليا. وأعظم مراتب الإخلاص: تسليم النفس والمال للمعبود, كما قال تعالى: "إن الله اشترى من

المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون" (التوبة: ١١١).

ثم إنه تعالى قال: "يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا" (الأحزاب: ٩) كان مختصر القصة:

أن المسلمين تحزب عليهم عامة المشركين الذين حولهم, وجاءوا بجموعهم إلى المدينة ليستأصلوا المؤمنين. فاجتمعت قريش وحلفاؤها من بني أسد وأشجع وفزارة وغيرهم من قبائل نجد. واجتمعت أيضا اليهود من قريظة والنضير, فإن بني النضير كان النبي صلى الله عليه وسلم قد أجلاهم قبل ذلك كما ذكره الله تعالى في سورة الحشر, فجاءوا في الأحزاب إلى قريظة, وهم معاهدون للنبي صلى الله عليه وسلم ومجاورون له قريبا من المدينة, فلم يزالوا بهم حتى نقضت قريظة العهد ودخلوا في الأحزاب, فاجتمعت هذه الأحزاب العظيمة, وهم بقدر المسلمين مرات متعددة. فرفع النبي صلى الله عليه وسلم الذرية من النساء والصبيان في آطام المدينة وهي مثل الجواسق, ولم ينقلهم إلى مواضع أخر. وجعل ظهرهم إلى سلع - وهو الجبل القريب من المدينة من ناحية الغرب والشام - وجعل بينه وبين العدو خندقا,

والعدو قد أحاط بهم من العالية والسافلة، وكان عدوا شديد العداوة لو تمكن من المؤمنين لكانت نكايته فيهم أعظم النكايات.

وفي هذه الحادثة -أي شقحب- تحزب هذا العدو من مغول وغيرهم من أنواع الترك ومن فرس ومستعربة ونحوهم من أجناس المرتدة ومن نصارى الأرمن وغيرهم, ونزل هذا العدو بجانب ديار المسلمين, وهو بين الإقدام والإحجام مع قلة من بإزائهم من المسلمين. ومقصودهم الاستيلاء على الدار واصطلام أهلها, كما نزل أولئك بنواحي المدينة بإزاء المسلمين. ودام الحصار على المسلمين عام الخندق - على ما قيل - بضعا وعشرين ليلة . وقيل : عشرين ليلة. وهذا العدو عبر الفرات سابع عشر ربيع الآخر وكان أول انصرافه راجعا عن حلب لما رجع مقدمهم الكبير قازان بمن معه: يوم الاثنين حادي أو ثاني عشر جمادى الأولى يوم دخل العسكر -عسكر المسلمين- إلى مصر المحروسة, واجتمع بهم الداعي (٢١) وخاطبهم في هذه القضية.

وكان الله سبحانه وتعالى لما ألقى في قلوب المؤمنين ما ألقى من الاهتمام والعزم؛ ألقى الله في قلوب عدوهم الروع والانصراف. وكان عام

الخندق برد شديد وريح شديدة منكرة, بها صرف الله الأحزاب عن المدينة كما قال تعالى: "فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها" (الأحزاب:٩)

وهكذا هذا العام أكثر الله فيه الثلج والمطر والبرد على خلاف أكثر العادات, حتى كره أكثر الناس ذلك. وكنا نقول لهم: لا تكرهوا ذلك؛ فإن لله فيه حكمة ورحمة. وكان ذلك من أعظم الأسباب التي صرف الله بها العدو؛ فإنه كثر عليهم الثلج والمطر والبرد حتى هلك من خيلهم ما شاء الله, وهلك أيضا منهم من شاء الله, وظهر فيهم وفي بقية خيلهم من الضعف والعجز بسبب البرد والجوع ما رأوا أنهم لا طاقة لهم معه بقتال, حتى بلغني عن بعض كبار المقدمين في أرض الشام أنه قال: لا بيض الله وجوهنا: أعدونا في الثلج إلى شعره, ونحن قعود لا نأخذهم؟ وحتى علموا أنهم كانوا صيدا للمسلمين لو يصطادونهم؛ لكن في تأخير الله اصطيادهم حكمة عظيمة.

وقال الله في شأن الأحزاب: "إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا" (الأحزاب: ١٠_١١) وهكذا هذا العام؛ جاء العدو من ناحيتي علو الشام وهو شمال الفرات, وهو قبلي الفرات,

فزاغت الأبصار زيغا عظيما, وبلغت القلوب الحناجر لعظم البلاء, لا سيما لما استفاض الخبر بانصراف العسكر إلى مصر, وبقرب العدو وتوجهه إلى دمشق, وظن الناس بالله الظنونا:

هذا يظن أنه لا يقف قدامهم أحد من جند الشام حتى يصطلموا أهل الشام.

وهذا يظن أنهم لو وقفوا لكسروهم كسرة وأحاطوا بهم إحاطة الهالة بالقمر.

وهذا يظن أن أرض الشام ما بقيت تسكن, ولا بقيت تكون تحت مملكة الإسلام!

وهذا يظن إنهم يأخذونها, ثم يذهبون إلى مصر فيستولون عليها, فلا يقف قدامهم أحد, فيحدث نفسه بالفرار إلى اليمن ونحوها.

وهذا - إذا أحسن ظنه - قال: إنهم يملكونها العام, كما ملكوها عام هولاكو سنة سبع وخمسين, ثم قد يخرج العسكر من مصر فيستنقذها منهم كما خرج ذلك العام, وهذا ظن خيارهم!

وهذا يظن أن ما أخبره به أهل الآثار النبوية وأهل التحديث والمبشرات أماني كاذبة, وخرافات لاغية! وهذا قد استولى عليه الرعب والفزع حتى يمر الظن بفؤاده مر السحاب ليس له عقل يتفهم ولا لسان يتكلم. وهذا قد تعارضت عنده الأمارات, وتقابلت عنده الإرادات, لا سيما وهو لا يفرق من المبشرات بين الصادق والكاذب, ولا يميز في التحديث بين المخطئ والصائب, ولا يعرف النصوص الأثرية معرفة العلماء. بل إما أن يكون جاهلا بها وقد سمعها سماع العبر, ثم قد لا يتفطن لوجوه دلالتها الخفية, ولا يهتدي لدفع ما يتخيل أنه معارض لها في بادئ الروية.

فلذلك استولت الحيرة على من كان متسما بالاهتداء, وتراجمت به الآراء تراجم الصبيان بالحصباء, "هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا" (الأحزاب: ١١) ابتلاهم الله بهذا الابتلاء الذي يكفر به خطيئاتهم, ويرفع به درجاتهم. وزلزلوا بما حصل لهم من الرجفات ما استوجبوا به أعلى الدرجات, قال الله تعالى: "وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا" (الأحزاب: ١٢)

وهكذا قالوا في هذه الفتنة فيما وعدهم أهل الوراثة النبوية, والخلافة الرسالية, وحزب الله المحدثون عنه, حتى حصل لهؤلاء التأسي برسول الله

صلى الله عليه وسلم, كما قال الله تعالى: "لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة" (الأحزاب: ٢١)

فأما المنافقون فقد مضى التنبيه عليهم, وأما الذين في قلوبهم مرض فقد تكرر ذكرهم في هذه السورة, فذكروا هنا وفي قوله: "لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة" الأحزاب: ٦٠) وفي قوله: "فيطمع الذي في قلبه مرض" (الأحزاب: ٣٢) وذكر الله مرض القلب في مواضع فقال تعالى: "في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا" (البقرة: ١٠) وقال تعالى: "إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم" (الأنفال: ٤٩)

والمرض في القلب كالمرض في الجسد, فكما أن هذا هو إحالة عن الصحة والاعتدال من غير موت, فكذلك قد يكون في القلب مرض يحيله عن الصحة والاعتدال من غير أن يموت القلب, سواء أفسد إحساس القلب وإدراكه, أو أفسد عمله وحركته.

ولن يخاف الرجل غير الله إلا لمرض في قلبه, كما ذكروا أن رجلا شكا إلى أحمد بن حنبل خوفه من بعض الولاة فقال: لو صححت لم تخف أحدا. أي خوفك من أجل زوال الصحة من قلبك. ولهذا أوجب الله على عباده

أن لا يخافوا حزب الشيطان؛ بل لا يخافون غيره تعالى فقال: "إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين" (آل عمران: ١٧٥) أي يخوفكم أولياءه. وقال لعموم بني إسرائيل تنبيها لنا: "وإياي فارهبون" (البقرة: ٤٠) وقال: "فلا تخشوا الناس واخشون" (المائدة: ٤٤) وقال: "لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني" (البقرة: ١٥٠) وقال: "الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله" (الأحزاب: ٣٩)

فدلت هذه الآية -وهي قوله تعالى: "إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض" (الأنفال: ٤٩)- على أن المرض والنفاق في القلب يوجب الريب في الأنباء الصادقة التي توجب أمن الإنسان من الخوف, حتى يظنوا أنها كانت غرورا لهم, كما وقع في حادثتنا هذه سواء.

ثم قال تعالى: "وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا " (الأحزاب: ١٣) وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد عسكر بالمسلمين عند سلع, وجعل الخندق بينه وبين العدو, فقالت طائفة منهم: لا مقام لكم هنا لكثرة العدو, فارجعوا إلى المدينة. وقيل: لا مقام لكم على دين محمد,

فارجعوا إلى دين الشرك! وقيل: لا مقام لكم على القتال, فارجعوا إلى الاستئمان والاستجارة بهم.

وهكذا لما قدم هذا العدو كان من المنافقين من قال: ما بقيت الدولة الإسلامية تقوم (٢٧) فينبغي الدخول في دولة التتار. وقال بعض الخاصة: ما بقيت أرض الشام تسكن؛ بل ننتقل عنها إما إلى الحجاز واليمن, وإما إلى مصر. وقال بعضهم: بل المصلحة الاستسلام لهؤلاء, كما قد استسلم لهم أهل العراق, والدخول تحت حكمهم. فهذه المقالات الثلاث قد قيلت في هذه النازلة, كما قيلت في تلك!

وهكذا قال طائفة من المنافقين والذين في قلوبهم مرض لأهل دمشق خاصة والشام عامة: لا مقام لكم بهذه الأرض. ونفي المقام بها أبلغ من نفي المقام, وإن كانت قد قرئت بالضم أيضا _قلت: قرأها عاصم بالضم (مقام) والبقية بالفتح (مقام)_ فإن من لم يقدر أن يقوم بالمكان فكيف يقيم به؟ قال الله تعالى: "ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا" وكان قوم من هؤلاء المذمومين يقولون - والناس مع النبي صلى الله عليه وسلم عند سلع داخل الخندق, والنساء والصبيان في آطام المدينة -: يا رسول الله إن بيوتنا عورة. أي مكشوفة

ليس بينها وبين العدو حائل. وأصل العورة: الخالي الذي يحتاج إلى حفظ وستر. يقال: اعور مجلسك, إذا ذهب ستره, أو سقط جداره. ومنه عورة العدو. وقال مجاهد والحسن: أي ضائعة تخشى عليها السراق. وقال قتادة: قالوا: بيوتنا مما يلي العدو فلا نأمن على أهلنا فأذن لنا أن نذهب إليها لحفظ النساء والصبيان. قال الله تعالى: "وما هي بعورة" لأن الله يحفظها "إن يريدون إلا فرارا" فهم يقصدون الفرار من الجهاد, ويحتجون بحجة العائلة.

وهكذا أصاب كثيرا من الناس في هذه الغزاة. صاروا يفرون من الثغر إلى المعاقل والحصون وإلى الأماكن البعيدة كمصر, ويقولون: ما مقصودنا إلا حفظ العيال, وما يمكن إرسالهم مع غيرنا. وهم يكذبون في ذلك, فقد كان يمكنهم جعلهم في حصن دمشق لو دنا العدو, كما فعل المسلمون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم, وقد كان يمكنهم إرسالهم والمقام للجهاد. فكيف بمن فر بعد إرسال عياله؟!

قال الله تعالى: "ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا" (الأحزاب: ١٤) فأخبر أنه لو دخلت عليهم المدينة من جوانبها ثم طلبت منهم الفتنة, وهي الافتتان عن الدين بالكفر أو النفاق, لأعطوا الفتنة ولجاءوها من غير توقف!

وهذه حال أقوام لو دخل عليهم هذا العدو المنافق المجرم, ثم طلب منهم موافقته على ما هو عليه من الخروج عن شريعة الإسلام - وتلك فتنة عظيمة - لكانوا معه على ذلك! كما ساعدهم في العام الماضي أقوام بأنواع من الفتنة في الدين والدنيا, ما بين ترك واجبات, وفعل محرمات, إما في حق الله, وإما في حق العباد, كترك الصلاة, وشرب الخمور, وسب السلف, وسب جنود المسلمين, والتجسس لهم على المسلمين, ودلالتهم على أموال المسلمين وحريمهم, وأخذ أموال الناس, وتعذيبهم, وتقوية دولتهم الملعونة, وإرجاف قلوب المسلمين منهم, إلى غير ذلك من أنواع الفتنة.

ثم قال تعالى: "ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا" (الأحزاب: ١٥) وهذه حال أقوام عاهدوا ثم نكثوا قديما وحديثا في هذه الغزوة . فإن في العام الماضي وفي هذا العام في أول الأمر كان من أصناف الناس من عاهد على أن يقاتل ولا يفر, ثم فر منهزما لما اشتد الأمر .

ثم قال الله تعالى: "قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلا" (الأحزاب: ١٦) فأخبر الله أن الفرار لا ينفع لا من الموت ولا من القتل. فالفرار من الموت كالفرار من الطاعون.

ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه" متفق عليه, والفرار من القتل كالفرار من الجهاد. وحرف "لن" ينفي الفعل في الزمن المستقبل. والفعل نكرة, والنكرة في سياق النفي تعم جميع أفرادها. فاقتضى ذلك أن الفرار من الموت أو القتل ليس فيه منفعة أبدا. وهذا خبر الله الصادق, فمن اعتقد أن ذلك ينفعه فقد كذب الله في خبره.

والتجربة تدل على مثل ما دل عليه القرآن؛ فإن هؤلاء الذين فروا في هذا العام لم ينفعهم فرارهم؛ بل خسروا الدين والدنيا, وتفاوتوا في المصائب. والمرابطون الثابتون نفعهم ذلك في الدين والدنيا, حتى الموت الذي فروا منه كثر فيهم, وقل في المقيمين! فمات من الهرب من شاء الله. والطالبون للعدو, والمعاقبون لهم لم يمت منهم أحد ولا قتل؛ بل الموت قل في البلد من حين خرج الفارون, وهكذا سنة الله قديما وحديثا.

ثم قال تعالى: "وإذا لا تمتعون إلا قليلا" يقول: لو كان الفرار ينفعكم لم ينفعكم إلا حياة قليلة ثم تموتون, فإن الموت لا بد منه. وقد حكي عن بعض الحمقى أنه قال: فنحن نريد ذلك القليل! وهذا جهل منه بمعنى الآية, فإن الله لم يقل: إنهم يمتعون بالفرار قليلا, لكنه ذكر أنه لا منفعة فيه أبدا, ثم

ذكر جوابا ثانيا, أنه لو كان ينفع لم يكن فيه إلا متاع قليل, ثم ذكر جوابا ثالثا, وهو أن الفار يأتيه ما قضي له من المضرة ويأتي الثابت ما قضي له من المسرة, فقال: "قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا" (الأحزاب: ١٧) ونظيره قوله في سياق آيات الجهاد: "أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة" (النساء: ٧٨) وقوله: "يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير" (آل عمران: ١٥٦) فمضمون الأمر أن المنايا محتومة, فكم ممن حضر الصفوف فسلم, وكم ممن فر من المنية فصادفته, كما قال خالد بن الوليد لما احتضر: لقد حضرت كذا وكذا صفا, وأن ببدني بضعا وثمانين ما بين ضربة بسيف وطعنة برمح ورمية بسهم, وهأنذا أموت على فراشي كما يموت البعير, فلا نامت أعين الجبناء!

ثم قال تعالى: "قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا" (الأحزاب: ١٨) قال العلماء: كان من المنافقين من يرجع من الخندق فيدخل المدينة, فإذا جاءهم أحد قالوا له: ويحك اجلس فلا تخرج,

ويكتبون بذلك إلى إخوانهم الذين بالعسكر: أن ائتونا بالمدينة فإنا ننتظركم, يثبطونهم عن القتال. وكانوا لا يأتون العسكر إلا ألا يجدوا بدا, فيأتون العسكر ليرى الناس وجوههم, فإذا غفل عنهم عادوا إلى المدينة, فانصرف بعضهم من عند النبي صلى الله عليه وسلم فوجد أخاه لأبيه وأمه وعنده شواء ونبيذ, فقال: أنت ههنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين الرماح والسيوف؟! فقال: هلم إلي فقد أحيط بك وبصاحبك!

فوصف المثبطين عن الجهاد وهم صنفان بأنهم: إما أن يكونوا في بلد الغزاة أو في غيره, فإن كانوا فيه عوقوهم عن الجهاد بالقول أو بالعمل أو بهما. وإن كانوا في غيره راسلوهم أو كاتبوهم بأن يخرجوا إليهم من بلد الغزاة ليكونوا معهم بالحصون أو بالبعد. كما جرى في هذه الغزاة. فإن أقواما في العسكر والمدينة وغيرهما صاروا يعوقون من أراد الغزو, وأقواما بعثوا من المعاقل والحصون وغيرها إلى إخوانهم: هلم إلينا, قال الله تعالى فيهم: "ولا يأتون البأس إلا قليلا أشحة عليكم" (الأحزاب: ١٨) أي بخلاء عليكم بالقتال معكم والنفقة في سبيل الله. وقال مجاهد: بخلاء عليكم بالخير والظفر والغنيمة. وهذه حال من بخل على المؤمنين بنفسه وماله, أو شح عليهم بفضل الله من

نصره ورزقه الذي يجريه بفعل غيره, فإن أقواما يشحون بمعروفهم وأقواما يشحون بمعروف الله وفضله, وهم الحساد.

ثم قال تعالى: "فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت" (الأحزاب: ١٩) من شدة الرعب الذي في قلوبهم يشبهون المغمى عليه وقت النزع, فإنه يخاف ويذهل عقله ويشخص بصره ولا يطرف, فكذلك هؤلاء ؛ لأنهم يخافون القتل "فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد" ويقال في اللغة صلقوكم وهو رفع الصوت بالكلام المؤذي, ومنه الصالقة, وهي التي ترفع صوتها بالمصيبة, يقال: صلقه وسلقه - وقد قرأ طائفة من السلف بها ؛ لكنها خارجة عن المصحف - (٣٠) إذا خاطبه خطابا شديدا قويا, ويقال: خطيب مسلاق: إذا كان بليغا في خطبته؛ لكن الشدة هنا في الشر لا في الخير, كما قال: "بألسنة حداد أشحة على الخير" وهذا السلق بالألسنة الحادة يكون بوجوه:

تارة يقول المنافقون للمؤمنين: هذا الذي جرى علينا بشؤمكم؛ فإنكم أنتم الذين دعوتم الناس إلى هذا الدين وقاتلتم عليه وخالفتموهم, فإن هذه مقالة المنافقين للمؤمنين من الصحابة. وتارة يقولون: أنتم الذين أشرتم علينا بالمقام هنا والثبات بهذا الثغر إلى هذا الوقت, وإلا فلو كنا سافرنا قبل هذا لما أصابنا

هذا. وتارة يقولون: أنتم مع قلتكم وضعفكم تريدون أن تكسروا العدو, وقد غركم دينكم. كما قال تعالى: "إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم" (الأنفال: ٤٩). وتارة يقولون: أنتم مجانين لا عقل لكم! تريدون أن تهلكوا أنفسكم والناس معكم. وتارة يقولون أنواعا من الكلام المؤذي الشديد.

وهم مع ذلك أشحة على الخير, أي حراص على الغنيمة والمال الذي قد حصل لكم. قال قتادة: إن كان وقت قسمة الغنيمة بسطوا ألسنتهم فيكم, يقولون: أعطونا فلستم بأحق بها منا. فأما عند البأس فأجبن قوم وأخذلهم للحق, وأما عند الغنيمة فأشح قوم. وقيل: أشحة على الخير, أي بخلاء به, لا ينفعون لا بنفوسهم ولا بأموالهم.

وأصل الشح: شدة الحرص الذي يتولد عنه البخل والظلم, من منع الحق وأخذ الباطل, كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إياكم والشح, فإن الشح أهلك من كان قبلكم, أمرهم بالبخل فبخلوا, وأمرهم بالظلم فظلموا, وأمرهم بالقطيعة فقطعوا" رواه أحمد (٦٤٨٧) فهؤلاء أشحاء على إخوانهم, أي بخلاء عليهم, وأشحاء على الخير, أي حراص عليه فلا ينفقونه, كما قال: "وإنه لحب الخير لشديد" (العاديات: ٨)

ثم قال تعالى: "يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا" (الأحزاب: ٢٠) فوصفهم بثلاثة أوصاف:

أحدها: أنهم لفرط خوفهم يحسبون الأحزاب لم ينصرفوا عن البلد. وهذه حال الجبان الذي في قلبه مرض, فإن قلبه يبادر إلى تصديق الخبر المخوف وتكذيب خبر الأمن.

الوصف الثاني: أن الأحزاب إذا جاءوا تمنوا أن لا يكونوا بينكم؛ بل يكونون في البادية بين الأعراب يسألون عن أنبائكم: إيش خبر المدينة؟ وإيش جرى للناس؟

والوصف الثالث: أن الأحزاب إذا أتوا وهم فيكم لم يقاتلوا إلا قليلا.

وهذه الصفات الثلاث منطبقة على كثير من الناس في هذه الغزوة, كما يعرفونه من أنفسهم, ويعرفه منهم من خبرهم.

ثم قال تعالى: "لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا" (الأحزاب: ٢١) فأخبر سبحانه أن الذين يبتلون بالعدو كما ابتلي رسول الله صلى الله عليه وسلم, فلهم فيه أسوة

حسنة, حيث أصابهم مثل ما أصابه, فليتأسوا به في التوكل والصبر, ولا يظنون أن هذه نقم لصاحبها وإهانة له, فإنه لو كان كذلك ما ابتلي بها رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الخلائق؛ بل بها تنال الدرجات العالية, وبها يكفر الله الخطايا لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا. وإلا فقد يبتلى بذلك من ليس كذلك فيكون في حقه عذابا, كالكفار والمنافقين.

ثم قال تعالى: "ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما" (الأحزاب: ٢٢) قال العلماء: كان الله قد أنزل في سورة البقرة: "أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب" (البقرة: ٢١٤) فبين الله سبحانه منكرا على من حسب خلاف ذلك أنهم لا يدخلون الجنة إلا بعد أن يبتلوا مثل هذه الأمم قبلهم بـالبأساء: وهي الحاجة والفاقة, والضراء: وهي الوجع والمرض, والزلزال: وهي زلزلة العدو. فلما جاء الأحزاب عام الخندق فرأوهم قالوا: "هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله" وعلموا أن الله قد ابتلاهم بالزلزال, وأتاهم مثل الذين خلوا من

قبلهم, وما زادهم إلا إيمانا وتسليما لحكم الله وأمره. وهذه حال أقوام في هذه الغزوة قالوا ذلك.

وكذلك قوله: "من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه" (الأحزاب: ٢٣) أي عهده الذي عاهد الله عليه فقاتل حتى قتل أو عاش, والنحب: النذر والعهد, وأصله من النحيب: وهو الصوت, ومنه: الانتحاب في البكاء: وهو الصوت الذي تكلم به في العهد .

ثم لما كان عهدهم هو نذرهم الصدق في اللقاء, ومن صدق في اللقاء فقد يقتل, صار يفهم من قوله "قضى نحبه" أنه استشهد . لا سيما إذا كان النحب: نذر الصدق في جميع المواطن؛ فإنه لا يقضيه إلا بالموت. وقضاء النحب هو الوفاء بالعهد, كما قال تعالى: "من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه" أي أكمل الوفاء, وذلك لمن كان عهده مطلقا بالموت أو القتل "ومنهم من ينتظر" قضاءه إذا كان قد وفى البعض فهو ينتظر تمام العهد. وأصل القضاء الإتمام والإكمال

"ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفورا رحيما" (الأحزاب: ٢٤) بين الله سبحانه أنه أتى بالأحزاب ليجزي الصادقين بصدقهم حيث صدقوا في إيمانهم كما قال تعالى:

"إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون" (الحجرات: ١٥) فحصر الإيمان في المؤمنين المجاهدين, وأخبر أنهم هم الصادقون في قولهم: آمنا؛ لا من قال كما قالت الأعراب: آمنا, والإيمان لم يدخل في قلوبهم, بل انقادوا واستسلموا. وأما المنافقون فهم بين أمرين: إما أن يعذبهم وإما أن يتوب عليهم. فهذا حال الناس في الخندق وفي هذه الغزاة.

وأيضا: فإن الله تعالى ابتلى الناس بهذه الفتنة ليجزي الصادقين بصدقهم, وهم الثابتون الصابرون لينصروا الله ورسوله, ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم . ونحن نرجو من الله أن يتوب على خلق كثير من هؤلاء المذمومين؛ فإن منهم من ندم, والله سبحانه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات, وقد "فتح الله للتوبة بابا من قبل المغرب عرضه أربعون سنة, لا يغلقه حتى تطلع الشمس من قبله" رواه أحمد (١٨١٠٠) والترمذي (٣٥٣٦) وصححه.

وقد ذكر أهل المغازي ـ منهم ابن إسحاق ـ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في الخندق: "الآن نغزوهم ولا يغزونا" رواه البخاري (٤١٠٩), فما

غزت قريش ولا غطفان ولا اليهود المسلمين بعدها؛ بل غزاهم المسلمون, ففتحوا خيبر ثم فتحوا مكة.

كذلك - إن شاء الله - هؤلاء الأحزاب من المغول وأصناف الترك ومن الفرس والمستعربة والنصارى ونحوهم من أصناف الخارجين عن شريعة الإسلام: الآن نغزوهم ولا يغزونا _قلت: وقد غزا المسلمون بعد هذه الغزاة جبال كسروان وطهروها من الباطنية, بحمد الله_ ويتوب الله على من يشاء من المسلمين الذين خالط قلوبهم مرض أو نفاق بأن ينيبوا إلى ربهم, ويحسن ظنهم بالإسلام, وتقوى عزيمتهم على جهاد عدوهم, فقد أراهم الله من الآيات ما فيه عبرة لأولي الأبصار, كما قال: "ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا" (الأحزاب: ٢٥)

فإن الله صرف الأحزاب عام الخندق بما أرسل عليهم من ريح الصبا ريح شديدة باردة, وبما فرق به بين قلوبهم حتى شتت شملهم ولم ينالوا خيرا. إذ كان همهم فتح المدينة والاستيلاء عليها وعلى الرسول والصحابة, كما كان هم هذا العدو فتح الشام والاستيلاء على من بها من المسلمين, فردهم الله بغيظهم, حيث أصابهم من الثلج العظيم, والبرد الشديد, والريح العاصف,

والجوع المزعج ما الله به عليم. وقد كان بعض الناس يكره تلك الثلوج والأمطار العظيمة التي وقعت في هذا العام حتى طلبوا الاستصحاء غير مرة. ـأي صلاة الاستغاثة لطلب الصحو وكف المطر, وهو ضد الاستسقاءـ وكنا نقول لهم: هذا فيه خيرة عظيمة, وفيه لله حكمة وسر, فلا تكرهوه. فكان من حكمته: أنه فيما قيل: أصاب قازان وجنوده حتى أهلكهم, وهو كان فيما قيل: سبب رحيلهم. وابتلي به المسلمون ليتبين من يصبر على أمر الله وحكمه, ممن يفر عن طاعته وجهاد عدوه.

وكان مبدأ رحيل قازان فيمن معه من أرض الشام وأراضي حلب يوم الاثنين حادي عشر جمادى الأولى يوم دخلت مصر واجتمعت بالسلطان وأمراء المسلمين, وألقى الله في قلوبهم من الاهتمام بالجهاد ما ألقاه. فلما ثبت الله قلوب المسلمين؛ صرف العدو جزاء منه وبيانا أن النية الخالصة والهمة الصادقة ينصر الله بها, وإن لم يقع الفعل, وإن تباعدت الديار.

وذكر أن الله فرق بين قلوب هؤلاء المغول والكرج وألقى بينهم تباغضا وتعاديا, كما ألقى سبحانه عام الأحزاب بين قريش وغطفان وبين اليهود. كما ذكر ذلك أهل المغازي . فإنه لم يتسع هذا المكان لأن نصف فيه قصة

الخندق, بل من طالعها علم صحة ذلك كما ذكره أهل المغازي, مثل عروة بن الزبير, والزهري, وموسى بن عقبة, وسعيد بن يحيى الأموي, ومحمد بن عائذ, ومحمد بن إسحاق, والواقدي وغيرهم.

ثم تبقى بالشام منهم بقايا سار إليهم من عسكر دمشق أكثرهم, مضافا إلى عسكر حماة وحلب وما هنالك. وثبت المسلمون بإزائهم, وكانوا أكثر من المسلمين بكثير؛ لكن في ضعف شديد, وتقربوا إلى حماة, وأذلهم الله تعالى فلم يقدموا على المسلمين قط. وصار من المسلمين من يريد الإقدام عليهم فلم يوافقه غيره, فجرت مناوشات صغار كما جرى في غزوة الخندق حيث قتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه فيها عمرو بن عبد ود العامري لما اقتحم الخندق هو ونفر قليل من المشركين. كذلك صار يتقرب بعض العدو فيكسرهم المسلمون, مع كون العدو المتقرب أضعاف من قد سرى إليه من المسلمين. وما من مرة إلا وقد كان المسلمون مستظهرين عليهم.

وكان من المقدر أنه إذا عزم الأمر وصدق المؤمنون الله يلقي في قلوب عدوهم الرعب فيهربون, لكن أصابوا من البليدات بالشمال مثل تيزين والفوعة ومعرة مصرين _هذه الثلاث قرى من ريف حلب_ وغيرها ما لم يكونوا وطئوه في العام الماضي. وقيل: إن كثيرا من تلك البلاد كان فيهم

ميل إليهم بسبب الرفض, وأن عند بعضهم فرامين ـجمع فرمان وهو الكتاب, وهو لفظ مولد, ولعل أصل الكلمة من لغة الترك ـ منهم؛ لكن هؤلاء ظلمة ومن أعان ظالما بلي به. والله تعالى يقول: "وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون" (الأنعام: ١٢٩)

وقد ظاهرهم على المسلمين الذين كفروا من أهل الكتاب من أهل سيس ـ قلت: سيس من أعظم مدن الثغور الشامية وهي واقعة بين أنطاكية وطرسوس. وقد رابط فيها الإمام أحمد رحمه الله إذ كانت في وقته من أعظم الثغور. وكذلك كانت طرسوس ثغرا عظيما ـ والإفرنج. فنحن نرجو من الله أن ينزلهم من صياصيهم وهي الحصون - ويقال للقرون: الصياصي - ويقذف في قلوبهم الرعب, وقد فعل, ويفتح الله تلك البلاد , ونغزوهم إن شاء الله تعالى, فنفتح أرض العراق وغيرها, وتعلو كلمة الله ويظهر دينه.

فإن هذه الحادثة كان فيها أمور عظيمة جازت حد القياس, وخرجت عن سنن العادة, وظهر لكل ذي عقل من تأييد الله لهذا الدين, وعنايته بهذه الأمة, وحفظه للأرض التي بارك فيها للعالمين - بعد أن كاد الإسلام أن, وكر العدو كرة فلم يلو عن, وخذل الناصرون فلم يلووا على, وتحير

السائرون فلم يدروا من ولا إلى؟ _قلت: وهذه الجمل الأربع كلها من باب كلام البليغ, وهو هنا بحذف الخبر إذا كان معلوما كقول الله الأجل: "ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى" (الرعد: ٣١)_ وانقطعت الأسباب الظاهرة, وأهطعت الأحزاب القاهرة, وانصرفت الفئة الناصرة, وتخاذلت القلوب المتناصرة, وثبتت الفئة الصابرة, وأيقنت بالنصر القلوب الطاهرة, واستنجزت من الله وعده العصابة المنصورة الظاهرة, ففتح الله أبواب سمواته لجنوده القاهرة, وأظهر على الحق آياته الباهرة, وأقام عمود الكتّاب بعد ميله, وثبت لواء الدين بقوته وحوله, وأرغم معاطس _أي الأنوف, وتأمل الفخامة والجزالة والعزة في هذه الجمل التيمية_ أهل الكفر والنفاق, وجعل ذلك آية للمؤمنين إلى يوم التلاق.

فالله يتم هذه النعمة _قلت: وهذا أسلوب دعاء بما ظاهره الخبر, وهو شائع في العربية كقولهم رحم الله فلانا, وغفر الله لك ونحو ذلك, كذلك المرحوم على الصحيح_ بجمع قلوب أهل الإيمان على جهاد أهل الطغيان, ويجعل هذه المنة الجسيمة مبدأ لكل منحة كريمة, وأساسا لإقامة الدعوة النبوية القويمة, ويشفي صدور المؤمنين من أعاديهم, ويمكنهم من دانيهم

وقاصيهم, والحمد لله رب العالمين, وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

وأسأل الله تبارك وتعالى أن يعزّ دينه, ويعلي كلمته, ويظهر الهدى ودين الحق على الدين كله, وأن يستعملنا في طاعته, ويستغرسنا في مراضيه, وأن يكلنا في كل أمورنا إليه, هو حسبنا فنعم الوكيل, ونعم المولى, ونعم النصير, وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على السراج المنير والنذير والبشير, وآله وصحبه.

٤/٦/ ١٤٣٤

"يَا خَيْلَ اللهِ لِلشَّامِ ارْكَبِي"

الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ‚ هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلًا وأجلٌ مسمّى عنده ثم أنتم تمترون ‚ وهو الله في السماوات وفي الأرض يعلم سرّكم وجهركم ويعلم ما تكسبون " "وإن يمسسك الله بضرّ فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير ‚ وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير" أحمده سبحانه وأشكره, وأستعينه وأتوب إليه وأستغفره, وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له, وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ومُختارُهُ وصفيُّه, إمامُ المجاهدين, وقائدُ الغرّ المحجلين, صاحبُ الحوضِ المورود, واللواءِ المورود, وعلى آله وصحبه الهُداةِ الميامين. أما بعد:

إن المتأمل لتعاقب أحداث زماننا الكبرى وتسارعها ليتفرّس ـوالعلمُ عند الله وحدهـ أن لهذا الزمان موعدٌ مع أحداثٍ كونيّة عُظمى, وأن الحكيم القدير سبحانه يستغرسُ عبادًا له في طَيِّ غيبه, يُصنَعون على عينه: أخلصَ دينهم, وهذَّب أخلاقَهُم, وجرّد مطلوبهم, وأصحّ فِقهَهُم, وأقام لهم

عبادتهم. لأن اشتداد طَلْقِ الفرجِ يستسقي المُقَرَّبين, ويستقدِمَ الشهداءَ والصدِّيقين, وإذا أراد اللهُ -في العادةِ- أمرًا هيَّأ له أسبابه, وهذه الأمة المرحومة كالغيث, لا يُدرى أوّله خير أم آخره؟ ولكم اشتاق نبي الرحمة والملحمة لإخوانه الذين للواحد منهم أجر خمسين من صحابته المرضيين, فأعظِمْ بها من كرامةٍ لمن هداه الله ذيّاكَ السبيل! "وليعلم الله الذين آمنوا ويتّخذ منكم شهداء" "ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوَ بعضكم ببعض والذين قُتلوا في سبيل الله فلن يُضلّ أعمالهم . سيهديهم ويصلح بالهم . ويدخلهم الجنة عرفها لهم . يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم"

إنّ هذه الأحداث العِظام لها أبعادٌ ودلالاتٌ ومآلاتٌ اللهُ وحدَهُ يعلمُ حجمها وحقيقتها ومكانها من أحداث الإنسانية جمعاء في المستقبل المنظور!

ولئن اختزلها عُبّادُ الصليبِ وعُزير بثورةِ مادّة؛ فلعمر الحق إنها لفوقَ ذلك, وأسمَى وأجلّ مما هُنالك, وأكرم وأجلى من كل ما يدّعونه ويُزيّفونه.

إنها دمشق! الملاحمُ من أكنافها تقدحُ شررَها, والالويةُ من غوطتها تعقد بيارقها, والكتائبُ من هضابها تحدر كالسيل لموعود ربها! فيا لله كم من

أملاك ربي لأجنحتها على الشام باسطة, ويا لله كم من رَضِيٍّ مرْضِيٍّ بحالِهِ ولسانِهِ وسلاحِهِ "وعجلتُ إليك ربِّ لترضى"

ولا تصحّ بحالٍ مقولة: التاريخُ يُعيد نفسه! فالتاريخ ظرفُ زمانٍ, ومحلُّ قضاء وقدر الرحمن, والله سبحانه هو الذي يُجري الزمان ويُقدِّرُ ويقضي "إنا كلَّ شيء خلقناه بقدر"

إخوتي في الله: إن من ضرورات هذه المرحلة ومُحتّماتها؛ أن يُوحّد المجاهدون كلمتهم, ويجمعوا راياتهم, ويرصّوا صفّهم, ويُفردوا عصاهم, وأن يحذروا التفرّق والاختلاف وذهاب الريح, ولْيعتبروا بافغانستان المجاهدة؛ إذْ عادتْ حِرابُ المجاهدين لِصُدُورِ الفاتحين! والمؤمنُ كيِّسٌ فطن, لا يُغدر من جحرٍ مرتين. فعلى كتائب الجهاد وفصائله أن لا يفرحوا بتعدّد الألويةِ, فكَدَرُ الجماعة خيرٌ من صفوِ الفرقة, ولْيعظّموا أمر الشورى, والله جلّ وعز يقول: "ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم" والكَيْسَ الكَيْسَ.

فيا إخوتاه, أروا اللهَ منكم خيرًا, واعلموا أن الله لا يُخلف الميعاد, وأن سُننه لا تتبدّل, فلا أكرَم عليه من رسوله صلّى عليه وسلم وصحابته مع ذلك أقامَ نواميس كونه وشرعه معهُم لما أطاعوا رسوله وصدقوا التوكل على ربهم, فلمّا خالفوا في أُحِدٍ وحنين أُديلَ عليهم عدوّهم حتى كاد أن

يستأصلهم لولا لطف اللطيف البر الكريم الذي ألقى في قلوبهم الإيمان والصبر واليقين, فتنزّلت أمدادُ اللطف والنصر والفتح!

فهذه سُنَّتُه الماضية سبحانه وبحمده, فإن رأى منكم ذلك هداكم سبلكم, ووقاهم شر أنفسكم, ووكلكم إليه وحده, لا إلى الناس, ولا إلى أنفسكم "وكفى بالله وليًا وكفى بالله نصيرًا"

كما لابد أن تتّسعَ صدوركم لخلافكم, وأن يرحم بعضكم بعضًا, وأن تنظروا بقلب واحد للخطر الماحق من عدوكم بكافة أحزابه وأمدادِه, الذي يكيد كيدًا كُبَّارًا "وإن كان مكرهم لِتزول منه الجبال" ولكن إن اتقينا الله وأخلصنا له الوجوه فلا نخاف مخلوقًا"إنهم يكيدون كيدًا . وأكيد كيدًا . فمهّل الكافرين أمهلهم رويدًا""فلا تخشوهم واخشوني" "ألا تُقاتلون قومًا نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءُوكم أوّل مرة أتخشونهم فالله أحقّ أن تخشوه إن كنتم مؤمنين . قاتلوهم يعذّبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قومٍ مؤمنين . ويُذهب غيض قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم . أم حسبتم أن تتركوا ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون" والوليجة: هي البطانة من المشركين.

فعلى المجاهدين في سبيل الله أن يتدبّروا القرآن, ومهما أجلب أولياء الطاغوت فرب العزّة جل جلاله يقول: "وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئًا إن الله بما يعملون محيط" إذْ لا بدّ لمن رام استنزالَ معونة الله ونصره وتأييده من تحقيق هذين الأمرين: الصبر, والتقوى. ومجاهدٌ لا يتّقي الله لا خلاق له في الفتح والظفر"الله ولي الدين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات".

وبالجملة؛ فمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله, وليبشر بموعود الله "يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم" "كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي إن الله قويٌّ عزيز" "قال الذين يظنّون أنّهم ملاقو الله كم من فئة قليلةٍ غلبت فئةً كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين . ولمّا برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربّنا أفرغ علينا صبرًا وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فهزموهم بإذن الله""وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين" ولْتكثروا ذكر الله تعالى على كل أحوالكم, فهو من أعظم أسباب النصر

والثبات "يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرًا لعلكم تفلحون" وأبشروا معشر المجاهدين فإنما هي إحدى الحسنيين, فإما نصرٌ وظفرٌ يشفي الصدور ويشرح النفوس, وإما صُعودٌ لعلّيّين, وارتقاء لجنات النعيم, قد أفلحَ وجهُه, وثبتَ عند الله أجرُه. وفي سنن النسائي عن رَشْدِين بنِ سعد عن رجلٍ من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلًا قال: يا رسول الله, ما بالُ المؤمنين يُفتنون في قبورهم إلّا الشهيد؟ فقال بأبي هو وأمي وولدي ونفسي: "كفى ببارقةِ السّيوف على رأسه فتنة" قال ابن القيم في الروح: معناه _والله أعلم_ أنه قد امتُحِنَ نفاقُه من إيمانه ببارقةِ السيف على رأسه, فلم يفرّ, فلو كان منافقًا لما صَبَرَ ببارقة السيف على رأسه, فدلّ على أن إيمانه هو الذي حمله على بذل نفسه لله, وتسليمها له, وهاج من قلبه حميّةُ الغضب لله ورسوله, وإظهار دينه, وإعزاز كلمته. فهذا قد أظهر صدق ما في ضميره حيث برز للقتل, فاستغنى بذلك عن الامتحان في قبره.

وعن المقدام بن معدي كَرِبٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "للشهيد عند الله ستُّ خصال: يُغفر له في أول دفعة من دمه, ويَرى مقعده من الجنة, ويُجار من عذاب القبر, ويأمَنُ من الفزع الأكبر, ويُوضع على رأسه تاجُ الوقار, الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها,

ويُزوِّج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين, ويشفع في سبعين من أقاربه" رواه الترمذي وصححه, وكذلك صحّحه الألباني.

ويا إخوتاه, احذروا شؤم المعاصي ومساقط الخطايا ودركات الذنوب, وحظوظ النفس الأمارة من رئاسة أو رياء أو غلول وغيرها, فَلَرُبَّ معصيةٍ أدالتْ الأعداء على أهل الهدى, واعتبروا بالأسلاف, ولله في تدبيره وتقديره حِكَمٌ باهرة, لا تُحيطها الأفهامُ, ولا تدركها العقول! "فاعتبروا يا أولى الأبصار" قال شيخ الإسلام في الفتاوى (١٨ / ٢٩٥): وكثيرٌ من الناس إذا رأى المنكر أو تغير كثير من أحوال الإسلام؛ جزع وكلّ وناح كما ينوح أهل المصائب, وهو منهيٌّ عن هذا؛ بل هو مأمور بالصبر, والتوكل, والثبات على دين الإسلام, وأن يؤمن بالله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون, وأن العاقبة للتقوى. وأن ما يصيبه فهو بذنوبه, فليصبر إن وعد الله حقٌّ, وليستغفر لذنبه, وليسبّح بحمد ربه بالعشيِّ والإبكار.

ولقد قال الشيخ المجاهد عدنان العرعور ختم الله لي وله وللمؤمنين بالحسنى, والشيخ خبيرُ بساحات الجهاد السوري وحاجاته, عليمٌ بكثيرٍ من خفايا ميادين مغازيه التي يُظهرها الإعلام على غير ما هي عليه!

وقد قال الشيخ مِرارًا: إن المجاهدين هناك ليسوا بحاجة إلى رجالٍ يَنفروا لهم, إنّما هم بحاجةٍ مُلِحَّةٍ للسلاح والعتاد والمال والدعاء. وهذا كله ميسور بحمد الله تعالى. خاصّة مع ما يكتنف الذهابَ إلى هناك في هذه الحقبة من أمورٍ لا تخفى على متأمّل. وبحمد ربنا فمن جهّزَ غازيًا فقد غزا, ومن خلف غازيًا في أهله بخيرٍ فقد غزا. ولْنحذر جميعًا من مغبّة خلافنا لحديث المجاهد الأعظم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه إذ قال: "من مات ولم يغزُ, ولم يُحدّث نفسه بغزو؛ مات على شعبة من نفاق" رواه مسلم, فهلّا غزَوْنا بمالنا, علَّ الله أن يكتبنا مع الغزاة في سبيله المجاهدين لإعلاء كلمته؟

شاهدُ المقال ومقصودُ الخطاب أمران, لا غِنى لكلّ مجاهدٍ عنهما, حتّى وإن عزَّ فيهما الرفيق والأخ والشريك. على كل جَاهدٍ مُجاهدٍ تحقيقهما طاقته ووسعه, ولْيعلم أنّ التوفيق واللطف والقبول دائرٌ معهما حيث دارا, وعلى قدر تحقيقهما يتنزّل الفَرَجُ, ويتتابعُ النصر, وتعظمُ الفُتوح, ذانك الأمران يا طالب الرضوان هما:

الإخلاص والمتابعة. فبإخلاص الدين لله, وتحقيق توحيده, وإفراده بالعبودية, ثمّ بتوحيد اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم, وتعظيم سنته, والصدور عنها مهما نازعت النفس الجموح, أو حَرَنَتِ أُختَهَا القَعُود!

ولقد فتح الله تعالى على ابن القيم يوم كتب مستخلصًا الدروس والعبر من غزوة أحد على ضوء آيات سورة آل عمران إذ بيّن الفرقان بين أولياء الرحمن الذين أحسنوا الظن بربهم وبين من كان في قلوبهم مرض نفاق وسوء ظن, في سِفْرِهِ النفيس الباهر زاد المعاد فقال باختصار واقتصار (٣ / ٢١٨_٢٣٩):

ونذكر بعضَ الحكم والغايات المحمودة التي كانت في وقعة أُحُد, وقد أشار اللهُ سبحانه وتعالى إلى أُمهاتِها وأُصولها في سورة "آل عمران" حيث افتتح القصة بقوله: "وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ" [آل عمران: ١٢١] إلى تمام ستين آية.

فمنها: تعريفُهم سوء عاقبة المعصية، والفَشَل، والتنازُع، وأن الذي أصابَهم إنما هو بِشُؤمِ ذلِكَ، كما قال تعالى: "وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ، حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ، مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ، ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ، وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ" [آل عمران: ١٥٢]. فلما ذاقُوا عاقبةَ معصيتِهم للرسول، وتنازعهم، وفشلهم، كانُوا بعد ذلك أشدَّ حذراً ويقظة، وتحرُّزاً مِن أسبابِ الخِذلان.

ومنها: أن حِكمة الله وسُنَّته في رُسله، وأتباعِهم، جرت بأن يُدَالوا مَرَّةً، ويُدَالَ عليهم أُخرى، لكن تكونُ لهم العاقبةُ، فإنهم لو انتصرُوا دائماً، دخلَ معهم المؤمنون وغيرُهم، ولم يتميَّز الصَّادِقُ مِن غيره، ولو انتُصِرَ عليهم دائماً، لم يحصل المقصودُ من البعثة والرسالة، فاقتضت حِكمة الله أن جمع لهم بينَ الأمرين ليتميز مَن يتبعُهم ويُطيعهُم للحق، وما جاؤوا به ممن يتبعُهم على الظهور والغلبة خاصة.

ومنها: أن هذا مِن أعلام الرسل، كما قال هِرَقْلُ لأبي سفيان: هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قال: نعم. قَالَ: كَيْفَ الحَرْبُ بيْنَكُم وبيْنَه؟ قالَ: سِجَال، يُدالُ علينا المرة، ونُدالُ عليه الأخرى. قال: كَذلِكَ الرُّسُل تُبْتَلَى، ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ العَاقِبَة.

ومنها: أن يتميَّز المؤمنُ الصَّادِقُ مِن المنافقِ الكاذبِ، فإنَّ المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يومَ بدر، وطار لهم الصِّيتُ، دخل معهم في الإسلام ظاهراً مَنْ ليس معهم فيه باطناً، فاقتضت حِكمةُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ أن سَبَّبَ لعباده مِحْنَةً ميَّزت بين المؤمن والمنافق، فأَطْلَعَ المنافقون رُؤوسَهم في هذه الغزوة، وتكلَّموا بما كانوا يكتُمونه، وظهرت مُخَبَّآتهم، وعاد تلويحُهم تصريحاً، وانقسم الناسُ إلى كافر، ومؤمن، ومنافق، انقساماً ظاهراً، وعَرَفَ المؤمنون أنّ لهم عدواً في نفس دُورهم، وهم معهم لا يُفارقونهم، فاستعدُّوا

لهم، وتحرَّزوا منهم. قال تعالى: "مَاَ كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ، وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الغَيْبِ وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ" [آل عمران: ١٧٩] أي: ما كان اللهُ ليذركم على ما أنتم عليه من التباسِ المؤمنين بالمنافقين، حتى يميزَ أهلَ الإيمانِ مِن أهل النفاق، كما ميَّزهم بالمحنة يومَ أُحُد، وما كان الله لِيُطلعكم على الغيب الذى يَمِيزُ به بينَ هؤلاء وهؤلاء، فإنهم متميِّزون في غيبه وعلمه، وهو سبحانه يُريد أن يميزهم تمييزاً مشهوداً، فيقع معلومُهُ الذي هو غيبٌ شهادةً. وقوله: "وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ" [آل عمران: ١٧٩] استدراك لما نفاه من اطلاع خلقه على الغيب، سوى الرسلِ، فإنه يُطلعهم على ما يشاء مِن غيبه، كما قال: "عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ" [الجن: ٢٦-٢٧] فحظكم أنتم وسعادتكم في الإيمان بالغيبِ الذي يُطْلِعُ عليه رسله، فإن آمنتم به وأيقنتم، فلكم أعظمُ الأجر والكرامة.

ومنها: استخراجُ عبوديةِ أوليائه وحزبِه في السَّراء والضرَّاء، وفيما يُحبُّون وما يكرهون، وفي حال ظفرهم وظفر أعدائهم بهم، فإذا ثبتُوا على الطاعة والعبودية فيما يُحبون وما يكرهون، فهم عبيدهُ حقاً، وليسوا كمن يعبد الله على حَرْفٍ واحد مِن السَّراء والنعمة والعافية.

ومنها: أنه سبحانه لو نصرهم دائماً، وأظفرهم بعدوِّهم في كُلِّ موطن، وجعل لهم التَّمْكِينَ والقهرَ لأعدائهم أبداً، لطغتْ نفوسُهم، وشمخت وارتفعت، فلو بسط لهم النصرَ والظفرَ، لكانُوا في الحال التي يكونون فيها لو بَسَطَ لهم الرِّزْقَ، فلا يُصْلِحُ عِبادَهُ إلا السَّراءُ والضَّراءُ، والشدةُ والرخاءُ، والقبضُ والبسطُ، فهو المدبِّرُ لأمر عباده كما يليقُ بحكمته، إنه بهم خبير بصير.

ومنها: أنه إذا امتحنهم بالغَلَبَةِ، والكَسْرَةِ، والهزيمة؛ ذلُّوا وانكسَروا، وخضعُوا، فاستوجبوا منه العِزَّ والنَّصْرَ، فإن خِلْعَةَ النصر إنما تكونُ مع ولاية الذُّلِّ والانكسارِ، قال تعالى: "وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ" [آل عمران: ١٢٣] وقال: "وَيومَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُم شَيْئاً" [التوبة: ٢٥] فهو سبحانه إذا أراد أن يُعِزَّ عبدَه، ويجبُرَه، وينصُرَه، كسره أوَّلاً، ويكونُ جبرُه له ونصره، على مِقدار ذُلِّه وانكساره.

ومنها: أنه سبحانه هيَّأ لعباده المؤمنين منازِلَ في دار كرامته، لم تبلُغْها أعمالهم، ولم يكونوا بالغيها إلا بالبلاء والمحنةِ، فقيَّض لهم الأسبابَ التي تُوصِلُهُم إليها من ابتلائه وامتحانه، كما وفّقهم للأعمال الصالحة التي هي من جملة أسباب وصولهم إليها.

ومنها: أن النفوسَ تكتسِبُ من العافية الدائمة والنصر والغنى طغياناً ورُكوناً إلى العاجلة، وذلك مرض يَعُوقُها عن جِدِّها في سيرها إلى الله والدارِ الآخرة، فإذا أراد بها ربُّهَا ومالِكُهَا وراحِمُهَا كرامته، قيَّض لها من الابتلاء والامتحان ما يكون دواء لذلك المرض العائق عن السير الحثيث إليه، فيكون ذلك البلاء والمحنة بمنزلة الطبيب يسقى العليلَ الدواءَ الكريه، ويقطع منه العروقَ المؤلمةَ لاستخراج الأدواء منه، ولو تركه، لَغَلَبَتْهُ الأدواءُ حتى يكون فيها هلاكه.

ومنها: أن الشهادة عنده من أعلى مراتب أوليائه، والشهداء هم خواصه والمقرَّبون من عباده، وليس بعد درجة الصِّدِّيقيَّة إلا الشهادةُ، وهو سبحانه يُحب أن يتَّخِذَ مِن عباده شهداءَ، تُراقُ دماؤهم في محبته ومرضاته، ويُؤْثِرونَ رضاه ومحابَّه على نفوسهم، ولا سبيلَ إلى نيل هذه الدرجة إلا بتقدير الأسباب المفضية إليها من تسليط العدو.

ومنها: أن الله سبحانه إذا أراد أن يهلك أعداءه ويمحقهم، قيَّضَ لهم الأسباب التي يستوجبون بها هلاكهم ومحقهم، ومن أعظمها بعد كفرهم بغيهم، وطغيانهم، ومبالغتهم في أذي أوليائه، ومحاربتهم، وقتالهم، والتسلط

عليهم، فيتمحّص بذلك أولياؤه من ذنوبهم وعيوبهم، ويزداد بذلك أعداؤه من أسباب محقهم وهلاكهم.

وقد ذكر سبحانه وتعالى ذلك في قوله: "وَلا تَهِنُواْ وَلا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ، وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ، وَاللهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ" [آل عمران: ١٣٩-١٤١] فجمع لهم في هذا الخطاب بين تشجيعهم وتقوية نفوسهم، وإحياء عزائمهم وهِممهم، وبينَ حُسنِ التسلية، وذكر الحِكَمِ الباهِرَة التي اقتضت إدالة الكفار عليهم فقال: "إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ" [آل عمران: ١٤٠] فقد استويتُم في القرح والألَمِ، وتباينتم في الرجاء والثواب، كما قال: "إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ، وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لاَ يَرْجُونَ" [النساء: ١٠٤] فما بالكم تَهِنُونَ وتضعُفُون عند القرح والألم، فقد أصابهم ذلك في سبيلِ الشيطان، وأنتم أُصِبتم في سبيلي وابتغاء مرضاتي.

ثم أخبرَ أنه يُدَاوِلُ أيامَ هذه الحياة الدنيا بين الناسِ، وأنها عَرَضٌ حاضِر، يقسمها دُوَلاً بين أوليائه وأعدائِهِ بخلاف الآخِرةِ، فإن عزَّها ونصرَها

ورجاءَها خالصٌ للذين آمنُوا. ثم ذكر حِكمة أُخرى، وهي أن يتميَّزَ المؤمنون من المنافقين، فيعلمُهم عِلْمَ رؤية ومشاهدة بعد أن كانوا معلومِين في غيبه، وذلك العلم الغيبي لا يترتَّب عليه ثوابٌ ولا عقاب، وإنَّما يترتب الثوابُ والعقابُ على المعلوم إذا صار مشاهداً واقعاً في الحسِ.

ثم ذكر حكمة أُخرى، وهي اتخاذُه سبحانه منهم شهداء، فإنه يُحبُّ الشهداء من عباده، وقد أعَدَّ لهم أعلى المنازل وأفضلَها، وقد اتخذهم لنفسه، فلا بدَّ أن يُنِيلَهم درجة الشهادة.

وقوله: "وَاللّٰهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ" [آل عمران: ٥٧]، تنبيه لطيفٌ الموقع جداً على كراهته وبغضه للمنافقين الذين انخَذَلُوا عن نبيه يومَ أُحُد، فلم يشهدوه، ولم يَتَّخِذْ منهم شهداء، لأنه لم يُحبهم، فأركَسَهم وردَّهُم لِيَحْرِمَهُم ما خصَّ به المؤمنين في ذلكَ اليوم، وما أعطاهُ مَن استُشهِدَ منهم، فثبط هؤلاء الظالمين عن الأسباب التي وفق لها أولياءَهُ وحِزبه.

ثم ذكر حِكمة أُخرى فيما أصابهم ذلك اليوم، وهو تمحيص الذين آمنوا، وهو تنقيتُهم وتخليصُهم من الذنوب، ومن آفاتِ النفوس، وأيضاً فإنه خلَّصهم ومحَّصهم من المنافقين، فتَمَيَّزوا منهم، فحصل لهم تمحيصان: تمحيص من نفوسهم، وتمحيص ممن كان يُظهِرُ أنه منهم، وهو عدوُّهم.

ثم ذكر حكمة أخرى، وهي محقُّ الكافرين بطغيانهم، وبغيهم، وعُدوانهم، ثم أنكر عليهم حُسبانَهم، وظنَّهم أن يدخلُوا الجنَّة بدون الجهاد في سبيله، والصبرِ على أذى أعدائه، وإن هذا ممتنع بحيثُ يُنْكَرُ على مَن ظنه وحَسِبَه.

فقال: "أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ ويَعْلَمَ الصَّابِرِينَ" [آل عمران: ١٤٢] أى: ولما يَقَعْ ذلِكَ منكم، فيعلمه، فإنه لو وقع، لعلمه، فجازاكم عليه بالجنة، فيكونَ الجزاء على الواقع المعلوم، لا على مجرد العلم، فإن الله لا يجزى العبدَ على مجرد علمه فيه دون أن يقعَ معلومُه، ثم وبَّخهم على هزيمتهم مِن أمر كانوا يتمنَّونه ويودُّون لِقاءه.

فقال: "وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ" [آل عمران: ١٤٣].

قال ابن عباس: ولما أخبرهم الله تعالى على لسان نبيه بما فعل بشهداء بدر من الكرامة، رغبوا في الشهادة، فتمنوا قتالاً يستشهِدُونَ فيه، فيلحقُونَ إخوانَهم، فأراهم الله ذلك يوم أُحُد، وسبّبه لهم، فلم يَلْبَثُوا أن انهزموا إلا مَن شاء الله منهم، فأنزل الله تعالى: "ولَقَدْ كُنْتُمُ تَمَنَّوْنَ المَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ" [آل عمران: ١٤٣].

ومنها: أن وقعةَ أُحُدٍ كانت مُقَدِّمَةً وإرهاصاً بين يدي موتِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فثبَّتهم، ووبَّخهم على انقلابهم على أعقابهم أَنْ ماتَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو قُتِلَ، بل الواجبُ له عليهم أن يثبتُوا على دِينه وتوحِيدِهِ ويموتوا عليه، أو يُقتلُوا، فإنهم إنما يعبدُون ربَّ محمد، وهو حيٌّ لا يموت، فلو ماتَ محمد أو قُتِلَ، لا ينبغي لهم أن يَصْرِفَهم ذلِكَ عن دينه، وما جاء به، فكلُّ نفسٍ ذائِقةُ الموت، وما بُعِثَ محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيخلَّد لا هُوَ ولا هُم، بل لِيمُوتُوا على الإسلامِ والتَّوحيدِ، فإن الموت لا بُدَّ منه، سواء ماتَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو بَقِيَ، ولهذا وبَّخَهُم على رجوعِ مَن رجع منهم عن دينه لما صرخ الشَّيْطَانُ: إنَّ محمداً قد قُتِلَ، فقال: "وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ، أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ، وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً، وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ" [آل عمران: ١٤٤] والشاكرون: هم الذين عرفوا قدر النعمة، فثبتوا عليها حتى ماتوا أو قُتِلُوا، فظهر أثرُ هذا العِتَابِ، وحكمُ هذا الخطاب يومَ مات رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وارتدَّ مَن ارتدَّ على عقبيه، وثبت الشاكِرُون على دينهم، فنصرهم الله وأعزَّهم وظفَّرهم بأعدائهم، وجعل العاقبة لهم.

ثم أخبر سبحانه أنه جعل لكل نفس أجلاً لا بُدَّ أن تستوفيه، ثم تلحَقَ به، فيَرِدُ الناسُ كُلُّهم حوضَ المنايا مَوْرِداً واحِداً، وإن تنوَّعت أسبابه، ويصدُرونَ عن موقف القِيامة مصادِرَ شتَّى، فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير،

ثم أخبر سبحانه أن جماعةً كثيرةً من أنبيائه قُتِلُوا وقُتِلَ معهم أتباعٌ لهم كثيرون، فما وَهَنَ مَنْ بقِيَ منهم لِما أصابهم في سبيله، وما ضَعُفُوا، وما استكانُوا، وما وَهَنُوا عندَ القتل، ولا ضعفُوا، ولا استكانوا، بل تَلَقَّوا الشهادةَ بالقُوَّةِ، والعزيمةِ، والإقْدَامِ، فلم يُسْتَشْهَدُوا مُدَبِرِينَ مستكينين أذلةً، بل استُشْهِدُوا أعزَّةً كِراماً مقبلينَ غير مدبرين، والصحيح: أن الآية تتناول الفريقين كليهما.

ثم أخبر سُبحانه عما استنصرت به الأنبياءُ وأُممهم على قومهم من اعترافهم وتوبتهم واستغفارهم وسؤالهم ربهم، أن يُثَبِّت أقدامَهم، وأن ينصُرَهم على أعدائهم فقال: "وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إلاَّ أَن قَالُواْ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوابِ الآخِرَةِ، وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ" [آل عمران: ١٤٧-١٤٨] لما علم القومُ أن العدو إنما يُدَالُ عليهم بذنوبهم، وأن الشيطانَ إنما يستزِلُّهم

ويهزِمُهم بها، وأنها نوعان: تقصيرٌ في حقّ أو تجاوزٌ لحد، وأن النصرةَ منوطة بالطاعة، قالُوا: ربنا اغفِرْ لنا ذنوبَنا وإسرافَنَا في أمرنا، ثم عَلِمُوا أن ربَّهم تبارك وتعالى إن لم يُثَبِّتْ أقدامَهم ويَنْصُرْهم، لم يَقْدِرُوا هُم على تثبيتِ أقدامِ أنفسهم، ونصرها على أعدائهم، فسألوه ما يعلمون أنَّهُ بيده دُونهم، وأنه إن لم يُثَبِّتْ أقدامَهم وينصرهم لم يثبتُوا ولم ينتصِرُوا، فَوَفَّوا المقَامَيْنِ حقَّهما: مقامَ المقتضى، وهو التوحيد والالتجاء إليه سبحانه، ومقامَ إزالةِ المانع من النصرة، وهو الذنوبُ والإسرافُ.

ثم حذَّرهم سبحانه مِن طاعة عدوِّهم، وأخبر أنَّهم إن أطاعوهم خَسِرُوا الدنيا والآخِرَة، وفي ذلك تعريضٌ بالمنافقينَ الذين أطاعوا المشركين لما انتصروا وظفِروا يومَ أُحُد.

ثم أخبر سبحانه أنه مولى المؤمنين، وهو خير الناصرين، فَمَن والاه فهو المنصور.

ثم أخبرهم أنه سيُلقي في قلوب أعدائهم الرعب الذي يمنعهم من الهُجُومِ عليهم، والإقدام على حربهم، وأنَّه يُؤَيِّد حزبَه بجند مِن الرعب ينتصِرونَ به على أعدائهم، وذلك الرعبُ بسبب ما في قلوبهم مِن الشركِ باللهِ، وعلى قدرِ الشركِ يكون الرعبُ، فالمشركُ باللهِ أشدُّ شيءٍ خوفاً ورُعباً، والذين آمنوا

ولم يَلْبِسُوا إيمانَهم بالشِّرْكِ، لهم الأمنُ والهُدى والفلاحُ، والمشركُ له الخوفُ والضلالُ والشقاءُ.

ثم أخبرهم أنه صَدَقَهُمْ وعدَه في نُصرتهم على عدوهم، وهو الصادقُ الوعد، وأنهم لو استمرُّوا على الطاعةِ، ولزوم أمر الرسول لاستمرَّت نُصرتهم، ولكن انخلعوا عن الطاعة، وفارقُوا مركزهم، فانخلعوا عن عصمة الطاعة، ففارقتهم النصْرَةُ، فصرفهم عن عدوهم عقوبةً وابتلاءً، وتعريفاً لهم بسوء عواقِب المعصيةِ، وحُسنِ عاقبة الطاعة.

ثم أخبر أنه عَفَا عنهم بعد ذلك كُلِّه، وأنه ذو فضلٍ على عباده المؤمنين. قيل للحسن: كيف يعفو عنهم، وقد سلَّط عليهم أعداءَهم حتى قتلُوا منهم مَن قتلوا، ومثَّلُوا بهم، ونالُوا منهم مَا نالوه؟ فقال: لولا عفوُه عنهم، لاستأصلَهم، ولكن بعفوه عنهم دَفَعَ عنهم عدوَّهم بعد أن كانوا مُجمعين على استئصالهم.

ثمَّ ذكَّرهم بحالهم وقتَ الفرارِ مُصعدينَ، أي: جادِّين في الهربِ والذهاب في الأرضِ، أو صاعدين في الجبلِ لا يَلْوونَ على أحدٍ من نبيهم ولا أصحابهم، والرسولُ يدعوهم في أُخراهم: "إليَّ عِبَادَ اللهِ، أَنَا رسُولُ اللهِ" فأثابهم بهذا الهرب والفرارِ، غمّاً بعدَ غَمٍّ: غمَّ الهزيمة والكسرةِ، وغمَّ صرخةِ الشيطان

فيهم بأن محمداً قد قُتل. وقيل: جازاكم غمَّاً بما غممتم رسولَه بفراركم عنه، وأسلمتُموه إلى عدوِّهِ، فالغمُّ الذي حصل لكم جزاءً على الغمِّ الذي أوقعتموه بنبيه، والقولُ الأولُ أظهر لوجوه:

أحدها: أن قوله: "لِكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ" [آل عمران: ١٥٣] تنبيهٌ على حِكمة هذا الغم بعدَ الغمِّ، وهو أن يُنسيَهم الحزنَ على ما فاتهم مِن الظفر، وعلى ما أصابهم مِن الهزيمةِ والجِراحِ، فنسُوا بذلك السبب، وهذا إنما يحصُل بالغمِّ الذي يعقُبُه غمٌّ آخر.

الثاني: أنه مطابق للواقع، فإنَّه حَصَلَ لهم غمٌّ فواتِ الغنيمة، ثم أعقبه غمُّ الهزيمةِ، ثم غمُّ الجراح التي أصابتهم، ثم غَمُّ القتلِ، ثم غَمُّ سماعِهم أن رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد قُتِلَ، ثم غَمُّ ظهور أعدائهم على الجبل فوقهم، وليس المراد غمَّين اثنين خاصة، بل غمَّاً متتابعاً لتمام الابتلاء والامتحان.

الثالث: أن قوله: "بِغَمٍّ" [آل عمران: ١٥٣] من تمام الثوابِ، لا أنه سببُ جزاء الثواب، والمعنى: أثابكم غمَّاً متَّصِلاً بغمٍّ، جزاءً على ما وقع منهم من الهروب وإسلامهم نبيَّهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، وترك استجابتهم له وهو يدعوهم، ومخالفتهم له في لزومِ مركزهم، وتنازعهِم في الأمر، وفشلهم،

وكُلُّ واحد من هذه الأمور يُوجب غمَّاً يخصُّه، فترادفت عليهم الغمومُ كما ترادفت منهم أسبابُها وموجباتُها، ولولا أن تداركهم بعفوِه، لكان أمراً آخَرَ.

وَمِن لطفه بهم، ورأفته، ورحمته، أن هذه الأمور التي صدرت منهم، كانت من موجبات الطباع، وهى من بقايا النفوس التي تمنع من النصرة المستقرة، فقيَّض لهم بلطفه أسباباً أخرجها من القوة إلى الفعل، فترتَّب عليها آثارُها المكروهة، فعلموا حينئذ أن التوبةَ منها والاحترازَ مِن أمثالها، ودفعها بأضدادها أمرٌ متعيَّنٌ، لا يتم لهم الفلاحُ والنصرةُ الدائمة المستقرة إلا به، فكانوا أشدَّ حذراً بعدها، ومعرفة بالأبوابِ التي دخل عليهم منها.

لعَلَّ عَتْبَكَ محمودٌ عواقِبُهُ ورُبَّمَا صَحَّتِ الأَجْسَامُ بِالعِلَلِ

ثم إنه تداركهم سُبحانه برحمته، وخفَّف عنهم ذلك الغَمَّ، وغيَّبه عنهم بالنُّعاسِ الذي أنزله عليهم أمناً منه ورحمة، والنعاسُ في الحرب علامةُ النصرة والأمنِ، كما أنزله عليهم يومَ بدر، وأخبر أن مَن لم يُصبْه ذلك النعاسُ، فهو ممن أهمته نفسُه لا دِينُه ولا نبيُّه ولا أصحابُه، وأنهم يظنون باللهِ غيرَ الحقِّ ظنَّ الجاهلية.

وقد فُسِّرَ هذا الظنُّ الذي لا يليقُ باللهِ، بأنه سبحانه لا ينصُرُ رسولَه، وأن أمْرَهُ سيضمحِلُّ، وأنه يُسلِمُه للقتل، وقد فُسِّرَ بظنهم أن ما أصابَهم لم يكن بقضائه وقدره، ولا حِكمة له فيه، ففسر بإنكارِ الحِكمة، وإنكارِ القدر، وإنكارِ أن يُتِمَّ أمرَ رسوله ويُظْهِرَه على الدِّين كُلِّه، وهذا هو ظنُّ السَّوْءِ الذي ظَنَّهُ المنافقُونَ والمشرِكُونَ به سبحانه وتعالى في سورة الفتح حيث يقول: "وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ، عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ، وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ، وَسَاءَتْ مَصِيراً" [الفتح:٥]

وإنما كان هذا ظنَّ السَّوْءِ، وظنَّ الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل، وظنَّ غير الحق، لأنه ظنَّ غير ما يليق بأسمائه الحسنى، وصفاتِهِ العُليا، وذاتِهِ المبَّرأة من كُلِّ عيبٍ وسوء، بخلافِ ما يليقُ بحكمته وحمدِه، وتفرُّدِهِ بالربوبية والإلهيَّة، وما يَليق بوعده الصادِق الذي لا يُخلفُهُ، وبكلمته التي سبقت لرسله أنه ينصُرُهم ولا يخذُلُهم، ولجنده بأنهم هُمُ الغالبون، فَمَن ظَنَّ بأنه لا ينصرُ رسولَه، ولا يُتِمُّ أمرَه، ولا يؤيِّده، ويؤيدُ حزبه، ويُعليهم، ويُظفرهم بأعدائه، ويُظهرهم عليهم، وأنه لا ينصرُ دينه وكتابه، وأنه يُديل الشركَ على التوحيدِ، والباطلَ على الحقِّ إدالة مستقرة يضمحِلُّ معها التوحيد

والحق اضمحلالاً لا يقوم بعده أبداً، فقد ظنَّ بالله ظن السَّوْءِ، ونسبه إلى خلاف ما يليقُ بكماله وجلاله، وصفاته ونعوته، فإنَّ حمدَه وعزَّتَه، وحِكمته وإلهيته تأبى ذلك، وتأبى أن يَذِلَّ حزبُه وجندُه، وأن تكون النصرةُ المستقرة، والظفرُ الدائم لأعدائه المشركين به، العادلين به، فمَن ظنَّ به ذلك، فما عرفه، ولا عرف أسماءَه، ولا عرف صفاتِه وكماله، وكذلك مَن أنكر أن يكونَ ذلك بقضائه وقدره، فما عرفه، ولا عرف ربوبيتَه، وملكه وعظمتَه، وكذلك مَن أنكر أن يكون قدَّر ما قدَّره من ذلك وغيره لحِكمة بالغة، وغاية محمودة يستحقُّ الحمدَ عليها، وأن ذلك إنما صدر عن مشيئة مجردةٍ عن حكمة، وغايةٍ مطلوبة هي أحبُّ إليه من فوتها، وأن تلك الأسبابَ المكروهةَ المفضية إليها لا يخرج تقديرُها عن الحكمةِ لإفضائِهَا إلى ما يُحِبُّ، وإن كانت مكروهة له، فما قدَّرها سُدى، ولا أنشأها عبثاً، ولا خلقها باطلاً، "ذَلِكَ ظَنُّ الذِينَ كَفَرُواْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ النَّارِ"[ص: ٢٧]

وأكثرُ النَّاسِ يظنون بالله غيرَ الحقِّ ظنَّ السَّوءِ فيما يختصُّ بهم وفيما يفعلُه بغيرهم، ولا يسلَمُ عن ذلك إلا مَن عرف الله، وعرف أسماءَه وصفاتِهِ، وعرفَ موجبَ حمدِهِ وحكمته، فمَن قَنِطَ مِن رحمته، وأيسَ مِن رَوحه، فقد ظن به ظنَّ السَّوء.

ومَن ظن به أنه ينالُ ما عنده بمعصيته ومخالفته، كما يناله بطاعته والتقربِ إليه، فقد ظنَّ به خلافَ حِكمته وخلاف موجب أسمائه وصفاته، وهو من ظن السَّوْءِ.

ومَن ظنَّ به أنه إذا ترك لأجله شيئاً لم يُعوِّضه خيراً منه، أو مَن فعل لأجله شيئاً لم يُعطه أفضلَ منه، فقد ظنَّ به ظن السَّوْءِ.

ومن ظنَّ به أنه إذا صدقه في الرغبة والرهبة، وتضرَّع إليه، وسأله، واستعان به، وتوكَّل عليه أنه يُخيِّبُه ولا يُعطيه ما سأله، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوءِ، وظنَّ به خلافَ ما هو أهلُه.

فأكثر الخلق، بل كلهم إلا مَن شاء الله يظنون باللهِ غيرَ الحقِّ ظنَّ السَّوْءِ، فإن غالبَ بني آدم يعتقد أنه مبخوسُ الحق، ناقصُ الحظ وأنه يستحق فوقَ ما أعطاهُ اللهُ، ولِسان حاله يقول: ظلمني ربِّي، ومنعني ما أستحقُّه ونفسُه تشهدُ عليه بذلك، وهو بلسانه يُنكره ولا يتجاسرُ على التصريح به، ومَن فتَّش نفسَه، وتغلغل في معرفة دفائِنها وطواياها، رأى ذلك فيها كامِناً كُمونَ النار في الزِّناد، فاقدح زنادَ مَن شئت يُنبئك شَرَارُه عما في زِناده، ولو فتَّشت مَن فتشته، لرأيت عنده تعتُّباً على القدر وملامة له، واقتراحاً عليه خلاف

ما جرى به، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقِلٌ ومستكثِر، وفَتّشْ نفسَك هل أنت سالم مِن ذلك؟

فَإِنْ تَنجُ مِنْهَا تنج مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ ... وَإِلاَّ فَإِنِّي لاَ إِخَالُكَ نَاجِياً

فليعتنِ اللبيبُ الناصحُ لنفسه بهذا الموضع، وليتُبْ إلى الله تعالى وليستغفِرْه كلَّ وقت من ظنه بربه ظن السَّوْءِ، وليظنَّ السَّوْءَ بنفسه التي هي مأوى كل سوء، ومنبعُ كل شر، المركَّبة على الجهل والظلم، فهي أولى بظن السَّوْءِ من أحكم الحاكمين، وأعدلِ العادلين، وأرحمِ الراحمين، الغنيِّ الحميد، الذي له الغنى التام، والحمدُ التام، والحكمةُ التامة، المنزّهُ عن كل سوءٍ في ذاته وصفاتِهِ، وأفعالِه وأسمائه، فذاتُه لها الكمالُ المطلقُ مِن كل وجه، وصفاتُه كذلك، وأفعالُه كذلك، كُلُّها حِكمة ومصلحة، ورحمة وعدل، وأسماؤه كُلُّها حُسْنَى.

فَلا تَظْنُنْ بِرَبِّكَ ظَنّ سَوْءٍ ... فَإِنَّ اللهَ أَوْلَى بِالجَمِيلِ

وَلا تَظْنُنْ بِنَفْسِكَ قَطُّ خَيْرَاً ... وَكَيْفَ بِظَالِمٍ جَانٍ جَهُولِ

وَقُلْ يَا نَفْسُ مَأْوَى كُلِّ سُوءٍ ... أَيُرجَى الخَيْرُ مِنْ مَيْتٍ بَخِيلِ

وظُنَّ بِنَفْسِكَ السُّوآى تَجِدْهَا ... كَذَاكَ وخَيْرُهَا كَالمُسْتَحِيلِ

وَمَا بِكَ مِنْ تُقَىً فِيهَا وَخَيْرٍ   فَتِلْكَ مَوَاهِبُ الرَّبِّ الجَلِيلِ

وَلَيْسَ بِهَا وَلاَ مِنْهَا وَلَكِنْ   مِنَ الرَّحْمن فَاشْكُرْ لِلدَّلِيلِ

والمقصود ما ساقنا إلى هذا الكلام مِن قوله: "وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ"[آل عمران:١٢٥]، ثم أخبر عن الكلام الذي صدَر عن ظنهم الباطل، وهو قولهم: "هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ"[آل عمران:١٥٤] وقولهم : "لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا"[آل عمران:١٥٤] فليس مقصودُهم بالكلمةِ الأولى والثانية إثباتَ القدر، ورد الأمرِ كُلِّه إلى الله، ولو كان ذلك مقصودهم بالكلمة الأولى، لما ذُمُّوا عليه، ولما حَسُنَ الردُّ عليه بقوله: "قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ"[آل عمران:١٥٤] ولا كان مصدرُ هذا الكلام ظَنَّ الجاهلية، ولهذا قال غيرُ واحد من المفسِّرين: إن ظنَّهم الباطل هاهنا: هو التكذيب بالقدر، وظنهم أن الأمرَ لو كان إليهم، وكان رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابُه تبعاً لهم يسمعُون منهم، لما أصابهم القتلُ، ولكان النصرُ والظفرُ لهم، فأكذبهم اللهُ عَزَّ وجَلَّ في هذا الظنِّ الباطل الذي هو ظنُّ الجاهلية، وهو الظنُّ المنسوب إلى أهل الجهل الذين يزعمون بعد نفاذِ القضاء والقدر الذي لم يكن بُدٌّ من نفاذه أنهم كانوا قادرين على دفعه، وأن الأمرَ لو كان إليهم، لما نفذ القضاءُ، فأكذَبَهُم اللهُ

بقوله: "قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ للهِ"[آل عمران:١٥٤]، فلا يكون إلا ما سبق به قضاؤه وقدرُه، وجرى به عِلمه وكتابه السابق، وما شاء اللهُ كان ولا بُدَّ، شاءَ الناسُ أم أبَوْا، وما لم يَشَأ لم يكن، شاءه الناسُ أم لم يَشاؤوه، وما جرى عليكم من الهزيمةِ والقتل، فبأمره الكوني الذي لا سبيلَ إلى دفعه، سواء أكان لكم من الأمر شيء، أو لم يكن لكم، وأنَّكُم لو كنتم في بيوتكم، وقد كُتِبَ القتلُ على بعضكم لخرج الذين كُتِب عليهم القتل من بيوتهم إلى مضاجعهم ولا بُد، سواء أكان لهم من الأمر شيء، أو لم يكن، وهذا مِن أظهر الأشياء إبطالاً لقول القَدَرِيَّةِ النفاة، الذين يُجوِّزون أن يقع ما لا يشاؤُه اللهُ، وأن يشاء ما لا يقع.

ثم أخبر سبحانه عن حِكمة أُخرى في هذا التقديرِ، هي ابتلاءُ ما في صدورهم، وهو اختبار ما فيها من الإيمانِ والنفاق، فالمؤمنُ لا يزدادُ بذلك إلا إيماناً وتسليماً، والمنافقُ ومَن في قلبه مرضٌ، لا بد أن يظهر ما في قلبه على جوارحه ولسانه.

ثم ذكر حِكمة أُخرى: وهو تمحيصُ ما في قلوب المؤمنين، وهو تخليصهُ وتنقيتُه وتهذيبه، فإن القلوبَ يُخالطها بِغلبات الطبائع، وميل النفوس، وحكمِ العادة، وتزيينِ الشيطانِ، واستيلاءِ الغفلة ما يُضادُّ ما أُودعَ فيها من الإيمانِ

والإسلام والبر والتقوى، فلو تُرِكت في عافية دائمة مستمرة، لم تَتَخَلَّص من هذه المخالطة، ولم تتمَحَّص منه، فاقتضت حِكمةُ العزيزِ أن قَيَّض لها مِن المِحن والبلايا ما يكون كالدواء الكريه لمن عرض له داء إن لم يتداركه طبيبه بإزالته وتنقيته من جسده، وإلا خِيف عليه منه الفسادُ والهلاكُ، فكانت نعمتُه سبحانه عليهم بهذه الكسرة والهزيمة، وقتل مَن قُتِل منهم، تُعادِلُ نعمتَه عليهم بنصرهم وتأييدهم وظفرهم بعدوهم، فله عليهم النعمةُ التامةُ في هذا وهذا.

ثم أخبر سبحانه وتعالى عن توَلِّي مَنْ تَوَلَّى من المؤمنين الصادقين في ذلك اليوم، وأنه بسبب كسبهم وذنوبهم، فاسْتَزَلَّهُمُ الشيطان بتلك الأعمال حتى تولَّوْا، فكانت أعمالهم جنداً عليهم، ازداد بها عدوُّهم قوة، فإن الأعمال جند للعبد وجندٌ عليه، ولا بُدَّ فللعبد كلَّ وقت سَرِيَّةٌ مِن نفسه تَهْزِمُه، أو تنصره، فهو يُمُدُّ عدوَّه بأعماله من حيث يظن أنه يُقاتله بها، ويبعث إليه سرية تغزوه مع عدوه من حيث يظن أنه يغزو عدوه، فأعمالُ العبد تسوقُهُ قسراً إلى مقتضاها مِن الخير والشر، والعبدُ لا يشعر أو يشعر ويتعامى، ففرارُ الإنسان من عدوه، وهو يُطيقه إنما هو بجُند مِن عمله، بعثه له الشيطان واستزلَّه به.

ثم أخبر سبحانه: أنه عفا عنهم، لأن هذا الفرارَ لم يكن عن نفاق ولا شكٍ، وإنما كان عارضاً، عفا الله عنه، فعادت شجاعةُ الإيمانِ وثباتُه إلى مركزِها ونصابِها.

ثم كرَّر عليهم سُبحانه: أن هذا الذي أصابهم إنما أُتوا فيه مِن قِبَل أنفسهم، وَبِسبب أعمالهم، فقال: "أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا، قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ، إنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ" [آل عمران:١٦٥] وذكر هذا بعينه فيما هو أعمُّ من ذلك في السور المكِّية فقال : "وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ" [الشورى:٣٠] وقال: "مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ، وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَفْسِكَ"[النساء: ٧٩] فالحسنة والسيئة هاهنا: النعمة والمصيبةُ، فالنعمةُ مِن اللهِ مَنَّ بها عليك، والمصيبةُ إنما نشأت مِن قِبَل نفسِك وعملِك، فالأول فضلُه، والثاني عدلُه، والعبد يتقلَّب بين فضلِه وعدله، جارٍ عليه فضلُهُ، ماضٍ فيه حكمه، عدلٌ فيه قضاؤه.

وختم الآية الأولى بقوله: "إنّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ" بعد قوله: "قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ" إعلاماً لهم بعموم قدرته مع عدله، وأنه عادلٌ قادر، وفي ذلك إثباتُ القدرِ والسببِ، فذكر السببَ، وأضافه إلى نفوسهم، وذكر عمومَ

القدرة وأضافها إلى نفسه، فالأول ينفي الجَبْرَ، والثاني ينفي القولَ بإبطال القدر، فهو يشاكل قوله: "لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ" [التكوير:٢٨-٢٩].

وفي ذكر قدرته هاهنا نكتة لطيفة، وهي أن هذا الأمر بيده وتحت قدرتِهِ، وأنه هو الذي لو شاء لصرفه عنكم، فلا تطلبُوا كشفَ أمثاله من غيره، ولا تتَّكِلُوا على سواه، وَكَشَفَ هذا المعنى وأوضَحَه كُلَّ الإيضاح بقوله: "وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ" [آل عمران:١٦٦]. وهو الإذن الكوني القدري، لا الشرعي الديني، كقوله في السحر: "وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ"[البقرة:١٠٢]

ثم أخبر عن حِكمة هذا التقدير، وهي أن يعلَمَ المؤمنين مِن المنافقين عِلمَ عَيان ورؤية يتميز فيه أحدُ الفريقين من الآخر تمييزاً ظاهراً، وكان مِن حكمة هذا التقديرِ تكلُّمُ المنافقين بما في نفوسهم، فسمعه المؤمنون، وسمعوا ردَّ اللهِ عليهم وجوابه لهم، وعرفوا مؤدَّى النفاق وما يؤول إليه، وكيف يُحرم صاحبُه سعادةَ الدنيا والآخرة، فيعودُ عليه بفساد الدنيا والآخرة.

فللَّهِ كم من حكمة في ضِمن هذه القِصة بالغةٍ، ونعمة على المؤمنين سابغةٍ، وكم فيها من تحذيرٍ وتخويفٍ وإرشاد وتنبيه، وتعريفٍ بأسباب الخير والشر ومآلهما وعاقبتهما.

ثم عزَّى نبيه وأولياءه عمن قُتل منهم في سبيله أحسنَ تعزية، وألطفَها وأدعَاها إلى الرضى بما قضاه لها، فقال: "وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً، بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ"[آل عمران: ١٦٩-١٧٠] فجمع لهم إلى الحياة الدائمةِ منزلةَ القُربِ منه، وأنهم عنده، وجريان الرزق المستمر عليهم، وفرَحهم بما آتاهم من فضله، وهو فوق الرضى، بل هو كمال الرضى, واستبشارهم بإخوانهم الذين باجتماعهم بهم يَتمُّ سُرورُهم ونعيمُهم، واستبشارهم بما يُجدِّدُ لهم كُلَّ وقت مِن نعمته وكرامته، وذَكَّرهم سبحانه في أثناء هذه المحنة بما هو مِن أعظمِ مننه ونعمه عليهم التي إن قابلوا بها كُلَّ محنة تنالهم وبلية، تلاشت في جنب هذه المنة والنعمة، ولم يبق لها أثر البتة، وهى مِنَّتُه عليهم بإرسال رسولٍ من أنفسهم إليهم، يتلُو عليهم آياتِه، ويُزكيهم، ويُعلمهم الكتابَ والحِكمة، ويُنقذُهم مِن الضلال الذي كانُوا فيه قبل إرساله إلى الهدى، ومِن الشقاء

إلى الفلاح، ومن الظُّلمة إلى النور، ومن الجهل إلى العلم، فكُلُّ بليةٍ ومحنةٍ تنالُ العبد بعد حصول هذا الخيرِ العظيمِ له أمرٌ يسيرٌ جداً في جنب الخير الكثير، كما ينالُ الناس بأذى المطرِ في جنب ما يحصل لهم به من الخير، فأعلمهم أن سببَ المُصيبة من عند أنفسهم ليحذروا، وأنها بقضائه وقدره لِيوحِّدوا ويتَّكِلُوا، ولا يخافوا غيره، وأخبرهم بما لهم فيها مِن الحكم لئلا يتهموه في قضائه وقدره، وليتعرَّف إليهم بأنواع أسمائه وصفاته، وسلاَّهم بما أعطاهم مما هو أجلُّ قدراً، وأعظمُ خطراً مما فاتهم من النصر والغنيمة، وعزَّاهم عن قتلاهم بما نالُوه من ثوابه وكرامته، لينافِسوهم فيه، ولا يحزنُوا عليهم، فله الحمدُ كما هو أهلُه، وكما ينبغي لكرم وجهه، وعزِّ جلاله. ومما قلت قديمًا:

أيا مبتغي الفردوسِ عجِّلْ بصارمٍ ... وَكُن صَادقَ الإقبالِ عند التَّلاقيا

فإن تَحْيَ عِشْتَ العزّ في كلِّ لحظةٍ ... وإن كانت الأخرى ستلْقَى المراقيا

فللِعبد إن يَصدُقْ ويُمسي مُجَندلاً ... شهيداً فقد فاحت دماءٌ زواكيا

لئن نَثَرَ الكفّار كلَّ سهامهم ... فما ينصر الإسلامَ غير إلهيا

فلَندْعُوَنَّ اللهَ ليلاً وبكرةَ ... ولَيَصدقنَّ اللهَ في الحربِ لاقيا

ومن صَدَقَ الجبّارَ يجبرُ كسرَهُ ومن نَصَرَ المولى له النصرُ ساعيا

فيا قومِ قوموا فاصدُقوا في لقا العِدا فمن كَذَبَ الرحمنَ فالقصمُ ماحيا

ويا فارسَ التوحيدِ مالَكَ لا تُرى؟! فبادِرْ وكُنْ للدين حصناً وحامياً

وأبشرْ أخا الإيمان فالفتحُ قادمٌ وإن أجلبَ الشيطانُ كلَّ النَّواديا

أيا طولَ يومي ثمّ يا طولَ ليلتي إذا هيْعَةٌ ثارتْ وما كُنتُ راميا

فيا ربِّ يا ذا الجُود والطَوْل والنّدَى ويا رَبَّ أملاكاً عِظاماً ثمانيا

ويا كاملَ الأوصاف: هَبْ لي شهادةً وختِّم حياتي بالسرورِ المُواتيا

فأسألُ ربّي أن تكونَ منيّتي بعيداً عن الأوطان للشّركِ غازيا

فَخُذْ من دمائي يا سميعاً لدعوتي فما أطيبَ الآلام إن كنتَ راضيا

ويا ربِّ قَطِّعْنِي وفرّق مفاصلي بجوفِ طيورٍ أو بُطُونِ العَوَافِيا

أسوقُ لحرْقِ الكفرِ نيرانَ مدفعِي وأزرعُ ألغاماً لنسفِ الأعاديا

فهمّي رِضَى ربّي بقتلي لكافرٍ برمي رصاصِ الحقّ جمراً غواشياً

لَئِنْ قَرَّبَ العُبّاد كبشــاً وأنعُماً وَضَحَّوْا لمولاهم بعيراً فَما ليا؟

فيا ربِّ فاقْبَـلْهَا قرابينَ راحَتِي فِئاماً من الكفّارِ أضحتْ بَوَاليا

يظُنُّ بيَ المغرورُ ظنَّ سفاهةٍ ولا عجباً فالكنز في القلبِ خافيا

سيعلمُ من قَدْ فازَ فوزاً ورِفعةً إذا جُندَلَ المخذولُ تحت السّوافيا

وقد ماتَ سيفُ الله بالأمسِ خالدٌ وقد خاضَ زحفاً بل حروباً ضواريا

وقد قال قولاً يقدحُ النور في النُّهَى فلا نامَ من أمسى جباناً وساليا!

فيا ليت شِعْري أين ميتة من ثوى قتيلاً كليلاً من قتال البواغيا

ومن ماتَ مثلَ الكلب من شِبْعِ بطنهِ وقد مات خوّاراً جباناً ولاهيا؟!

فمن ذا يبيع المُستَهَامَ جنانَهُ فقد نادتِ الفردوسُ من كان ساميا

لَئِنْ قَرَّبَ الرّحمنُ عبداً وأنت لا فأعظِمْ بِهِ خُسْراً شديداً وكاويا!

أترضى قعوداً يا جبانُ مع النساء وقد صاح صوتٌ في الرّجال مناديا؟!

تذكَّرْ هداكَ اللهُ يومَ قيامةٍ به النارُ تُذكَى من لحومِ الطَّواغِيا

أَمَا عرفَ المسكينُ شِدَّةَ حرّها؟ فيا ويحَ واخُسْراً لمن كان عاصيا!

لئن عَزَّ ديني واسْتُبِيحَتْ جوارحي فأين مقام العِزِّ إلا مقاميا؟

لك الحمد يا ربًّا عظيماً نوالهُ بِبَعْثِكَ جُنداً في زمان التَّهاويا

أَيا سامعاً فافهم هُديتَ مقالَتِي وأَرْعِ لها سمعاً من القلب صاغيا

لقد هبّت الأرواح نصراً ونجدةً   فحيَّ هَلاً بالحرب زادت شعاعيا!

فَئيهٍ حُماةَ الدّين جاءَ عدوُّكُمْ   يريدُ بكم كيداً عظيم الدّواهيا

فإن تستجيبوا للكفورِ نخبتمُ   ألا حَبّذَا قَوْمًا عن الدّين حاميا

أيا أمّة الإسلام جِدُّوا وأَدْلجوا   فإن عَرِينَ الليثِ قد بات خاليا

لئن كان للإسلامِ قومٌ ودولةٌ   فهذا أوانٌ للنُّهوض بدا لِيَا

وصلّ إلهَ الناسِ ما مات مسلمٌ   على خيرِ من أرسلتَ للكفر ماحيا

عليهِ سلامُ الله في كلّ ليلةٍ   وفي كلّ يومٍ من جديدِ الزّمانيا

تَمَّتْ وأدعو الله يرحم غُربتي   إذا كان تُرْبَ القبرِ قَسْراً وِسَاديا

٣/ ٦/ ١٤٣٤

فَضائلُ أُمَّةِ الإسْلامِ

لك الحمد اللهم أن جعلتنا من خير الأمم وأنزلت إلينا أجلّ الكتب وبعثت إلينا سيد الرسل, وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إله الأولين والآخرين, وأشهد أن محمداً أفضل عبيد الله وخاتم أنبيائه ورسله, صلى الله عليه وعلى آله وصحبه. أما بعد:

فهذه الأمة المسلمة المهديّة المرحومة قد خصها الله تعالى بأمور وأسبقها على غيرها بمزايا ورفعها على غيرها من الأمم قاطبة على سبيل الإجمال, وجمع لها من خيري الدنيا والآخرة مالا يخطر على بال متفكر ويقصر عنه ذهن متدبر. ومن ذلك أن أكمل شريعتهم وأتمها وصيرها جامعة للمحاسن. "كنتم خير أمة أخرجت للناس" (آل عمران: ١١٠)

قال شيخ الإسلام رحمه الله في معرض بيانه لهدايات نبي هذه الأمة وخصائصه ودلائل رسالته وكمالات شريعته: «وهو في كل وقت يظهر على يديه من عجائب الآيات وفنون الكرامات ما يطول وصفه، ويخبرهم بخبر ما كان وما يكون، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم

الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، ويشرّع الشريعة شيئًا بعد شيء، حتى أكمل الله دينه الذي بُعث به، وجاءت شريعته أكمل شريعة، لم يبق معروف تعرفه العقول أنه معروف إلا أمر به، ولا منكر تعرف العقول أنه منكر إلا نهى عنه، لم يأمر بشيء فقيل: ليته لم يأمر به، ولم ينه عن شيء فقيل: ليته لم ينه عنه، وأحل الطيبات ولم يحرّم شيئًا منها كما حُرّم في شرع غيره، وحرّم الخبائث ولم يحل شيئًا منها كما استحله غيره، وجمع محاسن ما عليه الأمم، فلا يُذكر في التوراة والإنجيل والزبور نوع من الخبر عن الله وعن ملائكته وعن اليوم الآخر، إلا وقد جاء به على أكمل وجه، وأخبر بأشياء ليست في الكتب، فليس في الكتب إيجاب لعدل وقضاء بفضل وندب إلى الفضائل وترغيب في الحسنات إلا وقد جاء به وبما هو أحسن منه.

وإذا نظر اللبيب في العبادات التي شرعها، وعبادات غيره من الأمم؛ ظهر فضلها ورجحانها، وكذلك في الحدود والأحكام وسائر الشرائع»(الجواب الصحيح (٥/ ٤٤١)).

ودينه الإسلام محفوظ بكل تفاصيله بحفظ الله تعالى له، وقد تعرض لهجمات من شتى الأمم لم يتعرض لها دين أهل الكتاب ولا غيرهم، فشنّوا عليه هجمات عسكرية واقتصادية وفكرية وأخلاقية وعقدية على جميع محاور

الغزو التي لا يستطيع البشر ـ مهما كانت إمكاناتهم ـ التصدي لها والحفاظ على دينهم من التبديل والضياع لولا تولي الله تعالى حفظه والعناية به، فهو الدين الذي بقي رغم تتابع القرون، وتغير الأحوال، وتوارد الأهوال شامخًا ظاهرًا شاهدًا على الأمم، قارعًا لنواميسهم وعقولهم وقلوبهم، كما قال صلى الله عليه وسلم: «والله ليتمن الله هذا الأمر»(سنن أبي داود)، وقال: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز أو بذل ذليل، عزًا يعز الله به الإسلام وأهله، وذلاً يذل الله به الكفر»(رواه أحمد وصححه الألباني). وقد قال تعالى: "إنا لننصر رسلنا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد" [غافر: ٥١].

فهم ظاهرون على غيرهم بالحجة والبيان وبالسيف والسنان، ولا تزال لهم بقية يفيئون إليها، يحفظ الله بها دينه، وإن تنقلوا من مكان لآخر كما قال صلى الله عليه وسلم: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة»(متفق عليه) فنسأل الله أن يجعلنا منهم وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هداها.

وقد ذكر الحافظ ابن كثير رحمه الله بسنده أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يثبت لهم العدو فواق ناقة عند اللقاء، فقال هرقل

وهو على أنطاكية لما قدمت الروم منهزمة: ويلكم أخبروني عن هؤلاء الذين يقاتلونكم؟ أليسوا بشرًا مثلكم؟ قالوا: بلى. قال: فأنتم أكثر أم هم؟ قالوا: نحن أكثر منهم أضعافًا في كل موطن. قال: فما بالكم تنهزمون؟ فقال شيخ من عظمائهم: من أجل أنهم يقومون الليل، ويصومون النهار، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتناصفون بينهم، ومن أجل أنا نشرب الخمر، ونزني، ونركب الحرام، وننقض العهد، ونظلم، ونفسد في الأرض. قال: أنت صدقتني.

وعن فضائل هذه الأمة العظيمة _أي أمّة الإجابة_ قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وأمته أكمل الأمم في كل فضيلة، فإذا قيس علمهم بعلم سائر الأمم ظهر فضل علمهم، وإن قيس دينهم وعباداتهم وطاعتهم لله بغيرهم؛ ظهر أنهم أدين من غيرهم، وإذا قيست شجاعتهم وجهادهم في سبيل الله، وصبرهم على المكاره في ذات الله؛ ظهر أنهم أعظم جهادًا وأشجع قلوبًا، وإذا قيس سخاؤهم وبذلهم وسماحة نفوسهم بغيرهم؛ تبين أنهم أسخى وأكرم من غيرهم، وهذه الفضائل بنبيهم صلى الله عليه وسلم نالوها ومنه تعلّموها، وهو الذي أمرهم بها، لم يكونوا قبله متبعين لكتاب جاء هو بتكميله كما جاء المسيح بتكميل التوراة، فكانت فضائل أتباع المسيح عليه السلام وعلومهم

بعضها من التوراة، وبعضها من الزبور -قلت: وهو كتاب داود عليه السلام، ويسمى في العهد القديم (المزامير) وإن كان كثير منها مكذوبًا عليه- وبعضها من النبوات -قلت: كالأسفار المنسوبة لسائر الأنبياء في العهد القديم، أما التوراة فهي الأسفار الخمسة الأولى المنسوبة إلى موسى عليه السلام ودخلها تحريف وتبديل كبيران- وبعضها من المسيح -قلت: كما ينسب إليه في الأناجيل الأربعة الأولى من العهد الجديد ومن غيرها كإنجيل برنابا وتوما ويهوذا ومريم وغيرها- وبعضها ممن بعده كالحواريين -قلت: كسفر أعمال الرسل ورسائل بولس - وليس من الحواريين - ويعقوب وبطرس ويوحنا ويهوذا- وقد استعانوا بكلام الفلاسفة وغيرهم -قلت: كما هو ظاهر في إنجيل يوحنا ورسائل بولس وغيرها خاصة في شروح الكتاب المقدس- حتى أدخلوا - لما غيّروا دين المسيح - في دين المسيح أمورًا من أمور الكفار المناقضة لدين المسيح عليه السلام -قلت: كتأليه المسيح وغيره، والتثليث، وتحليل الخمر والخنزير، وإبطال الختان، وإبطال الناموس وغير ذلك-.

وأما أمة محمد صلى الله عليه وسلم فلم يكونوا قبله يقرؤون كتابًا، بل عامتهم ما آمنوا بموسى وعيسى وداود والتوراة والإنجيل والزبور إلا من جهته، فهو

الذي أمرهم أن يؤمنوا بجميع الأنبياء ويقرّوا بجميع الكتب المنزلة من عند الله، ونهاهم أن يفرقوا بين أحد من الرسل، فقال تعالى في الكتاب الذي جاء به: "قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم" [البقرة: ١٣٦، ١٣٧].

وأمته لا يستحلون أن يأخذوا شيئًا من الدين من غير ما جاء به، ولا يبتدعون بدعة ما أنزل الله بها من سلطان، فلا يشرعون في الدين ما لم يأذن به الله.

فكل علم نافع وعمل صالح عليه أمة محمد صلى الله عليه وسلم أخذوه عن نبيهم ـقلت: حتى صاروا نبراسًا منيرًا لأمتهم في الخير والهدى, كما قال المستشرق بودلي: «كان المسلمون كالغيث يخصب المكان الذي يسقيه، وإن عصر الإحياء في أوروبا ليرجع إلى أحفاد صحابة محمد الذين حملوا مشعل الثقافة»ـ مع ما يظهر لكل عاقل أن أمته أكمل الأمم في جميع الفضائل العلمية والعملية، ومعلوم أن كل كمال في الفرع المتعلم هو من الأصل المعلم.

وهذا يقتضي أنه كان أكمل الناس علمًا ودينًا، وهذه الأمور توجب العلم الضروري بأنه كان صادقًا في قوله: "إني رسول الله إليكم جميعاً" [الأعراف: ١٥٨] (الجواب الصحيح (٥/ ٤٢٨- ٤٤١)، وانظر: (٦/ ١ـ ٤٦)

هذا وكل نقص مادي ومعنوي في المسلمين ـ وقد ظهر جليًا في هذا الزمن المتأخر ـ فسببه بُعد المسلمين عن علوم وأعمال دينهم الأصلية، وحقائق دينهم الصافي الذي لم تلوّثه البدع ولم تدخله المحدثات والأهواء, فظهورهم وعزهم ونصرهم مرتبط طردًا وعكسًا بمسافتهم من هذا الدين الخاتم القويم.

وقال تقي الدين رحمه الله: «والمسلمون وسط بين اليهود والنصارى، فمن تدبر حال اليهود والنصارى مع المسلمين وجد اليهود والنصارى متقابلين، هؤلاء في طرف ضلال، وهؤلاء في طرف يقابله، والمسلمون هم الوسط.

وذلك في التوحيد والأنبياء والشرائع والحلال والحرام والأخلاق وغير ذلك، فاليهود يشبّهون الخالق بالمخلوق في صفات النقص المختصة بالمخلوق التي يجب تنزيه الرب سبحانه عنها كقول من قال منهم: إنه فقير "لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق" [آل عمران: ١٨١]) وكفرهم بقولهم: بخيل "وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل

يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً" [المائدة: ٦٤]) وبهتانهم بأنه تعب لما خلق السماوات والأرض "ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب" [ق: ٣٨])

والنصارى يشبّهون المخلوق بالخالق في صفات الكمال المختصة بالخالق التي ليس له فيها مِثْلٌ، كقولهم: إن المسيح هو الله "لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم" [المائدة: ١٧])، أو ابن الله "وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون" [التوبة: ٣٠])، وكل من القولين يستلزم الآخر، والنصارى أيضًا يصفون اللاهوت بصفات النقص التي يجب تنزيه الرب عنها، ويسبون الله سبًا ما سبه أحد من البشر _قلت: ويكفي في ذلك وصفهم لله باتخاذ الصاحبة والولد، وبعضهم يذكر أمورًا لا تذكر لإيغالها في البشاعة والشناعة_.

واليهود تزعم أن الله يمتنع منه أن ينسخ ما شرعه، والنصارى يجوزون لأكابرهم أن ينسخوا شرع الله.

أما المسلمون فوصفوا الرب بما يستحقه من صفات الكمال ونزهوه عن النقص، وأن يكون له مثل، فوصفوه بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، مع علمهم أنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصر فلا شيء مثله لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، وهو ينسخ ما نسخ من شرعه وفق حكمته، وليس لغيره أن ينسخ شرعه.

واليهود بالغوا في اجتناب النجاسات وتحريم الطيبات، والنصارى استحلوا الخبائث وملابسة النجاسات. وقد ذكر الدكتور رؤوف حبيب يمتدح القديس أنطونيوس ويعدد مناقبه: «لم يغتسل طوال حياته الرهبانية أبدًا، كما لم يدهن جسده بالزيت...» تاريخ الرهبنة والديرية (ص٣٩).

وقال الأستاذ ساجد مير: «ظل ملوك أوروبا الكبار وزعماء المسيحية العظماء قرونًا طويلة لا يعرفون أهمية الاغتسال، وكانت القصور الكبيرة بدون حمامات، وحين تعلم العالَمُ المسيحي التحضّر من العرب والمسلمين الأسبان، وبعد النهضة العلمية؛ عرفوا كيف تكون النظافة في المدن والمساكن والبيوت وكيف تُطهّر الأجساد وتزيّن، وإلا فكانوا قبل ذلك

يعدّون النظافة ضد التدين وحب الإله!، وكان مما يشتهر بين بعض الطبقات: ألا يغسل الإنسان وجهه ولا يديه أبدًا» المسيحية (ص٣٢٢، ٣٢٣).

وقال الطبيب الفرنسي علي بنوا: «مما أبعدني عن الكاثوليكية؛ التغافل التام عن النظافة قبل الصلاة» موسوعة مقدمات العلوم والمناهج، أنور الجندي (٨/ ١٧٢).

وقال الدكتور حسان شمسي باشا: «إن الكاثوليك كانوا يعتقدون أن ماء المعمودية الذي يغتسلون به عند ولادتهم يغنيهم عن الاغتسال طوال الحياة» هكذا كانوا يوم كنا، د. حسان شمسي باشا (ص٩٢)

والمسلمون أحل الله لهم الطيبات خلافًا لليهود، وحرم عليهم الخبائث خلافًا للنصارى.

واليهود إذا حاضت المرأة عندهم لا يؤاكلونها ولا يشاربونها ولا يقعدون معها في بيت واحد، والنصارى يستحلون وطئها وهي حائض. والمسلمون يرون طهارة جسدها ويحرمون الوطء فقط.

والنصارى لهم عبادات وأخلاق بلا علم ولا معرفة، واليهود لهم علم ومعرفة بلا عبادات ولا أخلاق حسنة، والمسلمون جمعوا بين العلم النافع والعمل الصالح.

واليهود قتلوا النبيين، والنصارى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله والمسيح ابن مريم.

والمسلمون اعتدلوا فآمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله، ولم يفرقوا بين أحد من رسله فلم يكذبوا الأنبياء، ولا سبّوهم، ولا غلوا فيهم، ولا عبدوهم، فهم يعتقدونهم عبيد لله فلا يعبدون، ورسل لله فيجلّون ويتبعون»(ينظر الجواب الصحيح (١/ ٥٩- ٧١، ٢/ ١٣٣- ١٣٦، ٣/ ١٠٠- ١٢٥).

وهذه الأمة المحمدية هي أفضل الأمم وأكرمها على الله، وثلثي أهل الجنة منها، وهي أول الأمم دخولاً الجنة، وتضاعف لأهلها الحسنات أكثر مما تضاعف للأمم الأخرى، وخصائصها كثيرة (ينظر لتفصيل ذلك: هادي الأرواح لابن القيم).

وفي المسند عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وتأمل احتفاءه بالمسيح عليهما الصلاة والسلام ـ: «الأنبياء إخوة لعلّات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد، وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم؛ لأنه لم يكن بيني وبينه نبي، وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه، رجلاً مربوعًا إلى الحمرة والبياض، عليه ثوبان ممصّران ـأي مصبوغان بالصفرةـ كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل، فيدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويدعو الناس إلى الإسلام ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال، وتقع الأمنة على الأرض، حتى ترتع الأسود مع الإبل، والنمار مع البقر، والذئاب مع الغنم، ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم، فيمكث أربعين سنة، ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون" رواه أحمد (٢/ ٤٠٦)، وأبو داود (٤/ ٤٩٩)

وفي أحاديث آخر الزمان أن الملاحم الكبار بين أهل الإسلام ومخالفيهم ـولعل ما يحدث في الأرض المباركة الآن هو إرهاص لتيك الملحمةـ والتي ستكون أولاً بين المسلمين والصليبيين على عدو من خلفهم، فيُنصرون، ثم يغدر الصليبيون بالمسلمين، فيقتتلون في مرج دابق ـفي شمال سوريا بين حلب وأنطاكيةـ فينتصر المسلمون، ثم يخرج الدجال الأعور

فيكون أول خروجه من جزيرة في البحر، ثم يذهب للمشرق فيتبعه من أهل خراسان أقوام وجوههم كالمجانّ المطرّقة، ويتبعه من يهود أصبهان سبعون ألفًا -وتقع أصفهان في إيران حاليًا ويهودها كُثُر ويعيشون بتكريم وتبجيل من لدن أشباههم الرافضة!- ثم يدخل جزيرة العرب من شمالها بين العراق والشام، ويفتن الناس، ويطأ كل قرية ومدينة إلا مكة والمدينة، ثم ينزل المسيح ابن مريم عليه السلام من السماء بين ملكين على المنارة البيضاء شرقي دمشق، فيقود المسلمين لقتال يهود، ويذهبون للقدس ويتحصنون بها، ويحاصرهم اليهود بقيادة ملكهم الدجال، فيأمر المسيح ابن مريم بفتح الأبواب، فإذا رآه الدجال هرب وانماع كالملح في الماء لكن المسيح عليه السلام يدركه عند قرية (باب لد) في فلسطين فيقتله بحربته ويري المسلمين دمه، ثم تكون القتلة في اليهود، ويعمّ الإسلام الأرض بقيادة المسيح ابن مريم عليه السلام فيحكم بالقرآن ويبطل سائر الأديان. وانظر: عقيدة اليهود في الوعد بفلسطين، محمد آل عمر، الباب الثالث، وملاحم آخر الزمان، د. ياسر الأحمدي.

أما نظرة الكاثوليك والأرثوذكس لهذه الملاحم فإنهم يحيلون ملاحم العهد القديم على الماضي ويجعلون عودة المسيح للحساب لا للقتال، أما

غالب البروتستانت فمع اليهود الفرّيسيين, فيرون أنها ستكون في المستقبل وهم في غاية الأهبة والترقب لها منذ عقود! ولم يعلموا أن ملكهم هو الدجال عينهُ الذي سيكون مقتله بيد مسيح الهدى ابن مريم عليه التسليم. والصواب أن ما صح منها فبعضه قد وقع وبعضه سيقع في آخر الزمان لكن ليس على تفسيراتهم وتخرصاتهم.

والحمد لله الذي لم يتخذ ولداً, ولم يكن له شريك في الملك, ولم يكن له ولي من الذل, والله أكبر كبيراً.

٢/ ٥/ ١٤٣٤

/http://aldumaiji.blogspot.com

يا وزير الثقافة والإعلام: لا تَبْعَثْ وثنيةَ أبي لهب!

الحمد لله رب العالمين, والصلاة والسلام على خاتم المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين, وبعد:

فهذه تعقبات على القصيدة الموسومة بـ"في حضرة النور" التي جادت قريحة الشاعر الدكتور عبدالعزيز خوجة وزير الثقافة والإعلام بقصيدة في مدح إمام المرسلين صلوات الله وسلامه عليه, وهي ميميّة على روي قصيدة البوصيري المشهورة التي سارت بها الركبان وطار بها الطرقية وأهل الخرافة في احتفالهم البدعي بمولد رسول الهدى صلوات الله وسلامه عليه, وقد رأى كثير منهم أن حفلة المولد لا تكمل إلا بتلاوة تلك القصيدة. وقد سطّر العلماء الرسائل في بيان ضلال بعض أبياتها, وخروج بعض معانيها الى الشرك في الربوبية والألوهية, فزعم أنه يمدح رسول الله بما هو في الحقيقة عين المشاقة له والمحادة لسنته!

فلم يُبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بالحنيفية والتوحيد والشريعة الكاملة, لا بالشرك والتنديد والخرافة والأساطير البالية! ومن مدحك بما

ليس فيك فقد ذمك, وأظلم الظلم الشرك, وكم من بدعة أفضت إلى التشريك والتنديد! ويكفي في شؤمها الحديث الذي خرّجه مسلم مرفوعاً: "كل بدعة ضلالة" ومن ابتدع فقد اتهم ضمناً ـوإن لم يشعرـ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه لم يبلغ الرسالة حق البلاغ وأن دينه ناقص! والله تعالى يقول: "يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته" (المائدة: ٦٧) وهذه أمثله عابرة على الغلو والإطراء المذموم الذي نهى عنه المصطفى صلى الله عليه وسلم بقوله: "لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله" رواه البخاري. ومما قاله البوصيري في محادة ومشاقة لهذا النهي الصريح:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

ولن يضيق رسول الله جاهك بي إذا الكريم تجلّى باسم منتقم

إن لم تكن في معادي آخذاً بيدي فضلاً وإلا فقل يا زلة القدم

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

ومن له أدنى علم ببدهيات التوحيد ومعاقد الإيمان وصفاء المعتقد، رأى بعين بصيرته مواطن الضلال القبيح في هذه الأبيات.

ورسول الهدى صلوات الله سلامه عليه غني عن مدحه بالكذب, فقد حباه ربه تعالى من الكمالات ما قد أغنته عن تزيّد وإطراء, وهذا بشهادة العدو الكاشح ناهيك عن المحب الناصح.

هذا, والعجب ممن أعطاهم الله قدرة شاعرية وبوحاً منظوماً وقريحة عذبة كشوقي -ولم تسلم قصيدته من غلو وسوء أدب مع الله تعالى- ثم القرني وخوجة في كثير من الشعراء, ثم نراهم ينظمون على ذاك الرويّ البوصيري بعينه, وليس في ذلك محذور مباشر, لكن ذلك الفعل لا يسلم من الاحتفاء بقصيدة البوصيري والتسليم لها بالقيادة في المدائح النبوية على ما فيها من مهلكات! نعم فيها جزالة وبلاغة ورقة, لكن شانها الغلوّ, بل الشرك الصريح, والأمة غنية بالقرائح الحنيفية, فعلام خضوع الفضلاء للمشوب وقد أغناهم الله بالمحض الصافي؟! فإن أبيتم إلا اتّباع الرويّ ومعارضة القريض؛ فهل ثمّت أقوى وأمتن وأجزل وأصدق وأرقّ من دالية حسان رضي الله عنه؟!

وبالجملة؛ فخير ممدوح من الخلائق هو نبي الهدى صلوات الله وسلامه عليه, وخير الشعر وأصدقه هو ما مُدح به وكان واصفاً لهديه مرغّباً في سنته منافحاً عن دينه وملته.. ولكن باتباع وإحسان, لا ابتداع وخرافة وجهل وغلو.

وقد سار الشاعر الدكتور خوجة ـوفقه اللهـ على هذا السنن, فمدح رسول الهدى صلى الله عليه وسلم بقصيدته, وقد وُفّق في بعضها وأخطأه الصواب في أخرى, والظنّ أن بصدره الرحب انشراح لهذه الملحوظات, ومراجعة لتيك التعقبات, فصديقك من صدقك ونصحك لا من صدّقك وغشك, والمؤمنون نَصَحَةٌ والمنافقون غَشَشَةٌ.

والخوف عليه من أن يطير مطير بأبياته على هنّاتها فتكون عليه لا له, فيأتيه الخلل من حيث رام الخير والصواب, فالظن به ـوفقه اللهـ نقض ما خالف فيه السنة بما يبنيها ويحوطها. مع التنويه إلى أني قد أكون أسأت الفهم فيما طرحه, ولكن رائدي النصح وحسن الظن, بل أزعم حسن الطوية, والله الحافظ الموفق الهادي.

وقد تعمدت في نقدي لقصيدته أن يكون ظاهرياً, لأنه الأصل في الكلام دون دخول في الاحتمالات والمجازات, مع مراعاة مآلات مواضع الكلم في الأبيات لما قد يحتج به جاهل في تبرير بدعته وتقرير ضلاله اتكاء على أبياتٍ للدكتور لم يقصد بها مارامه أولئك..والله من وراء القصد وبه التوفيق.

وقد ذكر معالي الشاعر أبياتاً رائقة كقوله:

فالطيب في وجهك الوضاء نفحته والصدق وحيٌ على إفصاحك العصم

أسرى بك الله تفضيلا ومكرمة ليلا إلى المسجد الأقصى من الحرم

أراك ربك من آياته عجبا فوق البراق فلم تفتن ولم تهم

صحبت جبريل والرحمن يُقرؤه وحيا إليك جليا غير منكتم

وقد أورد الشاعر أبياتاً بعضها عائم غير واضح الدلالة, وبعضها يحتمل أكثر من معنى, وأخرى باطلة ضالة..قال:

والنفس تصبو فتستشفى وتخر في بحر الهوى دونما خوف من التهم

التعليق: ليس من التأدب مع نبي الهدى صلى الله عليه وسلم أن يصفه المحب بالهوى وأنه يهواه, فالهوى عند المحبين من مراتب العشق, والعشق حب بشهوة ورسول الله يجل عن تلك الأوصاف, وقد تجاوز بعض الجهلة ذلك حتى ذكروا ما أسموه بالعشق الإلهي!..أما مطلق المحبة فهو شرط الإيمان والذي من لوازمه الإجلال والطاعة وحسن المتابعة.

فالله يعلم لم أشرك بوحدته والله يمحو بنور المصطفى ظلَمي

التعليق: إن كان يقصد بنور المصطفى صلى الله عليه وسلم نور الدين والهدى, وأن متابعته سبب في خروجه من ظلام الجهل والمعصية إلى نور

الهدى والطاعة فصحيح. أما إن قصد إسقاط هذا المعنى على المعنى الصوفي الخرافي, كاعتقاد بعض الجهلة أن الخلائق خُلقت من نور النبي صلى الله عليه وسلم ويروون أحاديث مكذوبة عليه في هذا المعنى الباطل, وبعضهم يزعم أنه نور ذاتي من نور الله فهذا باطل محض, بل هو بشر من دم ولحم وعظم وعصب, وهو عبد رسول, عبد لا يعبد ورسول لا يكذّب, ونوره معنوي وهو ما جاء به من الوحي والهدى, ومن توابع ذلك ما زعموه أن لولاه لما خلق الله الأفلاك! ويروون أحاديث موضوعة وأخباراً مصنوعة ليس لها من الصدقية نقيرٌ.

يا خير مرتغب في الحشر نأمله   يوم القيامة حسبي خير مُعتَصم

التعليق: الرَّغَب عبادة, وصرف العبادة لغير الله شرك. قال جل وعز: "إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً" (الأنبياء: ٩٠) وقال سبحانه: "وإلى ربك فارغب" الشرح: ٨) والقاعدة: أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر. وفي الصحيحين من حديث أخذ المضجع عن حديث البراء بن عازب رضي الله عنه مرفوعاً: "رغبة ورهبة إليك".

الرغبة من قبيل الرجاء والطمع, وهي من أفراد الدعاء, بل هي من دوافعه, لذلك يجري عليها ما يجري على السؤال والدعاء, فمن رغب إلى غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فقد أشرك.

وعليه؛ فإن قَصَدَ الشاعر بهذا وصف الشفاعة المحضة يوم القيامة, وأن السؤال المذكور لن يكون إلا هناك فحق, أما إن قصد سؤاله الشفاعة في هذه الدنيا من دون الله فهذا شرك لأنه دعاء ميت, والله تعالى يقول: "وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً" (الجن: ١٨) فقوله: أحداً, نكره في سياق النهي؛ فتعم جميع الخلق ولا يخرج منهم أحد لا ملك مقرب ولا نبي مرسل. والشفاعة والطلب تجوز مع اتحاد دار الطالب والمطلوب لا مع اختلافهما.

كما ذكر الشاعر الحسْب, وأن رسول الله حسبه, وهذا باطل, فلا يوصف رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك, فالحسْب هو الكفاية, قال تعالى: "يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين" (الأنفال: ٦٤) أي الله كافيك وكافي المؤمنين. وبما أن الله هو الوكيل فهو حسب المتوكلين عليه "ومن يتوكل على الله فهو حسبه" (الطلاق: ٣) أي كافيه ومتولي أمره. وتأمل كيف فرّق الله تعالى بين الحسب وبين التأييد في قوله: "فإن

حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين" (الأنفال: ٦٢) كذلك فرّق بين الحسب والإيتاء في قوله: "وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون" (التوبة: ٥٩) وتأمل كيف جعل الرغبة إليه وحده في تمام الآية. وقد بسط القول في ذلك شيخا الإسلام ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله تعالى في غير ما موضع.

يا سيد الكون دع روحي بتوبتها تطوف مرضية في روضك الفغم

التعليق: النبي صلى الله عليه وسلم لم يصف نفسه بذلك إنما قال: "أنا سيد ولد آدم ولا فخر" رواه البخاري, وسيد الكون في الحقيقة هو الله تعالى, فالسيادة المطلقة من خصائص الربوبية, أما ما ذكر في الحديث فهو سيادة شرف ومدح لا سلطان وقهر, لذا فالوقوف على ما وصف به نفسه بسيادته على بني جنسه هو الأولى حسماً لمادة الغلو, وسدّاً لذريعة الإطراء الممنوع.

في حضرة النور تبقى الروح هائمة والله بالنور يهدي الخلق كلهم

التعليق: العبارة فيها توسع, فما مراده بحضرة النور؟ إن أراد حضرة نور الوحي والهدي فحق, ولكن بالعقل عن الروح لا بهيامها, ولا يخلو هذا

التعبير من إسقاط فلسفي هندوكي, ـربما غير مقصودـ وإن أراد المعنى الخرافي من الحضرة النبوية في احتفالات الموالد النبوية وأن رسول الله يحضر بنفسه؛ فباطل وضلال. فليت الشاعر يورد الألفاظ الواضحة المباني السليمة المعاني.

والنور طه نبيٌ، من يلوذ به   يلقى شفاعته في صد مُقتَحم

التعليق: طه, ليس من أسمائه صلى الله عليه وسلم ولا من أوصافه, بل هي من الحروف المقطعة في أوائل السور كأمثال: حم, ألم, ألر, يس..ولم يصب من عدّه من الأسماء النبوية.

أما عبارة: "من يلوذ به" فمجملة, فاللياذة من أفراد التعلق والاعتصام واللجوء, فالقول فيها كالقول في الاستعانة والاستعاذة, فلا تجوز فيما هو مختص بالله تعالى. والشاعر قد حدّد موضع اللياذة هنا فجعلها في صدّ المقتّحم, ولعله أراد جهنم, فإن أراد وصف حال المؤمنين يوم القيامة في طلب الشفاعة منه إلى الله فحق, وإن أراد طلبها منه بعد موته فباطل وضلال.

ما ردّ طه البرايا إن هم طلبوا   تخفيف أوزارهم من واسع الكرم

التعليق: كأن الشاعر أراد بذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استجاب في حياته لمن طلب منه الاستغفار, أما إن أراد استجابته بعد موته فالكلام عليه كالكلام على ما سبق.

لا رب إلا إله واحد أحدٌ   لا عهد إلا على عهدٍ من الشيم

التعليق: تفسير كلمة التوحيد بلا رب إلا الله خطأ, بل الحق تفسيرها بالألوهية كما في قواعد الاشتقاق, فمعنى: لا إله إلا الله, أي: لا معبود بحق إلا الله, واسم "الله" أصله المألوه أي المعبود, فمن فسرها بالربوبية فقد أبعد. فظاهر عبارة الشاعر هي ما ذكرنا بدليل وضعه كلمة رب بدلاً من إله, ولعله أُلجئ إلى ذلك بدافع الوزن الشعري, لكنه لم يصب إن أراد ما ذكرناه. أما إن كان قصده كلاماً مرسلاً قصد به لا رب في الحقيقة إلا الله فحق, وهذا ما نرجوه, وليته يتجنب المشتبهات اللغوية.

أما عبارة: لا عهد إلا على عهد من الشيم: فإن أراد العهد والميثاق الأول فما الداعي لإقحام الشيم, إلا إن كان السبب ضرورةً شعرية.

ألفوك تهتف بالرحمن مجتليا   فحصنوك ضحى من شهوة القرَم

التعليق: شهوة القرم هي شهوة أكل اللحم, فما الداعي لهذا الوصف, فليس من إجلال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا من حسن التأدب معه وصفه بأن الملائكة قد حصنوه من شهوة أكل اللحم. وقد يفسر القرم بالصغير فما هي شهوة الصغير المعنيّة بالتحصين؟!

يا أشراف الناس خلْقا زانه خلُقٌ وأرحم الناس خصما عف كالحَكَم

التعليق: لعل أشراف خطأ طباعي عن أشرف.

فكنت أول خلق الله قاطبة مَن هَل بالنور في الأفلاك والسدم

التعليق: الكلام عليه كالكلام على ما مضى من النور المحمدي في التصورات الطرقية الخرافية. وفي هذا البيت تأكيد للمعنى الباطل, ولم أجد محملاً آخر, فعلى الشاعر الأوبة من هذه الحوبة والبيان دامَهُ في زمن الإمكان.

جاوزت أفق طباق ما تجاوزها جِن ولا مَلَك أو خارق النسم

التعليق: هل يقصد بخارق النسم الهواء؟ فإن كان كذلك، فما دليله؟ وإن كان غيره، فما معناه؟

يا سيّدي عُدْتُ محزونا وبي كَدَمٌ فمن يعيذ من الضرّاء والكدم

التعليق: الكَدَم هو أثر العض أو الضرب ونحوه, وفي البيت استعاذة واستغاثة ظاهرة, فماذا بقي لله تعالى بعدها من إخلاص الدعاء؟! قال تعالى: "قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً" (الإسراء: ٥٦)

بباب جاهك لاذت روحنا وبكت إن الدموع حديث العابد الكَلِم

التعليق: التوسل بجاه النبي صلى الله عليه وسلم بدعة ضلالة, ولو كانت حقاً لكان أسبق الناس إليها صحابته المرضيين. وقد زاد الشاعر على التوسل بالجاه اللياذة الممنوعة, وسبق الكلام عنها. وقد حرر الأمرين شيخ الإسلام في سفريه الرد على البكري "الاستغاثة" والرد على الإخنائي "الإخنائية", كذلك تلميذه ابن عبد الهادي في رده على السبكي في "الصارم المنكي".

إليك أشكو وصايا الغدر في زمني وبعض شكواي جرحٌ نافُّ الحُمَم

التعليق: وهذا البيت مشابه لما أسلفه من أبيات لا تخلو من شرك وبدعة, أسأل الله أن يهدي الشاعر للحق وأن يعيذني وإياه من مضلات الفتن, وهل فتنة كفتنة الشرك والبدعة؟!

يا سيد الخلق لا تغضب على خَلَفٍ كثيرهم ضل في الصحراء كالبَهَم

التعليق: وهذا كسابقه في الضلال وسؤال الأموات, فإن قال أنا لا أعتقد سماعه لهذا النداء, إنما هي مجرد خواطر وحديث نفس سطره مداد القريض, قلنا: العبرة بما ظهر لا بما خفي ورُكب لأجله مركب المجاز. وإن احتج بالسلام عليه في جلسة التشهد في الصلاة بصيغة الخطاب, فتلك الصيغة صيغة سلام لا دعاء "السلام عليك أيها النبي ورحمة الله و بركاته" وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني عن أمتي السلام" رواه النسائي وصححه الألباني, والسلام عليه من جنس الصلاة عليه, كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم" رواه أبوداود وصححه الألباني.

أما عبارة "سيد الخلق" فحالها حال ما سبق في الكلام على سيد الكون.

فاشفع إذا ظلموا لعلهم ندموا كم يغفر الله رُحْمى ذنب مُتهَم

التعليق: هذا دعاء وسؤال وطلب للشفاعة منه, وما هذا إلا ذبح للحنيفية من معاصمها, وإحياء للوثنية من مراقدها! والله تعالى يقول: "ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم" (آل عمران: ١٢٨) وقال سبحانه: "قل لله الشفاعة جميعاً" (الزمر: ٤٤) قال الإمام ابن باز رحمه الله: "..لا

تقل: يا سيدي فلان اشف مريضي, أو اقض حاجتي, أو أنا في حسبك, أو أنا في جوارك...لا مع النبي صلى الله عليه وسلم ولا مع غيره, فهذا حق الله سبحانه وتعالى... ـثم بين الأدب معه, ثم قالـ أما الزيادة على هذا بأن تقول: يا رسول الله اشفع لي, أو انصرني, أو اشف مريضي, أو أنا في جوارك, أو أنا في حسبك, أو أنا مظلوم فانصرني, أو أمتك قد أصابها ما أصابها فانصرها, أو اشفها مما أصابها, أو ما أشبه ذلك؛ هذا لا يجوز؛ لأنه من الشرك بالله سبحانه وتعالى, ولكن هذا يطلب من الله, تطلب في صلاتك في المسجد النبوي وغيره.." مجموع مقالات وفتاوى متنوعة (٢/ ٧٩ـ٨٠)

أنت الذي لا يرد الله دعوته فاغسل ضمائرنا من حوبة السأم

التعليق: هداك الله أيها الوزير! أين ما تعلمته من علوم الشريعة؟! وأين فطرتك وعلمك؟! وهل تظن أنك تعظم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغلو فيه؟!

أسأل الله لي ولك الهدى والتقى, وأن يرينا الحق حقاً وأن يرزقنا اتباعه, والباطل باطلاً وأن يرزقنا اجتنابه, وأن لا يجعله ملتبساً علينا فنضل, اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل, عالم الغيب والشهادة, أنت تحكم بين

عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك, إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم.

وختاماً أقول: إن تسنّم من يدعو بشعره للوثنيّة وزارة الثقافة والإعلام, لهو غش للأمة وخزي وهوان, لا يجوز السكوت عليه وإقراره, فالمأمول من ولي الأمر أن يسند مثل هذه الثغور لأهل السنة والهدى, لا البدعة والضلال. ويا ليت أن من شروط تسنم الولايات والوزارات ـومنها ا لإعلامـ تزكية المفتي للمرشح, حتى لا يُسند الأمر لمن لا يحفظ على الناس ثغورهم, وهل أخطر من ثغر الثقافة والإعلام؟!

ألا وإن الحال مخيف والواقع مقلق, فثمّ تيّار تغريبي لحوح لجوج صفيق, يثلم في شعب الأمة, دخلوا من كُوّة حسن ظن ولي الأمر بهم؛ فأضحوا وأمسوا يفتلون في ذروة الأمور وغواربها, فحيناً باستفزاز الأمة بقرارات و برامج واحتفالات ونحوها, وتارة بإقرار الاختلاط والفساد, وتارة بابتعاث الأغرار ذكوراً وإناثاً وهم دون سن النضج وفي نقص لكفاية الرشد والتحصين, مع عدم متابعتهم المتابعة الكافية, وتارة بتمكين من لهم قدم حرب لله ورسوله على ثغور هي من أخطر ما تكون! كما نأمل من أولي الأمر أن ينزعوا فتائلاً هم أدرى بقدر تدميرها للُّحمة والاجتماع, من مظالم

واعتقالات وعسف وفساد في الإدارة والمال. وقديماً قال طَرَفة بن العبد محذراً من التهاون في البدايات التي ربما آلت إلى هَلَكات:

قد يبعثُ الأمرَ الكبيرَ صغيرُهُ حتى تظل له الدماء تصبّبُ

وكم من ناقم قد شق العصا وفرّق الصف وشتّت الكلمة بتبريرات توهّمها حين رأى أموراً لم يجد لها مساغاً, ولم يطق حِلمه لها احتمالاً, ولم يُوفّق لحكيم يأخذ بيده لبر الأمان وشاطئ اليقين, بأن لا ينازع الأمر أهله, وأن لا يعنق في الفتنة التي أعجبه مقدمها, ولو علم خبايا أعجازها لتأخر وسكن وأحجم, ولكن لا تحين مناص, كما قال نهشل بن حري:

ومولى عصاني واستبد برأيه كما لم يُطع بالبقّتين قصيرُ

فلما رأى ما غب أمري وأمره وولت بأعجاز الأمور صدورُ

تمنّى بئيساً أن يكون أطاعني وقد حدثت بعد الأمور أمورُ

اللهم احفظ بلادنا وبلاد الإسلام من كل نقص في الدين والدنيا, واكبت أعداءك أعداء الدين, وارزق ولاة أمر المسلمين الهدى والتقى, وخذ بنواصيهم للبر والتقوى, وأصلح بطانتهم ووزراءهم وشعوبهم يا حي يا قيوم

يا ذا الجلال والإكرام, وصلى الله وسلم وبارك على محمد وآله وصحبه. ٢/ ١/ ١٤٣٣

صَلَاةُ المُقَرَّبِين

أحمدُ الله الذي لا إله إلا هو, وأشكرُه, وأثني عليه, وأستغفره, اللهم لا أحصي ثناء عليك, أنت كما أثنيت على نفسك.

إليك! وإلّا لا تُشدُّ الركائبُ ومنك! وإلّا فالمؤمِّلُ خائبُ

وفيك! وإلّا فالزَّمانُ مُضيَّعٌ وعنك! وإلّا فالمُحَدِّثُ كاذبٌ

لديك! وإلّا لا قرارَ يطيبُ لي إليك! وإلّا لا تسيلُ السواكبُ

وأشهد أن لا إله إلا الله, وحده لا شريك له, له الملك, وله الحمد, وهو على كلّ شيء قدير, جَعَلَ الصلاة حبلاً واصلاً لمن وفّقهم بلُطف التّقدير. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله, الشّاهدُ المُبَشِّرُ النَّذيرُ, والداعي إلى الله بإذنه, والسراجُ المنيرُ, صلوات ربّي وسلامه عليه عدد مخلوقات العليّ القدير, وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بحسن تدبير. أما بعد:

تَبرّأتُ من حولي وطَوْلِي وقوّتي وإني إلى مولاي في غاية الفقرِ

له الفضلُ كلُّ الفضلِ أسلمت مُهجتي إليه فما لي حين أنساه من عذرِ

قال شيخ الإسلام رحمه الله: "ما يجتمع للعبد في الصلاة, لا يجتمع في غيرها من العبادات, كما عرفه أهل القلوب الحيّة, والهمم العالية" (الفتاوى: ٥١٢/١٦) وحيث أن الصلاة من الإسلام بالمحلّ الأرفع, والمقام الأجمع؛ فقد أحببتُ أن أُقرَّب لإخواني في الله وأبسط لهم رسالة شريفة سنيّة, خطّها يراعُ بحرٍ علاّمة, وحبرٍ فهاّمة, إنه الحافظ شمس الدين محمد بن قيّمِ الجوزيّة, مَنْ سارت بركةُ علمه في الأمّةِ مسير الشمس, صبّ الله شآبيب الرحمات على ذيّاك الرّمس. قد لخّصتُها من أحد ذخائره, وهو كتاب: (الصلاة وحكم تاركها: ١٤٦_١٥٩) ولا أطيل في التقديم, فالموضوع من العَظَمَةِ غايةٌ, والكاتب من العلماء آيةٌ. قال رحمه الله تعالى:

"قال تعالى: "وأقيموا الصلاة" (البقرة: ٤٣) فأمرنا بإقامتها, وهو الإتيان بها قائمة, تامّة القيام والركوع والسجود والأذكار. وقد علّق الله سبحانه الفلاح بخشوع المصلي في صلاته, فمن فاته خشوع الصلاة لم يكن من أهل الفلاح, ويستحيل حصول الخشوع مع العجلة والنقر قطعاً, بل لا يحصل الخشوع قط إلا مع الطمأنينة, وكلما زاد طمأنينة ازداد خشوعاً, وكلما قل خشوعه اشتدت عجلته, حتى تصير حركة يديه بمنزلة العبث الذي لا يصحبه خشوع, ولا إقبال على العبودية, ولا معرفة حقيقة العبودية, والله سبحانه

قد قال: "وأقيموا الصلاة" (البقرة: ٤٣) وقال: "الذين يقيمون الصلاة" (المائدة: ٥٥) وقال: "وأقم الصلاة" (سورة هود: ١١٤) وقال: "فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة" (النساء: ١٠٣) وقال: "والمقيمين الصلاة" (النساء: ١٦٢) وقال إبراهيم عليه السلام: "رب اجعلني مقيم الصلاة" (إبراهيم: ٤٠) وقال سبحانه لموسى عليه السلام: "فاعبدني وأقم الصلاة لذكري" (طه: ١٤) فلن تكاد تجد ذكر الصلاة في موضع من التنزيل؛ إلا مقروناً بإقامتها, فالمصلون في الناس قليل, ومقيم الصلاة منهم أقلّ القليل, كما قال عمر رضي الله عنه: الحاج قليل والركب كثير.

فالعاملون يعملون الأعمال المأمور بها على الترويج تحلّة القسم, ولو علموا أن الملائكة تصعد بصلاتهم, فتعرضها على الله جلّ جلاله, بمنزلة الهدايا التي يَتقربُ بها الناس إلى ملوكهم وكبرائهم, فليس من عَمِدَ إلى أفضل ما يقدر عليه, فيزيّنهُ ويحسّنه ما استطاع, ثمّ يتقرب به إلى من يرجوه ويخافه, كمن يعمد إلى اسقط ما عنده, وأهونه عليه؛ فيستريح منه, ويبعثه إلى من لا يقع عنده بموقع!

وليس من كانت الصلاة ربيعاً لقلبه, وحياة له, وراحة لروحه, وقرّة لعينه, وجلاء لحزنه, وذهاباً لهمّه وغمّه, ومفزعاً له إليه في نوائبه ونوازله,

كمن هي سحت لقلبه, وقيد لجوارحه, وتكليف له, وثقل عليه! فهي كبيرة على هذا, وقرّة عينٍ وراحة لذاك.

وقال تعالى: "واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين . الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون" (البقرة: ٤٥ ـ ٤٦) فإنما كبرت على غير هؤلاء؛ لخلوّ قلوبهم من محبة الله تعالى, وتكبيره, وتعظيمه, والخشوع له, وقلّةِ رغبتهم فيه, فإن حضور العبد في الصلاة, وخشوعه فيها, وتكميله لها, واستفراغه وسعه في إقامتها وإتمامها؛ على قدر رغبته في الله. قال الإمام أحمد رحمه الله: "إنما حظّهم من الإسلام على قدر حظّهم من الصلاة, ورغبتهم في الإسلام على قدر رغبتهم في الصلاة, فاعرف نفسك يا عبد الله, واحذر أن تلقى الله عزّ وجل ولا قدر للإسلام عندك, فإن قدر الإسلام في قلبك؛ كقدر الصلاة في قلبك". (طبقات الحنابلة: ١/ ٣٥٤).

وليس حظّ القلب العامر بمحبة الله, وخشيته, والرغبة فيه, وإجلاله, وتعظيمه من الصلاة, كحظّ القلب الخالي الخراب من ذلك, فإذا وقف الاثنان بين يدي الله في الصلاة؛ وقف هذا بقلبٍ مخبت, خاشع له, قريب منه, سليم من معارضات السوء, قد امتلأت أرجاؤه بالهيبة, وسطع فيه نور

الإيمان, وكشف عنه حجاب النفس ودخان الشهوات, فيرتع في رياض معاني القرآن, وخالط قلبه بشاشة الإيمان بحقائق الأسماء والصفات, وعلوّها, وجمالها, وكمالها الأعظم, وتَفَرُّدِ الرب سبحانه بنعوت جلاله, وصفات كماله, فاجتمع همّهُ على الله, وقرّت عينه به, وأحسّ بقربه من الله قرباً لا نظير له, ففرّغ قلبه له, وأقبل عليه بكليّته. وهذا الإقبال منه بين إقبالين من ربه, فإنه سبحانه أقبل عليه أولاً؛ فانجذب قلبه إليه بإقباله, فلما أقبل على ربّه؛ حظي منه بإقبال آخر أتمّ من الأول.

وها هنا عجيبة من عجائب الأسماء والصفات, تحصل لمن تفقّه قلبُهُ في معاني القرآن, وخالطت بشاشة الإيمان بها قلبه, بحيث يرى لكل اسم وصفة موضعاً من صلاته, ومحلّاً منها:

فإنه إذا انتصب قائماً بين يدي الربّ تبارك وتعالى؛ شاهد بقلبه قيوميّته. وإذا قال: "الله أكبر" شاهد كبرياءه. وإذا قال: "سبحانك اللهم وبحمدك, وتبارك اسمك وتعالى جدّك, ولا إله غيرك"(الترمذي:١/٧٧ بسند صحيح) شاهد بقلبه ربّاً منزّهاً عن كل عيب, سالماً من كل نقص, محموداً بكلّ حمد, فَحَمْدُهُ يتضمّنُ وصفه بكل كمال, وذلك يستلزم براءته من كلّ نقص, تبارك اسمه, فلا يُذكر على قليل إلا كثّره, وعلى خير إلا أنماه وبارك فيه,

ولا على آفةٍ إلا أذهبها, ولا على شيطان إلا ردّه خاسئاً مدحوراً. وكمالُ الاسم من كمال مسمّاه, فإذا كان شأن اسمه الذي لا يضرّ معه شيء في الأرض ولا في السماء، فشأن المُسمّى أعلى وأجلّ. "وتعالى جدّك" أي: ارتفعت عَظَمَة ربنا سبحانه, وجلّت فوق كل عَظَمَة, وعلا شأنه على كل شأن, وقهر سلطانه كلّ سلطان. فتعالى جَدُّهُ أن يكون معه شريك في ملكه وربوبيته, أو في إلهيته أو في أفعاله أو في صفاته, كما قال مؤمن الجن: "وأنه تعالى جدّ ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً" (سورة الجن: ٣) فكم في هذه الكلمات من تجلٍّ لحقائق الأسماء والصفات على قلب العارف بها, غير المعطّل لحقائقها!

وإذا قال: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" فقد آوى إلى ركنه الشديد, واعتصم بحوله وقوته من عدوه الذي يريد أن يقطعه عن ربّه, ويبعده عن قربه, ليكون أسوأ حالاً. فإذا قال: "الحمد لله رب العالمين" (الفاتحة: ٢) وقف هُنَيْهَةً يسيرةً ينتظر جواب ربّه له بقوله: "حمدني عبدي" فإذا قال: "الرحمن الرحيم" انتظر الجواب بقوله: "أثنى عليّ عبدي" فإذا قال: "مالك يوم الدين" انتظر جوابه: "مجدّني عبدي" (مسلم:١/٣٨) فيا لذّة قلبه, وقرّة عينه, وسرور نفسه, بقول ربه: "عبدي" ثلاث مرّات! فو الله لولا ما على

القلوب من دخان الشهوات, وغيم النفوس؛ لاستطيرت فرحاً وسروراً بقول ربّها وفاطرها ومعبودها: "حمدني عبدني" و"أثنى عليّ عبدي" و"مجدّني عبدي".

ثمّ يكون لقلبه مجالٌ من شهود هذه الأسماء الثلاثة التي هي أصول الأسماء الحسنى, وهي: الله, والرّب, والرحمن. فشاهدَ قلبُه من ذكر اسم الله تبارك وتعالى؛ إلهاً معبوداً موجوداً مَخُوفَاً, لا يستحق العبادةَ غيره, ولا تنبغي إلا له, قد عنت له الوجوه, وخضعت له الموجودات, وخشعت له الأصوات "تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده" (الإسراء: ٤٤) "وله من في السموات والأرض كلّ له قانتون" (الروم: ٢٦).

وشاهد من ذكر اسمه "رب العالمين" قيّوماً قام بنفسه, وقام به كل شيء, فهو قائمٌ على كلّ نفس بخيرها وشرها, قد استوى على عرشه, وتفرّد بتدبير ملكه, فالتدبير كله بيديه, ومصير الأمور كلها إليه, فمراسيم التدبيرات نازلة من عنده على أيدي ملائكته؛ بالعطاء والمنع, والخفض والرفع, والإحياء والإماتة, والقبض والبسط, وكشف الكروب, وإغاثة الملهوفين, وإجابة المضطرين "يسأله من في السموات والأرض كلّ يوم هو في شأن" (الرحمن:

٢٩) لا مانع لما أعطى, ولا معطي لما منع, ولا معقّب لحكمه, ولا رادّ لأمره, ولا مبدّل لكلماته, تعرج الملائكة والروح إليه, وتعرض الأعمال أول النهار وآخره عليه؛ فيقدّر المقادير, ويوقّت المواقيت, ثم يسوق المقادير إلى مواقيتها, قائماً بتدبير ذلك كله, وحفظه ومصالحه.

ثمّ يشهد عند ذكر اسم "الرحمن" جلّ جلاله؛ ربّاً محسناً إلى خلقه بأنواع الإحسان, متحبّباً إليهم بصنوف النعم, وسع كل شيء رحمة وعلماً, وأوسع كل مخلوق نعمة وفضلاً, فوسعت رحمته كل شيء, ووسعت نعمته كل حي, فبلغت رحمته حيث بلغ علمه, فاستوى على عرشه برحمته, وخلق خلقه برحمته, وأنزل كتبه برحمته, وأرسل رسله برحمته, وشرع شرائعه برحمته, وخلق الجنة برحمته, والنار أيضاً برحمته؛ فإنها سوطه الذي يسوق به عباده المؤمنين إلى جنته, ويُطَهّرُ بها أدران الموحدين من أهل معصيته, وسجنه الذي يسجن فيه أعداءه من خليقته. فتأمّل ما في أمره ونهيه ووصاياه ومواعظه من الرحمة البالغة, والنعمة السابغة, وما في حشوها من الرحمة والنعمة, فالرحمة هي السبب المتصل منه بعبادة, كما أن العبودية هي السبب المتصل منهم به, فمنهم إليه العبودية, ومنه إليهم الرحمة, ومن أخصّ مشاهد هذا الاسم؛ شهود المصلّي نصيبه من الرحمة الذي أقامه بها بين يدي ربه,

وأهّله لعبوديته ومناجاته, وأعطاه ومنع غيره, وأقبل بقلبه وأعرض بقلب غيره, وذلك من رحمته به.

فإذا قال: "مالك يوم الدين" فهنا شهد المجد الذي لا يليق بسوى الملك الحق المبين, فيشهد ملكاً قاهراً, قد دانت له الخليقة, وعَنَتَ له الوجوه, وذلّت لعظمته الجبابرة, وخضع لعزته كل عزيز. فيشهد بقلبه ملكاً على عرش السماء مهيمناً, لعزّته تعنو الوجوه وتسجدُ, يرسل إلى أقاصي مملكته بأوامره؛ فيرضى على من يستحق الرّضا, ويثيبه ويكرمه ويدنيه, ويغضب على من يستحق الغضب, ويعاقبه ويهينه ويقصيه, فيعذب من يشاء, ويرحم من يشاء, ويعطى من يشاء, ويقرّب من يشاء, ويقصى من يشاء. له دار عذاب وهي النار, وله دار سعادة عظيمة وهي الجنة.

فإذا قال: "إياك نعبد وإياك نستعين" ففيها سرّ الخلق والأمر, والدنيا والآخرة. وهي متضمنة لأجلّ الغايات, وأفضل الوسائل, فأجلّ الغايات؛ عبوديته, وأفضل الوسائل؛ إعانته, فلا معبود يستحق العبادة إلا هو, ولا معين على عبادته غيره, فعبادته أعلى الغايات, وإعانته أجلّ الوسائل. وقد انزل الله سبحانه وتعالى مئة كتاب وأربعة كتب, جمع معانيها في أربعة؛ وهي التوراة والإنجيل والقرآن والزبور, وجمع معانيها في القرآن, وجمع معانيه في

المفصّل, وجمع معانيه في الفاتحة, وجمع معانيها في "إياك نعبد وإياك نستعين" وقد اشتملت هذه الكلمة على نوعي التوحيد وهما: توحيد الربوبية, وتوحيد الإلهية. وتضمّنت التعبد باسم الرب واسم الله, فهو يُعْبَدُ بألوهيته, ويُستعانُ بربوبيته, ويهدي إلى الصراط المستقيم برحمته. فكان أول السورة ذكر اسمه الله والرب والرحمن تطابقاً لأجَلِّ المطالب من عبادته وإعانته وهدايته, وهو المنفرد بإعطاء ذلك كله, لا يعين على عبادته سواه, ولا يهدي سواه.

ثم يشهد الداعي بقوله: "اهدنا الصراط المستقيم" شدّة فاقته وضرورته إلى هذه المسألة, التي ليس هو إلى شيء أشدّ فاقةً وحاجة منه إليها البتة, فإنه محتاج إليها في كل نَفَسٍ وطرفة عين, وهذا المطلوب من هذا الدعاء لا يتم إلا بالهدية إلى الطريق الموصل إليه سبحانه, والهداية فيه, وهي هداية التفصيل, وخلق القدرة على الفعل, وإرادته, وتكوينه, وتوفيقه لإيقاعه له على الوجه المرضي المحبوب للرب سبحانه وتعالى, وحفظه عليه من مفسداته حال فعله وبعد فعله.

ولمّا كان العبد مفتقراً في كل حال إلى هذه الهداية في جميع ما يأتيه ويذره من أمور قد أتاها على غير الهداية, فهو يحتاج إلى التوبة منها, وأمور هُدي إلى أصلها دون تفصيلها, أوهُدي إليها من وجه دون وجه, فهو يحتاج

إلى إتمام الهداية فيها ليزداد هدى, وأمور هو يحتاج إلى أن يحصل له من الهداية فيها بالمستقبل مثل ما حصل له في الماضي, وأمور هو خال عن اعتقاد فيها, فهو يحتاج إلى الهداية فيها, وأمور لم يفعلها فهو يحتاج إلى فعلها على وجه الهداية, وأمور قد هُدي إلى الاعتقاد الحق والعمل الصواب فيها فهو محتاج إلى الثبات عليها, إلى غير ذلك من انواع الهدايات, فرض الله سبحانه عليه أن يسأله هذه الهداية, في أفضل أحواله, مرّات متعددة, في اليوم والليلة.

ثم بيّن أن أهل هذه الهداية هم المختصون بنعمتة, دون المغضوب عليهم ـوهم الذين عرفوا الحق ولم يتبعوهـ ودون الضالين ـوهم الذين عبدوا الله بغير علمـ فالطائفتان اشتركتا في القول في خلقه وأمره وأسمائه وصفاته بغير علم, فسبيل المنعَمِ عليه مغايرة لسبيل أهل الباطل كلّها علماً وعملاً.

فلمّا فرغ من هذا الثناء والدعاء والتوحيد؛ شرع له أن يطبع على ذلك بطابع من "التأمين" يكون كالخاتم له, وافق فيه ملائكة السماء, وهذا التأمين من زينة الصلاة, كرفع اليدين الذي هو زينة الصلاة, واتباع للسنة, وتعظيم أمر الله, وعبودية اليدين, وشعار الانتقال من ركن إلى ركن.

ثم يأخذ في مناجاة ربه بكلامه, واستماعه من الإمام بالإنصات, وحضور القلب وشهوده. وأفضل أذكار الصلاة؛ ذكر القيام, وأحسن هيئة المصلي؛ هيئة القيام, نخصّت بالحمد, والثناء, والتمجيد, وتلاوة كلام الرب جل جلاله. ولهذا نهى عن قراءة القرآن في الركوع والسجود (مسلم: ٣٤٨/١) لأنهما حالتا ذل وخضوع وتطامن وانخفاض, ولهذا شرع فيهما من الذكر ما يناسب هيئتهما, فشرع للراكع أن يذكر عَظَمَةَ ربّه في حال انخفاضه هو, وتطامنه وخضوعه, وأنه سبحانه يوصف بوصف عظمته عما يضادّ كبرياءه وجلاله وعظمته. فأفضل ما يقول الراكع على الإطلاق: "سبحان ربي العظيم" فإن الله سبحانه أمر العباد بذلك, وعيّن المبلّغ عنه, السفير بينه وبين عباده, هذا المحلّ لهذا الذكر, لمّا نزلت: "فسبح باسم ربك العظيم" (الواقعة: ٩٦) قال: "اجعلوها في ركوعكم" (أبو داود: ٨٦٩ وضعفه الألباني) وأبطل كثير من أهل العلم صلاة من تركها عمداً, وأوجب سجود السهو على من سها عنها, وهذا مذهب الإمام أحمد ومن وافقه من أئمة الحديث والسنة. وبالجملة؛ فسرّ الركوع؛ تعظيم الرب جلّ جلاله بالقلب والقالب والقول. ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أما الركوع فعظموا فيه الرب" (مسلم: ٤٧٩)

ثم يرفع رأسه عائداً إلى أكمل هيئاته, وجُعِلَ شعارُ هذا الركن؛ حمدُ الله والثناء عليه, فافتتح هذا الشعار بقول المصلّي: "سمع الله لمن حمده" أي: سَمِعَ سَمْعَ قبولٍ وإجابة. ثمّ شفع بقوله: "ربنا ولك الحمد, ملء السموات, وملء الأرض, وملء ما بينهما, وملء ما شئت من شيء بعد" ولا يهمل أمر هذه الواو في قوله: "ربنا ولك الحمد" فإنه قد نُدب الأمر بها في الصحيحين (البخاري: ٧٣٤ , مسلم: ٣٩٢) وهي تجعل الكلام في تقدير جملتين قائمتين بأنفسهما, فإن قوله "ربّنا" متضمنٌ في المعنى: أنت الربُّ, والملكُ القيومُ الذي بيديه أزمّة الأمور, وإليه مرجعها. ثم أخبر عن شأن هذا الحمد وعظمته قدراً وصفة, فقال: "ملء السموات, وملء الأرض, وملء ما بينهما, وملء ما شئت من شيء بعد" أي: قدر ملء العالم العلوي والسفلي والفضاء الذي بينهما, فهذا الحمد قد ملأ الخلق الموجود, وهو يملأ ما يخلقه الرب تبارك وتعالى بعد ذلك مما يشاؤه, فحَمْدُهُ قد ملأ كلَّ موجود, وملأ ما سيوجد, فهذا أحسن التقديرين. ثم أتبع ذلك بقوله: "أهل الثناء والمجد" فعاد الأمر بعد الركعة إلى ما افتتح به الصلاة قبل الركعة؛ من الحمد والثناء والمجد, ثمّ أتبع ذلك بقوله: "أحقّ ما قال العبد" تقريراً لحمده وتمجيده والثناء عليه, وأن ذلك أحقّ ما نطق به العبد, ثم أتبع ذلك

بالاعتراف بالعبودية, وأن ذلك حكم عام لجميع العبيد, ثم عقّب ذلك بقوله: "لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت, ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدّ" وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول ذلك بعد انقضاء الصلاة أيضاً, فيقوله في هذين الموضعين؛ اعترافاً بتوحيده, وأن النعم كلها منه, وهذا يتضمن أموراً:

أحدها: أنه المنفرد بالعطاء والمنع.

الثاني: أنه إذا أعطى؛ لم يُطق أحد منع من أعطاه, وإذا منع؛ لم يُطق أحد إعطاء من منعه.

الثالث: أنه لا ينفع عنده, ولا يخلص من عذابه, ولا يدني من كرامته, جدود بني آدم وحظوظهم, من الملك والرئاسة والغنى وطيب العيش وغير ذلك, إنما ينفعهم عنده؛ التقرّبُ إليه بطاعته, وإيثار مرضاته.

ثم ختم ذلك بقوله: "اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد" (متفق عليه) كما افتتح به الركعة في أول الاستفتاح, كما كان يختم الصلاة بالاستغفار(النسائي: ١٣٣٦ بسند صحيح) وكان الاستغفار في أول الصلاة ووسطها وآخرها, فاشتمل هذا الركن على أفضل الأذكار, وأنفع الدعاء؛ من

حمده وتمجيده والثناء عليه, والاعتراف له بالعبودية والتوحيد, والتنّصل إليه من الذنوب والخطايا. فهو ذكر مقصود, في ركن مقصود, ليس بدون الركوع والسجود.

ثم يكبّرُ, ويخرُّ لله ساجداً, غير رافع يديه؛ لأن اليدين تنحطان للسجود كما ينحط الوجه, فهما ينحطان لعبوديتهما, فأغنى ذلك عن رفعهما, ولذلك لم يشرع رفعهما عند رفع الرأس من السجود؛ لأنهما يُرفعان معه, كما يوضعان معه. وشُرع السجودُ على أكمل الهيئة وأبلغها في العبودية, وأعمّها لسائر الأعضاء, بحيث يأخذ كل جزء من البدن بحظه من العبودية.

والسجود سرُّ الصلاة, وركنها الأعظم, وخاتمة الركعة, وما قبله من الأركان كالمقدمات له, ولهذا أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد. (مسلم: ٤٨٢). وأفضل الأحوال له؛ حال يكون فيها أقرب إلى الله, ولهذا كان الدعاء في هذا المحلّ أقرب إلى الإجابة.

ولمّا خلق الله سبحانه العبد من الأرض؛ كان جديراً بأن لا يخرج عن أصله, بل يرجع إليه إذا تقاضاه الطبع والنفس بالخروج عنه, فإن العبد لو تُرِكَ لطبعه ودواعي نفسه؛ لتكبر وأشِرَ, وخرج عن أصله الذي خُلق منه, ولوثب على حقّ ربّه من الكبرياء والعظمة, فنازعه إياهما! وأُمر بالسجود؛

خضوعاً لعظمة ربه وفاطره, وخشوعاً له وتذللاً بين يديه, وانكساراً له. فيكون هذا الخشوع والخضوع والتذّلل ردّاً له إلى حُكْمِ العبوديةِ, ويتدارك ما حصل له من الهفوة والغفلة والإعراض, الذي خرج به عن أصله, فتمثّل له حقيقة التراب الذي خلق منه, وهو يضع أشرف شيء منه وأعلاه ـوهو الوجهـ وقد صار أعلاه أسفله؛ خضوعاً بين يدي ربه الأعلى, وخشوعاً له, وتذللا لعظمته, واستكانة لعزته. وهذا غاية خشوع الظاهر, فإن الله سبحانه خلقه من الأرض, التي هي مذللة للوطء بالأقدام, واستعمله فيها, وردّه إليها, ووعده بالإخراج منها, فهي أمه وأبوه, وأصله وفصله, فضمَّتْهُ حيّاً على ظهرها, وميتاً في بطنها, وجُعلت له طهوراً ومسجداً. فأُمِر بالسجود, إذ هو غاية خشوع الظاهر, وأجمعُ العبوديةِ لسائر الأعضاء, فيعفّر وجهه في التراب؛ استكانةً وتواضعاً وخضوعاً وإلقاء باليدين.

وقال مسروق لسعيد بن جبير: ما بقي شيء يُرغب فيه؛ إلا أن نُعفّر وجوهنا في التراب له. وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا يتّقِي الأرض بوجهه قصداً, بل إذا اتفق له ذلك فعله. ولذلك سجد في الماء والطين (البخاري: ٨١٣, مسلم: ١١٦٧) ولهذا كان من كمال السجود الواجب؛ أن يسجد على الأعضاء السبعة؛ الوجه واليدين والركبتين وأطراف القدمين,

فهذا فرض أمر الله به رسوله صلى الله عليه وسلم, وبلّغه الرسولُ لأمته. ومن كماله الواجب أو المستحب؛ مباشرةُ مُصَلّاهُ بِأَدِيمِ وجهه, واعتماده على الأرض, بحيث ينالها ثقل رأسه, وارتفاع أسافله على أعاليه, فهذا من تمام السجود. ومن كماله؛ أن يكون على هيئةٍ يأخذُ فيها كلُّ عضوٍ من البدن بحظه من الخضوع, فيقلّ بطنه عن فخذيه, وفخذيه عن ساقيه, ويجافي عضديه عن جنبيه, ولا يفرشهما على الأرض؛ ليستقل كل عضو منه بالعبودية.

ولذلك إذا رأى الشيطان ابن آدم ساجداً لله؛ اعتزل ناحية يبكي, ويقول: "يا ويله! أُمِرَ ابن آدم بالسجود؛ فسجد, فله الجنة. وأمرتُ بالسجود؛ فعصيتُ, فلي النار". (مسلم: ٨١) ولذلك أثنى الله سبحانه على الذين يخرون سُجَّداً عند سماع كلامه, وذمّ من لا يقع ساجداً عنده, ولذلك كان قول من أوجبه قوياً في الدليل. ولما علمت السحرةُ صدق موسى وكذب فرعون؛ خرّوا سجداً لربهم, فكانت تلك السجدة أول سعادتهم وغفران ما افنوا فيه أعمارهم من السحر. ولذلك أخبر سبحانه عن سجود جميع المخلوقات له, فقال تعالى: "ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون . يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون" (النحل: ٤٩ ـ ٥٠) فأخبر عن إيمانهم بعلوّه وفوقيته,

وخضوعهم له بالسجود تعظيماً وإجلالاً. وقال تعالى: " ألم تر أن الله يسجد له من السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء" (الحج: ١٨) فالذي حقّ عليه العذاب هو الذي لا يسجد له سبحانه, وهو الذي أهانه بترك السجود له.

ولما كانت العبودية غاية كمال الإنسان, وقُربهُ من الله بحسب نصيبه من عبوديته, وكانت الصلاة جامعة لمتفرّق العبودية, متضمنة لأقسامها؛ كانت أفضل أعمال العبد, ومنزلتها من الإسلام بمنزلة عمود الفسطاط منه, وكان السجود أفضل أركانها الفعليّة, وسرُّها الذي شُرعت لأجله؛ كان تكرّره في الصلاة أكثر من تكرّر سائر الأركان, وجُعل خاتمة الركعة وغايتها, وشُرع فعله بعد الركوع, فإن الركوع توطئة له ومُقدّمةٌ بين يديه, وشُرع فيه من الثناء على الله ما يناسبه, وهو قول العبد: "سبحان ربي الأعلى" فهذا أفضل ما يُقال فيه, ولم يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم أمرٌ في السجود بغيره, حيث قال: "اجعلوها في سجودكم"(أبو داود: ٨٦٩ وضعفه الألباني) ومن تركه عمداً؛ فصلاته باطلة عند كثير من العلماء, منهم الإمام احمد وغيره؛ لأنه لم يفعل ما أُمِرَ به. وكان وصفُ الرب بالعلو في هذه الحال في غاية

المناسبة لحال الساجد, الذي قد انحط إلى السُّفْلِ على وجهه, فذكر علوَّ ربِّهِ في حال سقوطه, كما ذكر عظمته في حال خضوعه في ركوعه, ونزّه ربَّهُ عما لا يليق به, مما يضاد عظمته وعلوّه.

ثم لما شُرِع السجود بوصف التكرار, لم يكن بدٌّ من الفصل بين السجدتين, ففصل بينهما بركن مقصود, شُرِع فيه من الدعاء ما يليق به ويناسبه, وهو سؤال العبد المغفرة والرحمة والهداية والعافية والرزق (الحاكم, ووافقه الذهبي: ١/٢٦٢) فإن هذه تتضمن جلب خير الدنيا والآخرة, ودفع شر الدنيا والآخرة, فالرحمة تُحَصِّلُ الخير, والمغفرة تقي الشر, والهداية توصل إلى هذا وهذا, والرزق إعطاء ما به قوام البدن من الطعام والشراب, وما به قوام الروح والقلب من العلم والإيمان. وجُعِلَ جلوسُ الفصلِ محلًّا لهذا الدعاء؛ لما تقدّمه من رحمة الله والثناء عليه والخضوع له, فكان هذا وسيلة للداعي, ومقدّمة بين يدي حاجته. فهذا الركن مقصود, والدعاء فيه مقصود, فهو ركن وضع للرغبة وطلب العفو والمغفرة والرحمة, فإن العبد لما أتى بالقيام والحمد والثناء والمجد, ثم أتى بالخضوع وتنزيه الرب وتعظيمه, ثم عاد إلى الحمد والثناء, ثم كّمل ذلك بغاية التذلل والخضوع والاستكانة, بقي سؤالُ حاجتِهِ واعتذاره وتنصّله؛ فشُرِع له أن يتمّثل في العبادة, فيقعد قعود

العبد الذليل, جاثياً على ركبتيه كهيئة الملقي نفسه بين يدي سيده, راغباً راهباً, معتذراً إليه, مستعدياً إليه على نفسه الأمارة بالسوء. ثمّ شرع له تكرير هذه العبودية مرّة بعد مرّة, إلى إتمام الأربع, كما شرع له تكرير الذّكر مرّة بعد مرّة؛ لأنه أبلغُ في حصول المقصود, وأدعى إلى الاستكانة والخضوع, فلما أكمل ركوع الصلاة وسجودها وقراءتها وتسبيحها وتكبيرها؛ شُرِع له أن يجلس في آخر صلاته جلسة المتخشّع المتذلّل المستكين, جاثياً على ركبتيه, ويأتي في هذه الجلسة بأكمل "التَّحِيَّاتِ" وأفضلها, عوضاً عن تحيّة المخلوق للمخلوق إذا واجهه أو دخل عليه, فإن الناس يحيّون ملوكهم وأكابرهم بأنواع التحيات التي يتحببون بها إليهم, فتحيّاتهم بينهم تتضمّنُ ما يحبُّهُ المُحَيَّى من الأقوال والأفعال. والمشركون يحيّون أصنامهم, قال الحسن: كان أهل الجاهلية يتمسّحون بأصنامهم, ويقولون: لك الحياة الدائمة. فلما جاء الإسلام أُمروا أن يجعلوا أطيب تلك التحيات وأزكاها وأفضلها لله. فالتحيّة: هي تحيّةُ من العبد للحيّ الذي لا يموت, وهو سبحانه أولى بتلك التحيّات من كل ما سواه, فإنها تتضمنُ الحياةَ والبقاء والدوام, ولا يستحقّ أحدٌ هذه التّحيّات إلا الحيّ الباقي, الذي لا يموت, ولا يزول ملكه.

وكذلك قوله: "والصّلوات" فإنه لا يستحق أحدٌ الصلاة إلا الله عز و جل, والصلاة لغيره من أعظم الكفر والشرك به.

وكذلك قوله: "والطّيّبات" وهي: صفة الموصوف المحذوف, أي: الطيبات من الكلمات والأفعال والصفات والأسماء لله وحده, فهو طيَّبٌ, وأفعاله طيّبة, وصفاته أطيب شيء, وأسماؤه أطيب الأسماء, واسمه الطَّيِّب, ولا يصدر عنه إلا طيّب, ولا يصعد إليه إلا طيّب, ولا يقرب منه إلا طيّب, وإليه يصعد الكلم الطيّب, وفعله طيّب, والعمل الطيّب يعرج إليه, فالطيّبات كلّها له, ومضافةٌ إليه, وصادرةُ عنه, ومنتهية إليه. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله طيّب لا يقبل إلا طيّباً" (مسلم: ١٠١٥) ولا يجاوره من عبادة إلا الطيّبون, كما يُقال لأهل الجنة: "سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين" (الزمر: ٧٣) وقد أحكم سبحانه شرعه وقدره؛ أن الطيّبات للطيبين, فإذا كان هو سبحانه الطيّب على الإطلاق؛ فالكلماتُ الطيّباتُ, والأفعال الطيبات, والصفات الطيبات, والأسماء الطيبات؛ كلُّها له سبحانه, لا يستحقّها أحدٌ سواه. بل ما طاب شيء قط إلا بطيبته سبحانه, فطيب كل ما سواه من آثار طيبته, ولا تصلح هذه التحية الطيّبة إلا له.

ولما كان "السّلام" من أنواع التحية, وكان المسلِّم داعياً لمن يحييه, وكان الله سبحانه هو الذي يُطلبُ منه السلام لعباده الذين اختصهم بعبوديته, وارتضاهم لنفسه؛ شُرِع أن يبدأ بأكرمهم عليه وأحبّهم إليه, وأقربهم منه منزلة في هذه التحيّة, صلوات الله وسلامه عليه.

ثم خُتمت هذه التحيّة بـ"الشهادتين" اللتين هما مفتاح الإسلام, فشُرِع أن يكون خاتمة الصلاة, فَدَخَلَ فيها بالتكبير والحمد والثناء والتمجيد وتوحيد الربوبية والإلهية, وَخَتَمَهَا بشهادة أن لا إله إلا الله, وأن محمداً عبده ورسوله. وشُرعت هذه التحية في وسط الصلاة إذا زادت على ركعتين, تشبيهاً لها بجلسة الفصل بين السجدتين, وفيها مع الفصل راحة للمصلي؛ لاستقباله الركعتين الآخرتين بنشاط وقوّة, بخلاف ما إذا والى بين الركعات.

وجُعِلَتْ كلمات التّحيات في آخر الصلاة, بمنزلة خُطبةِ الحاجة أمامها, فإن المصلي إذا فرغ من صلاته؛ جلس جلسة الرّاغب الراهب, يستعطي من ربه ما لا غنى به عنه, فشُرِع له أمام استعطائه كلمات التحيات, مقدمة بين يدي سؤاله, ثم يتبعها بالصلاة على من نالت أمته هذه النعمة على يده. فكأنّ المصلّي توسّل إلى الله سبحانه بعبوديته, ثم بالثناء عليه والشهادة له

بالوحدانية, ولرسوله بالرسالة, ثم الصلاة على رسوله, ثم قيل له: تخيّر من الدعاء أحبه إليك, فذاك الحقّ الذي عليك, وهذا الحق الذي لك.

وشُرعت الصلاة على آله مع الصلاة عليه؛ تكميلاً لقرّةِ عينه, بإكرام آله والصلاة عليهم, وأن يصلي عليه وعلى آله, كما صلي على أبيه إبراهيم وآله. والأنبياء كلُّهم بعد إبراهيم من آله, ولذلك كان المطلوب لرسول الله صلاةً مثل الصلاة على إبراهيم وعلى جميع الأنبياء بعده وآله المؤمنين. فلهذا كانت هذه الصلاة أكمل ما يصلي على رسول الله بها وأفضل.

فإذا أتى بها المصلي أُمر أن يستعيذ بالله من مجامع الشرّ كلّه, فإن الشر؛ إما عذاب الآخرة, وإما سببه, فليس الشر إلا العذاب وأسبابه. والعذاب نوعان: عذاب في البرزخ, وعذاب في الآخرة, وأسبابه الفتنة, وهي نوعان؛ كبرى وصغرى, فالكبرى: فتنة الدجال وفتنة الممات, والصغرى: فتنة الحياة التي يمكن تداركها بالتوبة, بخلاف فتنة الممات وفتنة الدجال, فإن المفتون فيهما لا يتداركهما.

ثم شُرِع له من الدعاء ما يختاره من مصالح دنياه وآخرته, والدعاء في هذا المحلّ قبل السلام أفضل من الدعاء بعد السلام, وأنفع للداعي. وهكذا كانت عامّة أدعية النبي صلى الله عليه وسلم كلّها كانت في الصلاة من أولها

إلى آخرها, فكان يدعو في الاستفتاح أنواعاً من الدعاء, وفي الركوع, وبعد رفع رأسه منه, وفي السجود, وبين السجدتين, وفي التشهد قبل التسليم, وعلّم الصديق دعاءً يدعوا به في صلاته, وعلّم الحسن بن علي دعاء يدعو به في قنوت الوتر, وكان إذا دعا لقوم أو على قوم جعله في الصلاة بعد الركوع. ومن ذلك أن المصلي قبل سلامه في محلّ المناجاة والقربة بين يدي ربه, فسؤاله في هذا الحال أقرب إلى الإجابة من سؤاله بعد انصرافه من بين يديه. وقد سُئل النبي صلى الله عليه وسلم: أي الدعاء أسمع؟ فقال: "جوف الليل, وأدبار الصلوات المكتوبة" (الترمذي: ٣٤٩٤ بسند صحيح) وَدُبُرَ الصلاةِ جزؤها الأخير.

ثمّ خُتمت بـ"التّسليم" وجُعل تحليلاً لها, يَخرجُ به المصلي منها. وجُعل هذا التحليل دعاء الأمام لمن وراءه بالسلامة, التي هي أصل الخير وأساسه, فشُرِع لمن وراءه أن يتحلّل بمثل ما تحلّل به الإمام, وفي ذلك دعاء له وللمصلين معه بالسلام, ثم شُرِع ذلك لكلّ مصلٍّ وإن كان منفرداً, فلا أحسن من هذا التحليل للصلاة, وكما أنه لا أحسن من كون التكبير تحريماً لها, فتحريمها تكبير الرّبِّ تعالى, والجامع لإثبات كلّ كمال له, وتنزيهه عن كلّ نقص وعيب, وإفراده وتخصيصه بذلك, وتعظيمه وإجلاله. فالتكبير

يتضمّن تفاصيل أفعال الصلاة وأقوالها وهيئاتها, فالصلاة من أولها إلى آخرها تفصيلٌ لمضمون "الله أكبر" وأي تحريمٍ أحسنَ من هذا التحريم المتضمن للإخلاص والتوحيد, وهذا التحليل المتضمّن الإحسان إلى إخوانه المؤمنين؟ فافتُتِحَتْ بالإخلاص, وخُتِمَتْ بالإحسان".

وصلى الله وسلّم وبارك وأنعم على البشير النذير, والسراج المنير, ما تعاقبت الأزمان والدهور, وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان.

١١/رمضان/١٤٣٣

http://aldumaiji.blogs

يَا طُوبَى لِلشَّامِ!

الحمد لله الذي فضل بعض البلدان واختارها, وقدّم بعض البقاع واصطفاها, وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له, وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وخيرته ومصطفاه, صلى الله عليه وعلى آله وصحبه, وبعد:

فلقد تربّعت الشام على أفئدة المؤمنين, وسكنتها قلوب الصالحين, ودرجت عليها نفوس الأنبياء والمرسلين, فهي سيّدةُ البقاع بعد الحرمين, وإليها موئل الإيمان ومأرز الجهاد في آخر الأيام, وفيها عسكر الإيمان ومهاجر جند الإسلام قبل نهاية الزمان, ولعلّ شدة المخاض في هذه الأيام في غالية الإسلام سوريا أمارات لذلك الأمر الجليل.

فَيَا رَبِّ هَل إلاَّ بِكَ النَّصرُ يُبتَغَى وَيَا رَبِّ هَل إلاَّ عَلَيكَ المُعَوَّلُ

وفي هذا المقال وقفات مختصرة لإجلاء بعض تيك الفضائل وتنويهاً بصلاح أهلها في آخر سِنِيّ الدنيا.

كتب شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه (مناقب الشام وأهله): "ثبت للشام وأهله مناقب بالكتاب والسنة وآثار العلماء, وهي أحد ما اعتمدته في

تحضيضي على غزو التتار، وأمري لهم بلزوم دمشق، ونهيي لهم عن الفرار إلى مصر، واستدعائي للعسكر المصري إلى الشام، وتثبيت العسكر الشامي فيه، وقد جرت في ذلك فصول متعددة.

وهذه المناقب أمور: أحدها البركة فيه، ثبت ذلك بخمس آيات من كتاب الله تعالى:

الأولى: قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام: "وأورثنا القومَ الذين كانوا يُستضعفونَ مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمّت كلمةُ ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا " (الأعراف: ١٢٩-١٣٧) ومعلوم أن بني إسرائيل إنما أورثوا مشارق أرض الشام ومغاربها بعد أن أغرق فرعون في اليم.

الثانية: قوله تعالى: "سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير" (الإسراء: ١) وهي أرض الشام.

الثالثة: قوله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام: "وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين. ونجّيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين" (الأنبياء:

٧٠-٧١) ومعلوم أن إبراهيم إنما نجاه الله ولوطاً إلى أرض الشام من أرض الجزيرة والعراق.

الرابعة: قوله تعالى: "ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين" (الأنبياء: ٨١) وإنما كانت تجري إلى أرض الشام التي فيها مملكة سليمان.

الخامسة: قوله تعالى في قصة سبأ: "وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرىً ظاهرة وقدّرنا فيها السير سيروا فيها ليالَ وأياماً آمنين" (سبأ: ١٨) وهو ما كان بين اليمن وبين قرى الشام من العمارة القديمة كما ذكره العلماء.

فهذه خمسة نصوص حيث ذكر الله أرض الشام، في هجرة إبراهيم إليها، ومسرى الرسول إليها، وانتقال بني إسرائيل إليها، ومملكة سليمان بها، ومسير سبأ إليها، وصفها بأنها الأرض التي باركنا فيها.

وأيضاً ففيها الطور الذي كلم الله عليه موسى والذي أقسم الله به في سورة الطور، وفي سورة التين "والتين والزيتون. وطور سينين" (التين: ١-٢) وفيها المسجد الأقصى، وفيها مبعث أنبياء بني إسرائيل، وإليها هجرة إبراهيم، وإليها معراج ومسرى نبينا صلى الله عليه وسلم، ومنها معراجه، وبها

مُلكه، وعمود دينه وكتابه، والطائفة المنصورة من أمته، وإليها المحشر والمعاد, كما أن من مكة المبدأ، فمكة أم القرى من تحتها دحيت الأرض.

والشام إليها يحشر الناس كما في قوله تعالى: "لأول الحشر" (الحشر: ٣) نبّه على الحشر الثاني، فمكة مبدأ وإيلياء معاد في الخلق، وكذلك بدأ الأمر؛ فإنه أسرى بالرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى إيلياء، ومبعثه ومخرج دينه من مكة، وكمال دينه وظهوره وتمامه حتى يملكه المهدي بالشام. فمكة هي الأول، والشام هي الآخر في الخلق والأمر، في الكلمات الكونية والدينية.

ومن ذلك أن بها الطائفة المنصورة إلى قيام الساعة, التي ثبت فيها الحديث في الصحاح من حديث معاوية وغيره: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة" وفيهما عن معاذ بين جبل قال: "وهم بالشام". وفي تاريخ البخاري مرفوعاً قال: "وهم بدمشق". وفي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا يزال أهل الغرب ظاهرين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة".

وقال أحمد بن حنبل: أهل المغرب هم أهل الشام. وهو كما قال لوجهين... فما كان غربي الفرات فهو غربي المدينة، وما كان ثَمّ شرقيها فهو شرقي المدينة. فأخبر صلى الله عليه وسلم أن أهل الغرب لا يزالون ظاهرين، وأما أهل الشرق فقد يظهرون تارة، ويُغلَبون أخرى، وهكذا هو الواقع، فإن الجيش الشامي ما زال منصوراً. وكان أهل المدينة يسمون الأوزاعي: إمام أهل الغرب، ويسمون الثوري شرقياً، ومن أهل الشرق.

ومن ذلك أنها خيرة الله الأرض، وأن أهلها خيرة الله وخيرة أهل الأرض، واستدل أبو داود في سننه على ذلك بحديث كثير مثل؛ حديث عبد الله بن حوالة الأزدي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "ستجندون أجناداً؛ جنداً بالشام، وجنداً باليمن، وجنداً بالعراق". فقال الحوالي: يا رسول الله، اخترْ لي. قال: "عليك بالشام، فإنها خيرة الله من أرضه، يجتبي إليها حزبه من عباده، فمن أبي فليلحق بيمنه، وليَسْقِ من غُدُرِهِ، فإن الله تكفّل لي بالشام وأهله"(٢) وكان الحوالي ـراوي الحديثـ يقول: من تكفّل الله به فلا ضيعة عليه.... وحديث عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قل: "سيكون هجرة بعد هجرة، فخيار أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم، ويبقى في الأرض شرار أهلها تلفظهم أرضوهم،

وتقذرهم نفس الرحمن، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير, تبيت معهم حيثما كانوا، وتقيل معهم حيثما قالوا" فقد أخبر أن خيار أهل الأرض من ألزمهم مهاجر إبراهيم، بخلاف من يأتي إليه ثم يذهب عنه، ومهاجر إبراهيم هي الشام. وفي هذا الحديث بشرى لأصحابنا الذين هاجروا من حرّان وغيرها إلى مهاجر إبراهيم، واتبعوا ملة إبراهيم، ودين نبيهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم, وبيان أن هذه الهجرة التي لهم بعد هجرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة، لأن الهجرة إلى حيث يكون الرسول وآثاره، وقد جعل مهاجر إبراهيم تعدل مهاجر نبينا صلى الله عليه وسلم، فإن الهجرة إلى مهاجره انقطعت بفتح مكة.

ومن ذلك أن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها على الشام، كما في الصحيح من حديث عبد الله بن عمر.

ومن ذلك أن عمود الكتاب والإسلام بالشام كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "رأيتُ كأن عمود الكتاب أخِذ من تحت رأسي، فأتبعتُه بصري فذُهِب به إلى الشام"...ومن ذلك أنها عقر دار المؤمنين، كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "وعقر دار المؤمنين بالشام" ولهذا استدللتُ لقوم من قضاة القضاة وغيرهم في فتن قام فيها علينا قوم من أهل الفجور والبدع

الموصوفين بخصال المنافقين، لما خوّفونا منهم، فأخبرتُهم بهذا الحديث: "وأن منافقينا لا يغلبوا مؤمنين" وقد ظهر مصداق هذه النصوص النبوية على أكمل الوجوه في جهادنا للتتار، وأظهر الله للمسلمين صدق ما وعدناهم به، وبركة ما أمرناهم به، وكان ذلك فتحاً عظيماً ما رأى المسلمون مثله، مثل صرح مملكة التتار التي أذلت أهل الإسلام، فإنهم لم يهزَموا أو يُغلَبوا كما غُلِبوا على باب دمشق في الغزوة الكبرى التي أنعم الله علينا فيها من النعم بما لا نحصيه خصوصاً وعموماً"(٣).

وقال رحمه الله: "والنبي صلى الله عليه وسلم ميَّز أهل الشام بالقيام بأمر الله دائماً إلى آخر الدهر، وبأن الطائفة المنصورة فيهم إلى آخر الدهر، فهو إخبار عن أمر دائم مستمر فيهم مع الكثرة والقوة، وهذا الوصف ليس لغير أهل الشام من أرض الإسلام، فإن الحجاز التي هي أصل الإيمان نقص في آخر الزمان منها: العلم والإيمان، والنصر والجهاد، وكذلك اليمن والعراق والمشرق، وأما الشام فلم يزل فيها العلم والإيمان، ومن يقاتل عليه منصوراً مؤيداً في كل وقت"(٤).

وكم بالشام من شرف وفضل ومرتقب لدى برّ وبحر

بلاد بـارك الرحـمن فيـــها فقدّسها على علم وخبر

قال الحسن وقتادة رحمها الله تعالى: إن الأرض "التي باركنا فيها": هي الشام, وقال قتادة: هي الشام وقد أُنجي إبراهيم ولوط عليهما السلام من العراق إلى الشام, وكان يقال للشام عماد دار الهجرة، وما نقص من الأرض زيد في الشام، وما نقص في الشام زيد في فلسطين، وكان يقال: هي أرض المحشر والمنشر، وبها مجمع الناس، وبها ينزل عيسى بن مريم، وبها يهلك الله شيخ الضلالة الكذَّاب الدجال (٥) وقال ابن جرير رحمه الله: "هي أرض الشام، وإنما اخترنا ما اخترنا من القول في ذلك لأنه لا خلاف بين جميع أهل العلم أن هجرة إبراهيم من العراق كانت إلى الشام، وبها كان مقامه أيام حياته، وإن كان قد كان قدم مكة، وبنى بها البيت، وأسكنها إسماعيل ابنه مع أمه هاجر، غير أنه لم يقم بها، ولم يتخذها وطناً لنفسه، ولا لوط، والله إنما أخبر عن إبراهيم ولوط أنهما أنجاهما إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين (٧).

قال الخطابي: فالهجرة الثابتة هي الهجرة إلى الشام يرغب فيها خيار الناس، وهي مهاجر إبراهيم صلى الله على نبينا وعليه وعلى آلهما وسلم (٨).

وقال ابن رجب الحنبلي: واعلم أن البركة في الشام تشمل البركة في أمور الدين والدنيا، ولهذا سميت الأرض المقدسة (٩).

وعند أحمد والطبراني وابن حبان والترمذي وحسنه والحاكم وصححه ووافقه الذهبي عن زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "يا طوبى للشام! يا طوبى للشام! يا طوبى للشام! قالوا: يا رسول الله ولم ذلك؟ قال: تلك ملائكة الله باسطو أجنحتها على الشام".

وفي الصحيحين عنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّه صلى الله عليه وسلم قال: "اللهم بارك لنا في شامنا اللهم بارك لنا في يمننا..."

وعند أحمد والترمذي والحاكم بسند صحّحه الألباني عن معاوية بن حيدة رضي الله قَالَ: قلت: يا رسول الله أين تأمرني؟ وفي رواية (خِرْ لِي) قال: "ها هنا" ونحا بيده نحو الشام, قال: "إنكم محشورون رجالاً وركباناً وتُجَرّون على وجوهكم".

وعند أحمد بسند حسّنه الألباني عن أبي أمامة الباهلي قال: "لا تقوم الساعة حول خيار أهل العراق إلى الشام، ويتحول شرار أهل الشام إلى العراق، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"عليكم بالشام".

وعند ابن ماجه والحاكم بسند صححه الألباني عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إذا وقعت الملاحم بعث الله من دمشق بعثاً من الموالي أكرم العرب فرسا وأجودهم سلاحا يؤيد الله بهم الدين".

وعند أحمد وأبي داود والحاكم بسند صححه الذهبي والمنذري والألباني عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال": فسطاط المسلمين يوم الملحمة بالغوطة إلى جانب مدينة يقال لها: دمشق، من خير مدائن الشام" وفي رواية " يوم الملحمة الكبرى، فسطاط المسلمين بأرض يقال لها: الغوطة، فيها مدينة يقال لها: دمشق خير منازل المسلمين يومئذ".

وعند أحمد ومسلم وغيرهما عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ينزل عيسى بن مريم عليه السلام عند المنارة البيضاء شرقي دمشق".

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قلت يا نبي الله! ما كان أوّل بدء أمرك؟ قال: "دعوة أبي إبراهيم, وبشرى عيسى, ورأت أُمّي أنه يخرج منها نور أضاءت منها قصور الشام".

قال ابن كثير (١٠): "وتخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه، ونبوته ببلاد الشام، ولهذا تكون الشام في آخر الزمان معقلاً للإسلام وأهله، وبها ينزل عيسى ابن مريم".

وعند أحمد والترمذي واللفظ له عن قُرَّة رضي الله عنه قال: قال رسول الله: "إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم، لا تزال طائفة من أمتي منصورين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة".

وعند الطبراني بسند صححه الألباني عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "عليكم بالشام, فإنها صفوة بلاد الله, يسكنها خيرته من خلقه".

وروى البزار عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " بينا أنا نائم رأيت عمود الكتاب احتمل من رأسي فظننت أنه مذهوب به فأتبعته بصري فعمد به إلى الشام ألا وإن الإيمان حين تقع الفتن بالشام".

وفي فضائل الشام ودمشق بسند صححه الألباني عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في

بناء له, فسلمت عليه, فقال: "عوف" قلت: نعم يا رسول الله, قال: " ادخل" فقلت: كلي أم بعضي؟ قال: " بل كلك" قال: فقال لي: " اعدد عوف ستا بين يدي الساعة أولهن موتي" قال: فاستبكيت حتى جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يسكتني قال: "قل إحدى والثانية فتح بيت المقدس قل اثنين والثالثة فتنة تكون في أمتي وعظمها والرابعة موتان يقع في أمتي يأخذهم كقعاص الغنم والخامسة يفيض المال فيكم فيضا حتى أن الرجل ليعطى المائة دينار فيظل يسخطها قل خمسا والسادسة هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر يسيرون إليكم على ثمانين راية تحت كل راية ثمانين ألفا فسطاط المسلمين يومئذ في أرض يقال لها الغوطة فيها مدينة ويقال لها دمشق".

ونقف عند فتوى جامعة للشيخ الشامي الجامع شيخ الإسلام رحمه الله حينما سُئل: ما تقول السادة الفقهاء أئمة الدين؟ هل تفضل الإقامة في الشام على غيره من البلاد؟ وهل جاء في ذلك نص في القرآن أو الأحاديث أم لا؟ أجيبونا مأجورين. فأجاب رحمه الله: "الحمد لله، الإقامة في كل موضع تكون الأسباب فيه أطوع لله ورسوله، وأفعل للحسنات والخير، بحيث يكون أعلم بذلك، وأقدر عليه، وأنشط له أفضل من الإقامة في موضع يكون حاله فيه في طاعة الله ورسوله دون ذلك. هذا هو الأصل الجامع، فإن

أكرم الخلق عند الله أتقاهم. والتقوى هي ما فسرها الله تعالى في قوله: "وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ" إلى قوله: "أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ" [البقرة:٢٢٠]، وجماعها فعل ما أمر الله به ورسوله، وترك ما نهى الله عنه ورسوله. وإذا كان هذا هو الأصل فهذا يتنوع بتنوع حال الإنسان. فقد يكون مقام الرجل في أرض الكفر والفسوق من أنواع البدع والفجور أفضل؛ إذا كان مجاهدا في سبيل الله بيده أو لسانه، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، بحيث لو انتقل عنها إلى أرض الإيمان والطاعة لقلت حسناته، ولم يكن فيها مجاهدا، وإن كان أروح قلباً, وكذلك إذا عدم الخير الذي كان يفعله في أماكن الفجور والبدع.

ولهذا كان المقام في الثغور بنية المرابطة في سبيل الله تعالى، أفضل من المجاورة بالمساجد الثلاثة باتفاق العلماء؛ فإن جنس الجهاد أفضل من جنس الحج، كما قال تعالى: "أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللّهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ" [التوبة: ١٩، ٢٠]. وسئل النبي صلى الله عليه وسلم: أي الأعمال أفضل؟ قال: "إيمان بالله ورسوله، وجهاد في سبيله" قال: ثم ماذا؟ قال: "حج مبرور".

وهكذا لو كان عاجزا عن الهجرة والانتقال إلى المكان الأفضل التي لو انتقل إليها لكانت الطاعة عليه أهون، وطاعة الله ورسوله في الموضعين واحدة، لكنها هناك أشق عليه. فإنه إذا استوت الطاعتان فأشقهما أفضلهما، وبهذا ناظر مهاجرة الحبشة المقيمون بين الكفار لمن زعم أنه أفضل منهم، فقالوا: كنا عند البغضاء البعداء، وأنتم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم: يعلم جاهلكم، ويطعم جائعكم، وذلك في ذات الله.

وأما إذا كان دينه هناك أنقص فالانتقال أفضل له، وهذا حال غالب الخلق، فإن أكثرهم لا يدافعون، بل يكونون على دين الجمهور ... وأما الفضيلة الدائمة في كل وقت ومكان ففي الإيمان والعمل الصالح، كما قال تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ"[البقرة: ٦٢]. وقال تعالى: "وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ" [البقرة:١١١، ١١٢]. وقال تعال: "وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً" [النساء: ١٢٥]. وإسلام الوجه لله تعالى هو إخلاص القصد والعمل له

والتوكل عليه .....فلا ينبغي للرجل أن يلتفت إلى فضل البقعة في فضل أهلها مطلقا، بل يعطى كل ذي حق حقه، ولكن العبرة بفضل الإنسان في إيمانه وعمله الصالح والكلم الطيب، ثم قد يكون بعض البقاع أعون على بعض الأعمال كإعانة مكة حرسها الله تعالى على الطواف والصلاة المضعفة ونحو ذلك. وقد يحصل في الأفضل معارض راجح يجعله مفضولاً؛ مثل من يجاور بمكة مع السؤال والاستشراف، والبطالة عن كثير من الأعمال الصالحة، وكذلك من يطلب الإقامة بالشام لأجل حفظ ماله وحرمة نفسه، لا لأجل عمل صالح، فالأعمال بالنيات" (١١).

إنّها الشام, مشى على ثراها كرام المرسلين كمحمد وإبراهيم وموسى وعيسى وأنبياء بني إسرائيل, ووصلتها طلائع الأمة الحمّادة المرحومة فاتحة مظفرة منصورة منهم عشرة آلاف من الأصحاب مئة منهم من البدريين. قال الوليد بن مسلم: دخلت الشام عشرة آلاف عين رأت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم تكسّرت على سواعد بواسلها حملات الصليب طوال مئتي عام, فلله هم من حُمَاةٍ للدين, رحم الله أسلافهم, وحفظ الأحياء.

ختاماً، يا أهلنا في الشام اللهَ اللهَ في الاعتصام بحبل الله وإخلاص الدين له, وفي التزام أسباب النصر, وفي تحقيق التوكل على الله والبراءة من الحول والقوة إلا به, مع الأخذ بالمباح من الأسباب "يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم"(محمد: ٧) " إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد" (غافر:٥١) وفي الاجتماع على الحق "وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين" (الأنفال: ٤٦) وفي الأخذ بأسباب التمكين, ومن كان الله معه فمعه القوة التي لا تُغلب, ومن آوى إليه فقد آوى إلى ركن شديد.

ورحم الله شوقي حين صَدَحَ:

سَلامٌ مِن صَبا بَرَدى أَرَقُّ ... وَدَمعٌ لا يُكَفكَفُ يا دِمَشقُ

وَمَعذِرَةُ اليَراعَةِ وَالقَوافي ... جَلالُ الرُزءِ عَن وَصفٍ يَدِقُّ

وَذِكرى عَن خَواطِرِها لِقَلبي ... إِلَيكِ تَلَفُّتٌ أَبَدًا وَخَفقُ

دَخَلتُكِ وَالأَصيلُ لَهُ ائتِلاقٌ ... وَوَجهُكِ ضاحِكُ القَسَماتِ طَلقُ

وَتَحتَ جِنانِكِ الأَنهارُ تَجري ... وَمِلءُ رُباكِ أَوراقٌ وَوُرْقُ

غَمَزتُ إِباءَهُمْ حَتّى تَلَظَّتْ ... أُنوفُ الأُسدِ وَاضطَرَمَ المَدَقُّ

وَضَجَّ مِنَ الشَكيمَةِ كُلُّ حُرٍّ أَبِيٍّ مِن أُمَيَّةَ فيهِ عِتقُ

تَكادُ لِرَوعَةِ الأَحداثِ فيها تُخالُ مِنَ الخُرافَةِ وَهيَ صِدقُ

وَقيلَ مَعالِمُ التاريخِ دُكَّتْ وَقيلَ أَصابَها تَلَفٌ وَحَرقُ

أَلَستِ دِمَشقُ لِلإِسلامِ ظِئرًا وَمُرضِعَةُ الأُبُوَّةِ لا تُعَقُّ

سَماؤُكِ مِن حُلى الماضي كِتابٌ وَأَرضُكِ مِن حُلى التاريخِ رَقُّ

بَنَيتِ الدَولَةَ الكُبرى وَمُلكًا غُبارُ حَضارَتَيهِ لا يُشَقُّ

لَهُ بِالشامِ أَعلامٌ وَعُرسٌ بَشائِرُهُ بِأَندَلُسٍ تَدُقُّ

رُباعُ الخُلدِ وَيحَكِ ما دَهاها أَحَقٌّ أَنَّها دَرَسَت أَحَقُّ

وَهَل غُرَفُ الجِنانِ مُنَضَّداتٌ وَهَل لِنَعيمِهِنَّ كَأَمسِ نَسَقُ

وَأَينَ دُمى المَقاصِرِ مِن حِجالٍ مُهَتَّكَةٍ وَأَستارٍ تُشَقُّ

بَرَزنَ وَفي نَواحي الأَيكِ نارٌ وَخَلفَ الأَيكِ أَفراخٌ تُزَقُّ

إِذا رُمنَ السَلامَةَ مِن طَريقٍ أَتَت مِن دونِهِ لِلمَوتِ طُرْقُ

بِلَيلٍ لِلقَذائِفِ وَالمَنايا وَراءَ سَمائِهِ خَطفٌ وَصَعقُ

إِذا عَصَفَ الحَديدُ احمَرَّ أُفقٌ عَلى جَنَباتِهِ وَاسوَدَّ أُفقُ

سَلي مَن راعَ غيدَكِ بَعدَ وَهنٍ　　أَبَينَ فُؤادِهِ وَالصَخرِ فَرقُ

إِذا ما جاءَهُ طُلّابُ حَقٍّ　　يَقولُ عِصابَةٌ خَرَجوا وَشَقّوا

بِلادٌ ماتَ فِتيَتُها لِتَحيا　　وَزالوا دونَ قَومِهِمُ لِيَبقوا

وَحُرِّرَتِ الشُعوبُ عَلى قَناها　　فَكَيفَ عَلى قَناها تُستَرَقُّ

بَني سورِيَّةَ اطَّرِحوا الأَماني　　وَأَلقوا عَنكُمُ الأَحلامَ أَلقوا

فَمِن خِدَعِ السِياسَةِ أَن تُغَرّوا　　بِأَلقابِ الإِمارَةِ وَهيَ رِقُّ

وَكَمْ صَيَدٍ بَدا لَكَ مِن ذَليلٍ　　كَما مالَتْ مِنَ المَصلوبِ عُنُقُ

فُتوقُ المُلكِ تَحدُثُ ثُمَّ تَمضي　　وَلا يَمضي لِمُختَلِفينَ فَتقُ

نَصَحتُ وَنَحنُ مُختَلِفونَ دارًا　　وَلَكِن كُلُّنا في الهَمِّ شَرقُ

وَيَجمَعُنا إِذا اختَلَفَت بِلادٌ　　بَيانٌ غَيرُ مُختَلِفٍ وَنُطقُ (١٢)

وَقَفتُمْ بَينَ مَوتٍ أَو حَياةٍ　　فَإِن رُمتُمْ نَعيمَ الدَهرِ فَاشْقَوا

وَلِلأَوطانِ في دَمِ كُلِّ حُرٍّ　　يَدٌ سَلَفَت وَدَينٌ مُستَحِقُّ

وَمَن يَسقى وَيَشرَبُ بِالمَنايا　　إِذا الأَحرارُ لَم يُسقوا وَيَسقوا

وَلا يَبني المَمالِكَ كَالضَحايا　　وَلا يُدني الحُقوقَ وَلا يُحِقُّ

فَفي القَتلى لِأَجيالٍ حَياةٌ وَفي الأَسرى فِدًى لَهُمُ وَعِتقُ

وَلِلحُرِّيَّةِ الحَمراءِ بابٌ بِكُلِّ يَدٍ مُضَرَّجَةٍ يُدَقُّ

جَزاكُمْ ذو الجَلالِ بَني دِمَشقٍ وَعِزُّ الشَرقِ أَوَّلُهُ دِمَشقُ

نَصَرتُمْ يَومَ مِحنَتِهِ أَخاكُمْ وَكُلُّ أَخٍ بِنَصرِ أَخيهِ حَقُّ

لِكُلِّ لَبوءَةٍ وَلِكُلِّ شِبلٍ نِضالٌ دونَ غايَتِهِ وَرَشقُ

أللهم نصراً عاجلاً وفتحاً مبيناً يا حي يا قيوم يا جبّار يا قهّار وأنت على كل شيء قدير, والحمد لله على كل حال, وصلى الله وسلم وبارك على محمد وآله وصحبه.

١٩/ ٤/ ١٤٣٣

....

(١) (وقد سُطرت مؤلفات عدّة في القديم والحديث حيال فضائل الشام وأهله منها: (فضائل الشام ودمشق) لأبي الحسن علي بن محمد الربعي, وخرّج المرفوع من أحاديثه الإمام الألباني رحمه الله، وخرّج وطبع معه (مناقب الشام وأهله) للإمام ابن تيمية وأكثر أحاديث هذا المقال مستفادة منه, (فضائل الشام) للحافظ أبي سعد عبدالكريم السمعاني, (فضائل الشام لابن رجب الحنبلي), (فضائل الشام) للحافظ ضياء الدين

المقدسي, (نزهة الأنام في محاسن الشام) لأبي البقاء عبد الله بن محمد البدري, (حدائق الإنعام في فضائل الشام) لعبدالرحمن بن إبراهيم بن عبدالرزاق الدمشقي, (ترغيب أهل الإسلام بسكنى الشام) تصنيف العز بن عبدالسلام, (بغية المرام في سكن المدينة والشام) لعبدالمطلب بن محمد الخطيب الحسني, (الإعلام بسن الهجرة إلى الشام) لبرهان الدين إبراهيم البقاعي وفي (تاريخ دمشق لابن عساكر) طائفة حسنة شريفة من الأحاديث والآثار في شأن الشام ولابن عبدالهادي مصنف في ذلك, وغير ذلك كثير).

(٢) قال العز ابن عبد السلام رحمه الله: وهذه شهادة من رسول الله صلى الله عليه وسلم باختيار الشام، وبفضلها وباصطفائه ساكنيها، واختياره لقاطنيها، وقد رأينا ذلك بالمشاهدة، فإن من رأى صالحي أهل الشام ونسبتهم إلى غيرهم رأى بينهم من التفاوت ما يدل على اصطفائهم واجتبائهم.

(٣) مجموع الفتاوى (٢٧: ٥٠٥_٥١١)باختصار وتصرف يسير, والرسالة مطبوعة بعنوان مناقب الشام وأهله بتخريج الإمام الألباني رحمه الله تعالى.

(٤) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام (٤/٤٤٩).

(٦) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٨: ٤٦٩).

(٧) تفسيرالطبري (١٨: ٤٧٠).

(٨) عن (إسعاد الأخصّا بذكر صحيح فضائل الشام والمسجد الأقصى) (١/١٤).

(٩) السابق (١/١٨).

(١٠) تفسير ابن كثير (١/٤٤٤).

(١١) مجموع الفتاوى (٢٧: ٣٩_ ٤٧).

(١٢) الذي يجمعنا هو دين الله لا غيره من جاهليات البشر وعصبياتهم. (هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا)، (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا).

يا من كان له قلبٌ فانقلب!

الحمد لله الملك الحق المبين, خلقنا لعبادته, وأتم علينا نعمه ظاهرة وباطنة, فالسعيد هو الشاكر حقّاً, والمخذول من سقط في سبل الردى ومتاهات الهوى, وأشهد أن لا إله إلا الله, وأشهد أن محمداً عبده ورسوله, بلّغ البلاغ المبين, وهدى إلى الصراط المستقيم, صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين, أما بعد:

فإن العبد في سيره إلى الله تعالى لا يسلم من مكائد عدوّه الشيطان الرجيم, فإنه يشمّ قلبه, فإن رأى فيه عزماً وحزماً وإقبالاً على الآخرة؛ حاول أن يدفعه للزيادة والتنطّع والإحداث في الدين. وإن رأى ارتخاءً في همّته وَضَعَةً في عزيمته ألقى في قلبه الأمن من مكر الله, ومنّاه وساقه بالأماني حتى يلقيه في لُجَجِ التسويف فتطول غيبته وتعظم خيبته, ويرجع بالخسار!

وفي المسند بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: "لكل عمل شرّة, _أي نشاط وهمّه_ ولكل

شرّة فترة ـأي كسل وفتورـ فمن كانت فترته إلى سنتي؛ فقد أفلح, ومن كانت إلى غير ذلك؛ فقد هلك".

ولا يكاد يخلو المؤمن ذكرى حسنة من عبادة كان يألفها, وذكرٍ كان يأنس به, وطاعةٍ كان ينشرح صدره بها؛ فإذا مرّت على خياله تلك الذكريات؛ وضع يده على كبده أسفاً, وخرّت على وجنته دمعة حرّى تشكى مرارات البعد عن مغاني الأنس ومواطن نعيم الأرواح إلى الوحشة والجدب وذبول أزاهير الطاعة وشُحّ ثمار العبادة, وحيل بينه وبين ما يشتهي من التوبة والأوبة من الحوبة تلو الحوبة, "واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه" و"القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن" ويا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك.

فيا من كان له قلب فانقلب, وحالٌ فاستحال, أبشر بفتح الباب للتائبين فكن في معيتهم, ولا تستوحش فلا زال في الصدر خير ما دامت روحك تتردد بين حناياك حاملة إيمانك وندمك..فازجرها بسوط موعظة, واحْدُ لها تسر.

ويا أخي لا زال حبلك واصلاً فلا تقطعه وإن اهترأ واخلولق, مادامت روحك تقعقع بين حناياك, فالبدار البدار, والوَحَا الوَحَا!

ومن مدهشات تاج الواعظين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي رحمه الله تعالى (المدهش: ٤٣٧_٤٣٩) بتصرّف واختصار: يا من كان في رفقة "تجافى" فصار اليوم في حزب أهل النوم.

يا ديار الأحباب كيف تغيّرتْ ويا عهدُ ما الذي أبلاكا

هل تولّى الذين عهدي بهم فيك على عهدهم وأين أولاكا

الذميلَ الذميلَ يا راكب إني لضمين ألا يخيب سُراكا

قد خلقت الداران لأجلك, أما الدنيا فلِتتزوّد, وأما الأخرى فلِتتوطّن. أفتراك تعرف مكانة "أذكركم" أو قيمة "يحبهم"؟!

يا من كان قريباً فطُرد, يا من فَقَد قلبَه, وعدم التحيّل في طلبه, أين الزمان الذي بان أتراه بان؟! أين القلب الصافي كان وكان؟!

يا عزيزي ما أَلِفتَ الشقاء فكيف تصبر؟ أصعب الفقر ما كان بعد الغنى, وأوحش الذلّ ما كان بعد العزّ, وأشدُّهُما العمى على الكِبَر!

سَقْياً لمنزلةِ الحمى وكثيبها إذ لا أرى زَمَناً كأزماني بها

ما أعرفُ اللذات إلا ذاكراً هيهات قد خلّفتُ أوقاتي بها

وبعد خروج الحافظ القيّم شمس الدين ابن القيّم رحمه الله من السجن فتح الله عليه بفتوح ربّانية علمية وعملية, فصنّف طريق الهجرتين ثم مدارج السالكين, وكلاهما في التوحيد وأعمال القلوب وتحقيقها.

وسنورد نصّاً شريفاً مما خطّه يراعه العظيم في كتابه طريق الهجرتين وباب السعادتين, وموضوعه الهجرة إلى الله تعالى بشهادة أن لا إله إلا الله, والهجرة إلى نبي الله صلى الله عليه وسلم بالشهادة له بالعبودية والرسالة. وقد عصر في سِفْره هذا علمه, وسكب فيه تجاربه, وأودعه تأملاته, حريّ بكل طالب علم أن يرشف منه بل يعلّ ويعبّ. وعلى جلالة قدر هذا الكتاب بين كُتبِه, إلا أن شهرته لم تلق حقّها في الذيوع, مع أنه لا يقل قامةً عن الزاد ولا الإعلام ولا المدارج تحريراً, بل لا أبعُد إذا قلت بعلوه باحتوائه على مباحث لا توجد في ما كُتب في موضوعه على الإطلاق. واعتبر ذلك بالمقارنة والتحليل..

وهذا النصّ عبارة عن مقدِّمَةٍ عن تنوع العبادات مع وحدة الطريق في عرض رائق بلفظ شيّق, ثم وصف عميق مؤثر مزلزل لكل من كان له أُنْسٌ بالخلوة بربّه, وكان قد ذاق حلاوة الإيمان فطال عليه الأمد, أو وقع في حبيلة عدوّه فتنكّب الجادة, واستوحش الطريق..

قال رحمه الله في (طريق الهجرتين:١/ ٢٧٩_٢٨٦):

الطريق إلى الله واحد, فإنه الحق المبين, والحق واحد مرجعه إلى واحد, وأما الباطل والضلال فلا ينحصر, بل كل ما سواه باطل, وكل طريق إلى الباطل فهو باطل, فالباطل متعدد وطرقه متعددة, وأما ما يقع في كلام بعض العلماء أن الطريق إلى الله متعددة متنوعة, جعلها الله كذلك لتنوع الاستعدادات واختلافها رحمة منه وفضلا؛ فهو صحيح لا ينافي ما ذكرناه من وحدة الطريق.

وإيضاحه أن الطريق هي واحدة جامعة لكل ما يرضي الله, وما يرضيه متعدد متنوع, فجميع ما يرضيه طريق واحد, ومراضيه متعددة متنوعة بحسب الأزمان والأماكن والأشخاص والأحوال, وكلها طرق مرضاته, فهذه التي جعلها الله لرحمته وحكمته كثيرة متنوعة جدا, لاختلاف استعدادات العباد وقوابلهم, ولو جعلها نوعاً واحداً مع اختلاف الأذهان والعقول وقوة الاستعدادات وضعفها لم يسلكها إلا واحد بعد واحد, ولكن لما اختلفت الاستعدادات تنوعت الطرق ليسلك كل امرئ إلى ربه طريقا يقتضيها استعداده وقوته وقبوله, ومن هنا يعلم تنوع الشرائع واختلافها مع رجوعها كلها إلى دين واحد مع وحدة المعبود ودينه, ومنه الحديث

المشهور "الأنبياء أولاد علّات دينهم واحد" فأولاد العلات أن يكون الأب واحداً والأمهات متعددة, فشبّه دين الأنبياء بالأب الواحد وشرائعهم بالأمهات المتعددة فإنها وإن تعددت فمرجعها إلى أب واحد كلها.

وإذا عُلم هذا, فمن الناس من يكون سيد عمله وطريقه الذي يعد سلوكه إلى الله طريق العلم والتعليم, قد وفر عليه زمانه مبتغيا به وجه الله, فلا يزال كذلك عاكفا على طريق العلم والتعليم حتى يصل من تلك الطريق إلى الله, ويفتح له فيها الفتح الخاص, أو يموت في طريق طلبه, فيرجى له الوصول إلى مطلبه بعد مماته, قال تعالى: "ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله" وقد حُكي عن جماعة كثيرة ممن أدركه الأجل وهو حريص طالب للقرآن؛ أنه رُؤي بعد موته وأخبر انه في تكميل مطلوبه, وأنه يتعلم في البرزخ, فإن العبد يموت على ما عاش عليه.

ومن الناس من يكون سيد عمله الذكر, وقد جعله زاده لمعاده ورأس ماله لمآله, فمتى فتر عنه أو قصر؛ رأى أنه قد غبن وخسر.

ومن الناس من يكون سيد عمله وطريقه الصلاة, فمتى قصر في ورده منها أو مضى عليه وقت وهو غير مشغول بها أو مستعد لها؛ أظلم عليه وقته, وضاق صدره.

ومن الناس من يكون طريقه الإحسان والنفع المتعدي, كقضاء الحاجات وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات وأنواع الصدقات, قد فتح له في هذا, وسلك منه طريقا إلى ربه.

ومن الناس من يكون طريقه الصوم, فهو متى أفطر تغير قلبه وساءت حاله.

ومن الناس من يكون طريقه تلاوة القرآن, وهي الغالب على أوقاته, وهي أعظم أوراده.

ومنهم من يكون طريقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر, قد فتح الله له فيه, ونفذ منه إلى ربه. ومنهم من يكون طريقه الذي نفذ فيه الحج والاعتمار.

ومنهم من يكون طريقه قطع العلائق وتجريد الهمة ودوام المراقبة ومراعاة الخواطر وحفظ الأوقات أن تذهب ضائعة.

ومنهم الجامع الفذّ, السالك إلى الله في كل واد, الواصل إليه من كل طريق, فهو قد جعل وظائف عبوديته قِبلة قلبه ونصب عينه, يؤمّها أين كانت, ويسير معها حيث سارت, قد ضرب مع كل فريق بسهم, فأين

كانت العبودية وجدته هناك, إن كان علم وجدته مع أهله, أو جهاد وجدته في صف المجاهدين, أو صلاة وجدته في القانتين, أو ذكر وجدته في الذاكرين, أو إحسان ونفع وجدته في زمرة المحسنين, أو محبة ومراقبة وإنابة إلى الله وجدته في زمرة المحبين المنيبين, يدين بدين العبودية أنى استقلت ركائبها, ويتوجه إليها حيث استقرت مضاربها, لو قيل: ما تُريد من الأعمال؟ لقال: أريد أن أنفذ أوامر ربي حيث كانت وأين كانت, جالبة ما جلبت, مقتضية ما اقتضت, جمعتني أو فرّقتني, ليس لي مراد إلا تنفيذها والقيام بأدائها, مراقبا له فيها عاكفا عليه بالروح والقلب والبدن والسر, قد سلم إليه المبيع منتظرا منه تسليم الثمن, "إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة" فهذا هو العبد السالك إلى ربه النافذ إليه حقيقة, ومعنى النفوذ إليه: أن يتصل به قلبه, ويعلّق به تعلق المحب التام المحبة بمحبوبه, فيسلو به عن جميع المطالب سواه, فلا يبقى في قلبه إلا محبة الله وأمره وطلب التقريب إليه, فإذا سلك العبد على هذا الطريق؛ عطف عليه ربُّهُ فقربه واصطفاه, وأخذ بقلبه إليه وتولاه في جميع أموره في معاشه ودينه, وتولى تربيته أحسن وأبلغ مما يربي الوالد الشفيق ولده, فإنه سبحانه القيوم المقيم لكل شيء من المخلوقات طائعها وعاصيها, فكيف تكون قيوميته بمن أحبه

وتولاه وآثره على ما سواه ورضي به من دون الناس حبيبا وربا ووكيلا وناصرا ومعينا وهاديا؟! فلو كشف الغطاء عن أَلْطافه وبره وصنعه له من حيث يعلم ومن حيث لا يعلم؛ لذاب قلبه محبة له وشوقا إليه, ويقع شكرا له, ولكن حَجَبَ القلوبَ عن مشاهدة ذلك إخلادها إلى عالم الشهوات والتعلق بالأسباب, فصُدَّت عن كمال نعيمها, وذلك تقدير العزيز العليم. وإلا فأيّ قلب يذوق حلاوة معرفة الله ومحبته ثم يركن إلى غيره ويسكن إلى ما سواه؟! هذا ما لا يكون أبداً.

ومن ذاق شيئا من ذلك وعرف طريقا موصلة إلى الله ثم تركها وأقبل على إرادته وراحاته وشهواته ولذاته؛ وقع في آثار المعاطب, وأودع قلبه سجون المضايق, وعُذّب في حياته عذابا لم يُعَذَّبْ به أحدٌ من العالمين, فحياته عجز وغمٌّ وحزن, وموته كدر وحسرة, ومعاده أسف وندامة. قد فرط عليه أمره, وشتت عليه شمله, وأحضر نفسه الغموم والأحزان, فلا لذه الجاهلين, ولا راحة العارفين! يستغيث فلا يُغاث, ويشتكي فلا يُشكى, فقد ترحّلت أفراحه وسروره مُدبرة, وأقبلت الآمه وأحزانه وحسراته, فقد أبدل بأُنسه وحشة, وبعزه ذُلّاً, وبغناه فقرا, وبجمعيته تشتيتا, وأُبعد فلم يظفر بقرب وأبدل مكان الأنس إيحاشاً!

ذلك بأنه عرف طريقه إلى الله ثم تركها ناكباً عنها, مكبّاً على وجهه. فأبصر ثم عمي, وعرف ثم أنكر, وأقبل ثم أدبر, ودُعي فما أجاب, وفُتح له فولّى ظهره الباب, قد ترك طريق مولاه, وأقبل بكليته على هواه, فلو نال بعض حظوظه وتلذذ براحاته وشؤونه فهو مقيّد القلب عن انطلاقه في فسيح التوحيد وميادين الأنس ورياض المحبة وموائد القرب. قد انحطّ بسبب إعراضه عن إلهه الحق إلى أسفل سافلين, وحُصِّل في عداد الهالكين!

فنار الحجاب تطلع كل وقت على فؤاده, وإعراض الكون عنه إذ أعرض عن ربه حائل بينه وبين مراده, فهو قبر يمشي على وجه الأرض, وروحه في وحشة من جسمه, وقلبه في ملال من حياته, يتمنّى الموت ويشتهيه ولو كان فيه ما فيه!

حتى إذا جاءه الموت على تلك الحال ـوالعياذ باللهـ فلا تسأل عما يحل به من العذاب الأليم بسبب وقوع الحجاب بينه وبين مولاه الحق, وإحراقه بنار البعد عن قربه, والإعراض عنه, وقد حيل بينه وبين سعادته وأمنيته, فلو توهّم العبد المسكين هذه الحال, وصوّرتها له نفسه, وأرته إياها على حقيقتها؛ لتقطّع والله قلبه, ولم يلتذ بطعام ولا شراب, ولخرج إلى الصّعدات يجأر إلى الله ويستغيث به يستعتبه في زمن الاستعتاب!

هذا, مع أنه إذا آثر شهواته ولذاته الفانية التي هي كخيال طيف أو مزنة صيف؛ نغصّت عليه لذاتها أحوج ما كان إليها, وحيل بينه وبينها أقدر ما كان عليها, وتلك سنّة الله في خلقه, كما قال تعالى: "حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون" وهذا هو غِبُّ إعراضه, وإيثار شهوته على مرضاة ربه, يعوّق القدر عليه أسباب مراده؛ فيخسر الأمرين جميعاً, فيكون معذبا في الدنيا بتنغيص شهواته, وشدة اهتمامه بطلب ما لم يُقسم له, وإن قسم له منه شيء فحشوه الخوف والحزن والنكد والألم, فهمٌّ لا ينقطع, وحسرة لا تنقضي, وحرص لا ينفذ, وذل لا ينتهي, وطمع لا يقلع.

هذا في هذه الدار, وأما في البرزخ فأضعاف أضعاف ذلك؛ قد حيل بينه وبين ما يشتهي, وفاته ما كان يتمناه من قرب ربه وكرامته ونيل ثوابه, وأحضر جميع غمومه وأحزانه. وأما في دار الجزاء فسجن أمثاله من المبعدين المطرودين.

فواغوثاه ثم واغوثاه بغياث المستغيثين وأرحم الراحمين, فمن أعرض عن الله بالكلية؛ أعرض الله عنه بالكلية, ومن أعرض الله عنه؛ لزمه

الشقاء والبؤس والبخس في أعماله وأحواله, وقارَنَهُ سوءُ الحال وفساده في دينه ومآله, فإن الرب إذا أعرض عن جهة دارت بها النحوس, وأظلمت أرجاؤها, وانكسفت أنوارها, وظهرت عليها وحشة الإعراض, وصارت مأوى للشياطين, وهدفا للشرور, ومصبّاً للبلاء.

فالمحروم كل المحروم من عرف طريقا إليه ثم أعرض عنها, أو وجد بارقة من حبه ثم سُلبها, لم ينفذ إلى ربه منها, خصوصاً اذا مال بتلك الإرادة إلى شيء من اللذات, وانصرف بجملته إلى تحصيل الأغراض والشهوات, عاكفاً على ذلك في ليله ونهاره وغدوه ورواحه, هابطا من الأوج الأعلى إلى الحضيض الأدنى.

قد مضت عليه برهة من أوقاته وكان همّه الله, وبغيته قربه ورضاه وإيثاره على كل ما سواه, على ذلك يصبح ويمسي ويظل ويضحي, وكان الله في تلك الحال وليه لأنه ولي من تولاه وحبيب من أحبه ووالاه, فأصبح في سجن الهوى ثاوياً, وفي أسر العدو مقيماً, وفي بئر المعصية ساقطاً, وفي أودية الحيرة والتفرقة هائماً, معرضا عن المطالب العالية إلى الأغراض الخسيسة الفانية, كان قلبه يحوم حول العرش فأصبح محبوسا في أسفل الحش!

فأصبح كالبازي المنتف ريشه   يرى حسرات كلما طار طائرُ

وقد كان دهرًا في الرياض منعما   على كل ما يهوى من الصيد قادرُ

إلى أن أصابته من الدهر نكبة   إذا هو مقصوص الجناحين حاسرُ

فيا من ذاق شيئا من معرفة ربه ومحبته ثم أعرض عنها واستبدل بغيرها منها! يا عجبا له بأي شيء تعوّض؟! وكيف قرَّ قراره فما طلب الرجوع وما تعرّض؟! وكيف جعل قلبه لمن عاداه مولاه من أجله وطنا؟! أم كيف طاوعه قلبه على الاصطبار ووافقه على مساكنة الأغيار؟!

فيا معرضاً عن حياته الدائمة ونعيمه المقيم, ويا بائعاً سعادته العظمى بالعذاب الأليم, ويا مسخطاً من حياته وراحته وفوزه في رضاه, وطالباً رضى من سعادته في إرضاء سواه: إنما هي لذة فانية, وشهوة منقضية, تذهب لذاتها وتبقى تبعاتها, فرح ساعة لا شهر, وغم سنة بل دهر, طعام لذيذ مسموم, أوّله لذة وآخره هلاك, فالعامل عليها والساعي في تحصيلها كدودة القزّ, يسد على نفسه المذاهب بما نسج عليها من المعاطب, فيندم حين لا تنفع الندامة, ويستقيل حين لا تُقبل الاستقالة, فطوبى لمن أقبل على الله

بكليته, وعكف عليه بإرادته ومحبته, فإن الله يُقبل عليه بتوليه ومحبته وعطفه ورحمته.

وإن الله سبحانه إذا أقبل على عبد؛ استنارت جهاته وأشرقت ساحاته, وتنورت ظلماته, وظهرت عليه آثار إقباله من بهجة الجلال وآثار الجمال, وتوجه إليه أهل الملأ الأعلى بالمحبة والموالاة لأنهم تبع لمولاهم, فإذا أحب عبدا أحبوه, وإذا والى واليا والوه, إذا أحب الله العبد نادى: "يا جبرائيل إني أحب فلانا فأَحِبَّه" فينادي جبرائيل في السماء: إن الله يحب فلانا فأحبوه. فيحبه أهل السماء, ثم يحبه أهل الأرض فيوضع له القبول بينهم. ويجعل الله قلوب أوليائه تفد إليه بالود والمحبة والرحمة.

وناهيك بمن يتوجه إليه مالك الملك ذو الجلال والإكرام بمحبته, ويقبل عليه بأنواع كرامته, ويلحظه الملأ الأعلى وأهل الأرض بالتبجيل والتكريم, وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك. ويا مصرّف القلوب والأبصار صرّف قلوبنا على طاعتك. ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا, وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهّاب, يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام,

يا رب العالمين. وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على عبده ورسوله محمد, وعلى آله وصحبه أجمعين.

٤/ ٤/ ١٤٣٤

ذات مساء!

فعلها بستر ونسيها..

كررها ولم يره بشر،

عمل غيرها دون أن يدري مخلوق،

انتقل من خطيئة لأخرى ولم يتغير من دنياه وستره وعلاقته بالناس شيء ذو بال، ولم يعلم به ذو كبد رطبة!

أذنب وعصى، ذهب وأتى، ولم يشهده مخلوق صالح خلا الأرض التي عصى عليها، والكرام الكاتبين!

مضى قطار عمره مترددًا بينها وبين أشباهها..

اقترب طي صحيفته، وهو في ستر وكَنَف..

فعلها وفعلها وفعلها ولم يره مخلوق، ولم يسمع بخطيئته بشر..

يعصي ويُستر،

يعود فيُمهل،

بغته الأجل دون أن يدري بشر،

طُوي الكتّاب، وأُغلق الباب، ونسيه الأهل والأصحاب..

تذكّر حينها كثيرًا من هفواته وسقطاته التي رحل عنها ولم ترحل عنه!

هل تعلم من كان يراك، حين غاب هذا وذاك؟!

"ألم يعلم بأن الله يرى"؟!

وبعدُ:

اللهم اغفر الزلة واغسل الحوبة وأسدل سترك على العيب، واغفر لي ولوالدي وأهلي وأحبابي والقارئ والمسلمين، آمين إله الحق، وبالله التوفيق والله أعلم وصلى الله وسلم وبارك على محمد وآله.